LUCETTE LAGNADO

لوسيت لنيادو

الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين

وقائع خروج أسرة يهودية من مصر

THE MAN IN THE WHITE SHARKSKIN SUIT

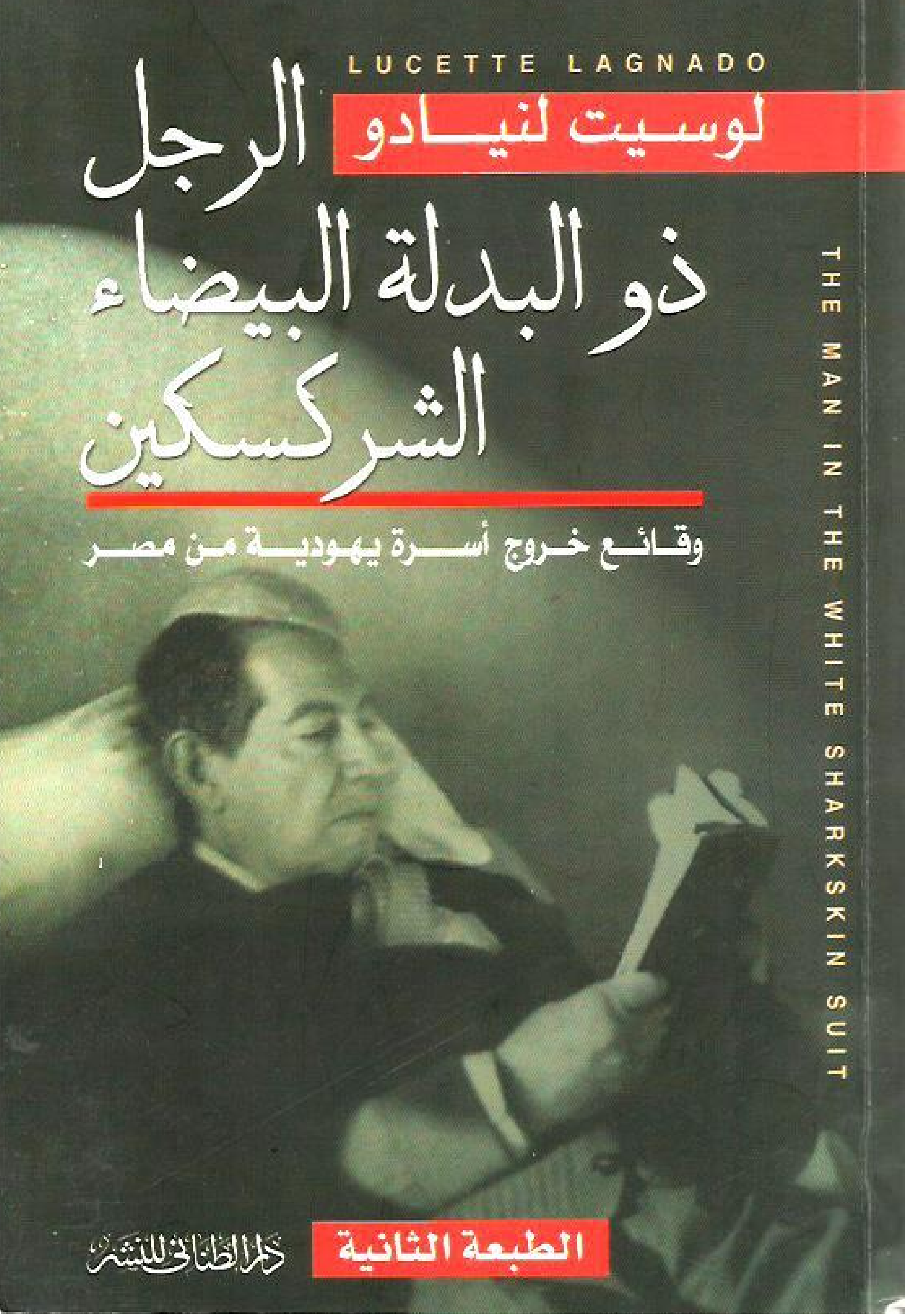

الطبعة الثانية

دار الطناني للنشر

وقائع خروج أسرة يهودية من مصر

الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين

إيديث وليون القاهرة ١٩٤٣

وقائع خروج أسرة يهودية من مصر

الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين

لوسيت لنيادو

دار الطناني للنشر والتوزيع

The Man In The White Sharkskin Suit
By Lucette Lagnado
Copyright © 2007 By Lucette Lagnado
First Harper Perennial Edition Published 2008
ArabicText © 2009, Tanany Book Services

وقائع خروج أسرة يهودية من مصر
الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين
تأليف: لوسيت لنيادو

وحدة الترجمة:

- مصطفى الطنانى
- مدحت مقلد
- عفت عبد الفتاح

صياغة وتدقيق لغوى :

- أشرف العبد

المراجعة :

- د. حسين عبدالقادر

تصميم الغلاف :

- كامل جرافيك

الصور صفحات ٢٧، ٤٤، ٥٢، ٣٧٤ إهداء من المرحوم محمد
وولده مدحت الشيمى أصحاب الشيمى فوتو ستورز فى القاهرة

[illegible]:

- فتوح فتحي فودة

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢١٣٦٥
ISBN:977-6217-29-X

الطبعة الأولى : مارس ٢٠١٠
الطبعة الثانية : سبتمبر ٢٠١٠
حقوق الطبعة العربية محفوظة بالاتفاق مع المؤلف

© دار الطناني للنشر والتوزيع

٢شارع شريف باشا -عمارة اللواء - عابدين - القاهرة
رمز بريدى ١١١٢١
تليفون: ٢٣٩١٣٦٢٢- فاكس :٢٣٩٢١٥٩٠
www.tanany.com
processing@.tanany.com

المحتويات

كلمة الناشر ٧

مقدمة المؤلفة إلى قراء الطبعة العربية ٩

تمهيد: غزل فى القاهرة – ربيع ١٩٤٣ ١٥

الكتاب الأول : الكابتن - القاهرة ١٩٤٢-١٩٦٣

الفصل الأول: الكابتن: أيامه ولياليه ٢٩

الفصل الثانى: موسم المشمش ٥١

الفصل الثالث: الخال المفقود ٦٩

الفصل الرابع: نهاية عصر الطرابيش ٨٥

الفصل الخامس: سجينة شارع الملكة نازلى ١ ١

الفصل السادس روح الأسماء ١١١

الفصل السابع: ألكسندرا فى أرض الميعاد ١٢٣

الفصل الثامن : درس فى اللغة العربية ١٣١

الفصل التاسع : النداء الحزين لبائع الورد ١٤٩

الفصل العاشر: الشفاء من حمى خدش القطة ١٥٥

الفصل الحادى عشر: الابنة الجامحة ١٧١

الفصل الثانى عشر: الزيارة الأخيرة للبار خافت الضوء ١٨١

الكتاب الثانى: المنفى (باريس وما بعدها ١٩٦٣-١٩٨٢)

الفصل الثالث عشر: الجوهرة بالداخل	١٩٧
الفصل الرابع عشر: عيد الميلاد المنسى	٢١٥
الفصل الخامس عشر درس اللغة الإنجليزيـة	٢٢٣
الفصل السادس عشر: غضب سيلفيا كرشنر	٢٣٧
الفصل السابع عشر: درس اللغة العبرية	٢٥٥
الفصل الثامن عشر: موال لبائع رابطات العنق المتجول	٢٧٣
الفصل التاسع عشر: فى انتظار إيليا	٢٨٥
الفصل العشرون: الكابتن فى حرب	٣٠١
الفصل الحادى والعشرون: منزل التضرعات	٣١٣
الفصل الثانى والعشرون: الزيتون	٣٢٩
الفصل الثالث والعشرون: راعى أيتام القدس	٣٤١
الفصل الرابع والعشرون: مزمور لأبى	٣٤٩
الخاتمة: أخيرًا القاهرة مرة أخرى	٣٥٧
المصادر	٣٧٣

كلمة الناشر

يروى كتاب «الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين» قصة خروج أسرة يهودية من مصر فى أوائل ستينيات القرن الماضى.

هو ليس كتابًا عن الطائفة اليهودية المصرية رغم ما به من تفاصيل تخصها كما أنه ليس كتابا فى السياسة رغم بعض لمحاتها.

إنه كتاب فى الحب وكتاب عن المصير، أما ما يتعلق بالطائفة اليهودية المصرية والأحداث السياسة فقد مثلا فقط خلفية أسهمت فى تشكيل الأجواء التى تدور الأحداث فيها دون أن يكونا الهم الذى شغل اهتمام الكاتبة أو الرسالة التى أرادت إيصالها.

وللحب فى هذا النص تجليات عدة، أهمها وأعذبها هو قصة الحب البريئة بين الطفلة التى كانتها الكاتبة وأبيها «ليون» الذى هو نفسه «الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين»، والذى كان بطلا دراميا بامتياز شهدت حياته سنوات من المتعة الصافية قبل أن تفاجئه تقلبات الزمن وأنواء التمزق وسطوة العجز ومأساة الرحيل عن الوطن فى أخريات العمر.

أما التجلى الآخر للحب فهو حب بطلنا لمدينته «القاهرة»..

ولكن أى قاهرة؟

إنها قاهرة ما قبل ١٩٥٢ التى كانوا يطلقون عليها «عاصمة العالم» حيث كان العالم حاضرا بقوة بكل أجناسه وثقافاته، وأساليب الحياة فيه فى خلطة سحرية

متجانسة ومتوافقة، وفى أجواء من التسامح والسلام الاجتماعى وقبول الاختلاف والتعددية الدينية والسياسية رغم الاحتلال الإنجليزى الذى تبلورت فى مواجهته حركة وطنية مصرية نجحت إحدى تنظيماتها فى إزاحته. لكن السياسة والحرب وأهداف الاستعمار البغيضة، والكيان الصهيونى العنصرى وطأت بأقدامها الغليظة هذه التربة الكوزموبوليتانية الغنية فأحالت الصورة الجميلة إلى مشهد من الصراع والتشتت أصابت شظاياه حياة الدعة التى عاشتها أسرة «ليون» وغيرها من أسر اليهود المصريين.

وهنا يأتى دور المصير..

إنه المصير الذى جعل السياسة والصراع العالميين جزءا من التفاصيل المطروحة -دون رغبة - فى حياة الإنسان الصغير أو ملح الأرض من أسر كان كل ما يشغلها هو تربية الأطفال. «الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين» كتاب لا يورط نفسه فى السياسة ولا يتبنى وجهة نظر ضيقة لطائفة دينية، ولكنه كتاب عن الحب والتسامح والحنين وغلبة المصير.

إنه كتاب فضلا عما يقدمه من متعة الدراما فإنه يلقى بكثير من الضوء فى أركان ظلت معتمة قصدا أو دون قصد ويلقى بحجر صغير فى بركة ظلت زمنا آسنة ويفتح طاقة للتأمل ويتبنى وجهات نظر، لنا أن نتفق معها أو نختلف حولها.

لا يبقى سوى أن نؤكد أن الأمانة المهنية اقتضت أن نقدم ترجمة الكتاب دونما تعديل اللهم بعض الهوامش للإيضاح عند الضرورة وإن كنا حرَصنا - فى الآن نفسه- على مراجعة الكاتبة فى بعض الأحداث والوقائع التاريخية والتفاصيل الشهيرة مما فات على ذاكرتها بفعل الزمن - أو علّها تهويمات الطفولة - التى وافقت الكاتبة على تصحيحها ومن ثم اعتمادها لنص هذه الترجمة لتصبح أساسًا للطبعات الإنجليزية التالية.

الناشر

مقدمة المؤلفة للطبعة العربية

عندما غادر أبى مصر فى ستينيات القرن الماضى، فإننى مازلت أتذكر رغم مرور كل هذه السنوات، كيف كان يصرخ على ظهر المركب التى أقلعت من الإسكندرية مرددًا بالعامية المصرية مرة بعد أخرى.. "رجعونا مصر" "رجعونا مصر"

أعتقد أنه أدرك حينئذ أن حياته قد وصلت لنهايتها. لابد أنه كان يعرف فى دخيلة نفسه أنه لن يكون قادرًا على أن يتواءم مع العالم فيما بعد القاهرة، كان قد شارف على الثالثة والستين عندما غادر مصر، وإن بدا أكبر سنًا من ذلك.

كم طاردتنى تلك الصرخة لسنوات عديدة، لاحقتنى إلى فرنسا، وبعدها إلى أمريكا حيث استقر المقام بأسرتى. ولاشك أن صدى هذه الصرخة دفعنى بصورة أو بأخرى لكتابة هذه السيرة الذاتية.

إن القاهرة التى غادرتها طفلة فى ربيع عام ١٩٦٣ كانت جد مختلفة عن هذه التى شاهدتها عندما عدت إليها مؤخرًا، فقد كانت فيما مضى أصغر مما هى عليه الآن وأقل اكتظاظًا بالسكان، وأكثر هدوءًا وتنظيمًا وإن كانت فى الآن نفسه مجتمعًا كوزموبوليتانيا بصورة مدهشة، حيث تتعايش بين جنباتها قوميات وأديان شتى عاشت متناغمة جنبًا إلى جنب. لقد كان ذلك كله أكثر حضورًا فى قاهرة أبى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضى وحتى مطلع الخمسينيات.

إن التسامح الفريد لتلك المدينة العالمية هو ما أسر لبى وجعلنى أعقد العزم على استحضار صورة لها على صفحات هذا الكتاب.

لقد عاش بمصر – فى هذه الحقبة – أكثر من ٨٠ ألف يهودى كما عاش بها مليون أوروبى من الفرنسيين والإيطاليين والسويسريين والبلجيك والأمريكيين وبالطبع الإنجليز، كان يهود مصر ينتمون لمختلف الطبقات الاجتماعية، كان من بينهم الباشوات الذين عاشوا فى فيلات فاخرة بجاردن سيتى والزمالك، كما كان هناك فقراء اليهود الذين استقر بهم المقام بحارة اليهود، وبين هاتين الطبقتين من اليهود كان هناك بالطبع يهود الطبقة الوسطى من قبيل عائلتى ممن تجدهم فيما بين غمرة والسكاكينى.

ما كان مشتركًا بين هؤلاء جميعًا هو علاقاتهم المتناغمة بالمسلمين والمسيحيين من جيرانهم، الأمر الذى جعل للقاهرة خصوصيتها. لقد كانت مدينة حاضنة لثقافات متعددة بالمعنى الحقيقى للكلمة، ترحب بالغرباء وتتقبل الجميع بين جنابتها. تلك كانت القاهرة معشوقة أبى، وقد خالط بسهولة العديد من الجماعات المتباينة، ولقد كان يتعامل مع الفلاحين بنفس سلاسة تعامله مع الباشوات، لقد كان باستطاعته أن يتحاور مع الأثرياء الأوروبيين بنفس الوتيرة التى يتكلم بها مع المصريين العاديين.

باختصار يمكن القول إنه كان مستريحًا فى هذه العوالم المختلفة التى تكونت منها مصر، متنقلًا ما بين الدوائر الاجتماعية المتباينة ببدلته الشركسكين البيضاء التى ميزته دائما كأنها ماركته المسجلة.

لقد صيغ هذا الكتاب على شكل رحلة، رحلة حياة حقيقية أخذتنى أنا وعائلتى من القاهرة إلى باريس وأخيرًا لنيويورك وهو القسم الأول من الكتاب، أما قسمه الثانى فستكون وقائعه بعيدًا عن القاهرة فى أمريكا تلك التى استقرت بها أسرتى وقد انتهى بنا المقام فى بروكلين بمدينة نيويورك فى جوار ملىء بيهود آخرين مطرودين من مختلف دول الشرق الأوسط.

الغريب فى الأمر، أن جميع من عرفناهم هناك (من جيراننا ببروكلين) كانوا يحاولون إعادة بناء عالمهم المفقود. فنحن نتكلم بالعربية فى المنزل ونقرأ الصحف العربية كما أن أمى كانت تقوم بطهى الأطعمة المصرية فى مطبخها الأمريكى. حدث بعد فترة قصيرة من وصولنا أن خصصت لنا أخصائية اجتماعية كان مفترضًا أن تساعدنا أن نكون أمريكيين وكان مفهومها عن ذلك أن نتخلص من عاداتنا المصرية القديمة، لكن أبى كان يحب قيم القاهرة القديمة، و لم يكن على استعداد البتة أن يتخلى عنها ليكتسب قيم الثقافة الأمريكية الجديدة.

ففى أحد نقاشاته مع الأخصائية الاجتماعية قال لها "لكننا عرب يا سيدتى" وهى الإجابة التى باغتتها. وهو ما جعلها تصل لنتيجة مفادها أن الهجرة بالنسبة لأبى كانت كارثة بدلًا من أن تكون فرصة. والحقيقة الحزينة أنها كانت كذلك بالنسبة لأبى.

انسحب أبى فى أمريكا داخل محارة، فلم يعد يمشى كثيرًا كما كان، كما أنه لم يلبس ثانية ملابس بيضاء، وكان يحتفظ بحقيبة سفر فى غرفة المعيشة على أمل ذلك اليوم الذى يعود فيه ثانية إلى شارع الملكة نازلى.

لقد كان يحن لكثير من الأشياء فى مصر لأناسها وللحياة التى يغص بها الشارع والملاهى والأزهار، لقد شعر بأنه حتى الورود فى نيويورك لا ترقى لورود القاهرة، لقد كان دائم الشكوى من هذه الورود فقد كان يقول لى إنها لا رائحة لها، فمن وجهة نظره أن الورود التى لا رائحة لها هى أبلغ تعبير عما نفتقده فى حياتنا الجديدة فى أمريكا.. لا روح ولا حياة.

مات أبى فى أحد مستشفيات نيويورك فى يناير ١٩٩٣ مريضًا ومنكسرًا فلم ير القاهرة ثانية و لم يعد أبدًا لشارع الملكة نازلى، تاركًا على عاتقى تحقيق رغبته الأكثر عمقًا.

ففى رحلتىّ الاثنتين للقاهرة من أجل جمع مادة هذا الكتاب وما قد يتبعه من كتب أخرى، أخذت أنظر للماضى وعندما عدت لعمارتنا بشارع الملكة نازلى وجدت جيرانًا ودودين بشكل رائع لا يزالون يذكرون أبى وعائلتى وكم رحبوا بعودتى بأذرع مفتوحة.

لقد ذهبت أيضًا لفندق النيل هيلتون لأرى البار الذى أحبه أبى عندما كان يعقد لقاءات عمل هناك، كما استطعت زيارة المعابد اليهودية التى كان يقصدها للصلاة وإنه لأمر محزن إذ هى الآن خاوية لكنها على الأقل لم تزل قائمة بكل احترام فقد صانتها الحكومة المصرية.

لقد توجهت للبورصة المصرية بورصة القاهرة الشهيرة التى كانت منزله الثانى عندما يغادر بيته.

أبدًا لم أشعر بهذه الحميمية تجاه أبى كما أحسستها فى هاتين الزيارتين إلى مصر، لقد كنت أشعر به حولى فى كل مكان أسير فيه فى شوارع القاهرة.

وأحس كم أستعيد جزءًا من هوية أبى، بل أستعيد هويتى المفقودة فأنا أمريكية ولكننى أيضًا قاهرية مصرية.

وبقى أن أقول إننى أشعر من خلال الطبعة العربية (الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين) كما لو أن صرخة أبى "رجعونا مصر" قد تحققت.

إنه ما من شيء يحقق لى سعادة أكثر من أن أعرف أن هذا الكتاب سيحظى بالقراءة فى مدينة أبى، وبمذاق اللغة العربية التى أحبها دون كل اللغات على وجه الأرض.

لوسيت لنيادو نيويورك – نوفمبر ٢٠٠٩

اهداء

إلى زوجى دوجلاس فيدن

وإلى ذكرى ليون وإيديث

اللفيف الذى فى وسطهم اشتهى شهوة فعاد بنو إسرائيل أيضا وبكوا وقالوا من يطعمنا لحما، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم، والآن قد يبست أنفسنا ليس شىء غير أن أعيننا إلى هذا المن.

سفر العدد ١١:٤–٦

تمهيد

غزل فى القاهرة

ربيع ١٩٤٣

فى الفناء الخارجى بالباريزيانا، أحد أشهر مقاهى القاهرة، كانت إيديث تجلس مع والدتها ألكسندرا تستمتع بارتشاف فنجان من القهوة التركى حين لمحت ذلك الرجل ذا البدلة البيضاء الذى كان ينظر إليها مبتسمًا، وعلى الرغم من أنه كان جالسًا فإنه كان بمقدورها أن تدرك أنه طويل القامة، وحين رفع كأسه باتجاهها أدارت رأسها بسرعة لشدة خجلها إذ لم تكن تملك من الجرأة ما يكفى لكى تبادله النظرات.

لم تكن هناك أدنى فرصة فى حياة إيديث لأى نوع من أنواع المداعبات، فأمها ألكسندرا دائمًا معها ترصد كل حركة تقوم بها وكانت من الشدة بحيث لم تكن تسمح لابنتها بأى علاقة تنبئ ولو من طرف خفى عن وجود قصة حب، وعلى الرغم من أن إيديث كانت قد بلغت العشرين من عمرها فإن أحدًا لم يعرب عن رغبته فى الاقتران بها، فقد كان من غير المسموح لها الاشتراك فى أى من أنواع المزاح البرىء الذى شاع كثيرًا بين الشباب من الجنسين فى قاهرة أول الأربعينيات، وهو أفضل ما يدلل على ثقافة زمن الحرب التى تجمع بين التقاليد المحافظة والخلاعة والفجور فى آن واحد.

منذ البداية أرست أمها القواعد التى يجب عليها اتباعها، كان على إيديث أن تعود مباشرة إلى المنزل بعد انتهاء ساعات العمل، فلم يكن مسموحًا لها بمخالطة الزملاء

والزميلات، وخاصة الزملاء وأن تنأى بنفسها عن أى زميل أعزب من المدرسين العاملين معها.بمدرسة قطاوىecole cattaoui ورغم أنها كانت مدرسة للأطفال، فإنها كانت تعامل معاملة الطفلة فى بيتها.

اتسمت شخصية إيديث بالاستكانة فلم تتمرد على تلك القيود المفروضة عليها، كانت ببساطة شاكرة لمدرسة قطاوى تلك المدرسة الخاصة المتميزة التى منحتها فرصة العمل حين كانت بالكاد ابنة الخامسة عشرة، والتى كان المتبرع الرئيسى فيها هو موسى قطاوى، الباشا اليهودى الذى يعد من أغنى أغنياء مصر مع زوجته سيدة المجتمع مدام قطاوى باشا التى كانت وصيفة ملكية.

لم يكن فى حسبان ألكسندرا ظهور هذا النوع من الرجال فى حياتها أو حياة ابنتها شديدة السذاجة، كان ليون فى الثانية والأربعين من عمره، ويعرف طريقه جيدًا خاصة إذا تعلق الأمر بالنساء، ومثله مثل إيديث كان يعيش مع أمه و لم يسبق له الزواج، إلى هنا تنتهى أوجه التشابه بينهما، فلم يكن مثلها يعانى من أى قيود مهما كان نوعها.

فى تلك الفترة كانت القاهرة تحفل بكل أسباب المتع وقد نهل ليون من كل سبب، كان يستطيب عزوبيته فيخرج مغامرًا كل ليلة ولا يعود حتى الفجر، يجوب أرجاء المدينة فى خفة وتمهل باحثًا عن المتعة، مولعًا بالرقص والقمار والطعام، يتنقل بين المطاعم والمقاهى وبين صالات الرقص وقاعات القمار.

إنه عام ١٩٤٣، ذروة الحرب العالمية الثانية وقتها كانت الشوارع ودور السينما والملاهى الليلية تعج بالجنود الإنجليز فى زيهم الكاكىوقبعاتهم الأنيقة،كان ذلك كله يناسب ليون تمامًا، فلم يكن هناك شىء أحب إليه أكثر من الإنجليز les anglais*

أينما ذهب ليون كان من الممكن تمييزه بقامته المديدة، إذ يقف منتصبًا كعملاق يرتدى بدلة بيضاء باهظة الثمن محاكة يدويًا من قماش الشركسكين، كان هذا القماش الناعم اللامع آخر صيحات الموضة بين أبناء الطبقة الراقية فى مصر آنذاك.

فى ليلة الجمعة فقط (بداية اليوم اليهودى المقدس «سبته») كان ليون يتوقف لالتقاط أنفاسه، فقد كان يفى كل شىء حقه على الوجه الأكمل ويتعامل مع كل الأمور بجدية، سيان عنده الدين أو لعب القمار أو تمضية وقت الفراغ، فمنذ سن مبكرة استطاع ليون أن يجد الوسيلة لجعل التعايش ممكنا بين ما قد يبدو جوانب متناقضة فى شخصيته، حبه للرب وولعه بالمتعة، فكان مواظبًا على ذهابه إلى المعبد مساء كل جمعة

---

* تشير الكاتبة إلى اللغة الفرنسية وهى لغة الحياة اليومية لكثير من اليهود والأرستقراطية المصرية عموما فى ذلك العهد.

وصباح كل سبت، وما أن يأتى ليل السبت حتى يستأنف ليون حياة العبث التى تستمر طوال أيام الأسبوع دون السماح بأن يعكر صفوها شىء أو أحد مهما كان.

أما إيديث فكانت على العكس منه، تمضى معظم أمسياتها فى هدوء داخل بيتها بحى السكاكينى، تقضيها مع والدتها ألكسندرا وأخيها الأصغر فيلكس اللذين كانا كل صحبتها، فإذا أرادت يوما أن تشاهد فيلمًا أو تذهب لمقهى يكون ذلك برفقة ألكسندرا، كانت صالات الرقص والكباريهات والنوادى الليلية وما إلى ذلك من الممنوعات و لم يكن هناك مهرب لها سوى قراءة الكتب التى كانت تلتهمها التهامًا.

كانت إيديث تعمل بجد واجتهاد فى مدرسة قطاوى الفرنسية، مما استرعى انتباه زوجة الباشا راعية المدرسة التى عرضت على موظفتها المجتهدة الأثيرة لديها العمل كأمينة للمكتبة المزمع إنشاؤها بالمدرسة، كان ذلك بمثابة فرصة ذهبية لإيديث من الممكن ألا تتكرر، فقد كان لدى مدام قطاوى باشا حلم أمُلت أن تقوم مدموازيل إيديث بتحقيقه وهو إنشاء مكتبة مدرسية فريدة من نوعها تتسع لتضم كل الأعمال الكلاسيكية الفرنسية العظيمة.

ونظرًا لصغر سنها وعدم تلقيها تدريبًا نظاميًا للعمل أمينة مكتبة فقد اعتمدت إيديث كليا على غريزتها التى لم تخنها، فدخلت فى نوبة شراء محموم لمئات الكتب وبعد أشهر من حملات الشراء التى قامت بها كانت المكتبة قد احتوت على مؤلفات فلوبير وبروست وبلزاك وزولا، وعندها فقط كان بإمكانها أن تبلغ الإدارة أن المجموعة الكلاسيكية قاربت على الاكتمال.

سرت مدام قطاوى باشا لذلك الخبر أيما سرور حتى أنها عبرت عن امتنانها بأن أهدت الشابة الصغيرة هدية كانت عبارة عن مفتاح للمكتبة، وكان مفتاحًا نحاسيًا لامعًا ضخمًا مزخرفًا، ارتعشت يدا إيديث عند تسلمه، فقد كان هذا المفتاح أكبر وأصدق تكريم تلقته فى حياتها، شعرت إيديث وهى تتسلمه أنها تتسلم مفتاح مملكة.

على النقيض كان ليون، لا يصبر على حياة التأمل والهدوء فالكتب الوحيدة التى كان يطالعها هى كتب صلواته وتوراته علاوة على مادته المفضلة للقراءة التى كانت على الأرجح جريدة "البورصة المصرية" la bourse egyptienne وهى الجريدة المتخصصة فى نشر أخبار البورصة المصرية والمال وكانت واسعة الانتشار فى ذلك الوقت.

كان ليون يبدأ يومه بالصلاة مع بنى دينه من اليهود، ثم يدير معاملاته التجارية مع تجار من الرعايا الفرنسيين والسماسرة اليونانيين، ويقامر مع العديد من أغنياء مصر (وأحيانا مع الملك فاروق نفسه) وربطته علاقات واسعة مع الضباط الإنجليز المنتشرين فى المعسكرات الإنجليزية فى شتى أنحاء القاهرة.

فبمظهره المتأنق وملبسه رفيع الذوق ولطف معشره وطلاقته فى الإنجليزية أصبح ليون واحدًا من القلائل الذين يحظون بالترحيب بهم فى مجتمع الضباط الإنجليز المغلق على نفسه على الرغم من عدم انتمائه إليه، لدرجة أنهم أطلقوا عليه لقبًا يعبر عن علاقتهم الحميمة به هو «الكابتن فيليبس» ورغم أن أحدًا لم يعرف سر تلك التسمية فإنه بلا شك كان اسمًا إنجليزيًا صميمًا التصق به دومًا نظرًا لأن ليون تلبسته شخصية الضابط الإنجليزى تمامًا حتى غدا معروفًا به فى جميع أنحاء القاهرة لدرجة أن معارفه من الفرنسيين كانوا يطلقون عليه le capitaine.

كانت القاهرة تعود للحياة ليلًا بعد أن يكون يوم العمل قد انتهى مبكرًا بسبب الحرارة المرتفعة فى فترة الظهيرة، وبعد أن ينال الناس قسطًا من النوم فى فترة القيلولة يستيقظون وقد دب فيهم النشاط واستعادوا طاقتهم فينطلقون خارج بيوتهم عند حلول المساء، لم تكن عروض الأفلام فى عشرات السينمات الصيفية تبدأ قبل التاسعة مساء وكان من المألوف تناول العشاء فى الحادية عشرة و لم تكن لتبدأ أى من الراقصات الشهيرات عروضهن قبل منتصف الليل.

اعتادت المطاعم الشهيرة وصالات الرقص أن تحجز بشكل غير معلن مائدة للملك فاروق فى حال إذا ما طرأ على ذهن الملك الشاب البدين المرور عليهم، كانت المائدة توضع جانبًا حيث يمنع رواد المكان من مجرد الاقتراب منها، أحب فاروق حياة الليل وما يصاحبها من نساء، وكان هذا شيئًا مشتركًا بين الملك وليون بالإضافة إلى ولعهما الشديد الدائم بلعبة البوكر*

فى إحدى قاعات القمار، دُعى ليون ذات ليلة لمائدة الملك لمشاركته اللعب، وفى إحدى الجولات فاز ليون على الملك، فقد كان بحوزته الفلوش** مقابل ثلاثة من ملوك الكوتشينة – الشايب– فى يد فاروق وحين مد ليون يده لأخذ المبلغ الكبير الذى

* نوع من أنوع القمار.

** أوراق من نقش واحد فى يد لاعب البوكر.

صار من حقه حسب قواعد اللعب، جذب الملك فاروق يده معلنًا أنه الفائز، امتقع وجه ليون وأعاد النظر مرة أخرى لورق اللعب الذى فى يد الملك فتأكد من أنه ثلاث وليس أربع ورقات، حينئذ انفجر فاروق فى الضحك وهو يجمع فيش اللعب من على المائدة كطفل جشع صارخًا بالفرنسية "هذا أنا هو الملك الرابع" c'est moi le quatrieme roi، ضجت المائدة الملكية بالضحك مشاركة للملك الذى كان معروفًا عنه ممارسته لهذه الخدعة مرارًا.

لم يبد على ليون أى اكتراث بما فقده من مال بل إنه أظهر استهانته به وكأنه أمر تافه لا يستحق التوقف عنده، كانت تلك ليلة رائعة، فالملك منحه مادة للحديث لا تقدر بثمن يمكن أن يستخدمها لبعث البهجة فى نفوس أصدقائه الإنجليز الذين كانوا ينظرون بعين الاشمئزاز للصغير فاروق فقد كان فساده قد استشرى فى كل مناحى الحياة وصار حكايات تروى كالأساطير، كان يمكن لفاروق أن يغش فى لعبة البوكر حتى لو كان اللعب لمجرد التسلية.

بالباريزيانا فى ذلك اليوم الربيعى الرائق جلس ليون فى مقعده متأملًا إيديث بعناية: هيئتها وهندامها، حركاتها وسكناتها، فقد كان من طبعه التمهل ودراسة المرأة دراسة متأنية قبل إقدامه على أية حركة، كان ليون فى ذلك مثل كارى جرانت (مثله الأعلى) الذى لم يكن يشبهه من حيث الملامح فقط بل أيضًا من حيث الأداء الراقى والذوق المميز، إذ لم يختلف عنه فقط سوى فى لون الشعر إذ كان شعر ليون كستنائى اللون وقد كان لهذا اللون فعله، كان لليون ذوقه الخاص حتى فى اختيار نجوم الأفلام التى يشاهدها و لم يكن من عادته أن يقبل على مشاهدة الأفلام دون تمييز، فمثلًا كان يرى أن كاترين هيبورن ليست بالممثلة الجذابة وعلى ذلك فهو يرفض مشاهدة أفلامها بالمرة، أما الجمال الرائع grandes beautes فى نظره الذى ذكرته إيديث به فكانت تجسده اثنتان من ممثلاته المفضلات هما فيفيان لى وهيدى لامار، لكن شبيهة إيديث الحقيقية بل توءمها فقد كانت آفا جاردنر الممثلة التى حققت أفلامها انتشارًا سريعًا فى دور السينما بالقاهرة التى كان ليون يصف جمالها مرددا بينه وبين نفسه: c'est une grande beaute "يا له من جمال رائع"

كانت إيديث كنجمات السينما، شعرها فاحم متموج، وجهها أخاذ كأنه منحوت بيد فنان شديد المهارة، لها عينان حزينتان وهيئة ملكة، تجلس منتصبة القامة فى مقعدها

بجوار مائدة المقهى واضعة ساقًا فوق ساق، ترتشف بأناقة رشفات صغيرة من القهوة السوداء، كان جمالها مثيرًا ومتفردًا دون أن يكون طاغيًا، كانت إيديث باختصار شابة فاتنة.

بإشارة من يده استدعى ليون رئيس السقاة وأعطاه الفاتورة التى كان قد كتب على عجل فى ظهرها كلمة لإيديث وأمره أن يمررها لتلك السيدة الشابة «الجميلة التى تجلس بجوار والدتها» وأن يبقى واقفًا بجوارها حين تقرؤها وقد نفحه ليون بقشيشًا محترمًا لهذه المهمة.

اتجه رئيس السقاة إلى مائدة إيديث وبكياسة مرر لها الورقة المطوية حيث استقرت فى يدها ثم انحنى احترامًا، كانت الورقة تحوى سطرين فقط كتبا بالإنجليزية:

"I find you very beautiful. Would it be possible for us to meet?"

"كم أجدك جميلة. هل يمكن لنا أن نتقابل؟"

رفعت إيديث رأسها وأخيرًا تلاقت عيناها بعينيه، رفع الرجل ذو البذلة البيضاء كأسه باتجاهها مرة أخرى، وأخيرًا ارتسمت الابتسامة على وجه إيديث ومع أن ارتداء جاكت أبيض كان شائعًا فى عام ١٩٤٠ بالقاهرة فإن ليون وحده بين كل الموجودين من كان يرتدى بدلة كاملة بيضاء.

هكذا كانت بداية مغازلة ليون لإيديث، مشهدًا سينمائيًا قام بأدائه مجموعة رائعة من ممثلين متناغمين: فتاة جميلة ساذجة خجولة وأم تحيط ابنتها بحماية صارمة ورئيس سقاة نشيط دمث الخلق وكهل شديد التحرر عصف به جمال أخاذ فوجد نفسه فجأة غارقًا فى الحب، على الفور مررت إيديث الورقة المطوية لأمها التى قطبت ما بين حاجبيها أثناء إمعانها النظر نحو الجانب الآخر من المطعم، كانت ألكسندرا تكبر ليون بقليل وقد كرست نفسها لابنتها، فإيديث الجميلة المولعة بالكتب والمطالعة هى زهرة رقيقة يجب حجبها عن الأنظار مهما كلف الأمر، فإذا أهملت ألكسندرا رقابتها على ابنتها للحظة، وإذا لم تفرض القيود الصارمة، لكان الكثير من الرجال قد آذوا الصغيرة وغدروا بها،كما آذى والد إيديث ألكسندرا وخانها.

فمنذ سنوات بعيدة هجرها والد إيديث لتواجه وحدها مجتمعًا يحمل ثقافة معادية لكل امرأة تعيش دون عائل، كانت سبل العيش أمام امرأة هجرها زوجها محدودة، خاصة أنها لم تحصل على نفقة طلاق أو نفقة لأطفالها، وهكذا كانت ألكسندرا أما

لطفلين صغيرين دون أى مصدر دخل فكانت عائلتها تتضور جوعًا، لقد كان بإمكان ألكسندرا أن تكتفى بالقهوة والسجائر ولكن إيديث وأخاها فليكس كانا دائمى الإحساس بالجوع ولقد كانت معجزة أن تمكنت إيديث من إنهاء دراستها ووضعت يدها على وظيفة هى محط أنظار الجميع "مدرّسة فى مدرسة قطاوى"، لسنوات كان راتبها هو مصدر الدعم والمساندة للعائلة فألكسندرا لم يسبق لها العمل أما فليكس فمنذ صغره لم يفلح فى الاحتفاظ بعمل ثابت بل كان اهتمامه منصبًا على الكسب السريع من عمليات نصب صغيرة الآن وبفضل كد إيديث واجتهادها أصبح لدى العائلة الكثير من الطعام مما لم يكن متاحًا من قبل وأصبح متاحًا لهم الاستمتاع بنزهات عديدة مثل الذهاب أحيانًا للباريزيانا فى فترة ما بعد الظهيرة.

دارت تلك الأفكار برأس ألكسندرا بينما هى تتفحص بحذر واهتمام زوج ابنتها المأمول، وبإيماءة مقتضبة أشارت إلى ليون أن ينضم إليهما فاتجه إلى مائدتهما فى مشية عسكرية وما إن رأته إيديث عن كثب حتى فتنتها عيناه شديدتا الخضرة وأيقنت أنه من أشد الرجال الذين رأتهم وسامة.

طلب ليون زجاجة بيرة لنفسه وفنجانين من القهوة التركى لكل من ألكسندرا وإيديث، فالقهوة السوداء المحلاة بالسكر كانت هى المشروب الوحيد الذى تحتسيانه، دار حديث مقتضب كان ليون مهيئًا له وسمحت ألكسندرا لابنتها بالاشتراك فيه، كانت إيديث فاتنة ومفعمة بالحيوية، وقد عملت ألكسندرا على أن يكون الحديث فى أضيق الحدود، فالعلاقة بين الرجال والنساء هى مصالح متبادلة وابنتها الجميلة سلعة غالية. لم تكن ألكسندرا أبدا امرأة عملية، لكنها فى عصر ذلك اليوم اتخذت أكثر القرارات عملية فى حياتها فقد عقدت العزم على أن يكون لإيديث ثمن غال فهى لن تسمح أن تكون ابنتها مجرد نزوة لهذا الرجل الغنى الأنيق، فإذا كان جادًا –وهذا يعنى الزواج– فسوف تتغاضى عن تلك القيود المفروضة على إيديث وستسمح لها بمقابلته فى العلن.

كرس ليون حياته خلال السنوات الماضية لتزويج أخواته الخمس، لذلك فقد كان على دراية بتسعيرة زواج النساء، فقد قام هو نفسه بتجهيزهن –الجميلة والأقل جمالًا– ودفع الدوطه* لكل واحدة منهن ليتمكن من إيجاد الشريك المناسب، كلهن تم

* الدوطه هى مبلغ من المال تقدمه العروس لزوجها يوم الزفاف.

تزويجهن بنفس الطقوس والاحتفالات التى تنم عن الترف والبذخ والتى قام هو وحده بدفع كلفتها.

وكما أن للبنات سوقا يقدرن فيها فللرجال سوقهم التى يقدرون فيها فينال المفضلون منهم الأثمان المرتفعة، وحتى ذلك الحين، لم يقدر أحد على ثمن ليون، لقد صمم على البقاء أعزب طوال هذه السنين رغم كل محاولات الخاطبات للاقتراب منه وإغراءات الآباء ذوى الثروات الضخمة والمكانة الرفيعة فى المجتمع لتزويجه من بناتهم الجميلات وعلى الرغم أيضا من توسلات أمه للبحث عن عروس ليتزوج وينعم بالاستقرار.

لم تنجح الفكرة فى إغرائه حتى حان لقاؤه بإيديث.

فى عصر ذلك اليوم تم الاتفاق على ترتيبات الزواج وسط ضجيج رواد المكان من ضباط إنجليز فى زيهم الرسمى وسيدات أنيقات خرجن للتسوق والاستمتاع بشراب boisson بارد منعش قبل العودة إلى فيلاتهن فى الزمالك أو جاردن سيتى أو المعادى، كانت ثمة لغات مختلفة تدور بها الأحاديث على كل مائدة، كانت هناك بالطبع الفرنسية والإنجليزية وأيضا اليونانية والإيطالية والألمانية والأرمينية، وكانت ألفاظ كل هذه اللغات تمزج بالكلمات العربية المناسبة، إذ كان من المعتاد أن يستخدم الناس لغتين أو أكثر فى المحادثة الواحدة حتى فى الجملة الواحدة أحيانًا لأن القاهرة كانت هكذا، أكثر المدن عالمية فى العالم.

فى تلك الأمسية كان الكل فى مزاج رائق وعلى وجه الخصوص إيديث التى لم تحظ من قبل بمثل هذا الاهتمام، فقد جلست وتركت لأمها أمر الحديث وعندما كان ليون يوجه لها سؤالًا مباشرًا كان وجهها يضىء وترد بالإيجاب، كانت إيديث تحب مهنة التدريس بشدة خاصة تعليم الأولاد الصغار وكانت شقاوتهم تمثل متعة بالغة لها tres espiegle، كما كانت مغرمة ومولعة بالمكتبة، أما ليون فماذا كان عمله؟ من رجال الأعمال؟ يعمل بالتصدير والاستيراد؟ ويعمل بالبورصة؟ كانت إجابات ليون غامضة وغير محددة.

وكما كان لاستلام مفتاح مكتبة الباشا وقعه شديد الأثر على إيديث، وكذلك كانت مقابلة ليون إذ أحست أن هناك أخيرًا عالمًا سحريًا صار فى متناول يديها، عالما من المال والمنزلة الرفيعة والمركز الاجتماعى عالمًا مبهرًا ومترفًا مثل السترة الشركسكين البيضاء، ليون الذى عرف الكثيرات، بل أكثر مما يمكن لأى رجل أن يعرف من النساء المجربات، أصبح متيمًا بإيديث التى لم تكن لها أية تجربة بالمرة، أدرك ليون أن جمالها

الآسر ليس هو كل ما تتمتع به وأنها فضلًا عن ذلك تتحدث الفرنسية والإيطالية والعربية بطلاقة، عندها قرر الرجل الذى ابتعد كليا طوال حياته عن التزامات الزواج وقيوده أن يتزوج ذلك الجمال الشرقى الأخاذ.

وفى غضون أسابيع من مقابلة الباريزيانا تم إعلان الخطبة، وقد وعد ليون ألكسندرا أنه سيتنازل عن التقليد المتعارف عليه بالنسبة للدوطه فقد كان من الواضح أن العائلة ليست لديها إمكانية لذلك وأعلن أنه سيتحمل كل أعباء الزواج، وأخيرًا ألمح أنه مستعد لإعالة ألكسندرا ماديًا إذا هى وافقت على الزواج.

فى يوم الخطوبة قدم ليون لخطيبته خاتمًا رائعًا كان صيحة آنذاك وعرف باسم "خاتم الكوكتيل" cocktail ring نظرًا لكم الأحجار الكريمة التى يحتويها: الياقوت، الألماس، الزمرد والزفير، كل ذلك فى إطار من الذهب الأبيض المتقن الصنع، وكان فألا سيئًا أن يختفى الخاتم قبل أيام من حفل الزفاف، فقد سرقه فليكس أخو إيديث الصغير العاطل وباع الأحجار الكريمة ورغم ذلك فقد تم الزواج حسب الترتيبات المتفق عليها مسبقًا بعد أن تسببت حادثة السرقة فى أن يتردد ليون لبرهة.

عقدت طقوس الزواج بمعبد "أبواب السماء" الفخم بالقاهرة ثم استقل العروسان عربة تجرها الخيل متجهين إلى أستديو جين وينبرج لالتقاط صورة الزفاف، كان جين وينبرج (الذى عمل فى بلاط أتاتورك)* أمهر المصورين الفوتوغرافيين فى مصر كلها، وارتج عليه الأمر حين أوقف العروسين جنبًا إلى جنب لالتقاط صورتهما الرئيسية إذ كانت العروس ضئيلة جدًا بالنسبة لزوجها طويل القامة قوى البنية وهو ما كان من شأنه أن يضعف التناسب المطلوب للصورة.

لجأ جين إلى حيلة فأوقف إيديث على كرسى خشبى صغير مغطى بالقطيفة أخفاه تحت أمتار الستان والدانتيلا التى حيك منها فستان الزفاف، كانت الصورة من الكمال والجمال حتى أن وينبرج وضعها فى صدارة الواجهة الزجاجية للمحل بوسط القاهرة وظلت فى هذا المكان لعدة شهور.

قام جين بالتوقيع عليها بالحبر الأسود كما يوقع الفنان على أفضل تحفه، كانت حقًا لقطة رائعة إذ هجر ليون بدلته البيضاء العلامة المميزة له من أجل البدلة التاكسيدو** الكلاسيكية، كما ارتدى القبعة الرسمية*** والقفازات البيضاء ووضع عودًا من زهرة

---

* كمال أتاتورك زعيم تركيا الحديثة.

** التاكسيدو بدلة سوداء اللون مزدوجة الصدر وهى من ملابس السهرة للرجال.

*** قبعة عالية سوداء يعتمرها الرجال فى الحفلات الرسمية.

زنبق الوادى فى عروة الجاكت، أما إيديث ذات الشعر الأسود الفاحم الذى يحيط بملامحها الصغيرة الوضاءة، فقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على محياها، بينما باقة كبيرة من الزهر الأبيض والزنبق والورود البلدية تدلت من يديها.

كان الاثنان يقفان تقريبًا كتفًا بكتف، يا له من مشهد خيالى لقطة من الفيلم الذى كانت فاتحته بقهوة الباريزيانا و لم يكن حتى فى مقدور سلزينك أو وايلدر* أن يكتب نصًا معبرًا عن رومانسية زمن الحرب أفضل مما قام به ليون، كانت اللقطة الأخيرة

صورة زفاف إيديث وليون، التى وقعها جون وينبرج

* أولهما مخرج سينمائى مشهور أما ثورنتون وايلدر فهو مسرحى وروائى ترجمت العديد من أعماله للعربية.

للزوجين وقد احتضن كل منهما الآخر بينما العربة التى تجرها الخيل تطوف بهما أنحاء واحدة من أكثر مدن العالم إغراء، مدينة تأثرت بالحرب العالمية الثانية ولكنها فى الوقت نفسه كانت بمنأى عن الدمار، تلك هى القاهرة.

الفارق الوحيد هو أن ذلك لم يكن فيلمًا سينمائيًا لأن ليون وإيديث كانا والدى ولأن توابع مغازلة قهوة الباريزيانا امتدت لسنين وعبر آلاف الأميال، لقد ألجمتنى الصدمة طويلًا عندما أدركت أن كل ما تخيلته عن حب جارف بينهما بإيحاء من الحكاية الرومانسية الجميلة للقائهما الأول فى ربيع ١٩٤٣ لم تكن حقيقية، كان كل ذلك محض سراب مخادع، تمامًا مثل وقفتهما الفاتنة كتفًا بكتف فى صورة جين وينبرج.

ظلت ذاكرتى قابضة على صورة عرسهما الساحرة، تلك الصورة التى مازالت تسحرنى حتى بعد أن ذهب كل هذا السحر من حياتهما وحياتى، فقاهرة الأربعينيات ويهودها صاروا ذكرى بعيدة، فقد تم إبعادنا لسلسلة من الفنادق الرخيصة فى باريس ونيويورك، حتى انتهى بنا الحال إلى بقعة فى بروكلين لا تزيد على عشرة مبان، تأوى آلافًا من اللاجئين غيرنا آل مآلهم إلى هناك من يهود شرق المتوسط.

فى ترحالنا من بلد لآخر ومن مدينة لأخرى تعلمت أن أجد السلوى فى اجترار قصة حب أبى و أمى. كنت أسأل أمى أن تحكى لى عن ذلك اللقاء الرومانسى المرة تلو الأخرى، وكنت ألهب أبى بالأسئلة ليقص لى التفاصيل عن لقائه الأول الساحر بإيديث فى الباريزيانا "كم أنت جميلة، هل يمكن لنا أن نتقابل؟"

ما الذى جذبه إلى إيديث؟

لماذا قرر الزواج منها بالذات بعد رفضه الزواج من نساء كثيرات؟ ومثلما كانت مبالغته فى العناية بالتقاليد التى سيرت حياته، كان ليون يضفى كذلك على كل جانب فى حياته عناية وبريقًا يشبه بريق قماشه المفضل، قماش الشركسكين الناعم البراق، وقد جعلنى هذا البريق شديد اللمعان غير قادرة على التمييز بين الحقيقة وما ينسجه خياله البارع.

عندما كنت صغيرة كانت أمى دائمة التحدث معى بالفرنسية قائلة loulou il faut reconstruire le foyer، "لولو يجب أن نعيد بناء المدفأة" كان هذا سطرًا من إحدى

رواياتها المفضلة، فى البداية لم أدرك ما تعنيه بهذا الكلام فقد كنا نعيش فى شقة ضيقة للغاية بالمدينة وليس فى منزل ريفى مزود بمدفأة.

فى آخر الأمر، بدأت أدرك المغزى من تكرار أمى لهذا السطر، لقد اختارتنى الأقدار لتعهد إلى بالمهمة المستحيلة وهى لم شمل عائلتنا المبعثرة وبيتنا المفقود وبعثهما مرة أخرى للحياة.

كانت الصور الفوتوغرافية هى مرجعيتى لإعادة كتابة تاريخ أسرتى ولهذا كنت أجدنى أسعى دائمًا لاستلهام الأمل البادى فى صورة زفاف والدىّ لكن الصورة الأكثر تأثيرًا والتى ظلت تبعث فى أوصالى القوة التى يتطلبها تنفيذ هذا العمل الشاق هى صورة هذا الرجل مشبوب العاطفة ذى البذلة البيضاء الذى سعى جاهدًا ليخطب ود الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسود فى ذلك المقهى فى القاهرة، قاهرة الزمن الجميل التى كانت..

الكتاب الأول

الكابتن

القاهرة ١٩٤٢-١٩٦٣

كازينو بديعة بميدان الأوبرا

الفصل الأول

الكابتن أيامه ولياليه
(القاهرة ١٩٤٢-١٩٦٣)

كان الخميس الأول من كل شهر يومًا مشهودًا فى القاهرة، فقد كان كل رجل فيها من الباشوات فى قصورهم، إلى الفلاحين فى أكواخهم، يتجمعون حول المذياع مشيرين لزوجاتهم وأولادهم بالتزام الهدوء وعدم الإزعاج، فهذه هى الليلة التى تشدو فيها أم كلثوم (عندليب النيل) أعظم مغنية عرفتها مصر على الهواء مباشرة من مسرح الأزبكية.

كان لأم كلثوم صوت قوى مثير للذكريات معبر يحلق بك متجاوزًا كل الحدود إلى عالم من الأحلام حتى أن ما تشدو به كان يتجسد فى خيال معجبيها حين تظهر متألقة على خشبة المسرح يلف جسدها فستانها الفاخر المصنوع من الدانتيلا البيضاء الناعمة.

أم كلثوم التى كانت ابنة لشيخ قرية* التف حولها معجبون من كل الطبقات: بوابون وحكام، أميون ومثقفون، شحاذون وملوك، خاصة الملك فاروق، لم تكن ربات البيوت البسيطات هن أكثر المستمعات ولعًا وشغفًا بأغانيها التى تدور حول الحب الضائع والحب من طرف واحد والهجران بل كان الرجال أيضا، الأزواج والإخوة والأبناء فقد كانت هى بالنسبة لهم بكل بساطة «الست».

بدأت الغناء فى التاسعة من عمرها وقد اشتهرت بمنديلها المصنوع من قماش الفوال الأبيض الذى تحركه هنا وهناك، وكانت كل أغنية من أغانيها تستغرق نصف ساعة أو أكثر لذا كانت حفلاتها الغنائية تستمر حتى منتصف الليل، كانوا يستمعون لهذه

* الصحيح أنها ابنة منشد دينى.

الأغانى مثل «إيه أسمى الحب»، «فاضلّى إيه يا زمان»، «يا قلبى بكره السفر»، وتحفتها الكلاسيكية «أنا فى انتظارك» وغيرها آلاف المرات وتظل تطربهم إلى أقصى حد خاصة فى تلك المقاطع التى تعيدها مرارًا وتكرارًا فتغير مقام صوتها وسرعته مع اختلاف مزاجها فى كل إعادة للمقطع الغنائى.

ليلة الخميس الأولى من كل شهر كانت هى الليلة الوحيدة التى لا يغادر فيها أبى مكانه، ليس فقط البيت بل الكرسى الذى يجلس عليه ليستمع إليها جالسًا على مقربة من المذياع يكاد يلتصق به غير قادر على مغادرته.

فى السنوات السابقة على لقائه إيديث، عاش أبى حياته تمامًا كأى أعزب، نادرًا ما كان يوجد بالمنزل، وحين كان يغادر شقته بشارع الملكة نازلى التى كان يقطنها مع أمه ظريفة وابن أخيه الشاب سالومون، لم يكن ليعود حتى مطلع الفجر، علاقاته النسائية كانت مادة لأساطير تروى، كما كانت جزءًا من الغموض الذى أحاط به مثلها فى ذلك مثل بدلاته البيضاء، فقد كان فى حياة أبى عدد لا حصر له من النساء قبل أن تدخل أمى حياته، ودارت همسات أن الست كانت منهن*

فيما عدا أمسية يوم الجمعة، لم يكن أبى يهتم بتناول العشاء بالمنزل، وإذا حدث وعاد من العمل كان ذلك فقط ليتوجه من فوره لحجرته لاستبدال ملابسه استعدادًا لسهرة المساء، كان ذلك طقسًا من طقوسه المعتادة الذى كان على الأرجح يستمتع به قدر استمتاعه بما يخبئ له الليل.

كان شديد العناية بمظهره لا يغفل عن التفاصيل فدولاب ملابسه يضم خليطا من الثياب التى حاكها أمهر خياطى مصر من كل أنواع الأقمشة: الكتان، والقطن المصرى، والتويد الإنجليزى وقماش الفيكون** فضلًا عن قمصان من الحرير المستورد من الهند وكان هناك أيضا البدل الشركسكين وسترات يفضلها عن غيرها مخصصة للمساء. تلك السترات كانت تعلق بعناية فى ركن خاص داخل الدولاب وإذا جرؤ الكواء على إحضار بنطال دون أن يتم كيه بالكسرة المعهودة أو دون أن يكون مطويًا بطريقة مضبوطة كان ليون يعنفه بقسوة ويجبره على إعادة الكى.

---

* وهو ما نرى أنه من تهويمات أبيها ومبالغاته، وهو ما سبق وأشارت إليه المؤلفة نفسها عن أبيها فى صفحات سابقة وستعود إليه لاحقًا.

** نسيج يصنع من وبر حيوان الفيكونة وهو حيوان يعيش بجنوب أمريكا شبيه بالجمل.

ليون

دائمًا ما كان يضع خاتمًا من الألماس فى إصبعه، وللمساء، يزيد عليه دبوسا لرابطة العنق على شكل حدوة حصان من الذهب الأبيض المرصع بالألماس، هذا الدبوس كان بمثابة تميمة الحظ له فمثل كل المقامرين الذين يستمتعون بخلط ورق اللعب أو لف عجلة الروليت كان والدى مؤمنًا بشدة بتعاويذ الحظ.

وبعد أن يغدو فى كامل هيئته كان آخر ما يقوم به هو أن يرش ماء الكولونيا ماركة "أرليتى" arlette على يديه ثم يربت بها على صدغه الحليق ورقبته، كانت هذه الكولونيا مشهورة ومصنعة محليًا من رائحة الليمون التى تسحر سكان البحر الأبيض المتوسط، تلك الرائحة التى تعارف المصريون على تسميتها «رائحة السيترون» –لاعتيادهم مزج العربية بالفرنسية– كانت تظل عالقة بالمنزل بعد مغادرة أبى لمدة طويلة.

فى طريقه للخروج كان سالومون، ابن عمتى المراهق، يطل برأسه من وراء الرواية التى يقرؤها ليلقى عليه تحية المساء بطريقة تعبر عن حسد صبيانى وتقبل أمه «ظريفة» وجنتيه قبلة مصحوبة بنظرة لوم تطل من عينيها الزرقاوين الرائعتين، كانت جدتى ظريفة قد قدمت إلى مصر من حلب، المدينة السورية القديمة ونظرًا لما اكتسبته جدتى من جمود الثقافة والأخلاق المحافظة التى تغلب على حلب بالمقارنة بالقاهرة فقد أصابها الانزعاج من مغامرات ابنها الليلية وعدم ارتباطه العاطفى فضلًا عن عدم وجود نية الزواج لديه، رغم بلوغه الأربعينيات من عمره فإن عدم الاستقرار كان السمة الغالبة على حياته، فقبل إيديث لم يكن ليون قد اصطحب أية امرأة لمنزله فى شارع الملكة نازلى وكان معنى ذلك أن إيديث هى التى وقع عليها الاختيار وأنه لم تكن لديه نية لاختيار غيرها.

كان أبى مثالًا للنشاط والحركة، فى الصباح الباكر من كل يوم كان يسير لمسافات طويلة على قدميه بخطوات عسكرية واسعة ورشيقة متجهًا إلى الكنيس ومنها للقاءات العمل ثم إلى مقهاه وفى المساء ينصرف للعبة البوكر والرقص ومصاحبة النساء، كان يسعى للبقاء خارج المنزل قدر المستطاع وكانت حجرته المطلة على شارع الملكة نازلى ذلك الشارع الرئيسى العريض المسمى باسم أم الملك فاروق هى أول ما يقابلك عند دخولك المنزل لأنها كانت تبعد خطوات قليلة عن الباب، لم يكن ذلك محض صدفة ولكنه كان اختيارًا ليسهل عليه الدخول والخروج وقتما شاء.

فى سنوات لاحقة سيصل إلى مسامعى أن سيدة الغناء الشهيرة المسلمة التقية أم كلثوم التى تربت فى قرية صغيرة حيث كان أبوها إمامًا* ، كانت خليلة لأبى. تلك كانت واحدة من القصص الكثيرة التى استمرت روايتها تدليلًا على مهارة أبى وبراعته فى فن التعامل مع النساء قبل الزواج كما كان الحال بعد زواجه.

لم تكن الأساطير التى سمعتها على مدار السنوات تقتصرعلى مغامرات أبى النسائية فحسب، بل امتدت لكل التفاصيل الغامضة في حياته كان ما أسمعه يتسم بالمبالغة الشديدة لدرجة تبدو معها تلك المرويات مشكوكا فى صحتها.

فمن ناحية كان أبى شديد الإيمان متفانيًا فى دينه ومن ناحية أخرى كان محبًا للحياة ولعًا بالمغامرة التى دفعته للبحث عن كل ما يمكن أن تقدمه له القاهرة من متع، كان شغفه بالملابس والطعام والنساء قد جعل منه زبونًا دائمًا للمطاعم الفاخرة ومحلات

* مرة أخرى الصحيح أن أباها كان منشدًا دينيًا.

أم كلثوم

الحلوى نهارًا، والكباريهات وصالات الرقص والسينمات الصيفية ليلًا، حتى سماته الجسمانية من طول وعرض كانت محلًا للتعليقات إذ كان مفتول العضلات وسيم الشكل فى بلد كان كل رجاله قصار القامة سمر البشرة.

كان هناك دائما قلق شديد من أن تصل كلمة واحدة بشأن علاقته بأم كلثوم إلى مسامع العائلة، ليس فقط لأنه لم يكن أمرًا هينًا أن مطربة لها مكانتها مثل أم كلثوم، معبودة من الملايين تتورط فى علاقة مع أبى الذى اشتهر بصولاته وجولاته النسائية، وكان من غير المعقول أن نجمة تتحدث كل أغانيها عن مظاهر الحب وأشواقه وما له من سطوة على المحبين وسيطرته على مشاعرهم وأفكارهم أن تتورط فى علاقة غرامية عابرة مع أبى الذى كان هوسه بالحب قد استحوذ على كل مشاعره، ولكن ما كان

سيصيب العائلة بالدهشة هو أن أبى ذلك اليهودى المخلص لدينه سليل الأجيال المتتالية من الحاخامات اليهود المشهورين وتلاميذهم يمكن أن يتورط فى علاقة حب مع امرأة عربية عرفت هى أيضًا بأنها مسلمة تقية ورعة، وربما كان سبب الدهشة أن هذا الخبير بالجمال الأنثوى الذى لا يتنازل عن أن تقع عيناه على امرأة إلا وهى متوافقة بدقة مع مقاييس الجمال التى يعتد بها، يمكن أن يرتبط بامرأة غير جذابة رغم ما يزخر به دولاب ملابسها من أزياء جميلة، امرأة كان أجمل ما فيها هو موهبة صوتها الفائقة.

كانت مسيرة أبى الليلية تبدأ من مسافة تبعد بيتا أو بيتين عن منزلنا، من عند «بيت الأم» وهو الاسم الذى عرف به بيت فريدة الصباغ الواقع بجوار شارع المدرسة، كانت فريدة طويلة وسمينة مما كان يحول بينها وبين أن تخطو خطوة خارج باب بيتها الذى دائمًا ما كان مفتوحًا مثل قلبها ومتسعًا لكل الناس والذى كان فى اتساعه يعادل محيط خصرها، كانت فريدة تتمتع بشخصية ودودة غير متحفظة جعلت الجميع يتطلع للذهاب لبيتها، بيت الأم.

وما أن يذهب ليون إلى العمارة التى تقطن فيها حتى يهب البواب (فلاح بسيط من الصعيد) على قدميه صائحًا «كابتن» رافعًا يديه لرأسه ملقيًا عليه التحية العسكرية، فيبتسم ليون مانحًا إياه قرش صاغ ثم يستأنف صعوده للسلم.

لم تكن فريدة تمانع فى زيارة الراغبين فى لعب البوكر لمنزلها ليلة بعد ليلة، كانت تحب أن تسرى عن أصدقاء زوجها فتقف محيية إياهم بابتسامة قائلة «تفضلوا تفضلوا» قبل أن تنسحب للمطبخ لإعداد وليمة لذيذة من الطعام الذى يساعدهم على تحمل شدة الأعصاب التى يلاقيها لاعبو القمار.

كانت فريدة ربة منزل يفيض بيتها بالمرح وتديره بقواعد صارمة ينفذها الجميع بحذافيرها وهى: الأخبار السيئة ممنوعة منعًا باتًا فهى لا تحب أبدًا أن يذكر شيء من شأنه أن يصيب طبيعتها المتفائلة بالإحباط أو أن يفسد عليها إحساسها بالسعادة و يعكر صفو مزاجها ويقلل من البهجة التى تسود المكان حتى إذا كان متعلقًا بتطورات الحرب التى تثير الغم وتقبض الصدر والتى بلغت فيها أخبارها الموحشة ذروتها فى العام ١٩٤٢

ورغم أن القاهرة كانت بعيدة عن الزحف النازى الذى كان على أشده فى كل من أوروبا وشمال إفريقيا فإنها تأثرت به تأثرًا عميقًا، وتمثل ذلك فى عشرات الآلاف من

القوات البريطانية المتمركزة حينها فى المدينة وما حولها، وقد كان من المستحيل أن تجد مقعدًا خاليًا فى أى من عشرات السينمات والمسارح لأنها كانت تعج بالجنود الإنجليز وما أن ينفض السامر عند انتصاف الليل أو فى الواحدة صباحًا حتى ينتقل الجنود إلى مقاهيهم المفضلة لابثين فيها حتى بزوغ الفجر، وبعد أن يشربوا حتى الثمالة فى الباريزيانا أو فى الخمارات الأخرى كانوا يقعون على الأرصفة آخر الليل من شدة ترنحهم لذا كان منظرًا مألوفًا أن تجوب الشرطة العسكرية شوارع القاهرة ذهابًا وإيابًا تنتشل كل السكارى الممددين على الأرض ملقية بهم فى عربتها العسكرية.

كان وجود الإنجليز يثير حفيظة الوطنيين المصريين المناهضين للاحتلال ويذكرهم بالسيطرة الأجنبية البغيضة التى يجب أن تنتهى دون النظر لاستمرار الحرب أو انتهائها، أما اليهود والأجانب الذين كانوا يعيشون فى رعب من النازية فقد كان الإنجليز هم أملهم الوحيد وطوق نجاتهم والمسئولين عن حمايتهم.

لقد تركت الحرب آثارها داخل البيت فى شارع الملكة نازلى فابن عمتى سالومون الذى وصل مصر فى ديسمبر ١٩٣٧ قادمًا من إيطاليا حيث أحال موسولينى حياة اليهود إلى جحيم كانت بهية أمه -أخت أبى الكبرى- قد انتقلت بعد زواجها فى أوائل العشرينيات من القاهرة إلى ميلانو، إذ بدا حينئذ أن إيطاليا بها الكثير من فرص الرزق وكان أن حققت العائلة هناك نجاحًا باهرًا، أما الآن فقد وقعوا فى براثن بلد مستمر فى إصدار أقسى التشريعات والقوانين ضد اليهود، ومنها قوانين ١٩٣٨ العنصرية المضاهية لتلك الصادرة فى ألمانيا النازية، سالومون كانت لديه النية للعودة إلى إيطاليا على الأقل للزيارة، ولكن الحرب جعلت من ذلك أمرًا مستحيلًا، كان يتوق لأن يكون مع أبويه فى حلهم وترحالهم، لكن أبى فرض إرادته عليه وأجبره على عدم التزحزح من مصر، وجد سالومون السلوى فى المراسلات التى لا تنقطع بين القاهرة وميلانو، ومن ثم انصب جل تركيزه فى دراسته وإقامة علاقات اجتماعية، فضلًا عن الاستمتاع بالأمان الذى توفره له مصر وزاد على ذلك الحب الطاغى الذى كانت جدتى ظريفة تغدقه على حفيدها الوسيم رقيق الأحاسيس.

كان والدى دائما ما يتعجب لما بين بيت أمه وبيت فريدة الصباغ من تباين، فخلافا لبيت أمه فى شارع الملكة نازلى الذى كان هادئًا يساعد على التأمل ويسود أجواءه شىء من الحزن، كان بيت الأم فريدة الصباغ بشارع المدرسة فى حالة احتفال دائم

حيث الخدم الذين يحملون دائما أطباقًا مملوءة بالكباب الساخن اللذيذ وأباريق الليمونادة الباردة التى يتم صنعها من عصير الليمون الطازج.

كانت ليالى البوكر عادة ما تنتهى عند انتصاف الليل فينصرف اللاعبون كل إلى عائلته وبيته، أما ليـون فلم يكن ليشعر أبدًا بميل للعودة لمنزله فى شارع الملكة نازلى فى هذا الوقت المبكر من الليل، فكان يطلب من البواب أن يحضر له سيارة أجرة وينطلق إلى أحد الملاهى الليلية المفضلة لديه «كوفنت جاردن» جنة الرقص فى الهواء الطلق أو «كازينو بديعة» الكباريه الذى يجلس فيه الرجال الشرقيون بطرابيشهم جنبًا إلى جنب مع الضباط الإنجليز فى زيهم الرسمى موجهين النظرات المغرمة للراقصات الشرقيات الفاتنات.

كانت بنات الست بديعة مشهورات بجمالهن الأخاذ ومهارتهن فى الرقص الشرقى، فحين يؤدين رقصاتهن فى بدلاتهن الشفافة، كن يستدعين للأذهان على الفور ما قدمته هوليوود من الأفلام المأخوذة عن قصص ألف ليلة وليلة، كانت بديعة مصابنى قد اعتزلت الرقص الشرقى وتحولت إلى سيدة أعمال تتبارى فى تقديم أفضل الراقصات فى مصر، فى صالة كازينو الأوبرا الذى افتتح فى العشرينيات وصار ملكا لها، إذ كانت لها نظرة ثاقبة فى اختيار الراقصات وكان كثير من راقصاتها الشابات يتمتعن بالموهبة التى جعلت منهن نجمات فى مجال صناعة السينما المصرية المزدهرة.

كان يمكنك الذهاب فى ليال معينة ومشاهدة الرقيقة «تحية كاريوكا» تلك السمراء المثيرة وهى تؤدى الحركات التى جعلت منها أول راقصة شرقية تتمتع باحترام فى الشرق الأوسط وتعد واحدة من أفضل من تخرجن من مؤسسة بديعة مصابنى، استطاعت تحية أن تدمج المهارة بالإحساس ليس فقط على خشبة المسرح بل أيضا على شاشة السينما إذ قامت ببطولة العديد من الأفلام، أما حياتها الخاصة فكانت هى الأخرى أسطورة إذ كانت على ما يبدو تهوى جمع الأزواج والمحبين، كانت رقصاتها مع الراقصات الأخريات مدروسة إذا رقصن بالسيف أو الخنجر أو حتى بالشمعدان المضاءة شموعه الذى يحملنه فوق رؤوسهن مثل تاج وهن يملن يمينًا ويسارًا أو يتحركن به هنا وهناك أمام المشاهدين الذين حبست أنفاسهم من شدة الإثارة.

كما كان على المعجبين المتحمسين لسامية جمال، المنافسة الرئيسية لتحية كاريوكا، أن يجلسوا على مسافة قريبة منها ومشاهدتها وهى تؤدى رقصاتها وقد قامت سامية

جمال بدور أمام روبرت تيلور فى فيلم "وادى الملوك" من إنتاج هوليوود، كما أوقعت فى شباكها مليونيرًا من تكساس فكان من ضمن قائمة أزواجها الذين زادوا على الاثنى عشر زوجًا، أما الراقصات الأقل شهرة منهما فكن أيضًا فاتنات، وفى الفترات التى لم يكن يرقصن فيها كن يجالسن الزبائن ويشاركنهم ابتهاجهم.

لروح حائرة مثل روح أبى، كانت القاهرة بمثابة قصر للملذات ومشفى يبعث على راحة النفس الملولة، فمهما وصل ليون متأخرًا «للكوفنت جاردن»، فقد كان يجد العشاء الراقص قائمًا بين مساحات شاسعة من الحدائق المشذبة والأشجار المقلمة، والأوركسترا يعزف دون انقطاع ألحانًا عالمية يعزف السوينج أو الجيتاربج للأمريكان والإنجليز بينما المئات يرقصون على أنغام الفالس أو التانجو، كان إذا أحس بالجوع يجلس ليتناول عشاء كاملًا حتى وإن كانت الساعة قد بلغت الواحدة أو الثانية صباحا فالقواعد المألوفة عن أين ومتى ترقص أو تلعب أو تأكل، لم تكن سارية، ببساطة لأنك فى القاهرة.

ومما لا شك فيه أن الحرب كانت قد تركت بصماتها على بيتنا، فالقاهرة كانت مشتعلة بأزمات تموينية حادة ولم يكن الكثير من المواد الضرورية متاحًا، مثل الجاز اللازم لربات البيوت لإشعال باجور الجاز (ماركة بريموس) وطهى الطعام لعائلاتهن الذى يعتمد عليه طهاة المطاعم فى تحضير الوجبات لزبائنهم الجوعى، فظهرت وراجت السوق السوداء، ولكن أولئك الذين على دراية تامة بأغوار المدينة ومكامنها مثل أبى كان يمكنهم الحصول بسهولة ويسر على السلع الأساسية مثل السكر، والزيت والصابون، وفى جروبى الحلوانى الشهير كان يمكنك الاستمتاع بتناول الحلوى اللذيذة المصنوعة من الزبد الصافى على أنغام الأوركسترا الذى يعزف أعذب الألحان.

لم تتأثر حياة الليل رغم كل هذا النقص فى المواد التموينية بل ظلت منتعشة وظل رواد المقاهى على حالهم مهندمين متألقين وحياة المتعة مستمرة دونما انقطاع كما كان حالها فى العشرينيات والثلاثينيات وقت حكم الملك أحمد فؤاد والد فاروق للبلاد رغم الأعداد الغفيرة من الجنود المنتشرة فى الشوارع (من الإنجليز بالطبع فضلًا عن جنود من أستراليا، نيوزيلاندا، جنوب إفريقيا، وحتى بعض القوات الخاصة من الجيش الأمريكى) بالإضافة إلى اللاجئين الذين استقطبتهم مصر من كل حدب وصوب فى أوروبا، كانت الحياة خاصة فى الليل تبدو متألقة سلسة.

كان أوبرج الأهرام الذى افتتح عام ١٩٤٢ قد تخطى من فوره كل منافسيه من الملاهى الأخرى حين أصبح معروفًا أنه الملهى المفضل للملك فاروق، يتميز الأوبرج بقاعة رقص مفتوحة على السماء المرصعة بالنجوم، وحين تكون الليلة جميلة يكون من شبه المؤكد أن الملك سيمر على المكان مع كل حاشيته ليمارس هوايته فى إغواء من تروق له من النساء الجميلات بتصميم لا يلين.

كان توقع قدوم الملك فى أية ليلة يضفى على الأوبرج طابعًا مميزًا -وإحقاقًا للحق فالأوبرج كان ذوقه سقيمًا أكثر منه أنيقًا- مفرطًا فى زخرفته الداخلية بمعنى الكلمة التى اشتملت على شلالات وحمام سباحة وصالة رقص مغلقة بالإضافة لصالته الأخرى المفتوحة المشهورة، ومثل كل الملاهى الليلية كان الأوبرج يُبقى جانبًا طاولة محجوزة بشكل غير معلن للملك الباحث عن المتعة تحسبًا لحضوره، فى تلك الأمسيات الجميلة، كان فاروق يتجه رأسًا فور وصوله إلى طاولته بجوار حلبة الرقص التى تسمح له برؤية شاملة للسيدات الموجودات فى المكان.

كان الرجل الذى يعجب فاروق بزوجته أو صديقته أو رفيقته رجلًا سيئ الحظ، إذ كانت سمعته فى انتزاع أية امرأة يعجب بها تسبقه ولا يهم إن كانت مرتبطة بآخر أم لا

كان أبى يتردد على الكازينوهات على اختلاف أنواعها و لم يكن هناك صاحب كازينو لا تربطه به صداقة، وإذا حدث وكان هناك مجموعة من الضباط الإنجليز على مائدة ما -وهذا شيء مؤكد- فكان من عادته أن ينضم إلى مائدتهم فهم لا يلقون بالًا لكونه عربيًا يهوديًا فى آن واحد لأنهم فى الحقيقة كانوا يعتبرونه واحدًا منهم.

«كابتن».. «كابتن فيليبس»... نداء كان يتردد فى الظلام، وكان باستطاعة أبى أن يلمح على الفور الزى الكاكى المألوف لصاحب النداء ويبتسم لعلمه أنه من الأصدقاء، كان من عادته مشاركة الضباط شرابهم وممازحتهم بالإنجليزية، مصطنعًا لكنة متقنة لا تختلف عن لكنتهم.

كانوا يحبون أبى لأنه يجمع بين عالمين فهو يقوم بدور الكابتن بالتمام، فيكشف عن شخص ولد بالفطرة مهذب رابط الجأش، كما يوحى بتربية ونشأة هو فى الواقع لم يحظ بها.

أحيانا، كان يتفضل عليهم بحيلة من تلك الحيل المعروفة التى يتهافت عليها البعض فى الحفلات، فكان من عادته أن يعرض عليهم قراءة الكف، إذ يفترض أن المصريين

ظريفة بنت مدينة حلب

لهم باع طويل فى ذلك فكان أبى يأخذ أكفهم فى كفه، فيشير لأحدهم على خط الحياة وكيف أنه على وجه الخصوص ممتد طويل وكان من المستحيل على صاحب الكف معرفة الكيفية التى توصل بها أبى إلى كل ما يخبره به مما يقرؤه فى كفه.

كان لا يكف عن التعرف بالنساء، كان إيقاعه بامرأة فى حبائله هى قمة متعه التى قد تتعدى متعته بالقمار، ولكنه سرعان ما يمل ويفقد اهتمامه بمن معه فيهملها ساعيًا للبحث عن فريسة جديدة ولقاءات غرامية جديدة، سمعته كزير نساء لم تزده إلا سحرًا لديهن، فإذا قابل فى إحدى الأمسيات من تثير فيه غريزة الصياد سعى حثيثًا فى مطاردتها وقد دب الحماس فى أوصاله لكنه فى الوقت نفسه كان يفهمها أن علاقتهما لن تطول أبعد من ليلتهما تلك، فقد كان أقصى ما يثيره هو متعة ممارسة الصيد، المغازلة والمطاردة، وبانتهاء الأمسية يعود أدراجه وحيدًا إلى شارع الملكة نازلى.

من وجهة نظر ليون، فإن الوحيدة المسموح لها بزيارة منزل أمه هى فقط عروسه أو خطيبته، وهو بعد لم يكن قد ارتبط جديًا بأية امرأة، وللحق فإن بعض من كان يغازلهن وكن يتمتعن بجمال يرقى لمستوى الجمال الأوروبى كان سيصيبهن أشد العجب إذا عرفن أنه يسكن مع امرأة عجوز سورية مستبدة تعتنى به عناية شديدة كما لو كان طفلها ومعبودها فى آن واحد.

كان دائمًا حين يفتح باب البيت يرى جدتى جالسة تنتظره فى مكانها المعتاد على كرسى صغير من الخشب الصلد فى حجرة المعيشة وقد أحاطت رأسها بمنديل، كانت تعلل له بالعربية بأن انتظارها له يجعل النوم مخاصمًا لجفونها، لقلقها عليه وحزنها لهيامه على وجهه عبر المدينة، فكان يقبلها بحنان على وجنتيها ثم ينسحب إلى حجرته، ومهما كان مقدار رعايته واهتمامه بأمه، فإن توبيخها ولومها كانا لا يجديان مع ليون، فلم يكن أمام ظريفة إلا أن تعبر عن ضيقها ورفضها بالجلوس ليلة بعد ليلة على هذا الكرسى القاسى الظهر بينما شعرها الأبيض الطويل منسدل على كتفيها وعيناها الزرقاوان مترقرقتان بالدموع تسترق السمع لإيلاج المفتاح فى الباب وانفراجه عند دخول ابنها، حينئذ فقط كانت تسمح لنفسها أن تغمض عينيها وتنام.

أما أبى فكان يدخل إلى حجرته مثقل الرأس بفعل السهرة، ويقوم وهو نصف نائم بخلع سترته وقميصه الحريرى بعناية ويضع جواهره ودبوس رابطة العنق وأزرار القميص فى صندوق خاص، ويأخذ بعناية فائقة فى طى قميصه الحريرى وتعليق السترة حتى يمكنه ارتداؤهما مرة أخرى، وعند ذلك يكون الفجر قد رمى بخيوطه فى الأفق معلنًا بزوغ نهار يوم جديد ومجىء ليلة جديدة من السهر.

كان أبى ناجحًا كرجل أعمال فى القاهرة، ولم يستطع أحد أن يعرف كيف كون ثروته أو ما هو عمله بالضبط!؟

كان بالتأكيد مضاربًا شرهًا مغرمًا بالبورصة، سوق الأوراق المالية المصرية المتذبذبة بعنف، لكن كانت هناك أيضًا مهارته كسمسار، يبيع ويشترى منتجات تتدرج من ورق الكرافت البنى اللون وورق السولوفان إلى منتجات الطعام كعلب السردين والمستحضرات الكيمائية المركبة التى يستخدمها الصيادلة فى صيدلياتهم، فضلًا عن أعمال البقالة التى كان يشارك فيها أخاه الأكبر «العم رافاييل» الذى كان متخصصا فى أنقى أنواع زيت الزيتون وأرقى أنواع سكر القصب، فضلًا عن خبرته فى معرفة أجود أنواع النسيج خاصة القطن المصرى الذى يعد واحدًا من أكثر الأقمشة المتهافت عليها عالميًا، وكانت رحلاته لا تنقطع للإسكندرية لمتابعة أعماله المتعلقة بالاستيراد والتصدير رغم أن ما يستورده ويصدره ظل مجهولًا، وقد وصل نشاطه التجارى فى مرحلة معينة إلى حد توريد بعض المكونات التى يصنع منها مشروب الكوكاكولا اللذيذ وكانت الشركة المعروفة بهذا الاسم قد أسست فرعًا لها فى القاهرة وكان أبى يمدهم ببعض المكونات الرئيسة التى تدخل فى صناعة المشروب الشهير.

حتى هؤلاء الذين كانوا على مقربة منه مثل ابن أخته سالومون، لم يكونوا متأكدين تماماً من طبيعة أعماله دائمة التغير.

كل ما كان واضحًا هو أن ليون لم يكن له وظيفة حقيقية، لم يحدث أن حصل على أجر ثابت شهريًا إلا مرة واحدة حين كان مراهقًا، إذ التحق بالعمل فى بنك، تجهيزًا له ليصبح موظفًا بنكيًا un banquier وهى الوظيفة التى كانت من أكثر الوظائف وجاهة فى مصر كلها، لكن ليون رفض البقاء جالسًا على مكتب لساعات وكره الروتين، وفوق كل ذلك كره التقارير التى يتحتم عليه تقديمها لرؤسائه وأن يكون عبدًا لرغباتهم ونزواتهم، فالكابتن لم يكن ليسمح أبدًا لأحد بإعطائه أمرًا.

وبدلًا من ذلك، بدأ عمله معتمدا كليا على نفسه كشاب صغير السن من عصر قاهرة الاحتلال الإنجليزى، فجعل من نفسه شيئًا أساسيًا لقوات الاحتلال وضروريًا بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى، تطلب ذلك منه أن يتغلب على صعوبتين الأولى هى كراهية الإنجليز للمواطنين المصريين الذين يلقبونهم «سود الوجوه» والثانية هى عدم تقبل الإنجليز لليهود، كان أبى موهوبا فى اللغات فقد كان يجيد سبع لغات هى الإنجليزية والعربية والفرنسية وبالطبع العبرية فضلًا عن الإيطالية واليونانية والإسبانية وقد مكنه ذلك من أن يعمل كمترجم مرشد ووسيط، فكان يصطحب أصدقاءه من الإنجليز للأماكن النائية فى مصر ويساعدهم على التواصل مع أكثر الشخصيات المحلية عنادًا وتمسكًا بالرأى، وبطريقة ما كانت تلك هى أولى بداياته كرجل أعمال حين أصبح سمسارًا ووسيطًا بين عالمين عالم القاهرة المحتلة الكوزموبوليتانى، وعالم القاهرة الإسلامى بجانبيه الروحى والمادى.

كانت هناك فترات ازدهار كما كانت هناك فترات واجه أبى فيها الكثير من الصعوبات، لكنه تعلم من جدتى السورية أن ما يحققه من نجاح، أو يبوء به من فشل، هو سر يجب أن يحتفظ به لنفسه ولا يجوز أبدًا بأى حال، أن يطلع أحد على ثروته، ذلك كان ميراث يهود حلب، المدينة السورية القديمة، حيث ولدت ظريفة وزوجها، التى غادرها كلاهما بصحبة أولادهما العشرة بمن فيهم أبى، الطفل الرضيع بسبب التغيرات التى شهدتها البلاد فى أوائل القرن حين هبت القلاقل التى دفعت العائلات اليهودية التى عاشت فى سورية لقرون طويلة إلى لملمة أغراضها والفرار هربًا من الفاقة والعوز الاقتصادى إضافة إلى الاضطهاد الدينى.

وقد بدأت المآسى تتوالى على العائلة بعد استقرارها فى القاهرة، فقد توفى جدى والد ليون بعد إجرائه لعملية فتق، بعدها بقليل، توفيت أخته «اينيسول» التى كانت تتميز بجمال يأخذ الألباب هى وزوجها. والراجح أنهما إما قتلا فى القطار السريع المتجه من القاهرة إلى فلسطين حيث قطعت رقبتيهما بوحشية من قبل مهاجم مجهول أو قتلا فى حادثة، قفل باب الحديث عن تلك المأساة و لم يثر حديث بشأنها بعد ذلك أبدًا، فتلك هى طريقة يهود حلب، ولكن من حين لآخر كانت جدتى تبكى ابنتها مرددة اسمها بينها وبين نفسها «اينيسول.. اينيسول»، وقد أخذت هى وأبى على عاتقهما تربية أبناء «اينيسول» ومع ذلك استمر سوء الحظ فى ملاحقة عمتى اينيسول، فقد جن ابنها وظل محجوزًا فى السرايا الصفراء (مستشفى الأمراض العقلية) مأوى المجاذيب الضخم بالعباسية الذى تفوح فى أرجائه رائحة الياسمين.

ضربة أخرى تلقتها ظريفة من سالومون ابنها الثانى (الذى أطلق اسمه على ابن ابنتها الذى جاء من ميلانو للإقامة معهم تيمنًا باسم خاله) حين عاد من مدرسة الفرير -تلك المدرسة الكاثوليكية التى حظيت بسمعة طيبة حتى أن اليهود الورعين كانوا يرسلون أولادهم لتلقى العلم فيها- معلنًا تحوله من الديانة اليهودية إلى الديانة المسيحية سالكا مسلك الرهبان، خلفت تلك الردة حزنًا عميقا فى قلوب أفراد عائلة جدتى التى ظل أسلافها يتبوءون مواقع القادة الدينين ليهود حلب لمئات الأعوام وظل الغموض يكتنف هذه الردة رغم محاولاتهم سبر أغوارها طيلة حياتهم.

فُجعت جدتى فى ابنها وكانت ترثيه كما لو كان قد مات، ففى القاهرة القديمة كان ذلك ما ينبغى فعله عندما يتخلى أحدهم عن دينه، وقد تعافت ظريفة من تلك الواقعة ولكن حديثها لم ينته عن الزمن الفائت وطريقة معيشته وعاداته وتقاليده مذكرة أبناءها وأحفادها بتراث العائلة، وحتى فى القاهرة الكوزموبوليتانية كانت تصر على اتباع طريقة الحياة التى كان يعيشها أهل حلب.

بالكاد تعلمت جدتى الكتابة -إذ نادرًا ما كانت الفتيات يتعلمن فى سوريا- وكانت تتحدث العربية فقط وعندما كانت تخرج من المنزل كانت ترتدى «الحبرة» وهو رداء طويل أسود اللون لامع مفضل لدى نساء العرب ويغطى جسد المرأة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وكانت مغرمة بالحديث عن عائلتها فى سوريا وكيف كانت العائلة تدعى إلى تناول الطعام على موائد الملوك، لكنها لم تخض أبدًا فى تفاصيل أكثر فلم يعرف إن كان هناك حقًا ملوك فى دائرتها الاجتماعية فى سوريا، أم أنها ببساطة كانت تشير إلى ماضى أسرتها اللامع الشهير، فى ذلك العصر الذى كان مجرد ذكر اسم العائلة فيه يبعث على التبجيل والتوقير نظرًا لأجيال الأحبار التى تخرجت فى هذه

العائلة والمؤلفات الدينية التى كتبوها، ورغم أن حلب كانت ماضيًا بعيدًا، فإن ثقافتها ظلت تتحكم بقوة سحرية فى كل هؤلاء الذين ينحدرون منها، أيا كان المكان الذى يعيشون فيه، فى القاهرة القريبة أو فى بلاد أبعد من ذلك، بيونس آيرس، سانت باولو، جوهانسبرج، مانشستر أو بروكلين فى نيويورك، أن تكون يهوديًا حلبيًا يعنى ذلك أن تكون مطيعًا ومنفذًا مجموعة من التقاليد الاجتماعية والقواعد الدينية، التى يعود تاريخها لقرون مضت، ومع ذلك لم تمسها يد التغير، قواعد لا تحدد لك بدقة كيف تعيش حياتك وحسب بل وكيف تموت، كيفية العبادة والزواج وتربية الأطفال، وبالطبع كيفية الحصول على المال، ذلك أن ثقافة حلب كانت ثقافة مادية عميقة، حيث يحتل المال وتكوين الثروة المرتبة الثانية من الأهمية بعد الرب والأسرة.

ليون كان كتومًا محافظًا على ألا يعلم أحد على وجه الدقة متى يكون فى حالة مادية جيدة أو متى يكون على شفا الإفلاس وكان ذلك الطبع أيضًا من بقايا حلب حيث يثق الرجل بأسرته الصغيرة فقط -فرابطة الدم تعلو على كل شىء- وحتى عائلته يجب ألا تعلم شيئًا عن عمله، بصفة عامة كان ليون يبلى بلاء حسنًا فى عمله -فيما عدا فترة الكساد الاقتصادى- حين هبطت أسعار مواد البقالة التى كان يديرها مع العم رافاييل هبوطًا حادًا وأوشكت تجارتهما على الهلاك.

تميزت ثقافة يهود حلب أيضا بالكتمان، كانت ثقافة تنزع إلى الشك والريبة فى الآخرين فعلى الرغم من أن ليون كان يبدو شخصًا اجتماعيًا ميالًا للاختلاط بالناس، فإنه فى الحقيقة رجل وحيد، ورغم أنه كان بإمكانه استخدام العربة الحنطور فى تنقلاته، أو أن يستقل سيارة أجرة لقضاء مصالحه وإتمام مقابلاته المتعلقة بتجارته، فإنه كان يفضل التجوال على قدميه فى خطوات سريعة رشيقة، متنقلًا بين طرق غير ممهدة أقل ما يمكن أن توصف به أنها شوارع قذرة.

كانت له القدرة على السير لمسافات من شأنها أن تصيب الشباب صغير السن بالإجهاد، حتى فى الأربعينيات من عمره، كانت لديه طاقة ملحوظة تملؤه بالحيوية والنشاط، ورغم أن حلبة الرقص ليلًا هى الوسيلة التى يعبر بها عن مواهبه ويفرغ فيها طاقته، فإنه كان يستمتع بالتجوال لأميال فى أنحاء القاهرة فى الصباح الباكر، يباشر عمله مع زبائنه والشوارع بعد خالية من الناس، والنسيم عليل قبل أن يثقل الهواء وتغلق المحال أبوابها إذ كان يستحيل العمل فى حرارة ما بعد الظهيرة فى مصر.

عودة إلى أواخر الثلاثينيات عندما كان ليون يحاول إعادة بناء ما فقده فى فترة الكساد الاقتصادى، فيومًا ما استعان بابن أخته فى عمله، كان سالومون شابًا قوى

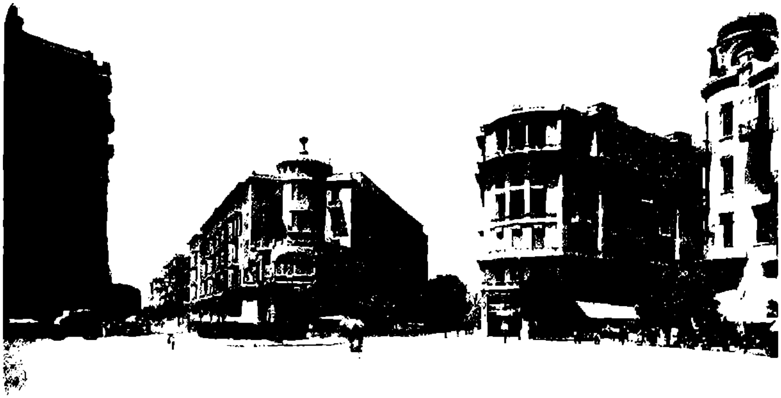

جروبى ـ سليمان باشا فى ثلاثينيات القرن الماضى

البنية كبير الحجم يكاد يقارب ليون فى الطول، ويصغره بنحو عشرين سنة، ورغم ذلك لم يستطع أن يجارى هذا الشاب خاله فى السير حينما كانا يسيران تحت شمس القاهرة الحارقة، لمقابلة الكثير والكثير من الزبائن، كان ليون يقابل صغار التجار، فلاحين بسطاء يبيعون العصير فى أكشاك فى حجم الصناديق الكبيرة، يبادلهم الحديث فى ود و لم يكن أبدًا متعاليًا عليهم، على العكس كان يتعامل معهم كأنه واحد منهم.

ومتى أبرم الاتفاق ينتزع دفتر ملاحظاته بسرعة مدونًا بدقة مطالبهم، عشر زجاجات من الصودا، ثمانى علب من السردين، دستة من الصابون القطع، أربعة براميل من الحجم الصغير من زيت الزيتون، «شوالين» من الدقيق وهكذا.

بالنسبة لابن عمتى القادم من ميلانو كان ذلك كله يبدو تافهًا، كان يتساءل هل من المعقول أن يكون خاله ليون، ساحر النساء الذى يحيا حياته غير عابئ بأحد، والذى دائمًا ما يترك المنزل لعالمه الملىء بالمغريات فيما وراء شارع الملكة نازلى، تاجرًا صغيرا لهذه الدرجة؟ يتربح قروشًا قليلة من بيع زجاجتين من زيت الزيتون ودستة من علب السردين!؟، ورغم مرور ساعات عديدة على بدء عمله ومقابلاته الكثيرة مع التجار، ظل ليون على طاقته فى العمل يدون بنشاط طلبات التجار، فيما كان سالمون على حافة الإعياء حتى أنه فقد التركيز تمامًا فيما يقوم به ليون، و لم يعد لديه أدنى فكرة عن حجم معاملاته التجارية وكل ما كان يطمح إليه هو العودة إلى المنزل والاستلقاء على سريره فى حجرته المظلمة الباردة بعيدًا عن حرارة الشمس اللافحة خلف شارع الملكة نازلى.

نمت معاملات أبى التجارية وتطورت خلال سنوات من التعامل مع صغار البقالين المحيطين بشارع الملكة نازلى إلى التعامل مع أكبر المؤسسات التجارية فى القاهرة، وكان من بينهم «جروبى» الحلوانى السويسرى الأسطورى الذى كان مقهاه الملتقى الرئيسى لرواد المقاهى، و«سباتيس» ذلك اليونانى صانع الصودا الذى كانت زجاجاته الفوارة تنفجر بالليمون التى لاقت إقبالًا شديدًا فى كافة أنحاء مصر، وفيما بعد تغلبت عليه كوكاكولا، وذاع صيته بقوة كسمسار negociant ذلك لأنه كان قادرًا على توفير أى منتج مهما صغر أو ندر، فضلًا عن سمعته كرجل يلتزم بكلمته.

كان عائده كبيرًا إذ لم يكن مرهقًا بمصروفات العمل، فلم يتبع أساليب رجال الأعمال وأنظمتهم التى تكاد تكون شراكًا يقعون فيها، فليس له رأس مال ولا نفقات عامة، ولا توجد لديه دفاتر جرد وليست له أعمال متراكمة لم تنجز، ليس له مخزن للبضائع وليس له أصول ثابتة ومن ثم لا تقع عليه أى مسئولية قانونية كما أنه لا يعمل لديه موظفون وأهم من ذلك كله، ليس له رئيس فى العمل.

فى تعاملاته مع الموردين لم يكن يعرف نظام الائتمان بل كانت كل تعاملاته بنظام الدفع الفورى وكلمة الشرف، مهما كان ما يشتريه كان يدفع قيمته فى الحال،كان يكره العقود وتوقيع المستندات وعندما يعطى كلمته كان فى ذلك الكفاية، وكان مغرمًا بمن يعرف التعامل بكلمة الشرف gentleman's agreements، كان هناك واحد من المتعاملين معه تخصصت شركته فى بيع الأصناف التى تضيف نكهة للطعام بما فيها البهارات، والمأكولات المعلبة وكل مستلزمات الطهى، كان أبى يزور شركته بميدان الأزهر، بجوار الجامع الأزهر الكبير على الأقل مرة فى الأسبوع، وأثناء مروره بين المكاتب فى طريقه لمقابلة كبار المسئولين لتقديم طلباته كان حريصًا على ألا يتجاهل أى شخص حتى صغار الموظفين، يمد يده فى جيبه ويلتقط بعض من الحلوى (البون بون) ثم يلقى بها على كل مكتب يقابله فى طريقه كما لو كان يلقى بالنرد على مائدة القمار.

عند مروره بأى حجرة، كان الموظفون يتوقفون عن العمل رافعين أنظارهم إليه، لم يكن أبى كمعظم زبائنهم الذين يمرون عليهم ويتبادلون معهم أحاديث ودية بالعربية بل كان يلقى عليهم بعض العبارات الإنجليزية مثل «صباح الخير»، «كيف حالك أيها العجوز؟» وقد يضيف بعض العبارات اللاذعة لحديثه فيرفع بعض الموظفين أصواتهم صائحين «كابتن» يتبعونها بقيامهم مؤدين التحية العسكرية على سبيل المزاح، ورغم أن تلك الشركة كانت ضرورية لتجارته وكان هو عميلًا كبيرًا ومهمًا لها لكثرة ما يطلبه من البضائع، فإنه أيضًا لم يكن يتعامل بنظام الائتمان مثل عملائها الآخرين بل كان يسدد قيمة ما يشتريه فورًا مما سمح له بأن ينعم بحق الطلب والحصول على كل البضائع

التى يطلبها أيا كانت كميتها، ومع ذلك كان يكتفى بشراء ما يحتاج إليه فقط من بضائع، على سبيل المثال ملح الليمون sell du citron المستخدم فى المخبوزات ويدفع ثمنه فورًا ساحبًا رزمة نقود من حافظته البنية.

كان يتبع أسلوبًا فى عمله يقوم على عدم إغراق نفسه بالديون فضلًا عن أن الدفع نقدًا لا يترك وراءه أية آثار مكتوبة يستدل بها على نشاطه التجارى، فمعظم معاملاته التجارية لم يتم تدوينها فى دفاتر، إذ كان يسير على نهج واحد فى كل من حياته العملية وحياته الخاصة وهو السرية التامة وعدم الثقة بأحد، ولعل ذلك ما جعله متفوقًا على غيره من رجال الأعمال، تلك هى طريقة يهود حلب، كيف استطاع أن يحقق كل تلك الأرباح من عمله!؟ كان ذلك من أسرار الكون الغامضة التى لم يستطع أحد الاطلاع عليها أو الإمساك بها كان أمرًا محيرًا مثلما كانت سترته ذات اللمعة الناعمة وسحره الذى لا يقاوم.

فى ليلة السبت، كانت هناك دائمًا وقفة تبدأ من ليل الجمعة فيصبح أبى شخصًا مختلفًا جديرًا بالاحتفال باليوم اليهودى المقدس، فيعود إلى المنزل مبكرًا قبل أن تأذن الشمس بالمغيب حاملًا معه باقة كبيرة من الورود البلدية لجدتى ومعانقًا ابن أخيه قبل أن يستعد للذهاب للكنيس.

فى تلك الأمسية تكون ظريفة فى المطبخ أكثر مرحًا من المعتاد لأنه اليوم الوحيد فى الأسبوع الذى تحظى فيه برؤية ابنها على مائدة العشاء، فتقوم بطهو أطباق شهية من اللحوم والدجاج والأرز التى كانت بارعة فى إعدادها على طريقة أهل حلب بإضافة قليل من الفاكهة عليها، كان هناك أيضا الباذنجان الأبيض المحشو وليس الأسود ذلك الذى من شأنه أن يجلب سوء الحظ حيث كانت ظريفة ككل ربة بيت فى الشرق تنتابها الهواجس من الحسد وعين الحسود وتبذل قصارى جهدها لتفاديه، وفى ليلة السبت، كان اللون الأسود ممنوعًا، الملابس السوداء، الأفكار السوداء والطعام ذو اللون الأسود، فحتى الزيتون الأسود كان من الممنوعات على مائدة الطعام لضمان أن يمر الأسبوع بسلام دون منغصات.

كان الذهاب إلى المعبد يتطلب ارتداء أفضل الثياب والاهتمام بالمظهر شأنه فى ذلك شأن الخروج للنزهة، كان ليون يرتدى قميصًا أبيض مصنوعًا من أفضل أنواع القطن وسترة بيضاء، أما الجواهر فكان يفضل أن يرتدى دبوس رباط عنق ينم عن الوقار مزين بلؤلؤة واحدة.

بحلول المغرب كان شارع الملكة نازلى يزدحم برجال فى قمة الأناقة يسيرون فى طريقهم للمعبد حاملين حقائب من قماش الساتان أو القطيفة تحوى شال الصلاة وكتب التلاوة وقلنسوة الرأس، كان المشهد يعبر عن أسلوب فى المعيشة غاب الآن عن ذاكرة العالم، مشهد كان عنوانًا لقبول تلك المدينة العربية لليهود المقيمين بها،حيث كان من الطبيعى أن يقطن المسلمون واليهود فى ذات الأحياء، فى نفس الشوارع، وفى نفس العمارات، وكانت العلاقة بينهما عادة متناغمة.

فى تلك الساعات ورغم أن أيًا من هؤلاء الرجال لم يكن يرتدى قلنسوته وهو فى طريقه للمعبد إيمانًا من الجميع أن الدين هو شأن خاص، فإنه كان يبدو واضحًا أن هؤلاء القوم هم يهود متوجهون للصلاة، فى واحد من عشرات المعابد اليهودية المنتشرة فى الجوار بحى غمرة.

كان لأبى اختياراته فى المعبد الذى يؤدى فيه صلاته، يتوقف ذلك على مزاجه الخاص لكنه غالبًا كان يميل إلى الصلاة فى معبد صغير، بسيط يشعر فيه بالحميمية يقع فى زقاق على بعد شارعين من منزلنا معروف باسم le kottab "الكتاب"، كما كان يفضل أحيانًا ahavah ve agabah "رابطة الحب والصداقة" حيث يوجد حبره المفضل «هالفون سافداى» الذى كان ضئيل الجسم أحدب الظهر فصيحا بليغًا يتمتع بروح ودودة ولطيفة وكان يشيع فى المعبد جوًا مفعمًا بالحياة وكان أبى يوقره كل التوقير

بانتهاء طقوس الصلاة يعود هؤلاء المتأنقون للانتشار فى الشوارع التى تمتلئ بأصوات ضحكاتهم ومزاحهم، مسرعين الخطى للعودة لمنازلهم حيث زوجاتهم وأولادهم، متلهفين لتذوق وجبة ليل الجمعة التى تفوح رائحتها فى هواء ليل حى غمرة.

فى المنزل تكون ظريفة قد قامت بترتيب المائدة فى حجرة الطعام بوضع مفرش أبيض للعشاء، وبعد أن يجلس أبى وسالومون، تدخل هى والخادمة بأصناف الطعام التى تفننت جدتى يومها فى إعدادها، إذ كان من الضرورى أن تقوم بإعداد الطعام ليومى الجمعة والسبت، كان عشاء ليلة السبت هادئًا دون أقارب أو ضيوف أو أبناء عمومة.

يصب أبى كوبًا من زجاجة النبيذ المصنع بالمنزل، ويقف الجميع بينما هو يتلو صلاة الشكر ليبارك الله على نعمته وأن يديمها عليهم ثم يتوجه أبى وابن عمتى بعد ذلك لجدتى ويقبلا يديها ثم يعودا إلى كرسييهما.

أخيرًا تبتسم ظريفة، فرحة بوجود ولدها الوسيم ممشوق القامة جالسًا بجوارها من جانب فضلًا عن حفيدها الأنيق المفعم بالحياة جالسًا بجوارها على الجانب الآخر، نعم لا يتناولون العشاء مع الملوك كما كان الحال فى السابق ولكنها الآن بصحبة أميرين.

بغروب شمس السبت، يشاهد الرجال المتأنقون عائدين من المعبد بحقائبهم المصنوعة من قماش القطيفة وقد وضعوها تحت إبطهم يحمل كل منهم عودًا أخضر فى يده، غصنًا من نبات عطرى، تنبعث منه رائحة قوية تكاد تصيب المرء بالدوار، وكانت العادة أن تقدم لهم تلك العشبة فى نهاية الصلاة، حين يتلو الحبر صلاة العطر، وبذلك ينتهى يوم السبت المقدس إيذانا ببدء أسبوع جديد بروح مفعمة بالتقوى.

لم تكن كل معارف ليون الدينية بقادرة على مساعدته على تحقيق الوفاق داخله، بين الرجل الحريص على أداء الصلوات فى المعبد باستغراق تام، وعلى التقيد بكل طقس، من طقوس الصلاة والصائم، لكل فرض صوم، والمطيع لكل وصية ممكنة من الوصايا العشر، وذلك الرجل الذى يختفى ليلة بعد ليلة لملاحقة كل إثم وخطيئة محرمة.

كأنما هناك شخصان يسكنان معًا ذات البدلة الشركسكين، أحدهما تقى ورع يشبه الأحبار فى المعبد الكبير بأرديتهم الكهنوتية البيضاء المتلألئة النقية، والآخر يعيش حياة سرية شديدة الإثارة، بعيدًا فيما وراء منزلنا بشارع الملكة نازلى.

لم تكن أمه راضية عن حياته، تلك التى تقوم على العبث والمتعة، وكانت مصممة على وضع نهاية لها، نعم كانت ظريفة تعرف أنه وفقًا للعرف السائد فى حلب، أن الرجل يتمتع بحرية واسعة فى تحديد الوقت الذى يقرر فيه الزواج بعكس المرأة، فله أن يتزوج فى العشرينيات أو الثلاثينيات أو الأربعينيات، فالرجل حسب ذلك العرف يظل متمتعًا بجاذبية تجعل منه زوجًا مقبولًا، ولكن بموجب العرف نفسه، كان لزامًا عليه أن يختار زوجة حيث لم يكن حرًا فى أن يعفى تمامًا من الزواج، وكان لديها من اليقين ما يجعلها تطبق ذلك العرف حتى على رجل مثل أبى، ليس لديه ميل للاستقرار، تجاهل أبى تلميحات ظريفة فى شبابه ولكن توسلاتها وتضرعاتها له بالزواج بدأت تؤتى ثمارها على الرغم من عدم تقبله لها وضيقه الدائم بها.

فى صباح أحد أيام صيف ١٩٤٢ سرى الخوف فى أوصال مدينة القاهرة عقب إعلان روميل متباهيًا عبر الأثير، أنه سيكون فى محل الحلوانى الشهير جروبى فى الخامسة مساء، وفى ذات الوقت بعث موسولينى رسالة مفادها أنه على نساء مصر كلهن أن يتهيأن فى أجمل ثيابهن استعدادًا للاحتفال الذى سيقام ابتهاجًا بدخول النازى مصر، فقائد الجيش النازى كان يبعد عن الإسكندرية مسافة تقل عن الساعة، إن جيشه الذى لا يقهر وقد احتل العلمين، بدا واثقًا من قدرته على إحكام قبضته على القاهرة فى الوقت المحدد للاستمتاع بشرب شاى بعد الظهيرة بفندق شبرد، وأكل الحلوى اللذيذة عند الحلوانى الأسطورى جروبى، كما لو أن ذلك بمثابة ترسيخ، للسيادة الألمانية على أرض مصر.

كان لجروبى قيمة رمزية لدى القاهريين تضاهى مكانة مطعم ماكسيم وفندق موريس لدى الباريسيين، ولما كان الألمان يحرصون على إخضاع المعالم الشهيرة ذات القيمة فى المدن التى يحتلونها كرمز لانتصارهم، فعندما اجتاحوا باريس سارعوا بالسيطرة على مطعم ماكسيم وفندق موريس، لذا كانوا تواقين لتجريد المدينة التى يحتلونها من أجمل ما يميزها من مبان ويخصصونها لإقامتهم فى احتفال صاخب، وفى القاهرة كان مقهى وحلوانى جروبى فى ميدان سليمان باشا وفرعه فى شارع عدلى هى بلا شك من الأماكن الجديرة بالزيارة، وبالفعل كان هو الملتقى المفضل لكل أعداء الرايخ الألمانى، الفرنسيين، الإنجليز، الأستراليين، اليونانيين، اليهود.

كان ليون يعتقد ويردد دائمًا أنه إذا كانت هناك جنة على الأرض فتلك الجنة اسمها «جروبى»، وقد كان «جروبى» ينقسم إلى عدة أقسام، فقسم منه مقهى، والقسم الآخر محل للحلوى، جزء منه بار والجزء الآخر مكان للمقابلة، و لم يحظ ذلك البناء الأسطورى باهتمام مثلما حظى به وقت الاحتلال الإنجليزى لمصر حين قرر الضباط الإنجليز أن يكون مكانًا خاصا بهم يترددون عليه كثيرًا خاصة وقت سنوات الحرب.

فقد كان الضباط الإنجليز يحبون أن يرافقوا زوجاتهم أو صديقاتهم أو خليلاتهم إلى هناك للاستمتاع باحتساء فنجان من الشاى أو تناول قطعة من الحلوى اللذيذة فى فترة ما بعد الظهيرة، ولأن الإنجليز كانوا هناك فكذلك كان أبى ولأنهم يحبون ذلك المكان ويقدرونه كذلك كان هو

أصاب الذعر كل بيت يهودى من احتمال اجتياح النازى لمصر مرددين: «سيصل الألمان ويقطعون رقابنا» وفى بيت الأم، ظلت فريدة الصباغ تهدئ من روع الرجال لأيام، كانت تنبههم إلى أن مصر كانت ومازالت هى مهبط الأنبياء والأديان السماوية، كما ذكرتهم جميعا بأنها مكان ميلاد النبى موسى، ومستقر الحبر موسى بن ميمون، مصر التى أقام فيها كل من أرميا النبى المتشائم المتوقع للكوارث والنبى إليا خالد الذكر، كل هؤلاء لن يتخلوا عنا أبدًا، وتوجهت مدام الصباغ إلى السماء رافعة يديها فى ضراعة بالدعاء "ربنا كبير" dieu est grand لفظ بها أبى حينما كان ينظر إلى أوراق اللعب الجديدة بين يديه، كمقامر كان ليون يؤمن بأن الحظ يمكن أن يتبدل ويتغير، لذا فالإنجليز فى أمس الحاجة لأن يتبدل حظهم، و لكن كمراقب للحرب عن كثب، كان يخشى ألا يتوقف روميل "ثعلب الصحراء" عن التقدم للأمام، ويعتقد أن إنقاذ مصر من أنياب روميل يتوقف فقط على وقوع معجزة، كيهودى مخلص كان يؤمن بما لا يدع مجالًا للشك بأن تلك المعجزة على وشك الوقوع.

استمر الرجال فى لعبهم، مطمئنين لاعتقادهم بأن الأنبياء والقديسين عبر القرون الماضية ينظرون إليهم بعين الرعاية، كل يهود القاهرة أحسوا الخطر البادى فى تعرضهم لسقوط فى أيدى الألمان، خاصة أولئك الذين فروا هاربين من براثن هتلر وأعوانه، صاروا الآن فى حالة من الهياج الشديد وسيطر عليهم الخوف، فشرعوا يضعون الخطط للهروب مرة أخرى.

فى مطبخها بشارع الملكة نازلى، كانت جدتى ظريفة تبكى فى سكون بجوار باجور الجاز «ماركة بريموس» وهى دائمًا ما كانت تبكى عندما يتملكها الخوف، لها ابنة فى الأراضى النازية والآن يتربص الخطر بالعائلة كلها، إذ لا يوجد مجال للشك بأن انتصار الألمان فى العلمين سيأتى على اليهود عن بكرة أبيهم.

سرعان ما أصبح جليًا أن روميل لن يستطيع أن يتذوق ولو قضمة صغيرة من حلوى جروبى الراقية، فقد لحقت به أسوأ هزيمة عرفها الجيش الألمانى حتى الآن وقد أجبر على التقهقر بطريقة مهينة ودمرت دباباته وتحولت كبرياؤه الأسطورية إلى أشلاء، تنفست القاهرة الصعداء والتقى مجتمع القاهرة الراقى societe haute من الضباط الإنجليز، الفرنسيين، الأستراليين، وبالطبع اليهود فى جروبى للاحتفال مقتنعين ومطمئنين للمرة الأولى بأن الحرب سوف تميل إلى كفتهم، وقد حضر أبى فرحًا حفل الشاى الراقص، الذى أقيم بتلك المناسبة وظل الأوركسترا يعزف ويعزف دون توقف.

فى نفس الوقت الذى كان يتم فيه إبعاد النازيين عن مصر وتلاحقهم الهزائم عبر انسحابهم من شمال إفريقيا، كانت بقية العالم لا تزال فى حرب، وظل اللاجئون اليهود يتدفقون على مصر من كل حدب وصوب، وقد اتخذ جميعهم قرارهم بلا تردد بالاتجاه لمصر، ليس فقط بسبب دحر النازى على حدودها، ولكن أيضا لأنها كانت الدولة الوحيدة التى ظل يهودها يعيشون فى أمان وسلام كامل و لم يتعرضوا لأى ضرر كما حدث لليهود فى بقية أنحاء العالم، وما دامت القاهرة قد أصبحت واحدة من المجتمعات اليهودية القليلة الباقية على حالها، فلا مانع الآن أن نضع المستقبل نصب أعيننا وأن نفكر فى الزواج وإنجاب الأطفال، وعلى ذلك وفى ربيع ١٩٤٣، بعد شهور قلائل من انتصار الإنجليز الباهر فى العلمين وطرد الألمان شر طردة من شمال إفريقيا، جاء أبى بامرأة شابة ذات طلعة ملكية وعيون واسعة كعيون العرائس تشوبها نظرة خوف إلى المنزل بشارع الملكة نازلى، كانت ظريفة أكثر الناس دهشة حين أعلن أبى خطبته على إيديث ذات العشرين ربيعًا.

الفصل الثانى

موسم المشمش

كانت ألكسندرا وإيديث فى طريقهما للقيام بزيارة على جانب كبير من الأهمية لمنزلنا بشارع الملكة نازلى، فتلك هى المرة الأولى التى ستجتمعان فيها بأسرة ليون، وقد بذلت الأم وابنتها قصارى جهدهما لإنجاح تلك المقابلة فى ذلك البيت الذى تحكمه الأم التى تلبس وتتصرف بطريقة امرأة عربية من الزمن القديم بتسلط شديد، وعلى الرغم من أن كلًا من عائلة ليون وعائلة إيديث تقيمان فى قلب القاهرة فإن ألكسندرا وابنتها كانتا تشعران فى بيت ليون أنهما تجولان فى حقبة زمنية مختلفة وثقافة مغايرة لتلك التى عهدتاها فى منزلهما.

كان من يقدم لهما دعمًا معنويًا شخص تدعوانه بتبجيل "العم إدوارد" وذلك على الرغم من أنه فى الحقيقة ابن زوج ألكسندرا وأخ غير شقيق لإيديث، وقد كان العم إدوارد أكبر سنًا، غنيًا، شديد الوسامة ويمثل لإيديث الأب الذى هجرهم، ومن جانبه كان هو الآخر شديد الاهتمام والعناية بها، وقد صحبها فى زيارتها الأولى لمنزل أبى ليكون بجوارها ويقوم بالدور الذى يجب على أى رجل فى وضعه أن يقوم به فى مثل هذه الظروف وليكمل الصورة التى يجب أن تظهر بها أمام عائلة الخطيب، أن لها أهلًا تركن إليهم ويهتمون بها، ولكى يتفاوض نيابة عنها فى الأمور المالية وتفاصيل الزواج الوشيك، وفى الواقع لم يكن هناك الكثير للتفاوض بشأنه فلم يكن لإيديث أية ممتلكات أو أصول مادية على الإطلاق.

معبد بوابات السماء بشارع عدلى فى أربعينيات القرن العشرين

بالطبع لم تكن لدى أمى أدنى فكرة عن نمط الحياة التى كان ليون يحياها، لم تكن على علم بعادته فى مغادرة المنزل مبكرًا كل صباح ولا بعودته بعد انتصاف الليل، ولا دوامة العلاقات الغرامية التى يدور فى فلكها، فلم تمنحها زيارتها الأولى لعائلة أبى فى ذلك اليوم أية فرصة لالتقاط أية معلومة بهذا الشأن.

ما إن رأت ظريفة إيديث لحظة دخولها المنزل حتى أثنت على جمالها قائلة بالعربية: "حلوة، حلوة"، وربتت على رأسها فى حنان، ثم اختفت جدتى فى المطبخ وخرجت منه حاملة أطباقًا من الحلوى من صنع يديها، طبقًا يتلوه آخر، من البسكويت إلى الفواكه إلى المكسرات، والمزيد من الحلوى مع إبريق زجاجى كبير من عصير الليمون الطازج.

وقد حُدد موعد الزفاف فى الحال وجرت مراسم الزواج فى معبد «بوابة السماء» الكبير بوسط المدينة إذ كان هو المعبد الوحيد الذى يمكن أن يتسع لكل عائلة ليون من العمات والخالات وأبناء العم وأبناء الإخوة والأخوات.

وضعت إيديث بخجل خاتم الخطبة فى يدها فبدا ظاهرًا للعيان، تقدمت حماتها وانحنت على يدها لتحدق فى الخاتم وتتمكن من فحصه بطريقة تماثل طريقتها فى

فحص الليمون أو المشمش فى سوق حلب القديم، ثم رفعت رأسها منفرجة الأسارير معربة عن رضاها.

كان سالومون يقف متحفظًا، لم يخرج حديثه مع إيديث عن العبارات المعتادة التى تقال فى بدايات أى تعارف، لكنه اندهش لشبابها وإحساسها المرهف، فهى لم تكن أكبر سنًا منه ومع ذلك فها هى تتزوج من خاله، كان على سالومون أن يغادر الحجرة الرئيسية الفسيحة التى كان يستمتع بالإقامة فيها والتى تقع خلف المنزل فقد تقرر أن تكون هى غرفة العروسين بعد عودتهما من شهر العسل.

حين عاد العروسان من رأس البر، المصيف المشهور بالعشش المبنية من خشب البامبو والمطلة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، كان واضحًا أن أبى قد استهل صفحة جديدة من حياته، فقد هجر معظم عاداته القديمة، لكنه واظب على الاستيقاظ مبكرًا للذهاب إلى الكنيس ومن ثم إلى عمله وبدلًا من أن يبقى خارج المنزل طوال اليوم كما كان فى السابق جعل من عادته العودة لتناول وجبتى الغداء والعشاء مع العائلة.

كان أبى ينقر بإصبعه على الراديو الخشبى معربًا عن سعادته، إذ صار راضيًا بقضاء وقت المساء فى قراءة الصحف والاستماع للإذاعة التى تبث على الهواء مباشرة أغانى أم كلثوم التى كانت تشدو بها من مسرح الأزبكية بوسط المدينة مذكرة إياه بالأيام الخوالى التى خلفها وراء ظهره.

نالت إيديث على الفور إعجاب جدتى التى مدحت أخلاق وجمال زوجة ابنها الجديدة، وكانت مدركة تمامًا لحقيقة أن إيديث فتاة متعلمة، إذ كان التدريس مهنة لها شأنها وهيبتها، ولكن فى واقع الأمر لم يكن التعليم يعنى الكثير لتلك المرأة السورية العجوز التى كانت بالكاد توقع باسمها، كان ما يهمها حقًا هو ما تتميز به إيديث كزوجة، هل هى مناسبة لليون؟ وهل -إن شاء الله- سيرزق منها بكثير من الأطفال.

أصبح جليًا بعد أسابيع قليلة من انتقال إيديث إلى منزل الزوجية، أنها تفتقد الكثير من الصفات الضرورية للحياة الزوجية غير ما تتمتع به من شباب وجمال.

كان ما أحزن جدتى كثيرًا هو أن إيديث لم تظهر سوى القليل من الاهتمام بشئون المنزل وخاصة بالمطبخ، ذلك المطبخ الصغير القديم الذى كان الشغل الشاغل لظريفة والذى كان دخوله يصيب إيديث بالتوتر حيث تتطلع إلى باجور الجاز البريموس بفضول حذر لخوفها من صوت الفرقعات الصغيرة التى تصدر عنه ونفورها من رائحة

«الجاز» (الكيروسين) الشديدة المنبعثة منه التى تصيبها بالدوار فكانت تتعامل معه كأنه جهاز من عالم آخر.

نشأت ألكسندرا –أم إيديث– نشأة مختلفة تمامًا عن تلك التى نشأتها ظريفة –أم ليون– فلم تكن ألكسندرا تتحدث فقط الفرنسية والإيطالية وتزدرى العربية بل كان لها مظهر وسلوك أرستقراطى ناتجان عن تربيتها الراقية التى شبت عليها بين عائلتها اليهودية الثرية المقيمة بالإسكندرية وقد ربت إيديث على أن تنظر لأعمال المنزل على أنها أعمال دونية يقوم بها أناس أقل شأنًا منهما، أعمال لا تليق بأناس أمثالهما، وكانت تصر على تلك النظرة، حتى فى الأوقات التى كانت فيها حياتهما لا تختلف كثيرًا عن حياة أولئك الناس الذين تزدريهم، لذا فقد شجعت ابنتها على قراءة الكتب أو الذهاب للسينما، فلا وقت لديها لتضيعه فى المطبخ.

فبعد أن هجرهم أبوها أخذت إيديث على عاتقها معظم شئون العائلة، وعملت على رعاية ثلاثتهم، ألكسندرا وأخيها فليكس ونفسها، لكنها ورثت عن ألكسندرا ازدراءها للأعمال المنزلية التى تقوم بها النساء فى بيوتهن، فضلًا عن أن إيديث اعتبرت أن قيام الخدم بجميع الأعمال المنزلية هو أمر مفروغ منه، طالما تزوجت فى عائلة ثرية ذات منزلة رفيعة.

كانت تلك الآراء الواهمة والكارثية هى قناعات أمى ذات العشرين عامًا حين تزوجت أبى ذا الاثنين والأربعين عامًا، فلولا جدتى ظريفة وإشرافها الكامل على أعمال البيت، ولولا الخادمة لكانت الأسرة قد بقيت على حالها دون ترتيب، وغدت خزانات الطعام خاوية، ولتراكمت الأتربة على الأرض، ولظل باجور الجاز مغلقًا، وما كان لأحد أن يقوم بزيارة العائلة إذ لا يوجد حينئذ إلا القليل لتقديمه كواجب للضيافة.

لم تكن إيديث كسولة أو غير مؤهلة لأعمال المنزل، قدر ما كانت ترتعب من السيدة العجوز المستبدة، الحاكم بأمره فى المنزل بشارع الملكة نازلى، كانت تميل بشدة للتخلى عن شئون المطبخ لحماتها، إذ كانت تفضل البقاء فى حجرتها الهادئة تقرأ، بنهم أحدث ما وصلها من روايات، مفتقدة عملها بمدرسة قطاوى باشا الذى تركته مضطرة حيث كان من غير اللائق لعروس محترمة فى قاهرة الأربعينيات أن تستمر فى العمل بعد الزواج بينما زوجها قادر على إعالتها.

أصدرت ظريفة حكمها على أمى: «إيديث ليست بارعة كربة بيت»، كان ذلك يعنى حكمًا بالإعدام على أمى فى مجتمع تقدر فيه المرأة أولًا بمظهرها الخارجى وثانيًا

بكيفية إدارتها لشئون بيتها، وقد انتشر هذا النبأ المتعلق بمواطن الضعف عند أمى فى بيوت بنات ظريفة وزوجات أبنائها فيما وراء شارع الملكة نازلى.

كانت عائلة أبى تتميز بالترابط الشديد بين أفرادها وكانت نساؤها يتميزن بالفضول الشديد، كان أقاربنا من جهة أبى يزورون منزلنا وقتما شاءوا، أخواته ليلى ومارى وريبيكا وأخواه الأكبر منه رافاييل وشالوم، أما الشخصان الوحيدان اللذان لم يزورانا فهما جوزيف أخوه الأكبر والأكثر ثراء الذى يقيم بقصره فى حى الزمالك والذى آثر الابتعاد عن العائلة، وسالومون القسيس الذى يعيش فى القدس والذى لم يكن ليلقى الترحيب على الإطلاق فى منزلنا بشارع الملكة نازلى.

تعجب الإخوة من اختيار أخيهم لعروسه فقد كانت إيديث بالتأكيد شديدة الجمال ولكنها كانت تتميز بالطيبة التى تبلغ حدود السذاجة فضلًا عن ضعف بنيتها، لقد توقعوا –بعد كل هذه السنوات– أن يتزوج أخوهم من امرأة خلابة ذات جاذبية، وليست تلك الشابة الفقيرة المتواضعة من حى السكاكينى وربما يكون السبب فى اعتقادهم بأنها غير مناسبة للكابتن، هو معرفتهم بتقاليد المجتمع الذى يسوده الرجال ويتحكمون فيه، مما ينبغى معه أن تتحلى المرأة بشخصية قوية لضمان استمرار زواجها، ولقد كان واضحًا للجميع أنه على الرغم من كل الميزات التى تتمتع بها إيديث كجمالها وسحرها وتعليمها وثقافتها وروح الدعابة التى تتحلى بها، فإنهم لاحظوا افتقادها للجرأة التى تمكنها من مواجهة ليون والدفاع عن حقوقها.

من جانبها كانت إيديث تحب معظم أقارب زوجها وعلى الأخص أخته ريبيكا التى كانت تتميز بطيبة قلبها وحرصها على الترحيب بإيديث وبعث الطمأنينة فى قلبها وإشعارها بأنها بين أهلها، وكذلك العم شالوم الذى كان أفقر عضو فى العائلة وكان يعانى من إصابة فى قدميه سببت له عرجًا جعله يمشى بصعوبة مرتديًا حذاء عاليًا، لكن طيبته البالغة كانت السبب فى تخفيف إحساس الآخرين بعجزه.

كان من عادة النساء فى عائلة أبى أن يرتدين ثياب المنزل أو الروب دو شامبر عند جلوسهن على مائدة الطعام مما أثار دهشة أمى وتعجبها إلا أن شدة خجلها منعتها من سؤالهن عن سبب ذلك، هل كانت تلك إحدى العادات الغريبة التى كان الناس يمارسونها فى حلب القديمة!؟ ولأنها لم تكن لتشعر بالراحة إذا ما قلدتهن فى ذلك، لذلك ظلت ترتدى ثيابًا كاملة على مائدة الطعام سواء أكان هناك ضيوف أم لا.

المنزل رقم ٢٨١ شارع الملكة نازلى

بعد ذلك يأتى دور الطعام فى قائمة الأشياء التى أشعرت أمى بالغربة فقد اتسمت الوجبات التى كانت تقدم يوميًا بالبذخ والإسراف، وكانت الفاكهة -خاصة المشمش- قاسمًا مشتركا فى طهى كل أصناف الطعام، كان لكل ألوان الطعام مذاق مختلف عن ذلك الذى اعتادت إيديث عليه فى بيت أمها، إذ كان طعامهم يحتوى دائما

على البصل والكراث الإفرنجى والليمون وتفوح منه رائحة الثوم، أسهم مذاق الطعام والرائحة المنبعثة من مطبخ ظريفة فى زيادة إحساس إيديث بالغربة وكأنها تجوب فى أرجاء بلد أجنبى وليس فى بيت بشارع الملكة نازلى.

كان لدى جدتى ظريفة اعتقاد بأن بعض أنواع الطعام لها قوى سحرية، فكان الموز والبيض النىء على رأس القائمة، فضلًا عن اللوز والكرز والزيتون وفوق كل ذلك يأتى "المشمش الناضج الحلو المذاق الزكى الرائحة، وكان من عادة ظريفة أن تضع كل هذا فى غالبية الأطباق التى تطهوها، فقدكانت طباخة ماهرة، وكان يصعب تمييز رائحة الطعام إذ كانت نكهة الفاكهة تفوح من كل الأصناف بداية من أبسطها كاللحم المشوى إلى اللحم المطهى على البخار والروستو

كان كل من يدعى لتناول الطعام فى منزلنا بشارع الملكة نازلى على يقين تام من وجود خبيرة فى الطهى يمكن الاعتماد على خبرتها الفائقة وكان ما يدور دائمًا فى خلد كل منهم هو السؤال عن سر هذا المذاق الجميل؟ كان شعورهم التام بالراحة بعد تناولهم لطعامها مع عدم إحساسهم بالتخمة مدعاة لتعجبهم ودهشتهم وأحيانًا كانوا يلحون بأسئلتهم على مضيفتهم ضئيلة الحجم لحثها على الإفصاح عن السر فى هذا الطعم اللذيذ بينما هى ترفض الإجابة وتكتفى بالابتسام والتحدث قليلًا أثناء تناول القهوة عن الماضى السعيد البعيد فى حلب.

تبدأ جدتى السرد بصوت مرتفع قائلة بالعربية: "يحكى أننا ذات يوم كنا نتناول الطعام على مائدة الملوك" وكان صوتها الناعم يرتفع مع تقليبها لقهوتها بحركات دائرية سريعة مستخدمة الملعقة الذهبية الصغيرة التى لم تكن تسمح لغيرها باستخدامها.

مع قدوم الصيف أقبلت الأخبار السعيدة التى رسمت البسمة على شفاه ربة المنزل العجوز، فأخيرًا سيكون لليون وريث، كانت إيديث حاملًا ورغم البهجة التى بعثها هذا الخبر فى النفوس فإن ما طرأ من أحداث مفاجئة انعطفت بالزواج إلى منحى آخر غطى على هذه البهجة وأمات الفرحة ، فقد عاد أبى دون سابق إنذار إلى سيرته الأولى، الخروج ليلة بعد ليلة دون إطلاع مخلوق –حتى زوجته الجديدة– على وجهته، لقد استأنف ليون حياته السابقة.

لم يكن قد مر على زواجهما سوى عدة أسابيع ورغم ذلك عاد أبى يتصرف وكأنه مازال أعزب فقد انتقل من حجرة النوم الرئيسية التى تشاركه فيها إيديث إلى حجرته القديمة التى تبعد خطوات عن الباب الرئيسى للمنزل، تحيرت أمى وأصابها الارتباك مما يحدث وتساءلت بكبرياء امرأة شابة: ألم تكن هى الوحيدة التى استطاعت أن توقع فى حبائلها ذلك المراوغ صاحب المكانة الاجتماعية الرفيعة فى المجتمع الذى عرف كل ألوان المتعة وسلك كل دروبها؟ وزاد من عجزها على تجاوز تلك الأزمة أنها كانت حاملًا وكانت تتملكها مشاعر الخوف والقلق من الولادة. كان ما يزيد الأمر سوءًا أنه لم يكن هناك من تفضى إليه بدخيلة نفسها وتشتكى له ما ابتليت به، لم تكن حماتها بالتأكيد من يمكن أن تشكو إليها وحتى ألكسندرا أمها التى تعرضت على يد زوجها لكوارث عديدة فقد كانت هى التى شجعت على ارتباطها بليون إذ وجدت فى هذا الزواج فرصة ذهبية لابنتها وقد لعبت الكفاءة المالية والمكانة الاجتماعية للزوج الدور الأكبر فى تغاضيها عن كل إشارات التحذير الواضحة، المتجلية فى فارق السن الكبير، والهوة الثقافية الهائلة بين رجل كبير لديه خبرته التى اكتسبها من تجاربه الكثيرة، وفتاة خانعة لم تخبر الحياة من قبل.

ورغم أن سالومون كان على مقربة منها فإنها كانت بالكاد تتحدث إليه عن محنة زواجها، كان وجودهما معًا فى نفس المكان، واحدًا من أسباب تقاربهما وانسجامهما الحقيقيين، كان كل منهما يتمتع بشخصية عقلانية، وقد شارك سالومون إيديث شغفها بالكتب وكانت ترتاح فى الحديث معه بالإيطالية مما كان يروح عن الشاب الصغير الذى افتقد لغته وطريقة الحياة فى بلده الأم إيطاليا، ورغم كل ذلك لم تجرؤ على أن تطلعه على آلامها.

فى الحقيقة لم تكن إيديث مضطرة لذلك فلم تكن هناك أسرار فى منزلنا بشارع الملكة نازلى، لقد كان سالومون شاهدًا على الأحداث وتداعيتها الدرامية: الخطبة المفعمة بالأمل، الخطيبة الشابة عديمة الخبرة والمختلفة كثيرًا عن نساء العشائر فى سوريا، البداية الواعدة للزواج، وما تلا ذلك كله من عودة أبى السريعة لحياته وسيرته السابقة، واليأس الذى أصاب أمى جراء بقائها مهملة ليلة بعد ليلة إذ لم يكن ليون يصطحب إيديث معه أبدًا لخارج المنزل أو يرد على أسئلتها بشأن الأماكن التى يذهب إليها.

كان كل ما تعرفه أمي عن الجانب الآخر من الحياة، ذلك الجانب المتعلق بحياة الليل وما يصحبها من انحلال خلقي قد عرفته فقط من خلال مطالعتها الأدبية وما استمده خيالها من قراءتها لأعمال الأديب الفرنسي بروست ولكن أكثر ما كانت تخشاه إيديث أن يكون هناك ما هو أسوأ من ذلك، فها هي الحياة الرغدة المخملية التي جذبتها تسفر لها عن جانب سوداوي مظلم، وهاجمتها الظنون، فلابد أن يكون لأبي خليلة وربما أكثر من واحدة، فماذا يفعل رجل قاهري في الواحدة صباحًا بعيدًا عن عائلته؟ لم تفلح قراءات أمي الواسعة في تزويدها بالبصيرة النافذة التي تتمتع بها كل امرأة خبيرة بالحياة والناس، لأنها بالأصل خجولة ووجلة ومختلفة تمامًا عن ذلك الرجل الذي لا يأبه بأحد، ولذا وجدت نفسها بعد عدة شهور من زفافها وقد صارت رهينة لرباط زواج تعس.

لم تكن ثمة جدوى من الشكوى إلى ظريفة، فلا توجد ربة بيت حلبية تحظى بكبرياء، تتخذ موقفًا من ابنها وتقف في صف زوجته، ظاهريًا على الأقل، والحقيقة أنه على الرغم من دفاع جدتي عن ليون فإنها كانت شديدة الحزن لما وصلت إليه الأمور بين ابنها وإيديث فقد كانت أكثر شخص يتمنى لليون ذي الطبيعة القلقة المتقلبة أن يعيش حياة هادئة بعد زواجه، و لم يفلح وجود زوجة جميلة شابة مرغوبة وطفل منتظر في تحويل أبي عن طريقه على الإطلاق فظل مصرًا على الدخول والخروج كما يحلو له في منزلنا بشارع الملكة نازلي.

كانت بدايات عام ١٩٤٤ واعدة، فقد اعتبرت معركة "العلمين" الحاسمة التي وقعت منذ عامين بمثابة الخط الفاصل الذي أعاق زحف الجيش الألماني الذي كان على أشده في الشمال الإفريقي، لقد كانت «معركة العلمين» أو«معركة مصر» كما كان يحلو لتشرشل أن يسميها، نقطة تحول في مصير الحلفاء حين اجتمع الإنجليز على قلب رجل واحد وأجهضوا الحلم الألماني في الاستيلاء على القاهرة ومن ثم السيطرة على مصر وقناة السويس، أطلق تشرشل الذي زار القاهرة عدة مرات أثناء الحرب صيحته: "لم نحقق نصرًا أبدًا قبل العلمين وبعدها لم نهزم قط" فمصر التي تمتلئ بالعجائب، جلبت الحظ للحلفاء.

لكن الحرب لم تنته بل اشتدت ولكن فقط ضد اليهود، كان الحديث مع اللاجئين من اليهود العابرين بالقاهرة مروعًا ويخلع القلب فقد كانوا يلهثون في طريقهم إلى أبعد مكان يمكنهم الوصول إليه في أقصى الجنوب من إفريقيا وكان من استطاع منهم

سالمون الشاب،
الإسكندرية، ١٩٣٩

تدبر حاله والفرار من أوروبا يشعر أنه لم يعد بالقدر الكافى وأن عليه الاستمرار فى الجرى لاهثًا إلى نهاية العالم.

لعدة أشهر لم ترد أنباء عن عائلة سالومون المقيمة فى ميلانو، فالبطاقات البريدية الخاضعة للرقابة المشددة التى كانت تصل من والديه فى وقت سابق بواسطة الصليب الأحمر، والتى كانت تمنحه بعض الطمأنينة قد توقفت كلها ذات يوم من عام ١٩٤٣، ورغم ندرة المعلومات فإن سالومون كان يحاول أن يكبح جماح مخاوفه، كان يذهب لعمله كما لو أن كل شىء فى العالم يسير على ما يرام، فبعد أن أنهى دراسته فى الليسيه،

حصل على وظيفة ممتازة كمحاسب وفى كل صباح كان يصل أمام المنزل سائق بسيارة خاصة لتوصيله إلى مقر عمله ثم يعود به مساء فى الموعد المحدد لتناول العشاء مع ظريفة وإيديث والخال ليون فى حال وجوده، أما فى نهاية الأسبوع فكان ينشغل بحياته الاجتماعية المليئة بالأصدقاء، كان سالومون فارع الطول ويتمتع بهيئة لا تشوبها شائبة مما كان له أكبر الأثر فى شعبيته لدى النساء، كانت له ميول أبى للوجاهة والحرص على المكانة الاجتماعية الرفيعة ونزعته للتأنق بارتداء الجميل من الثياب وتناول الطعام الجيد ومرافقة النساء الجميلات اللاتى يتمتعن بالجاذبية وقد كانت الخاطبات يتوددن إليه مثلما كن يفعلن مع أبى.

كان يتمنى وصول أى أنباء عن والديه وأخته، كان البيت به صورة لأم سالومون وهى محاطة بأبنائها الأربعة حين كانوا صغارًا يخطون أولى خطواتهم مبتسمين ومرتدين ملابس أنيقة جدًا وكانت تحتل موقعًا بارزًا فى حجرة الطعام ليتمكن جميع الزائرين من رؤية امرأة شابة مغامرة للدرجة التى جعلتها تتزوج من رجل يكبرها بخمسة وعشرين عامًا هو أبوه ولا تشعر بالخوف والرهبة وهى تغادر أهلها وتهجر حياتها المريحة فى مصر وترحل معه إلى إيطاليا للاستقرار فيها.

بعد ثمانية أعوام قضاها سالومون فى بيت جدتى، تبنى فيها كثيرًا مما تؤمن به خاصة فيما يتعلق بأهمية الطعام، تعلم سالومون أن المشمش هو فاكهة الرب، بينما اللوز وأنواع المكسرات الأخرى لها قوى علاجية شافية أما القهوة فهى العلاج الناجع لجميع الأوجاع الشائعة.

ولهذا كان إذا استيقظ من نومه محمومًا أو معتلًا بعد يوم أو يومين من سهراته فى احتفالات رأس السنة يذهب ابن العمة من فوره راكبًا الترولل باص قاصدًا "الأمريكين"، ذلك المكان الأنيق الذى ضمه إليه "جروبى والذى كان يشتهر بأنه أفضل من يقدم فنجان الكابتشينو المصحوب بالرغوة المزبدة على الوجه.

ولكن فى ذلك الصباح من يناير أصابه شيء لم يألفه من قبل، فقد كان يتصبب عرقًا بينما أسنانه كانت تصطك و لم تفلح حتى القهوة الإيطالية التى تذكره بوطنه فى إشعاره بالشفاء المرجو، خرج سالمون مترنحًا من مقر عمله استوقف سيارة «تاكسى» لتوصيله

* لم يكن هناك تروللى باص فى الأربعينيات فخط التروللى ٣٤ لم يبدأ سوى فى الستينيات و يبدو أن الكاتبة تقصد ترام رقم ١٧ من السكاكينى إلى وسط المدينة (المراجع).

إلى شارع الملكة نازلى واستقبله أبى على الباب محييًا إذ كان ليون قد قرر البقاء فى ذلك اليوم بجانب عروسه التى كانت فى الشهر الثامن من حملها، وحين رأى أبى ابن أخته محمومًا شاحب اللون يتنفس بمشقة محدثًا صوتًا كالصفير، أمره أن يدخل من فوره إلى فراشه.

وعلى الفور استدعى طبيب العائلة، الذى يقوم بزياراته المنزلية فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار، وقام بالكشف على سالمون مبديًا انزعاجه الشديد من ارتفاع درجة الحرارة غير أنه لم يستطع تشخيص المرض، فاستدعى أبى طبيبًا آخر و لم يستطع أى منهما تشخيص المرض على وجه الدقة.

وحان الوقت ليتوجه سالومون لاستشارة طبيب متخصص **un specialist**، كان الأطباء فى القاهرة يحتلون مكانة عالية فى الهرم الوظيفى، وكان المتخصصون منهم يتربعون على قمته، ولذلك كان مستحيلا أن يقوم المتخصصون –بعكس زملائهم من الأطباء العاديين– بزيارات منزلية، وإنما يتوقعون أن يقطع مرضاهم الطريق إلى عياداتهم الخاصة الواقعة فى الأحياء الراقية من المدينة، و لم يكن هناك أشهر من دكتور جروسى طبيب الصدر الإيطالى الذى اتخذ من القاهرة مقرًا لنشاطه وكان يعد أشهر متخصص فى أمراض الرئة فى مصر.

وضع أبى على سالومون سترة لتدفئته وطلب من البواب أن يحضر لهما سيارة أجرة، وبينما ليون يحيط ابن أخته بذراعه كان سالومون يعانى آلاما شديدة وهو فى طريقه إلى شارع عماد الدين ذلك الحى الشهير حيث يمارس دكتور جروسى عمله فى عيادته الخاصة.

فحص الطبيب ابن عمتى بهدوء وبطريقة منهجية وبعد قيامه بالكثير من الاختبارات التى كان من ضمنها تعريض صدر سالومون العارى لأشعة إكس، قرر دكتور جروسى أن ما يعانى منه ابن عمتى هو: "الارتشاح" **la pleuresie** وهو تضخم حاد يصيب الرئة ويؤدى إلى ظهور ما يعرف بماء على الرئة وكان هذا المرض خطيرًا لدرجة أنه فى أحيان كثيرة يؤدى إلى وفاة المريض، فى تلك الفترة وقبل أن تصبح المضادات الحيوية واسعة الانتشار، كان هذا المرض من الأمراض التى يصعب علاجها ورغم ذلك كان دكتور جروسى واثقًا من قدرته على اكتشاف مجموعة من الطرق العلاجية التى يمكن أن يكون لها أثرها فى الشفاء.

كان العامل الأساسى فى العلاج هو الراحة التامة إذ أمر الطبيب سالومون بالراحة التامة وملازمة الفراش دون حراك قدر الإمكان، وكان الجزء الثانى من العلاج يتعلق بالطعام فقد طلب الطبيب من ابن عمتى ألا يتوقف عن تناول الطعام قدر استطاعته، لم يكن هناك أى علاج أو جرعات دوائية يمكن لدكتور جروسى أن يقررها فى بلد لم يعرف بعد حتى دواء البنسلين، كان الأمل فى شفاء ابن عمتى من هذا المرض العضال يكمن فى اتباعه نظامًا غذائيًا يحتوى على الكثير من الكالسيوم والمعادن.

ورغم أن جدتى ظريفة لم تلتق بدكتور جروسى من قبل فإنه استطاع أن يحظى بإعجابها، وهو ما لم يفلح طبيب قبله فى أن يناله، ذلك أن دكتور جروسى أكد على ما تؤمن به ظريفة بكل خلجة من خلجاتها من أن الطعام هو وسيلة الدفاع الأولى لمقاومة أكثر الأمراض استعصاء، "ما أن تصل للمنزل عليك بالراحة التامة" ذلك ما أكد عليه دكتور جروسى فى حديثه مع ابن عمتى عند جلوسه متألمًا على طاولة الكشف.

كانت ظريفة بانتظارهما فى غرفة المعيشة ترتشف فنجانًا من القهوة التركية مطعمًا بقليل من ماء الورد وقد انتابها القلق وهى تقلب الفنجان مرة بعد أخرى بملعقتها الذهبية، فسالومون هو أقرب إنسان إلى نفسها فى العالم بعد ليون، فهى تفضله حتى عن باقى أبنائها وبناتها، فى الحال قرر أبى أن يتنازل عن حجرته كليًا لابن عمتى، لأنها كانت أجمل حجرة فى المنزل وبها سريران ونافذة عريضة مواجهة لشارع الملكة نازلى فكان باستطاعته أن يرتاح حتى فى أثناء ترتيب فراشه إذ يمكنه أن يتقلب من فراش لآخر.

لم يحدث أن أصيب سالومون أبدًا بمرض شديد مثل هذا الذى أصيب به فى تلك الأسابيع الأولى من عام ١٩٤٤، كان ينام كثيرًا وحين يكون مستيقظًا كان يقرأ بنهم وكان عدد كبير من الروايات التى يقرؤها تنطوى أحداثها على موت البطل أو البطلة بسبب مرض الارتشاح هذا مما سبب له إحباطًا لا حد له، كانت أمى تدخل حجرته على أطراف أصابعها فتعيره كتابًا تكون قد انتهت من قراءته وكان من النادر جدا أن يستيقظ سالومون دون أن يكون أبى وجدتى واقفين بجوار فراشه ينعمان النظر فى وجهه.

لقد حيره تشخيص دكتور جروسى، فلقد كان طوال حياته يتمتع بالصحة والعافية، كان طويل القامة يقارب الخال ليون طولًا إذ يتعدى طوله الستة أقدام فضلًا عن بنيته العريضة والقوية مما جعله متعجبًا كيف يمكن للمرض أن يتغلب عليه وهو على هذه الحال من القوة والصحة، وكان من غريب المصادفة أن يسقط سالومون صريع ذلك

المرض اللعين فى نفس الساعة التى قبض فيها على والديه وأخته الكبرى لترحيلهم، لم يكن لدى سالمون فكرة بأنه فى يناير من ذلك العام حين كانت حياته على المحك كان والداه وأخته أيضا سجناء فى سجن قذر بعيد فى ميلانو يواجهون عدوًا أشد قسوة وإهلاكًا من الارتشاح، إذ تم القبض عليهم فى ديسمبر أثناء استعدادهم للفرار عند الحدود السويسرية حين وجدت بهية أمه مع أبيه ليليو وأخته فيولات أنفسهم بين آلاف اليهود الذين انتظروا مدة طويلة لمغادرة بلادهم الحبيبة إيطاليا.

لم تنفذ تعاليم أى طبيب بحذافيرها وبتلك الحماسة مثلما نفذت أوامر دكتور جروسى فقد كان شفاء سالومون هو الغاية الوحيدة لجدتى فى الحياة، كان يمكن لغيرها من النساء أن يغمرهن شعور بالضيق من الجهد المضاعف المطلوب للعناية بحفيد ميئوس من مرضه، فضلًا عن زوجة ابنها الحامل، لكن ظريفة بإحساس المرأة العميق بواجباتها الأسرية تقبلت بسرور مسئوليتها.

كانت عيناها مليئتين بالتحدى، كانت تنظر إلى الطهى على أنه نوع من أنواع السحر الأسود فى جزء منه سحر، وفى جزئه الآخر مهارة، كانت تتحرك فى المطبخ برشاقة مذهلة مقارنة بسنها، تنتقل بمرونة من قدر لقدر، تقلب كسرة هنا وتضيف تابلا أو بهارا هناك، ويأتى دور قطع المشمش التى كانت تدسها قدر استطاعتها فى أى طبق تطهوه، تحشو به صدر دجاجة، تضعه تحت شريحة من لحم البقر، مع محشى ورق العنب أو فى داخل السمك البورى النيلى من الحجم الكبير الذى يفضله ابنها وحفيدها على كل أنواع الأطعمة، كانت تستخدم المشمش المجفف حيث كان من الصعب الحصول على المشمش الطازج إلا فى موسمه القصير.

وكانت تحب أن تفشى بعض أسرار طهوها لإيديث، حتى تشاركها أسرار وصفات الطهى فى حلب القديمة، لكن للأسف، ظلت عروس ليون -حتى بعد حملها- متجاهلة حلل ظريفة التى تغلى ومقلاتها، ففى السادسة من صباح كل يوم تكون جدتى بجوار سرير سالومون تربت على كتفه برقة وهى تقدم له صينية عليها نصف دستة من البيض النيء وكان سالومون يتعجب من نهمه فى التهامها.

بعد مرور ساعة يحين وقت الإفطار، حينئذ يكون كل أهل المنزل قد استيقظوا ويكون ليون بعد عودته من المعبد جالسًا فى حجرة الطعام مستمتعًا بفنجان الشاى مع اللبن بينما إيديث ترتشف فنجان القهوة السوداء المحلاة، كان من عادة ظريفة فى ذلك

الوقت أن تتركهم لتحضير صينية خاصة بحفيدها مملوءة بالحليب الطازج الذى يأتى به كل صباح بائع اللبن الذى كان يأتى ليقف ببقرته ومعزته خلف المنزل حيث يسألها أى لبن تفضل هذا اليوم.

وغالبًا ما كانت تختار لبن البقرة الأحلى مذاقًا والأغلى سعرًا عن لبن الماعز الخفيف الرخيص الذى يختلف لونه قليلًا عن لبن البقرة، كانت تصب اللبن لحفيدها فى سلطانية خاصة كبيرة بشكل غير معتاد ومعه الخبز والجبن وصحن عميق كبير من الزبد الطازج وتجلس بجوار فراشه تراقبه لتتأكد من أنه أتى على كل هذا الطعام.

فى العاشرة يعود المنزل لهدوئه مرة أخرى، فليون يكون قد غادر المنزل متجهًا لعمله وإيديث قد عادت إلى حجرتها وكتبها، فتعاود ظريفة الذهاب لفراش حفيدها لتقدم له وجبة منتصف الصباح الخفيفة المكونة من ست أصابع من الموز.

قبيل انتصاف النهار بقليل تعود لمطبخها، لتشوى له قطعة من لحم البقر ودائما ما كان يجد المشمش ملتصقا بأسفل قطعة اللحم التى تكتسب بفضله طعما ذا نكهة حادة مثيرة.

فى الواحدة تجتمع العائلة مرة أخرى على مائدة الغداء، وفى حجرته يتناول سالومون طبقا مملوءًا لحافته مما تأكله ظريفة وإيديث فى حجرة الطعام بالتمام، وهو الأرز والخضار مع قطع من اللحم أو الدجاج المطهو على البخار وبعد تناوله ما يعادل أربع وجبات، كانت تسمح لسالومون أن ينال قسطا من الراحة، ورغم أن ظريفة قد أصدرت تعليماتها المشددة للخادمة ألا تقوم بترتيب حجرته مادام نائما فقد كانت لا تسمح أن يطول نومه عن ساعتين لاعتقادها أنه للقضاء على الارتشاح لابد من أن يأكل كل الوقت.

فى الثالثة كانت تعود إليه مرة أخرى، ومعها صينية عليها أربع أو خمس أصابع من الموز وقد كان مجمل ما يتناوله فى نهاية اليوم يصل إلى ما يقرب من دستة من أصابع الموز، لقد أكد الطبيب على أهمية الكالسيوم، ولكنه لم يكن متوافرا بسبب الحرب، لقد كان تناول اثنتى عشرة إصبعا من الموز فى اليوم الواحد كفيلا بحصول ابن عمتى على ما يحتاجه من فيتامينات حتى قبل أن يتدبر أبى أمر شراء أقراص الكالسيوم من السوق السوداء.

كان لطقس شاى ما بعد الظهيرة طعم خاص لدى ظريفة، فرغم أنها تفضل القهوة التركية السوداء على الشاى، فإنها حين مرض سالومون استفادت من عشقه للقهوة بإغرائه لتناول الكعك والكيك الذى قامت بشرائه. كانت تسر لرؤيته يلتهم الحلوى والمربى وحلقات الكعك الطازجة والزبد دون توجيه منها مع القهوة واللبن، كانت العائلة تجتمع فى الثامنة مساء -دون أبى- مرة أخرى على مائدة العشاء وهى الوجبة التى تتفوق فيها ظريفة على نفسها، لم تكن تلقى بالًا أنه بحلول المساء يكون سالومون قد تناول ست وجبات فالمتوقع أن يتناول ابن عمتى من الطعام ضعف ذلك.

فى ذلك المساء أرسلت جدتى الخادمة إلى منطقة الزمالك، أرقى الأحياء المجاورة، لشراء كيلو من الكريز تلك الفاكهة لذيذة الطعم التى كان من الصعب الحصول عليها، إذ كانت جدتى قد عقدت نيتها على عمل كرات اللحم (كفتة) بالكريز، وهو صنف من الطعام يحتاج إعداده إلى ساعات، وكانت جدتى قد تعلمت طريقة طهوه فى مطبخ أمها فى القرن التاسع عشر فى حلب، تعجن ظريفة نصف دستة من أصناف التوابل مع اللحم المفروم: القرفة بالطبع مع الملح والفلفل والبهارات، كما تضيف التمر الهندى وملعقة كبيرة من السكر فى الصلصة التى تطهوها مع الكريز المسلوق، ثم تتذكر مدى مرض حفيدها والطفل الذى ينتظره ليون وإيديث، فتقوم بإضافة ملعقة أخرى مملوءة بالسكر، كان مجهودها مدعاة للفخر وكانت سعادتها كبيرة وهى ترى سالومون يلتهم العشرات من كرات اللحم (الكفتة) التى كانت حلوة الطعم وذات نكهة مميزة ورائحة نفاذة فى ذات الوقت، بحيث لا تشبه أى طعام تذوقه من قبل أو سيتذوقه من بعد. وكانت ذروة أطباق العشاء تأتى فى نهايته حين تخرج ظريفة من المطبخ حاملة الصنف الذى يحمل توقيعها: طبقًا كبيرًا من الأرز المزدان بطبقة من المشمش الطازج الذى تم طهوه لساعات طويلة حتى ذاب وأصبح نوعًا من شراب هلامى القوام، وأيا ما كان الصنف الذى قامت بطهوه، لحم الضأن المسلوق، شرائح اللحم البقرى، البامية أو الدجاج، كان من الضرورى أن تختتم وجبة العشاء بصحن الأرز المزدان بطبقة المشمش. كان سالومون منتشيًا من الفرحة وهو يتناول طبقًا وراء طبق من الأرز المغطى بطبقة المشمش، كان يحب كل ما تحبه جدته وكان مثلها مقتنعًا بأن المشمش كفيل وحده بالتغلب على ما يعانيه من مرض الارتشاح.

كانت إيديث هى الوحيدة التى لا تظهر سوى القليل من الحماس لذلك الصنف، وقد حاولت ظريفة أن تتجاهل حقيقة أن زوجة ابنها تأكل حبات الأرز البيضاء فقط

منحية جانبًا حبات الفاكهة التى أعدتها ظريفة بكل الحب، وعندما حان موعد مراجعة دكتور جروسى كان قد مضى شهران حافلان بمئات من وجبات ظريفة الغذائية.

حين نهض سالومون من فراشه لارتداء ملابسه، وجدها كلها لا تصلح، فقد زاد وزنه عن الخمسين رطلًا، أمر ليون ابن أخته بأن يضع عليه بيجامتين فضفاضتين مصنوعتين من القطن، وقد أخذ بذراع سالومون بينما البواب أسرع لاستدعاء سيارة أجرة.

تلفت سالومون حوله بعصبية ونظر أعلى وأسفل الطريق ليرى إن كان هناك من يلاحظ أن رجلًا فى مثل سنه يرتدى بيجامة فى وضح النهار.

دمدم متذمرًا "المجانين فقط هم من يرتدون ثيابهم هكذا" seulement les fous s'habillent comme ca ولكن أبى تجاهله بينما سائق السيارة الأجرة اندفع مسرعًا بهما مخترقًا الشوارع. فى العيادة كان على دكتور جروسى أن يكبح ضحكته فقد أفلح علاجه على نحو فاق كل خيال فلم يكن للارتشاح أى أثر.

بدأ المنزل فى شارع الملكة نازلى يضيق بساكنيه: ليون وعروسه الصغيرة والطفل القادم فى الطريق وجدتى وابن عمتى سالومون البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، الذى لم يعد ذلك الشاب النحيف الحاد المزاج الذى جاء منذ سبع سنوات للانضمام لأهل البيت، فهو الآن يعمل بوظيفة جيدة وله أصدقاء وأيضا صديقات، وصار لزامًا عليه التفكير فى أن يستقل بنفسه وأن يكون له سكنه الخاص. ورغم ذلك فقد صعق حين أخبره أبى بعد شفائه من مرضه بقليل ودون أى إنذار مسبق أنه يجب عليه مغادرة المنزل فورًا.

لم يستطع سالومون أن يبعد عن خاطره احتمال أن تكون صداقته لإيديث هى السبب الذى يلام عليه، فقد ازداد تقاربهما فى السنة الأخيرة، فهل كان الخال ليون ممتعضًا أم كان يشعر بالغيرة؟

لم يكن سرًا أن إيديث كانت مغرمة بابن أخت زوجها المهذب القادم من ميلانو، وتعتبره الصديق الحقيقى الوحيد لها فى المنزل.

لقد أمعنت إيديث التفكير فى حماتها وتكشف لها أنها رغم طيبتها فإنها دائمة الانتقاد ومتسلطة ومن الصعب إرضاؤها، ظنت إيديث أن حياتها ستتغير حين يخرج مولودها للحياة، فزوجها الذى يهتم بشئون أسرته ويأخذها على محمل الجد سوف يدرك ضرورة وجوده بالمنزل ولذا فقد علقت آمالها على الطفل المنتظر الذى سيزيد من قيمتها ويعيد إليها مكانتها فى نظر كل من حماتها التى يبدو أنها تنظر إليها باعتبارها لا تتمتع بالكفاءة المطلوبة، وزوجها الذى لا يهتم بالدرجة الكافية بالبقاء إلى جوارها ليلًا.

ولكنها فى الجانب الآخر الأكثر تشاؤمًا من تفكيرها، كانت تعرف جيدًا أن ذلك ليس أكثر من مجرد أمان تعتقد هى فقط فى صحتها، أمان لن تتحقق، مراوغة كموسم المشمش القصير سريع الزوال حتى ليبدو كأنه لم يكن.

«فى المشمش» مثل شعبى عربى ويعنى حين يحين موسم المشمش* فإذا تعلقت هذه العبارة بأمر ما فمعناه أنه يجب ألا تراهن على ذلك الأمر لأنه لن يحدث أبدًا.

فى ٦ مارس ١٩٤٤ استُدعيت الداية للبيت بشارع الملكة نازلى.

كان أبى ليون قد خطط لاحتفال كبير انتظارًا لقدوم ابنه، فخرج من البيت فى الصباح الباكر متجهًا إلى «معبد الحب والصداقة» حاملًا كميات مضاعفة من القهوة والسكر وألوانًا أخرى من الطعام الشهى والشراب.

«بنت!؟» une fille!? قالها أبى غير مصدق حين عاد وناولته الداية الطفلة الجميلة ذات الشعر الأسود، «هذا مستحيل» ce n'est pas possible.

أصابت أبى خيبة أمل لا حد لها حتى أنه ترك أمى والطفلة حديثة الولادة وخرج من المنزل، استدعى سيارة أجرة وتوجه إلى المقهى الذى شهد منذ عام مضى قصة وقوعه فى غرام إيديث، جلس إلى مائدته المفضلة عند البار وطلب كأسًا من العرق وأتبعه بآخر ثم آخر، بقى خارج المنزل طوال الليل غير قادر على إخفاء فزعه ورعبه وغير راغب فى مواجهة جدتى التى كانت مثله تريد أن يكون المولود ذكرًا، كان أمرًا مفروغًا منه أن يطلق على المولودة اسم أمه «ظريفة» تكريمًا لها كما جرت عادة أهل حلب القديمة التى يتمتع الأب بمقتضاها بميزة اختيار اسم مولوده الأول.

فى سنوات لاحقة، بعد أن أطلعت أمى ابنتها على قصة ولادتها المريرة، رفضت أختى بإصرار أن تعرف بهذا الاسم، ورغم إطلاق اسم «سوزيت» عليها منذ سنينها الأولى -فتلك كانت هى الطريقة المتبعة فى القاهرة الحديثة حيث كانت العائلات تطلق على صغارها أسماء أوروبية لتمهد لهم طريقهم للحياة فى مجتمع الاحتلال- فإنها فى الأوراق الرسمية لاتزال مسجلة باسم ظريفة، ومنذ الوقت الذى أصبحت فيه فتاة صغيرة، طالبت أختى بمحو كل أثر لاسمها العربى من السجلات، وكانت بتوبيخها الدائم لأبى ولومها المستمر له، كأنما تسعى لإيجاد وسيلة لتعاقبه بها على خطيئته الأولى وهى حقيقة لجوئه للمقهى لاحتساء الخمر عند علمه بميلادها فى تعبير عن عدم فرحته بمقدمها للحياة.

* المثل يعنى بعدًا آخر ذلك أن موسم المشمش جد قصير، فإذا ما قيلت فى سياق بعينه فإن ذلك يشى بالتشكك فى فعل ذلك الشىء.

الفصل الثالث

الخال المفقود

فى منتصف الأربعينيات، استقر رأى العائلة على اختيار سالومون ابن عمتى "بهية" للقيام بترتيب لقاء بين سميّه عمى سالومون الراهب الذى غادر البلاد فى عام ١٩١٤ وهو لمّا يزل بعد مراهقا، والذى كان قد ألح فى أن يسمح له بزيارة أمه فى المنزل الكائن فى شارع الملكة نازلى، للاطمئنان عليها بعد طول فراق.

لم تكن جدتى على ما يرام، فالأنباء التى جاءتها من إيطاليا عن ابنتها بهية وعن احتمال فقدها، كانت مما يفوق قدرتها على الاحتمال.

كانت ظريفة تجلس وحيدة حزينة فى مطبخها دون أمل أو عزاء.

فى هذه الأثناء، كان السؤال الذى يتردد بلا انقطاع فى خلد ابنها المرتد عن دينه، هل بإمكانه أن يرى أمه ولو لمرة أخيرة؟

كان عمى يعيش فى دير بندكتى فى القدس بعد أن اختار لنفسه اسم "الأب جين – مارى" ولقد ظل فى المدينة المقدسة منذ وصوله إلى فلسطين فى عام ١٩٢٥، وكان قد أجرى عدة اتصالات مع العائلة منذ مغادرته للمنزل وهو بعد مراهق صغير، متخليًا عن أمه ظريفة وإخوته وإخوته التسعة، معتنقًا دين إخوة وأخوات يختلفون عنهم إلى حد بعيد.

كان عمى بالطبع على وعى تام بأن العائلة قد تبرأت منه، ومع ذلك فقد كان يشعر أن طلبه فى أن يمنح فرصة أخيرة للحديث مع أمه سوف يجاب، خاصة بعد أن لجأت

الريفييرا الإيطالية، ١٩٣٧
سالمون سيلفيرا (واقفا، فى رداء أبيض) بجانب أخته فيوليت ووالديه، وشقيقاه فى المقدمة، (فيوليت مع الأم والأب لقوا حتفهم فى أوشفيتز)

إليه العائلة لمساعدتها فى اقتفاء أثر والدى سالومون وأخته فى الأماكن التى يحتمل أن يوجدوا فيها. فقد تسلم خطابا من سالومون ابن أخته يسأله فيه عن مقدرة الفاتيكان على معرفة ما حدث لعائلته بعد أن استقلت قطار الماشية من ميلانو إلى "أوشفيتز كان أبى نفسه قد حث العائلة على معاودة الاتصال بالعم سالومون معتقدًا أن بإمكان أخيه من خلال علاقاته واتصالاته بالفاتيكان الكشف عن سر هذا الغموض.وكان من عادته أن يردد مرارًا وتكرارًا "على المرء أن يسأل وأن يتحرى" il faut faire des enquete.

فى السنوات التى أعقبت مغادرة عمى للقاهرة نسجت الأساطير حوله وحول دوره داخل الكنيسة، كأن يقال أنه وصل إلى مرتبة عالية فى هيئة الأساقفة الكاثوليك "مونسينير ربما أو "كاردينال"، أو فى طريقه ليكون أحدهما، دار همس بأن له علاقة وثيقة بالبابا، كما ترددت أيضا قصص تروى بطولاته خلال الحرب، وأشيع أنه ساعد

فى تهريب العشرات من أطفال اليهود إلى فلسطين بعد أن نجحوا فى الفرار من الاحتلال النازى لأوروبا.

والمفارقة أن أفراد الأسرة الذين أظهروا هلعهم من اعتناق عمى للمسيحية كانوا هم أنفسهم الذين راودهم شعور بالامتنان لإنجازاته داخل الكنيسة، كما لو كان لسان حالهم يقول، إن كان لابد أن يكون راهبًا فليكن على الأقل راهبًا عظيمًا.

فى الحقيقة كان الأب جين –مارى راهبًا مدهشًا، إذ كان شخصًا معروفًا ومحبوبًا ومشهورًا بين الناس بمواهبه المتعددة وشخصيته الودودة فضلًا عن إجادته لكل ما يقوم به من أعمال، إلا أن قدرا من المبالغة قد شاب ما كان الناس يتناقلونه عن مكانته داخل الكنيسة الكاثوليكية، فقد حقق عمى دون شك نجاحًا ملحوظًا وتقدمًا رائعًا فى مجال الكهنوت مما جعله محطًا لنظرات الإعجاب لموسوعية معارفه التى استمد معظمها من قراءاته فضلًا عن طلاقته فى اللغات– تلك المهارة التى كانت صفة مشتركة بينه وبين أبى إذ كان ضليعًا فى العبرية وأصبح شخصًا بارزًا فى داخل الدير بل فى القدس كلها، لكنه لم يكن –كما يقولون– صديقًا شخصيًا للبابا والكرادلة، كان راهبًا محترمًا وعضوًا له مكانته الرفيعة فى جماعته الدينية "سيدة صهيون"

ولكن السنوات التى كان قد أمضاها فى روما هى التى جعلته –بالتأكيد– على دراية بمن ينبغى التوجه إليه بالسؤال لمعرفة مصير أخته بهية وعائلتها. هل كان هناك أمل فى بقائهم على قيد الحياة؟ توجه الأب جين– مارى يطلب المساعدة من أصدقائه ومساعديه فى روما للاستدلال على مكان أخته بهية وزوجها ليليو وابنتها فيوليت ذات العشرين ربيعًا.

كان شتاء ١٩٤٥ مليئا بكثير من الأسئلة الموجعة وكثير من الإجابات العابرة التى يكتنفها الغموض، وللأسف، لم يستطع الفاتيكان إلا أن يؤكد فقط على المعلومات التى كان الصليب الأحمر قد توصل إليها من قبل وهى أن العائلة قد تم إلقاء القبض عليها وسجنت ونقلت فى شاحنة إلى" أوشفيتز" ثم اختفى بعد ذلك كل أثر لهم، لم تكن هناك أية معلومات أو بيانات تفيد أنه قد تم إبادتهم ولا أى دليل على أنهم مازالوا على قيد الحياة.

لعل ذلك كان هو سبب الرعب الحقيقى إذ كان اختفاؤهم عقدة تعذر حلها، فلم يتم التوصل لقرار نهائى بشأن مصير بهية وأسرتها لم توجد أبدًا شهادة تثبت وفاتهم أو يعرف مكان يحدد أين دفنوا

كان الأب جين مارى قد بذل كل ما فى وسعه من جهد لإماطة اللثام عن هذا اللغز، فهل يمكن الآن أن تلبى الأسرة طلبه.

أصر أبى على موقفه ورفض التزحزح عن قراره، فهو لن يسمح لذلك الراهب بأن يخطو خطوة فى المنزل بشارع الملكة نازلى. ففى داخله كان ليون يرى أن أخاه الأكبر لم يجلب سوى العار لأسرته الجديرة بالمحافظة على اسمها وسمعتها الطيبة، وفى الجوار بحى غمرة كان الجيران الذين تربطنا بهم أواصر الصداقة والمحبة يعرفون كل شيء عن ارتداد أخيه، وكانوا يتطلعون إليه وهو فى طريقه للمعبد كل صباح مبتهجًا وشامخًا فى مشيته داخل بدلته البيضاء، يهزون رأسهم أسفًا على شخص ورع وتقى مثل الكابتن تفرض عليه الظروف أن يتحمل مثل تلك المأساة.

كانت جدتى نفسها قد أنهكها التمزق. جدتى تلك المرأة عميقة التدين التى كانت لا تزال تتحدث بحزن عن ملكية الأسرة لمعبد فى حلب، التى رغم أنها لم تتجاوز أبدا صدمة تحول ابنها سالومون للمسيحية، فإنها كانت تفتقده، وتشعر بأن صحتها ليست كما ينبغى بينما الوقت يمضى سريعا، فهل يمكن حقا أن تموت دون أن تحظى برؤية ابنها لمرة أخيرة؟

أخيرا تم التوصل إلى تسوية عن طريق وسطاء الخير، ونظرا لأن كل فرد من أفراد الأسرة كان ينكر وجود اتصال مباشر بينه وبين الراهب سالومون، فقد كان الحل الوسط هو أن تقابل ظريفة عمى فى مكان محايد وساعة معينة يتم الاتفاق عليهما مسبقا، على ألا يكون مكان اللقاء بعيدا عن منزلنا بشارع الملكة نازلى، وبشرط أن يلتزم عمى بتحقيق شرطين: أولهما ألا يرتدى رداء الرهبان الأسود وثانيهما ألا يحمل صليبا

عندما حان [illegible] تم استدعاء سيارة أجرة [illegible] شارع الملكة نازلى. خرجت جدتى من المنزل [illegible] سالومون حفيدها، مستندة [illegible] ذراعه، مرتدية الحبرة السوداء اللامعة. قطع ابن عمى طويل القامة قوى البنية مفتول العضلات، وجدتى صغيرة

الحجم الضعيفة الهزيلة طريقهما معًا إلى منزل صغير مقام داخل أرض تابعة لدير قريب حيث ينتظر الأب جين– مارى.

كان عمى مرتديًا ملابس مدنية حسب الاتفاق وحين رأته ظريفة لم تتمالك نفسها وأجهشت فى البكاء، فها هو ذا ابنها الواعد محط أنظار مدرسيه وأساتذته بمدرسة "الفرير بعقله النابه وبراعته فى كافة المواد الدراسية خاصة الرياضيات إذ كان قادرًا على استيعاب أكثر النظريات تعقيدًا وحل أصعب المعادلات بسهولة تامة، سالومون الذى كان معقد آمال الأسرة فى استرداد مجدها الغابر الذى كان متوقعًا له أن يصل إلى آفاق أبعد مما وصل إليه كل إخوته.

لم تكن كلمة "أبعد" تعنى أن ينتهى به الحال غريبًا تماما عن أكثر ممتلكات العائلة قيمة والذى حافظت عليه العائلة باعتزاز لمئات السنين: "تراثها الدينى الراسخ" فقد كان آل لنيادو الحلبيون، فضلا عن ذلك، هم أحد أشهر وألمع السلالات الحاكمة من الأحبار الربانيين.

حين ترك عمى القاهرة أول مرة بعد اعتناقه المسيحية، بدأت الخطابات تتوالى علينا من أماكن لها وقعها على الأسماع "لانزو" lanzo حيث أدرج اسمه فى مدرسة الجيزويت، "روما" حيث تابع دراسات متقدمة فى الفلسفة، "إيسى issy حيث دخل "الابتدا" ونذر الفقر والعفة والطاعة، وقد رُسم راهبًا فى ١٩٢٥ ومن ثم أخذ طريقه إلى القدس، محطته النهائية والأخيرة.

بالطبع لم تكن خطاباته تلقى جوابا، والغريب فى الأمر أن ظريفة كانت تعزى نفسها قائلة إن ابنها على أية حال قد انتهى به المطاف إلى الأرض المقدسة، حيث يحلم اليهود بالاستقرار والتوطن.

كان من مفارقة الأقدار أن ذلك الجانب من مدينة القدس الذى اختاره عمى للإقامة به وجعله مستقره لمدة أربعين عامًا، كان يحظى بمنزلة دينية هامة لدى اليهود وقد اختار أن ينضم إلى رهبنة **سيدة صهيون**، التى أسسها يهودى فرنسى كان ابنا لأسرة تعمل بالمصارف اسمه **تيودور راتيسبون** تحول للمسيحية ثم أصبح راهبًا فى عام ١٨٣٠ وتحول أخوه ألفونسو راتيسبون أيضا للمسيحية وأصبح قسًا. وقد أعلن حينئذ أن الذى قاده لاعتناق المسيحية حقيقة هو ظهور السيدة العذراء وتجليها له، وقد

إيديث تحمل سوزيت كبرى الأبناء، وليون يحمل ابنه الذكر الأول ووريثه سيزار، القاهرة، ١٩٤٦

اعترف الفاتيكان بحدوث هذا التجلى. وقد ذهب الأخوان إلى القدس، حيث بنى ألفونسو، فى عام ١٨٥٠، دير الصخرة الكبرى وقلايتين (خلوتين) وقد أصبح ذلك الدير هو سكن عمى لنحو أربعين عامًا.

راقب سالومون صامتا محاولات عمى لاسترضاء أمه ظريفة ومواساتها، ورغم أن للرهبان باعا طويلا فى ذلك، فإن عمى فشل فى مسعاه، بالطبع، لأنه لم ينطق بالكلمة الوحيدة التى كان يمكن بالفعل أن تكفكف دموعها، الكلمة التى انتظرت هى مع باقى أفراد العائلة منذ عام ١٩١٤ أن ينطق بها: إنه أخطأ، وأن تحوله عن دينه كان غلطة وأنه لا ينوى الاستمرار فى هذا الضلال، وأنه سيعود للمنزل بشارع الملكة نازلى ولما كان يؤمن به أسلافه.

كان ذلك هو الحلم، الوهم الذى لا يريد أى منا التخلى عنه أبدًا. أن يهجر عمى سلك الرهبنة المسيحية ويتضرع إلى عائلته أن تعيده إلى أحضانها و لم يتغير ذلك الحلم

عبر السنين، عقدا تلو الآخر، جيلا وراء جيل. لقد كان شوق ظريفة لذلك شوقا بلا أمل، وكان أمل ظريفة اليائس هذا، هو أيضًا ما ظل أولادها ثم أحفادها يتطلعون إليه.

لكن شيئا من التغير كان قد طرأ على موقف العائلة، فقد صار أقل تصلبا، فمارى صغرى الأبناء العشرة وربما أكثرهم شفقة وحنانا، كانت أول من سامح أخاها سالومون، إذ قررت عمتى أن تنهى ذلك الشقاق الذى استمر لفترة طويلة من الزمن، ولم تأخذ بنصيحة أبى أو حتى بنصيحة زوجها، وفتحت باب بيتها على مصراعيه للأب جين–مارى وسمحت له بزيارتها ورؤية أبنائها وكل من تستطيع جمعه من أبناء وبنات الإخوة والأخوات.

كانت عمتى مارى تتمتع بروح طيبة، فضلًا عن أنها كانت التجسيد الكامل للأنوثة، كان كل شيء فيها يشى بأنوثتها من الرقة والحنان والشفقة حتى استدارة جسدها، فإنها رغم ذلك، كانت لها كلمة مسموعة، مثلها فى ذلك مثل الرجال من أسرتها. ومن ثم فحين اتخذت قرارها باستقبال الراهب لم يستطع أحد أن يثنيها عن العدول عنه، حتى ليون الأخ الذى تحبه وتحترمه والوحيد الذى تخشاه أكثر من أى شخص آخر.

كانت عمتى مارى على قناعة تامة بأن لقب جين – مارى إنما اختاره عمى تعبيرًا عن احترامه وحبه لها. و لم تكن تأبه لسخريتهم منها ومن انطباعها الشخصى عن ذلك اللقب متهمين إياها بالسخف والحمق، إذ يقولون إن اختيار أخيها لهذا الاسم لا يتعلق بها وإنما هى مصادفة، فاسم مارى هو اسم ذائع الصيت بين الكاثوليك تمجيدًا للسيدة العذراء.أما فى نظر عمتى مارى فقد كان هذا الاسم وسيلة ابتدعها أخوها ليبقى على سبب اتصال بعائلته حين تمزقت كل أسباب الوصل.

وفد الأب جين – مارى إلى بيت عمتى مرتديًا ثيابًا تفيض باللون الأبيض وكان محملًا بلفائف مغلفة بطريقة جميلة أخذ يوزعها على الأطفال الملتفين حوله فرحين بذلك الاهتمام الذى يحظون به من ذلك الغريب الذى يبدو وجهه، على نحو ما، مألوفًا لهم ببشرته الشقراء وأنفه المعقوف ولون عينيه شديدتى الخضرة. كانت لحيته فقط تضايقهم؛ فرجال العائلة ينزعون إلى حلاقة اللحى حلاقة تامة. ومع ذلك فهو مرح وساحر فى عناقه وتقديمه الهدايا لبنات إخوته وأخواته وأبنائهم واحدا تلو الآخر، فكان لهم بمثابة بابا نويل اليهودى.

كانت عمتى مارى تبدى مزيدًا من الاهتمام بتلك المناسبات التى يسودها اللهو والمرح وتجلس هنالك مبتهجة ترتسم الابتسامة على وجهها.فقد كان عمى هو أخاها الأكبر وكانت تحبه ولن تسمح لأحد ولا حتى الكنيسة فى روما أن تفصم عرى الروابط الأسرية بينهما.

مرت السنة الأولى على زواج أبوى بسلام رغم مما تعرض له زواجهما من اضطرابات وصمدت علاقتهما رغم عودة ليون لشهواته الدائمة وإنجابه طفلة بدلًا من صبى. البهجة والمرح ضلا طريقهما إلى المنزل بشارع الملكة نازلى فصار منزلًا يملؤه البكاء والدموع ويلفه الحزن فى أعقاب الأنباء المتعلقة ببهية. كانت أمى تبذل قصارى جهدها لرعاية أختى الطفلة الصغيرة، كما كانت فى ذات الوقت تعتنى بظريفة جدتى التى كانت تزداد ضعفًا وهشاشة. لم تعد جدتى بقادرة على الوقوف فى المطبخ لساعات أمام محبوبها باجور الجاز، إذ زادت حاجتها للرقاد فى حجرتها.

بعد مرور عام تقريبًا على ميلاد أختى، حملت أمى للمرة الثانية، وفى مايو ١٩٤٦ أنجبت الطفل المنتظر، أخى **سيزار** الذى طال الشوق إليه.

وفى الاحتفال الذى أقيم بمناسبة إجراء عملية الختان له استجمعت جدتى للمرة الأخيرة ما تبقى لها من قوة وحملت الطفل وقدمته بحرص شديد إلى "الموهل" mohl– وهو شخص يهودى يقوم بطقوس الختان– على وسادة من قماش "الستان" وغمس الموهل سبابته فى كوب من النبيذ وصب ثلاث نقاط منه فى فم سيزار ليحدث فى الجسم خدرا يساعده على تحمل الآلام.

بعد هذا الاحتفال بشهور رحلت جدتى وهى حزينة متحسرة على فقدها ابنتها ولكنها كانت فى نفس الوقت مبتهجة راضية لأنها عاشت حتى رأت ليون متزوجًا مستقرًا فى بيته وقد مَنَّ الله عليه بوريث صبى. أما عروسه التى لا تكف عن السخط والغضب –التى اتفق أنها حادت عن الطريق الوحيدة التى تعرفها جدتى، وتتلخص فى أن الأسرة قبل وفوق كل شىء– فكانت لا تعدو أن تكون مجرد تفاصيل تافهة لا تمثل لظريفة أية قيمة، تلك كانت ظريفة الحاكمة بأمرها التى لا تقهر، والتى كانت تدير هذا البيت بقبضة من حديد حتى حين ضعفت قبضتها وهزلت. وحتى النهاية كان

أجل اهتمامها مراعاة التقاليد والقيم الأصيلة التي شبت عليها في حلب وهي: الإيمان والشرف والعائلة.

ألقت مأساة أخرى بظلالها على منزلنا بشارع الملكة نازلي، فقد قفز سيهو ابن عمتي ليليا من نافذة بيتهم منتحرًا ولم يتطرق الحديث أبدًا لتلك الواقعة ولا كيفية حدوثها.

بعد رحيل ظريفة، تكررت زيارات جدتي الأخرى ألكسندرا. فكانت تحضر كل يوم فتطرق الباب بسرعة أربع طرقات. وما إن تدخل حتى تشرع في الجلوس على كرسي حاملة أختي وسيزار بين ذراعيها استعدادًا لهزهما والغناء لهما بالإيطالية فعلى عكس ظريفة التي كانت تتحدث العربية فقط كانت ألكسندرا لا تتحدث العربية قط.

كانت ألكسندرا تدخل المطبخ فقط لتصنع فنجانا صغيرا من القهوة التركي على "السبرتاية"

وكان ما تقصه أمي عن ألكسندرا القادمة من الإسكندرية وعن ماضيها البراق مشكوكا في صحته حتى أكثر مما كان يحكى عن ظريفة وملوكها.

ففي روايات أمي، كانت ألكسندرا مخلوقة رائعة ولكن قدرها كان لعينا، فقد عاشت حياة ثراء وترف غير عادية. كانت ابنة مدللة لأبوين ثريين، شغوفين بها. كانا ينفقان عليها ببذخ حتى أنها كانت غارقة في أرقى ما يمكن للمال أن يشتريه. حين كانت طفلة صغيرة، كان لديها خادمات ومربيات يقفن على أطراف أصابعهن لتلبية كل ما تهفو نفسها إليه.

كانت إيديث تحب أن تتذكر باسمة تساؤلها لنفسها "لماذا لا تستطيع ألكسندرا حتى تمشيط شعرها؟" وكانت الإجابة هي "أن مربية ألكسندرا أخذت على عاتقها كل صباح أن تقوم بتمشيط شعر الفتاة الأسود الطويل وتجدله في جدائل تعقدها من الخلف بشريط من الساتان. وبعد تمام ارتداء ثيابها وتمشيط شعرها، تكون ألكسندرا مستعدة لتلقي دروس البيانو اليومية. كان مدرسوها من أفضل مدرسي البيانو في الإسكندرية كلها.

حين حان وقت التحاقها بالمدرسة، أدخلها والداها مدرسة تابعة لدير تقوم على إدارته مجموعة من الراهبات. كان اليهود شديدي التدين -كوالديها- يتسمون بالتعالي، لذا لم تكن أية مدرسة مصرية في نظرهما تتمتع بالميزات التي تتمتع بها الأديرة

الكاثوليكية. وفى صباح كل يوم، كانت إحدى الخادمات ترافق ألكسندرا إلى المدرسة وتعود بها بعد الظهيرة إلى المنزل.

كانت الراهبات يتميزن بالصرامة وكان ما يعرف عنهن من الأمانة والاستقامة مدعاة لفخرهن، كما كان نظامهن التعليمى متسما بالنظام والانضباط وكانت ألكسندرا فتاة ضعيفة هشة تحتاج لأن تكون قوية صلبة حتى تستطيع مواجهة الحياة

فى تمام الظهيرة،كان أبواها يرسلان إلى المدرسة خادمة أخرى تحمل صينية تحتوى على وجبة ساخنة، نظرًا لشكواها الدائمة من عدم قدرتها على تناول الطعام الردىء الذى يقدم فى مطعم المدرسة، على الرغم مما يبدو من استمتاع باقى زميلاتها به.

فإنها لم تكن تتناول ما تحضره الخادمة من طعام. فقد كانت ببساطة تصوم يومًا بعد يوم، وقد جعلتها "نوبات الإغماء" التى تصاب بها حديث المدرسة. غالبًا كان سبب إغمائها هو شعورها بالغربة، فقد كانت يهودية بين كاثوليك، فتاة ثرية بين فتيات يمكن اعتبارهن بالكاد ميسورات الحال، كائنا حساسا بين وحوش ضارية. عندما زاد إحساسها بالاختلاف والعزلة دبرت أمرها على مغادرة الدير عندما تسنح لها أول فرصة.

وجاءت الفرصة فى شكل "إيزاك ماتالون": قاهرى وفد إلى الإسكندرية، له شخصية ساحرة جذابة، زير نساء، كان الغموض يحيط بمصدر دخله، وقد جذبته المراهقة الصغيرة وما من شك فى أنه وجدها ضحية سهلة يمكن استدراجها بأساليبه الخادعة فاستطاع إقناعها بهجر والديها وبيتها ومدرسة الدير ومدينتها ومرافقته إلى القاهرة. غادرا الإسكندرية بعد إتمام مراسم زواج لم يحضرها حتى أبواها وانتقلا إلى شقته الحقيرة بالقاهرة فى قاع المدينة بمنطقة تتميز بشوارع ضيقة يسمع فيها صفير الرياح العاصف، وأزقة يفصلها عن الإسكندرية أميال وأميال.

كشف المسكن الحقير الذى عاشت فيه ألكسندرا عن سر دخل **إيزاك ماتالون**، فقد كان تقريبا معدوم الدخل خاوى الوفاض. يعتمد فى الحصول على المال على جاذبيته وخفة ظله. فى عام ١٩٢١ بلغت ألكسندرا من العمر ثمانية عشر عاما، وفى غضون شهور قليلة أصبحت حاملًا. كان إيزاك أرمل وله أبناء كبار كان منهم العم إدوارد الذى رافق إيديث وألكسندرا فى زيارتهما الأولى للمنزل بشارع الملكة نازلى. وكان

فى الأربعين من عمره وربما أكبر، إذ كان كاذبًا فى كل ما يخصه، من عمره إلى طبيعة عمله، المتسمة بالنصب والاحتيال.

كان إيزاك يعقد الآمال على أن يبارك والدا ألكسندرا زواجهما، فيقدمان لهما يد المساعدة ولو من أجل خاطر ابنتهما. لكن ما لم يكن فى حسبانه أن والديها قد أصيبا بخيبة أمل مريرة من اختيار ابنتهم ألكسندرا لزوجها مما ترتب عليه مقاطعتهما لها تمامًا.

كانت شقة القاهرة ضيقة ومختلفة تماما عن الفيلا الواسعة المطلة على البحر حيث ترعرعت ألكسندرا، وقد ازدادت ضيقا بعد أن رزقت بطفلة هى أمى إيديث فى عام ١٩٢٢ وبطفل هو خالى فليكس بعدها بعامين.

كانت ألكسندرا -دون خادمتها ومربيتها الحبيبة- تشعر أنها مركب تعصف به الأمواج، فقد افتقدت مساعدتها فى العناية بالمنزل والأطفال وبنفسها. لم يكن لديها أدنى فكرة عن كيفية تنظيف حجرات المنزل وترتيبها، ولا لمحة عن إعداد الطعام لزوجها وطفليها، إذ لم يسبق لها أن تعلمت طهو الطعام ولا تستطيع حتى الآن أن تمشط شعرها. فى غياب مساعدات والديها، تذوقت ولأول مرة فى حياتها طعم الفقر المدقع. لم يعد لديها ما تقوم برهنه للحصول على مزيد من المال. فلم يسمح لها والداها حتى بأخذ ملابسها أو جواهرها.

لم يرقا أو يلينا إلا فيما يتعلق بشىء واحد فقط، البيانو الخاص بها. وها هو يقف فخمًا بين القذارة. كانت إيديث وأخوها فليكس مهملين بائسين يفعلان ما يحلو لهما، يوشكان أحيانًا على الموت جوعًا، بينما ألكسندرا تعزف وتعزف.

لم يكن هذا كله يعنى -بأية حال- عدم اهتمام جدتى بهما، دائمًا ما كانت أمى تصر على توضيح ذلك، فألكسندرا فى صميمها كانت محبة وعطوفة، لكنها كانت من ذلك النوع من الناس الذى لا يستطيع أن يتلاءم مع ظروفه المحيطة، فكانت دائمًا بحاجة للآخرين للأخذ بيدها لاجتياز اليوم إلى الغد .لقد تلقت جدتى تعليمًا راقيًا فى الأعوام التى قضتها فى مدرسة الدير، وكانت تتحدث الإيطالية بطلاقة مما شحذ حسها الأدبى على نحو ممتاز فضلًا عن مهارتها الموسيقية، لكن الراهبات لم يعددنها لحياة تكون فيها زوجة وأما.

لم يكن ذلك ما توقعه إيزاك من زوجته فازدادت حياتهما تباعدًا يومًا بعد يوم، كان يتركها وحيدة مع الأطفال وينطلق إلى حيث لا يعلم أحد أين يكون. ومع ذلك وفى تلك الأوقات تمكن من أن يترك أثرًا ملموسًا يجعله موجودًا بينهم، فقد نجح فى أن يكون محبًا حنونًا لابنه وابنته وكانت إيديث خاصة تهيم به، وكان إذا تفوه بكلمات قاسية فإنه يوجهها فقط لزوجته. وقد وصل الأمر به إلى كراهية الصفات ذاتها التى لفتت انتباهه لألكسندرا يوما ما، حاجتها الشديدة لحمايته وحسها المرهف وطبيعتها العاطفية شديدة الرقة.

ورغم أن زواجهما كان فى مرحلة الاحتضار فإنهما رزقا بطفل آخر. صبى وسيم له شعر أسود ناعم وعينان زرقاوان ومزاج مرح مفعم بالأمل. كان اسمه العبرى خلافا لكل التوقعات، "إليزار" ويعنى الله سيساعدنى، الله سيعتنى بى. كانت أمى ابنة السبع أو الثمان سنوات هى من تعتنى به بينما والداها كانا يتشاحنان ويزداد انغماسهما فى كراهيتهما المتبادلة أكثر من حبهما لأولادهما. وأصبح العراك فى المنزل يزداد مرارة يومًا بعد يوم ومشاهد الاتهامات المتبادلة قد صارت مألوفة. وقد وصل الأمر لنهايته صباح يوم ما.

أفصح إيزاك عن نيته فى اصطحاب الطفل الصغير للنزهة. فسأل ابنته بلطف "إيديث عزيزتى هل يمكنك أن تضعى عليه رداءه؟" كان الطفل قد بلغ عدة أشهر من عمره و لم يكن يتكلم أو يمشى. فقامت إيديث بتبديل "حفاض" الطفل بآخر نظيف من القطن وفانلة من القطن، ما زالت أمى تذكر، فلم يرتد شورتًا أو فستانًا صغيرًا مما يرتديه الأطفال.

و لم يكن "الحفاض ثابتا، فاقترح إيزاك أن يستخدم رابطة عنقه كحزام بديل مؤقت. كانت رابطة عنق حمراء اللون عريضة من الحرير وكانت من الطول بحيث دارت حول الطفل دورتين، وأخيرًا قامت إيديث بتمشيط شعره الناعم ومسحت على ذراعيه وساقيه بماء كولونيا "اريلتى الشهير"؛ إذ من المعروف أن الأطفال يحبون الروائح المنعشة.

كان الطفل يناغى ويبتسم، ويصفق بيديه المكورتين. كان يبدو مسرورًا مما حظى به من انتباه؛ وكان يلعب برابطة العنق محاولًا فكها. "سوف نقوم بنزهة"، قالها إيزاك وهو يضع الطفل فى العربة المخصصة له. ظلت أمى "إيديث" تبدى مزيدًا من العناية

بأخيها الصغير غير راغبة فى أن تدعه يذهب ربما لأنه كان يفيض محبة وعذوبة ذاك الصباح. قبلت ألكسندرا الطفل كالمعتاد مثلما قبلته مئات المرات من قبل ولكن انتباهها كان منصرفًا عنه قليلًا ذلك اليوم لاستغراقها فى رواية تقرؤها.

عاد إيزاك متأخرًا دون الطفل ولا عربته وأخبر زوجته بما قام به، لقد باع الطفل الصبى ذا العينين الزرقاوين.فهم ببساطة لن يقدروا على إطعام فم آخر وهى لن تستطيع أن تتدبر أمر طفل آخر. وإن ما قام به هو لصالح ألكسندرا. ثم استدار غاربًا عن وجهها ومنذ ذلك اليوم لم تخط قدماه المنزل مطلقا و لم يعد يربطه بأهل هذا البيت سبب.

حينئذ انخلع قلب ألكسندرا وعلا صوت صراخها حتى أن صداه تردد فى أرجاء الحى، كان نشيجها يسمع فى الكتاب (بيت العبادة الصغير الشبيه بالكنيس حيث يجتمع الرجال للصلاة فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار) وعاود صوتها صداه بين الأزقة المتربة والشوارع الحقيرة، حتى أنه سمع فى الحمامات العامة حيث تذهب النساء للاستحمام والنظافة.

فى تلك الأونة كانت مصر بلدًا توجد به طائفة الندابات، وهن من يمتهن الندب (والعويل) على الموتى وكانت أصوات بكائهن تصل إلى الشوارع وتسمع دائمًا فى الطرقات وحين سمع المارة صوت جدتى قالوا وهم يتابعون سيرهم "لابد أن أحدهم قد توفاه الله"

ومازالت إيديث تتذكر كيف كانت تشاهد أمها من نافذة منزلهم أثناء خروجها من المنزل وعودتها إليه يوما بعد يوم، منهكة القوى، يزداد قوامها نحولًا، عجوزا قبل أوانها معتزة بنفسها ومع ذلك يملؤها اليأس، وكانت تلجأ لالتماس الهبات لإعالة ولديها من التبرعات التى كانت تتلقاها المؤسسات الخيرية اليهودية المتميزة بنشاطها الواسع داخل المجتمع. وكان معظم ما تحصل عليه من مال يصرف على إطعام إيديث وأخيها فليكس. لم تكن تحتفظ لنفسها بشىء، وعاشت على السجائر وفنجان يتبعه آخر من القهوة التركى المعدة من البن المركز التى تقوم بتحضيرها باستمرار فى المطبخ. كانت ألكسندرا تتساءل دائمًا "ماذا حدث لابنها ذى العينين الزرقاوين؟، هل هو حقًا فى رعاية الله؟ "

كانت جدتى تصطحب أمى كل عدة أسابيع، لزيارة بعض أقاربهم الأغنياء فى القاهرة -ابنة أخت، ابن عم، خال رحيم- ممن يعلمون بمحنتها المالية ويوافقون على

مساعدتها، وكانت تلك المساعدات مهما تواضعت تعين على دفع إيجار الشقة وشراء الطعام للأطفال. وحين تصل أمي وجدتي لبوابة القصر الذى تقصدانه وقبل ولوجهما المداخل كانت جدتى تذكر أمي بألا تفشى سر فقرهما ومدى حاجتهما.

وما أن يكونا فى الداخل، حتى تشرع الخادمات فى الاقتراب منهما حاملات صوانى من الفضة عليها أنواع مختلفة من السندوتشات الصغيرة الحجم وأنواع من البوتيفور وغيرها مما لذ وطاب من أطعمة خفيفة ، لكن أمي، التى يعتصر الجوع أحشاءها ، كانت تهز رأسها مبتسمة قائلة «لا شكرا» – بينما عيونها ترمق الصوانى فى الذهاب والإياب – طاعة لألكسندرا، فيجب ألا يعلم أقاربها أنها لم تتناول بعد طعام الإفطار فضلًا عن طعام الغداء. ظلت إيديث مثالًا للفتاة المؤدبة المطيعة لتلميحات جدتى، تسمح لنفسها فقط بتناول قطعة صغيرة من البسكويت ولاشىء أكثر. فإذا مرت الزيارة بسلام كانت ألكسندرا تحصل على مبلغ من المال يكفى لإعالتهم عدة أسابيع قادمة، مما يدفعها لترديد عبارات الإطراء عن أولئك الأقارب الرائعين.

بعد تغطية كافة النفقات اللازمة، لم يكن يتبقى من المال إلا النزر اليسير كانت ألكسندرا تنفقه فى شراء تذكرة لمشاهدة فيلم من الأفلام التى تعرضها دور السينما المحلية. ففى ساعة العصر من كل يوم تقريبا، كانت جدتى تغادر المنزل تاركة أمى وفليكس أخاها وحدهما ،بينما هى تتجه وفى يدها علبة سجائرها إلى دار السينما. وبعد انتهاء العرض، وبدلا من أن تعود للمنزل مباشرة كانت – وأحيانًا لعدة ساعات تمشط الشوارع الصغيرة والأزقة والطرق الرئيسية وساحات الأسواق بحثًا عن أى أثر لخالى المفقود.

وأخيرًا، وبعد عودتها كانت تبدو هادئة بشكل غريب، لم تكن لتتحدث لأمى أو لفليكس فقد كانت كل أفكارها تنحصر فى الطفل الذى فقدته. كانت تجلس إلى البيانو وتبدأ بالعزف. فى حال سرورها وحال حزنها كانت ألكسندرا تعزف. كان عزفها جميلا وكان من الممكن أن تكون واحدة من كبار عازفى البيانو فقط إذا لم تكن قد أسرعت بالزواج من جدى إيزاك، كانت أمى تؤكد على ذلك دائما.

استمر بحث ألكسندرا عن طفلها لسنوات. لم تكف عن التفرس فى وجوه الأطفال، أولئك الذين يجلسون فى عرباتهم أو الذين يرتدون "حفاضات" من القطن وفانلة من القطن ويستمتعون بصباح مشمس فى صحبة آبائهم وأمهاتهم؛ كانت تمعن

النظر متفحصة إياهم عن قرب، ففى مكان ما من ذاكرتها الحزينة، كان ابنها لايزال على الشاكلة التى كان عليها يوم اختفائه.

لم تسامح ألكسندرا زوجها قط. جدى الذى عاد إلى الظهور أخيرًا، والذى كان يقيم فى الجوار بحى الظاهر على بعد مسافة تبعد دقائق عن العائلة التى هجرها.

فى قاهرة عشرينيات القرن الماضى، لم تكن نفقة الزوجة ولا إعالة الأبناء من الأمور التى يعرفها الناس فما إن تم الانفصال بين ألكسندرا وإيزاك ، ورغم عدم تأكد وقوع الطلاق من عدمه ، صار على ألكسندرا وحدها تدبير نفقات المعيشة وإعالة الطفلين. النعمة الإلهية التى أنقذتها كانت أبناء إيزاك من زواجه الأول، روزيه وإدوارد اللذين كانا حقًا رقيقين وفيين لواجب صلة الدم مع تلك المرأة التى تزوجها أبوهما ثم تخلى عنها. ولأنهما كانا يكبران إيديث وفليكس بكثير فقد حلا محل أبيهما كما كانا كذلك لألكسندرا التى لا تعدو عن أن تكون طفلة هى الأخرى.

ولأنه كان رجلا كبيرًا فى السن تعرض جدى إيزاك لجلطة خطيرة أصابته بشلل رباعي، تركته عاجزًا عن الحركة تمامًا. وقد نقلته ابنته روزيه، على الرغم من كفاحها من أجل تربية أطفالها والعناية بهم ، لبيتها مجبرة أبناءها على مشاركته حجرتهم والاهتمام به فترة مرضه .وقد ظلت ألكسندرا وروزيه أصدقاء ، وكثيرًا ما كانت تمر عليها جدتى لتناول فنجان من القهوة. ومع ذلك لم تحاول ولو لمرة واحدة أن تلقى نظرة على إيزاك الذى كان يرقد بلا حراك على فراشه فى الحجرة الخلفية من المنزل. كانت فقط ترتشف فنجان القهوة، وتتبادل أطراف الحديث مع ابنة زوجها ثم تغادر المنزل لا تلوى على شىء.

ورغم مرور عشرات السنين فإن ألكسندرا استمرت فى البحث عن ابنها المفقود ولم يتوقف بحثها عن ضالتها المنشودة حتى بعد أن كبرت سنها وانحنى ظهرها، ولا بعد زواج إيديث واستقرارها ثم إنجابها لأبنائها الذين لم يشفع وجودهم فى شعور جدتهم براحة البال.

كان سعيها الحثيث فى طرقات القاهرة قد أصبح الآن ذا معنى، فاليوم صار لها محطة تتوقف عندها بعد أن كانت لسنوات دون أية محطة، كانت تلك المحطة هى المنزل بشارع الملكة نازلى. كانت تتودد لإخوتى بأغان رقيقة باللغة الإيطالية تهدهدهم بها

لتساعدهم على النوم وتغدق عليهم كل الحب والاهتمام مما كانت ستهبه لابنها الذى سرن منها.

كانت حكايات أمى عن ألكسندرا تنتهى دائمًا بنفس اللازمة "أنت يا لولو تشبهين جدتك تمامًا" كانت تقولها لى بصوت يفصح عن إعجاب غريب. وكطفلة تساءلت هل يجب أن أصدق قولها بحذافيره. كنت أتخيل نفسى جالسة أمام بيانو كبير بينما دوائر دخان السجائر المتلاحقة تتصاعد أمام عينى، أشاهد بيتى يتداعى أمام ناظرى وزوجى ينفر منى بينما أطفالى يصرخون من الجوع مهملين يسيرون فى الطرقات فى ملابس رثه وأسمال بالية. لماذا، تساءلت بينى وبين نفسى لماذا تعتقد أمى أن هناك تشابهًا بينى وبين جدتى المعذبة. لست أدرى!؟ ربما كانت إيديث تحاول أن تحتفظ بقطعة من ألكسندرا بأى ثمن حتى لو كان ذلك على حساب إعادة تشكيلى، أنا ابنتها، فى صورة تلك المرأة!.

الفصل الرابع

نهاية عصر الطرابيش

هناك صورة تذكارية التقطت للعائلة فى أوائل الخمسينيات فى مقهى بالإسكندرية وفيها تجلس إيديث بشعرها المتموج اللامع إلى إحدى الموائد، واضعة ساقيها الفاتنتين -إحداهما فوق الأخرى- كانت أمى نموذجا للزوجة الشرقية، سمراء، غامضة، تلفها مسحة خفيفة من الحزن، بينما أبى يجلس بجوارها -ناظرا بثقة إلى الكاميرا- بطربوشه الأحمر، ذلك الطربوش الذى كان يعتز به باعتباره رمزا للأرستقراطية المصرية، ويجلس بينهما أختى وأخواى، سيزار وإيزاك اللذان خفف ميلادهما إلى حد كبير من حالة الحزن الضاربة بجذورها فى المنزل بشارع الملكة نازلى منذ انتهاء الحرب. ظهرت عائلتى بجميع أفرادها فى أبهى حلة وأجمل صورة؛ فكانوا جميعًا مثالاً جليًا لعائلة يهودية ثرية تعيش فى مصر فى أوائل الخمسينيات.

وبرغم ذلك، فقد كان الإحساس بالأمان آنذاك يعد ضربا من الأوهام، فالحياة فى مصر كانت قد تغيرت بشكل جذرى منذ موقعة العلمين التى خلفت آثارًا بالغة، فبعد هزيمة المحور فى ١٩٤٥ تكاتفت الجهود لإجبار الإنجليز -الذين يشعر العرب تجاههم بالاستياء والمرارة لبقائهم عبر عقود من الزمان جاثمين على صدورهم ومن ثم تسامحوا معهم مؤقتا وبالكاد خلال الحرب- على مغادرة البلاد، أما الملك فاروق رمز الفساد، ذلك الذى كان يومًا ما ملكًا وسيمًا رشيقًا وكانت بداياته واعدة، فقد أصبح الآن يُسب ويُلعن على الملأ بسبب حياة الفسق والانغماس فى الملذات التى يحياها.

الأسرة قبل ولادتى (من اليسار إلى اليمين):
إيديث، سوزيت، سيزار، وإيزاك ، وليون فى الإسكندرية نحو عام ١٩٥٢

وأكثر ما ألهب المشاعر وأوغر الصدور هو ولادة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ وقد ملأت الحرب التى خاضت مصر غمارها وباءت فيها بالفشل أمام الدولة اليهودية الوليدة قلوب المصريين بالضغينة، وألقى اللوم على الملك فاروق شخصيًا إذ قاد بلاده إلى أتون حرب منيت فيها بالهزيمة وكان ضباط الجيش على رأس الساخطين عليه وقد شرعوا يعدون العدة للإطاحة بعرشه، ومما زاد من حنق هؤلاء الضباط أن الملك كان لايزال قريبًا من يهود مصر الذين ينظر إليهم الآن هذه النظرة المعادية التى ينظر بها إلى دولة إسرائيل.

استمر أبى فى المحافظة على عاداته القديمة ولكن بحلول١٩٥٢أصبح ذلك مستحيلًا عليه .فجأة، اشتعلت القاهرة.

فى ظهر يوم السبت ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ انتفضت الجماهير الغاضبة فى الشوارع الشهيرة بوسط المدينة مثيرة فيها الشغب مضرمة النيران فى كل الأماكن التى يرتادها الأجانب ويسكن فيها الأثرياء المترفين دور السينما والبنوك، والنوادى الخاصة

والمتاجر الكبيرة الضخمة الفخمة، ومكاتب شركات الطيران والمقاهى الكبيرة، والكباريهات وكل ما جعل من القاهرة "باريس إفريقيا"وأكثر المدن الجاذبة للأنظار على وجه الأرض.

ومن دواعى الأسف، أن هذه الأماكن قد نجحت أيضا فى خلق الإحساس بالغربة لدى الفرد العادى، فشعر القاهريون أن تلك البلاد ليست بلادهم، كانت معظم محلات القاهرة -حتى حلوانى كجروبى- تفوق الإمكانيات المادية لأولئك الذين لم يكونوا أجانب أو أغنياء أو يهودا، و لم يكونوا يلقون الترخاب فيها أو فى ما شابهها فضلًا عن عدم قدرة معظمهم على دفع قيمة ما يباع فيها من سلع أو بضائع ولهذا السبب ربما اعتبر جروبى أيضا هدفًا من أهداف الجماهير الثائرة، فدمر الثائرون وأحرقوا تقريبًا كل المؤسسات الرئيسية التى لها علاقة بالإنجليز أو الفرنسيين أو اليهود وأضرموا النيران فى جروبى وسرقوا الختم الملكى من على واجهة مطعمه، ولكن بعد أن أخرجوا العاملين به والذين كان من بينهم رئيس الطهاة والخباز وصانع الكريم شانتييه إلى حيث الأمان، ومن ثم فقد كانت الضحية الوحيدة لذلك الحريق هى المؤن اللازمة لإعداد الحلوى التى تمثلت فى عشرات الأجولة من الدقيق الفاخر والسكر التى كان الغوغاء المسعورون يقومون بحملها إلى الخارج مضرمين فيها النيران، إن من شهد تلك الليلة المروعة من سكان القاهرة ستظل ذاكرتهم تستدعى رائحة الهواء المعبأ بالسكر المحروق.

كانت أختى سوزيت البالغة من العمر سبع سنوات آنذاك بالخارج برفقة الخادمة domestique عندما شدت الدوامات شديدة السواد المنبعثة من الدخان انتباههما من على البعد. جذبت الخادمة أختى من يدها صارخة فيها "اجرى، اجرى" جرتا معًا بأقصى سرعتيهما فى شوارع القاهرة، كانت تلك هى المرة الأولى التى تحس فيها أختى الكبرى بخطر يحدق بها، وفى جريهما السريع إلى بيتنا فى شارع الملكة نازلى ظلتا تلتفتان للخلف غير قادرتين على مقاومة الحملقة فى سحب الدخان المتصاعدة.

سحبت إيديث مصراعى النافذة بالقدر الذى تتمكن به من مراقبة الأفق فقد كانت أمى نادرًا ما تقرب النافذة لم يكن أحد يعلم ماذا جرى؟ أو ما الذى يجرى؟ من وراء ذلك كله كانت الحقيقة الواضحة للعيان أن ما حدث كان مرعبًا مخيفًا وكانت الكلمة التى تسمع وتتردد فى الطرقات هى "القاهرة تحترق".

حتى الملك باغتته المفاجأة إذ كان آمنًا يأكل بنهم خلف البوابات الضخمة لقصر عابدين، حيث أقام مأدبة طعام يستمتع فيها بتناول الطعام الشهى اللذيذ مع مئات من ضيوفه من كبار الشخصيات الهامة الذين جاءوا خصيصًا للاحتفال بميلاد ابنه أحمد فؤاد الذى كانت ولادته تبشر بسنة سعيدة.

يوم حريق القاهرة، جازف أخي سيزار ابن السادسة واقترب من النافذة محدقًا خلال الفتحات الخشبية لمصراعيها فاستطاع أن يرى الغوغاء يجرون حاملين المشاعل فى أيديهم.

"سيزار، ابتعد عن النافذة" cesar eloigne - toi de la fenetre، قالتها أمى بصرامة لأخى محاولة إقصاءه عن النافذة ولكنه تجاهلها إذ غشيه الذهول وهو يحدق فى الجموع التى تجرى فى الشارع. هل سيقومون بإضرام النيران فى الجوار؟ هل سيباغتوننا فى منزلنا بشارع الملكة نازلى؟

لقد ترسخ ذلك اليوم فى وجدان أخى ذلك اليوم الذى عرف بالسبت الأسود، أو بالأحرى، ولمزيد من العجب، يوم الأربعمائة حريق إذ اشتعلت النيران فى أربعمائة بناية متفرقة، كان من ضمنها فندق شبرد الذى يعتبره أبى واحدًا من أفضل المبانى وكان كثير التردد عليه، ذلك الفندق الأوسع شهرة فى العالم فى القرن التاسع عشر الذى كان يعتبر أفخم شعار لعهد الاحتلال البريطانى وكان من الأماكن المحببة لأبى ولطالما اتخذ منه مقرًا لإدارة أعماله. كم كان ليون يحب أن يطيل البقاء فى البار -المصنوعة ألواحه من خشب البلوط- مع الضباط الإنجليز حين كانوا يملكون القاهرة وكان هو يملكها جنبًا إلى جنب معهم.

لعدة أيام لاحقة اختبأ اليهود فى بيوتهم، لا يجرؤون على الخروج إلى الطرقات وخاصة فى وسط المدينة، يقينًا لم يكن اليهود هم المستهدفين مما حدث من أعمال عنف، وإنما كان الأجانب وبخاصة الإنجليز هم المستهدفين، ومع ذلك شعر المجتمع اليهودى بأنه معرض لهجوم شديد وكان يخشى الأسوأ، فكانوا يتساءلون هل يعدون هم أيضًا فى عيون جيرانهم العرب من الغرباء؟

شاهد أصحاب القلوب القوية الشجاعة الذين جرؤوا فى النهاية على التجوال فى شارع سليمان باشا والمناطق المجاورة له مظاهر تخريب وتدمير لا نظير لها استدعت إلى الأذهان مثيلتها التى لحقت ببرلين بعد الحرب، لقد سويت بالتراب مبان كانت تعد

من معالم القاهرة، مؤسسات تجارية تم تدميرها مثل المتجر الكبير المملوك لليهودى شيكوريل وتقريبا كل دور السينما المعروفة من سينما مترو إلى سينما ميامى كان مآلها إلى الخراب ورغم اهتمام الغوغاء بإخلاء المبانى من الناس قبل إضرام النيران فيها فإنه كان هناك العديد من الضحايا. فقد هلك نحو اثنى عشر رجلًا من الإنجليز فى نادى "تارف" وهو ناد بريطانى خاص بالصفوة من الإنجليز، كما لاقت شابة يهودية وفدت من الإسكندرية للزيارة حتفها فى فندق شبرد بعد أن قام الغوغاء بنهب المحلات والبنوك، فخطفوا البضائع من المحال التجارية واستولوا على ما بها من نقود سائلة، وفى الوقت الذى استعادت فيه السلطات أخيرًا سيطرتها على الأمور -فرض الملك فاروق الأحكام العرفية- كان من الواضح أن الخراب والتدمير الذى حدث لم يكن بفعل جموح الغوغاء بقدر ما كان نتيجة لتخطيط وتنظيم من قبل أعداء الملك الأقوياء.

لم يكن واضحًا من هم هؤلاء الأعداء على وجه الخصوص، فقد كان أعداؤه كثرا. كانت أصابع الاتهام تشير إلى الإخوان المسلمين والشيوعيين وعناصر من الجيش وبعض سفارات أوروبا الشرقية، وكانت أكثر النظريات التآمرية حنكة وغرابة تلك التى تشير إلى الإنجليز أنفسهم. لم يكن معروفا من الذى خطط لتلك الانتفاضة؟ وظل الغموض يحيط بذلك الموضوع لسنين لاحقة رغم التحقيقات المتعددة التى أجريت بشأنه لسبر أغواره، غير أن الشكوك كانت تحوم دائما حول الإخوان المسلمين وبعض صغار ضباط الجيش وكان الرأى الأرجح هو قيام تحالف مريب، قصير الأمد، بين الطرفين.

بعد ستة أشهر من يوم السبت الأسود وفى ٢٦يوليو ١٩٥٢أجبر الملك فاروق، الذى كان ضحية لانقلاب عسكرى، علىٍ التنازل عن العرش .فقبل ذلك بأيام أحكمت مجموعة مكونة من اثنى عشر ضابطًا من صغار ضباط الجيش سيطرتها على أمور البلاد وتولت شئون الحكم وبينما الملك يحاول أن يسترد ما قدمه من خدمات للعديد من القوى الأجنبية فيما مضى، كان أقصى ما يمكن أن تفعله تلك القوى هو ضمان خروجه سالما من البلاد.

ترك فاروق مصر، تخلى عن قصوره وسياراته والكازينوهات التى اعتاد ارتيادها والرعايا الذين يبحثون عن حمايته لهم مثل عائلتى. وخوفًا على حياته أبحر فاروق من الإسكندرية على "المحروسة" وعلى ظهر هذا اليخت الأنيق تحول فاروق فجأة من ملك إلى أكثر المخلوقات الواجب الابتعاد عنها، لقد أصبح الملك فاروق منفيا.

سد موكب السيارات ماركة رولز رويس القرمزية اللون شارع الملكة نازلى. فقد شاهد سيزار من نافذة حجرة أبى السيارات الملكية وهى تسير ببطء الواحدة تلو الأخرى فى ذلك الشارع الرئيسى. كان من الممكن تمييزها بسهولة للون طلائها الأحمر القانى. فقد كان ممنوعًا منعًا باتًا أن تطلى بهذا اللون الملكى أية سيارة أخرى حتى تلك المملوكة لأى من الباشوات أو البكوات. لم يسبق لأخى أن رأى هذا الكم من السيارات حمراء اللون دفعة واحدة، ومع ذلكِ لم يعرف من أو ماذا كانت تقل تلك السيارات: أعضاء آخرين من العائلة المالكة؟! المزيد من مقتنيات الملك التى لا حصر لها فى الأيام الخوالى السعيدة، كانت سيارة فاروق الرولزرويس الفانتوم تمرق فى شارع الملكة نازلى بصفة دائمة، لكونه الطريق الرئيسى الموصل بين القصر الملكى بالقبة وقلب المدينة من ناحية أو هليوبوليس من ناحية أخرى. كانت حركة المرور تتوقف، حين يتجمع المارة وسكان الشارع على جانبى الطريق محدقين فى الموكب الملكى الذى كان دائمًا ما يستقطبهم، فقد كان لذلك الموكب فعل المغناطيس. "يعيش الملك" yaeesh el malik كان الأطفال يصيحون بها فى حماسة وفرحة بينما الكبار ينبرون هاتفين "يحيا الملك، يحيا الملك" أثناء مروره وكان من المألوف أن يختلسوا النظر لرؤيته مرتديا طربوشه الأحمر ويتذكر كبار السن بأسى، فاروق يوم جلوسه على العرش وكيف كان وسيمًا ببشرته البيضاء وابتسامته الرقيقة.

وقف أبى وأمى فى شرفة حجرة الطعام ، محملقين فى الركب المنطلق للأمام .لوح أبى بيديه فى حزن، متعجبين هو وأمى ومتسائلين ماذا يعنى كل ذلك بحق السماء؟ رحيل السيارات الحمراء، والسائقون يقودون السيارات بسرعة بطيئة كأنهم فى موكب جنائزى، كانت السيارات تبدو للعيان من بطئها كأنها طافية على سطح الطريق، يا له من كابوس! والغالب على والدىّ فى وقفتهما تلك أنهما كان يتساءلان عن مصيرهما الآن بعد رحيل الملك الذى كان رغم إفراطه فى الطعام والشراب ونقاط ضعفه المتعددة وحياة العبث والاستهتار التى كان يحياها فإنه كان صديقًا لليهود. وليس أدل على ذلك من هذا السؤال الذى يطرح نفسه:

لماذا لجأ الملك فاروق بعد ميلاد ابنه أحمد فؤاد الثانى بعدة شهور إلى يهودى يدعى "سيمشون" الذى كان يعد أفضل "موهل" فى المجتمع اليهودى؟ رجل مدرب متخصص فى القيام بالطقوس الدقيقة المتعلقة بعملية ختان الذكور رغم وجود من يقوم

بذلك من المسلمين الذين يضاهونه مهارة وخبرة ومعرفة بتلك الطقوس القديمة لهذه العملية إلا أن سيمشون هو الوحيد الذى ظفر بثقة فاروق لإجراء الختان لابنه الصبى الذى طال شوقه إليه وانتظر مجيئه على أحر من الجمر.

فسر اليهود ذلك على أنه إشارة طيبة لاستمرار صداقتهم مع الملك. فلطالما اتسمت علاقتهم مع الملك فاروق بالسلام والحب كما كان الحال مع أبيه فؤاد الأول الذى كانت خليلته من نسائهم، وبالطبع نالت تلك الروابط القوية ما نالها من التهرؤ والتمزق بعد قيام دولة إسرائيل، حين قاد فاروق البلاد العربية فى حربهم ضد الدولة اليهودية الوليدة، آنئذ بدأ الخروج الجدى الحقيقى لليهود من مصر. لقد كان الملك قبلها عند حسن ظن المجتمع اليهودى به فقد كان لطيفًا كريمًا معهم، يرسل مبعوثيه من البلاط الملكى فى المناسبات الدينية اليهودية الهامة لحضور الطقوس المقامة فى معبد "بوابات السماء" ليشاركهم فى احتفالاتهم بتلك المناسبات، كان رسله يجلسون بكامل زيهم الرسمى فى الصف الأمامى من المعبد.

للأسف، لم يجلب ميلاد الصبى أحمد فؤاد الثانى إلا الحظ العاثر لأبيه الملك فاروق، وربما كان ذلك لأن اسم زوجته الثانية "ناريمان" لم يبدأ بحرف "الفاء" الذى كان يعد تميمة الحظ لتلك العائلة. وقد بدأ البعض يتهامسون بالفعل بأن حرف "النون" هو المتهم والشواهد هى صعود كل من اللواء نجيب والبكباشى ناصر، ضابطى الجيش اللذين قادا الثورة واقتسما السيطرة على شئون الحكم والقضاء على الملكية.

كان هنالك حزن شديد على تلك العربات المارة فى الطريق فقد عاشت هذه العربات حتى الآن حياة ملؤها المرح والانطلاق، إذ كان الملك هاويا متيما بها وكان يمتلك عشرات من السيارات المختلفة الصنع والشكل، فالعربة الرولزرويس صنعت خصيصًا له فى إنجلترا ووفقًا لما طلبه من مواصفات فى عام ١٩٤٠ بجانب العربات من ماركة فيرارى، بنتليز، ألفا روميو، والكاديلاك، لقد حظيت جميع العربات بمعاملة ملكية فطلاؤها يلقى من العناية ما جعله دومًا مصقولًا ولامعًا وبراقًا.

انتهى الحال بعد الثورة بعامة الشعب إلى طلاء عرباتهم باللون القرمزى بدرجاته المختلفة .وفجأة أصبحت القاهرة والإسكندرية تعجان بعربات من اللون الأحمر النارى تجوب طرقاتهما، أما العائلات الغنية التى كان بمقدورها السفر لخارج البلاد فكانت تقوم بشراء عربات جديدة بلون الكرز الأحمر من نوع الباكرا وفورد على

نفقتهم الخاصة. لكن أسطول السيارات الملكية الجميل والأصيل بكل ما تحمله كلمة أصيل من معنى لا يمكن محاكاته بطبقة من طلاء أحمر تطلى بها عربة هنا، أو بشراء سيارة بلون الكرز الأحمر من تاجر سيارات هناك، فالسيارات الملكية هى سيارات فريدة نادرة من نوعها ليس لها مثيل، كما أنها شاهدة على تلك الحقبة الزمنية التاريخية وما مر بها من أحداث، لقد علم والداى أنهما لن يحظيا برؤية هذه العربات مرة ثانية على طول شارع الملكة نازلى.

فى غضون أيام من تنازل فاروق عن العرش صدر قرار بإلغاء الألقاب الملكية، فلقب الباشا والبك لم يعد لهما وجود. أراد الحكام العسكريون الجدد إزالة البقية الباقية من النفوذ الهائل للعائلة المالكة، والقضاء على كل ملمح من ملامح العهد الملكى ولو كان به مجرد إشارة من طرف خفى لذلك العصر، من قبيل الطربوش الأحمر الذى كانوا يفضلون ارتداءه، لقد استهدف النظام الذى مارسوه استئصال أية ذرة من أثر للملكية، ولم يمض عامان حتى كانت الأسماء التى أطلقت على الشوارع تمجيدًا وتعظيمًا للملوك المتعاقبين على حكم مصر قد تم تغييرها.

أما شارعنا، شارع الملكة نازلى، الذى قام فاروق بتغيير اسمه فى نوبة غضب من أمه فأطلق عليه ببساطة اسم "شارع الملكة "ماحيًا أية إشارة لكلمة نازلى، فقد جرد هو الآخر تمامًا من ذلك الاسم وأضحى اسمه "شارع نهضة مصر" وانتهى به المطاف أخيرًا إلى أن أصبح "شارع رمسيس"، كما أن "شارع فؤاد" الفخم الذى أطلق عليه هذا الاسم احترامًا للملك فؤاد الأول، تم تغييره إلى شارع ٢٦ يوليو تخليدًا ليوم سقوط الملكية، و"شارع فاروق" ذلك الشارع المتواضع بالمقارنة بسميه حيث يمكنك شراء الأوانى الفخارية وأوانى الطهى اللازمة للمطبخ فقد خضع اسمه للتغيير مرارًا وتكرارًا إبان عصر عبد الناصر وعصر السادات، وأخيرا استقر اسمه على شارع الجيش*. كما واظب الحكام الجدد أيضًا على محو أسماء الشوارع التى تحمل اسم أى بطل من أبطال تلك الحقبة الذين يعتز بهم الشعب والتاريخ وخاصة إذا ارتبط اسم هذا البطل أو ذاك الهمام بلقب باشا، فمثلًا ميدان سليمان باشا بجماله وورونقه الأخاذ، الذى أطلق عليه هذا الاسم احترامًا للقائد الفرنسى الذى أشهر إسلامه، وكان له الفضل فى بناء جيش

* لم يخضع اسم هذا الشارع للتغيير مرارا بل ثبت على حاله منذ أول تغيير له وهو شارع الجيش.

مصر الحديث، قد تم تغييره إلى "طلعت حرب"، رجل الصناعة المصرى الذى أسس أول بنك مصرى وطنى، لكن ترى ما هو العيب فى اسم سليمان باشا؟! هل لأن الملك فاروق كان حفيدًا لحفيده!؟، لقد كان تغيير أسماء الشوارع فى مصر أمرًا مألوفًا ولكنه أصبح بعد الثورة وسواسًا، حتى أنه لم يعد من السهل حصرها، فقد صارت القاهرة فوضى مربكة من تضارب الأسماء الرسمية وغير الرسمية، من الأسماء القديمة والأسماء الجديدة والأسماء الأحدث.

وربما كانت أكثر قرارات الحكام الجدد قسوة وصرامة ذلك المرسوم الصادر بالتخلى نهائيًا عن الطربوش، لم يعد أبى قادرًا الآن على ارتداء الطربوش الأحمر الذى يتيه به. بالنسبة لقادة الثورة كان الطربوش -رغم صغر حجمه- رمزًا قويًا للعهد البائد، فكل صور الملك فاروق كانت تلتقط له مرتديًا الطربوش، وكذلك كان حال باشاوات ذلك العهد، فى حين أن هذا الطربوش تجاوزت شعبيته نبلاء البلاط الملكى فقد كان يغطى رؤوس رجال مصر كلها حتى الصبية فى المدارس إشارة إلى احترامهم لأساتذتهم ونظار مدارسهم، لقد كان الطربوش يربطهم برباط لا ينفصم بالبلاط الملكى وبطريقة حياة يجدر بهم اتباعها.

بين عشية وضحاها توارت الطرابيش عن الأعين واختفت من على رؤوس الرجال فى مصر قاطبة أغطية الرأس الحالمة ذات اللون الأحمر، وفجأة أصبح الرجال يغطون رؤوسهم بقبعات مصنوعة من اللباد أو القش أو قبعات جميلة من نوع بورساليونز*، وبالسخرية القدر، كان الكثيرون من أبناء عهد الثورة من الطبقات الثرية، مولعين بارتداء أغطية الرأس الكلاسيكية المستوردة من الدول الأجنبية رغم أن التخلص من النفوذ الأجنبى على مصر كان هو قصد الثورة وغايتها القصوى.

كان قرار ضباط الجيش بتحريم ارتداء الطربوش يعبر عن كراهيتهم ووقوفهم ضد رمز تركى الأصل كان قد أصبح مصريًا خالصاً يضاهى الأهرامات وأبا الهول فى مصريتهم. ودون شك، فقد أصبح ارتداء الطربوش بعد سنوات من صدور قرار الإلغاء مقصورًا على حراس بوابات الفنادق الكبرى فى أنحاء القاهرة الذين يستقبلون الزائرين عند قدومهم ويرحبون بالسياح القادمين الملتمسين أصالة مصر.

---

* ماركة مسجلة من القبعات الرجالى ذات حواف من اللباد سميت باسم صانعها بورساليونز فى بدايات القرن العشرين.

أما ليون فقد قام بجمع كل ما لديه من تلك الطرابيش بفتائلها السوداء، وخبأها فى صوان ملابسه الخاص بجوار خوذة الزى العسكرى البريطانى كنزه الثمين الذى يحرص عليه. و لم يرتد أبى أبدا الطربوش مرة أخرى فى الطريق العام رغم إصراره على التعلق به واكتفى بمتعة تمرير أطراف أصابعه على قماشه المخملى الناعم ومداعبة فتائله السوداء.

كانت إيديث حاملًا وقت أن تنازل الملك فاروق عن عرشه، كان حملها تلك المرة عسيرًا، لم تكن تشعر على الإطلاق بأنها بحالة جيدة، وكانت باستمرار واهنة ضعيفة محمومة ومتألمة، ومع ذلك لم يستطع طبيب العائلة أن يتوصل إلى حل لهذا اللغز أو يميط اللثام عن سر تلك الآلام، وقد ازدادت حالتها سوءًا فى الأسابيع الأخيرة للحمل شاكية من صداع شديد وآلام فى بطنها وكان الجميع موقنين بأن ابنها الرابع الراقد فى أحشائها، هو سبب كل هذه الآلام مرددين قولتهم "إيديث المسكينة، كم هى ضعيفة" pauvre edith etait si delicate ومع ذلك لم تؤخذ أى ترتيبات فى الحسبان.

لسنوات كانت إيديث تعتمد يوم الوضع على مساعدة "سيميشا أليجرا" القابلة التى أنجبت إيديث على يديها كل أبنائها دون أية مشكلة، كان عمل القابلة عملًا وقتيًا

العم إدوارد

يعتمد على ساعة مخاض المرأة، وكانت تتمتع فى مهنتها بكفاءة وبراعة شديدتين رغم انعدام صلتها بالطب.

ولكن الأمر كان مختلفًا هذه المرة إذ كانت ثمة مشكلات .فأمى كانت مريضة جدا حين فاجأها المخاض وكانت معجزة أن تبقى على قيد الحياة وأن تلد طفلة بصحة جيدة، وبرؤية الرضيعة الجميلة بصحة جيدة، شعر الجميع بالأمل كما لو أن كل سوء متوقع قد ولى إلى حال سبيله، فالوليدة أطلقت صراخها وقت ولادتها وكانت أطرافها متناسقة وتتنفس بانتظام وكانت عيناها هما أكثر ما يجذب الانتباه، كانتا مثل عينى دمية جميلة مشرقة متألقة بلونهما الأزرق!

سمح لأختى وأخى اللذين كانا ينتظران وقت الولادة بقلق ولهفة فى حجرة الطعام برؤية الرضيعة، ولكن لفترة وجيزة. اختلست سوزيت النظر إليها وصرحت بأنها جميلة. وكان هذا هو الحكم الذى أقر به كل من ألقى نظرة خاطفة على الطفلة الرضيعة "يالها من طفلة رائعة، ساحرة -qu'elle etait simplement ravissante" كان شعرها يجمع بين اللون الأشقر وزغب ناعم بنى اللون، يميل إلى اللون الذهبى.

أطلقوا على الطفلة الرضيعة اسم "ألكسندرا"، تيمنًا باسم جدتى لأمى التى صارت دائمة الوجود بمنزلنا منذ مجيء الطفلة لتولى مزيدا من عنايتها ورعايتها لتلك الرضيعة التى ملأتها بفرح افتقدته لسنين.

لكن صحة إيديث تدهورت من سيئ إلى أسوأ .فكانت تستيقظ أحيانا مشوشة تهذى فتطعم الطفلة ثم تسقط من فورها فى سبات منهكة القوى لم يكن نومها أبدًا نومًا مريحًا بل كان قلقًا. كانت دائمًا تئن أثناء نومها أو تبكى أناسا من الماضى، أخاها الرضيع الذى بيع فى السوق أو أباها إيزاك الذى هجرها وتخلى عنها.

كانت جدتى ألكسندرا تشعل سيجارة من أخرى، قلقة تتنقل من مكان لآخر داخل المنزل ثم تعود إلى ابنتها فتجد المرض قد اشتد عليها حتى أن عينيها تبقيان مثقلتين لا تستطيع أن تفتحهما. لم تكن هناك جدوى من مناشدة ليون. فقد كانت ألكسندرا تعلم منذ البداية أن هذا الزواج لن يكون زواجًا سعيدًا، وكانت تلقى باللوم على أبى للتعاسة التى توغل فيها إيديث ولتعاستها هى أيضًا يوم أن وافقت على ذلك الارتباط فى الباريزيانا. ورغم ذلك كانت دائمًا ما تخشى الوقوف فى مواجهة ليون

أو الدفاع عن ابنتها. وفى تلك المرحلة الخطيرة التى تتعلق بروحين كانت جدتى وأبى بالكاد يتبادلان الحديث. استدعى أبى -نظرًا لوعيه التام بالحالة الحرجة التى تمر بها أمى وأختى الرضيعة- كل من يعرفهم من الأطباء إلى المنزل الكائن بشارع الملكة نازلى؛ ومع ذلك لم تبدر عن أى منهم بادرة تشير إلى معرفته بما أصاب أمى ورضيعتها.

وفجأة استجمعت ألكسندر كل ما بداخلها من قوة لتحفيزها على الإتيان بعمل ما فغادرت منزلنا واتجهت سيرًا على الأقدام وبيدها علبة سجائرها، إلى بيت روزيه، ابنة زوجها، وأثناء ارتشافهما فنجانا من القهوة التركى، قصت ألكسندرا المأساة التى يشهدها منزلنا قائلة: "إيديث فى خطر وأنا سأجن من القلق عليها" edith est en danger Je suis folle d'inquietude ger فى وقت الأزمات، تتفق المرأتان على أنه يوجد شخص واحد فقط يمكن اللجوء إليه هو أخو روزيه، العم إدوارد، ابن إيزاك جدى من زواجه الأول، كان يتمتع بشخصية ساحرة وهو كبير عائلة أمى. كان قد استطاع أن يتسلق حاجز الفقر، ولكنه لم ينس وهو فى قمة نجاحه وازدهاره مد يد المساعدة لأفراد عائلته ورفعهم معه إلى الأعلى، ونظرا لتعامله مع كافة الصيادلة لارتباط ذلك بعمله بمبيعات الأدوية، فقد كان مندوبا للمبيعات، وقد كان على علم بأكثرهم كفاءة فى القاهرة، كما كان على معرفة كذلك بأحدث أصناف الأدوية وكانت أمى تحب وتبجل، هذا الأخ من الأب، الذى كان أبا لها.

هب العم إدوارد من فوره بمجرد علمه أن خطر الموت يهدد إيديث وقام باستدعاء واحد من أمهر المتخصصين فى الأمراض المعدية فى مصر. قطع الرجلان طريقهما إلى المنزل بشارع الملكة نازلى. وقد استقبلهما أبى بترحاب وراحة شديدين -فهو وإن كان الحاكم بأمره فى منزلنا إلا أنه يعرف جيدا متى يتخلى عن نفوذه، استطاع الطبيب ذو المعطف الأبيض أن يشخص المرض فى التو "إنها حمى التيفود" قالها بثقة وإن اعتراه الوجوم، وارتعدت فرائص كل من بالمنزل عند سماع كلماته فقد كانت حمى التيفود كارثة فى مصر

أصبح الأمر الآن واضحا، فرغم انتشار حمى التيفود على نطاق واسع، فإن تشخيصها كان فى الغالب صعبًا، مع أنه كان هناك الكثير مما يمكن عمله، لو علموا بذلك مبكرا. كان هناك العلاج الذى يمكن التداوى به، والأطباء الذين يمكن الاستعانة

بهم أثناء عملية الوضع، وليس مجرد قابلة لا علاقة لها بالطب من قريب أو بعيد. وكان الأهم هو فصل الرضيعة عن الأم.

وقد أصر الطبيب على ضرورة فصل الطفلة ألكسندرا فى الحال عن أمها التى كانت مستمرة فى إرضاعها رغم حالة الضعف والوهن التى سيطرت عليها، ولكن كان السيف -بالفعل- قد سبق العذل، نبه الطبيب إلى ذلك فى حزن، إذ كانت أمى قد ضمت الطفلة إلى صدرها واحتضنتها بين ذراعيها وقامت بإرضاعها ويبدو أن العدوى قد انتقلت إلى الرضيعة.

أمسى منزلنا بشارع الملكة نازلى حزينًا وكئيبًا ممتلئا بالدموع بعد أن كان قد أصبح منزلًا يملؤه الفرح.

صب العم إدوارد جام غضبه على أبى سائلًا إياه كيف سمح أن تبقى زوجته على هذه الحالة حين كان بمقدوره استدعاء أمهر المتخصصين فى وقت مبكر؟ لم يحاول ليون حتى أن يدافع عن نفسه. كان صامتًا مصدومًا لكل هذا التضارب فى الأحداث: طفلة حديثة الولادة، زوجة ميئوس من شفائها، حديث عن تعرض حياتهما للخطر، كل ذلك بسبب مرض معروف هو حمى التيفود الذى كان بمقدور أى طبيب كفء تشخيصه.

نظرًا للذعر الذى عم المنزل، فقد تصرف أبى بسرعة لحماية الأطفال الآخرين، فتم إرسال كل من سيزار وسوزيت على وجه السرعة فى سيارة أجرة إلى العمة مارى فى حين اتخذت الترتيبات اللازمة لحماية إيزاك الذى كان يحبو. مرت الأيام ثم توالت الأسابيع، كانت فترة عجيبة وغريبة حين لم يستطع كل من سيزار وسوزيت معرفة ما خطب أمهما وأختهما الرضيعة وكيف حالهما. ولأن الوقت كان صيفًا وكانت إجازتهما الصيفية قد بدأت، فقد زاد بالهما انشغالًا إذ كانت أيامهما خاوية، فلا توجد واجبات مدرسية ينشغلان بها. وكان أبى يمر عليهما يوميًا تقريبًا، ويتملص من أسئلتهما فلا يفصح عن أحوال المرضى بمنزلنا بشارع الملكة نازلى.

لم تأبه ألكسندرا بحمى التيفود، فكانت تغنى لحفيدتها الطفلة غير عابئة أو متوجسة خيفة من العدوى آملة أن تطرف أهداب الصغيرة وتفتح عينيها. فبعد أن تنتهى من غسل يديها فى الحوض المملوء بالمطهر تربت على الرضيعة برفق لتنبيهها ثم ترفعها إلى صدرها. كانت تلك الطفلة، المختلفة عن كل من أنجبتهم إيديث من أبناء، تسكن قلبها. أميرة للعيون الزرقاء فى مملكة العيون العسلية.

لكن الحمى فعلت فعلها فى الجسد الصغير فاشتعلت الحرارة فيه لدرجة لم تقو الرضيعة على تحملها، فازداد تنفسها صعوبة وانطفأت العينان البراقتان.

و لم يكن بمقدور أى أحد أن يفعل شيئا.

فلم يكن مسموحا لأمى باحتضان الطفلة وهدهدتها، وكانت وطأة المرض عليها من الشدة -ربما رحمة بها- لدرجة أنها لم تكن على دراية بأن طفلتها تحتضر فى الحجرة المجاورة.

وكان هناك ثمة احتمال ألا تجتاز إيديث تلك الأزمة بسلام، أو أن يكون بمقدورها التغلب على الحمى. وقد جاهد أفراد عائلة أمى -الذين فتح لهم أبى باب منزلنا على مصراعيه بطريقة لم يسبق لها مثيل- لإنقاذ الأم وابنتها.

فبعد أن أحضر العم إدوارد الطبيب، انتقلت تقريبًا العمة روزيه للإقامة معنا. وانصرفت إلى العناية بأمى آناء الليل وأطراف النهار فجافاها النوم مراقبة لأقل تغير يطرأ على حالة أمى وملبية أى بادرة أو طلب يصدر عنها.

وبتصميم العمة روزيه وإرادتها التى لا تقهر وحدبها فى العناية بإيديث، وجهود جدتى التى كانت تحوم بالقرب منها، استطاعت إيديث أن تنجو لكن الطفلة ألكسندرا لم تكتب لها النجاة.

وحين كانت أمى تسأل"أين الصغيرة؟"- ?ou est la petite تكون الإجابة: أنت مريضة جدا وإن رؤيتك للطفلة قد تعرض حياتها للهلاك، فكانت إيديث تومئ برأسها وتعود للنوم منسحبة للنسيان إذ كان الهذيان والتشويش لا يزالان يغلبانها.

و أخيرًا عاد إخوتى من منفاهم. فانطلقوا يطوفون بحجرات البيت من حجرة لأخرى بحثًا عن أى أثر للطفلة الرضيعة ولكن دون جدوى. فالمنزل كما كان فى السابق لم يصبه تغيير غير أنه قد تم تنظيفه جيدًا فأصبح على درجة عالية من النظافة حتى أن رائحة المطهر القوية مازالت عالقة بجدرانه ولكن الصمت يسود المكان فالكل صامت خاصة أمى التى كانت راقدة فى فراشها طوال اليوم.

لم يكلف أحد نفسه مشقة أن يفسر لإخوتى ما الذى جرى بالضبط، وما كان لأحد أن يتحدث عن مآل الصغيرة. وقد أحس إخوتى بغريزتهم أنه يجب عليهم ألا يلقوا الأسئلة. كانت تلك طريقة الحلبيين القدماء، وهى ألا يكشف للأطفال أمر الموت

ولو بتلميح، كان الصغار ممنوعين من الذهاب إلى أماكن العزاء وزيارة الجبانات والسير فى الجنازات ولا يسمح لهم حتى بارتداء السواد لأن ذلك كفيل بجلب سوء الحظ.

عاشت الطفلة ألكسندرا بيننا ثمانية أيام بالضبط، ورغم مرور سنوات وعقود، فإنها مازالت موجودة فى أعماق وعينا ذلك على الرغم من عدم وجود صورة لها. فقد كانت التقاليد تفرض اصطحاب الوليدة إلى محل التصوير ليقوم المختص بالتقاط صورة لها خلال أسابيع من ولادتها وبالطبع كان ذلك مستحيلا.

كان من عادة سيزار أن يتحدث إلىّ عن تلك الطفلة الجميلة ذات العينين الصافيتين، ومازالت سوزيت تتذكر خصلات شعرها البنية اللون التى شاهدتها لفترة وجيزة. لقد انشغلنا جميعا بها، كل بطريقته، مسبغين عليها كل صفة جميلة، لقد أسرتنى هذه الطفلة التى لم يمتد بها العمر.

دائمًا ما كانت أمى تردد على مسامعى "لولو، أنت بالطبع ألكسندرا"، ولفترة طويلة من الزمن كنت أظن أنها تقارننى بجدتى. وحتى عهد قريب، قريب جدًا بدأت أفهم أنها تستحضر الطفلة التى فقدتها، فكنت أنا بالنسبة لها الطفلة ذات العيون الزرقاء التى عادت للحياة على الأرض مرة أخرى.

ذبل جمال أمى، وبدأ ينزوى بطريقة تدريجية، وكان قد بدأ فى الانزواء حتى قبل أن تنمو الطفلة ألكسندرا فى أحشائها ولكن وفاتها كانت من أسباب التعجيل به. فأسنانها الجميلة البيضاء بدأت فى التفتت بعد ميلاد سيزار دون سبب واضح. ومع مرور السنوات أصبح فمها خاليًا من الأسنان وكان من المؤلم النظر إليها، تلك المرأة الشابة التى كانت فى العشرينيات من عمرها والتى تتمتع بقوام رائع لأبعد حد وفم مغضن لامرأة عجوز.

زهدت إيديث الحياة.

نادرًا ما كانت أمى تغادر المنزل رقم ٢٨١ شارع الملكة نازلى. ذلك كان التفسير الظاهرى لذبولها، أو على الأقل السبب الوحيد الذى اقتنعت به عائلتى وهو أن أمى التى تعانى من الأنيميا والتى تتناول القدر اليسير من الطعام كانت تعانى من نقصان الكالسيوم خاصة بعد حملها للمرة الثانية، وقد ازداد نقصان الكالسيوم مع توالى حملها.

لم تشرب كوبا من الحليب الطازج الذى ظل بائع اللبن يأتى به كل صباح من الماعز أو البقر الذى كنا نشاهده فى كل صباح من النافذة الخلفية لمنزلنا فى شارع الملكة نازلى مالئًا إبريقًا كاملًا مقابل قروش قليلة. كانت القهوة التركية السوداء المركزة –مضافا إليها الكثير من السكر للقضاء على المرارة التى تغلب على طعمها– هى شراب إيديث المفضل وكانت عندما تنتهى من ارتشافها تقلب الفنجان رأسًا على عقب كى تقرأ حظها فى بقايا القهوة العالقة بجنبات الفنجان.

وكما كان لغياب الكالسيوم فى طعام أمى دوره فى ذبول جمالها، كما كان لغياب المرح والبهجة من حياتها دوره هو الآخر فى انزواء هذا الجمال، لقد غرقت أمى فى اكتئاب عميق منذ وفاة الطفلة ألكسندرا وكانت كلما زاد حزنها أهملت نفسها ومظهرها، وبالطبع ساعد ذلك على عزوفها الدائم عن الذهاب إلى طبيب أسنان كفء رغم وجود العديد من الأخصائيين الأوروبيين المدربين فى قاهرة الأربعينيات والخمسينيات، وعندما تقدم بها السن كانت من الفقر بحيث لم تتمكن من زيارة أى طبيب أسنان، أبسط من ذلك كله أنها ظلت منذ زواجها من أبى أسيرة خوف شديد.

كانت إيديث على يقين من أن جمالها هو ما شد أبى إليها، ومن ثم كانت تعارضه بإهمال نفسها، وكانت تبدو فى أوقات غضبها منه كأنها تقول له (إذا لم تلتزم من جانبك حتى النهاية بما تم الاتفاق عليه منذ البداية من الاهتمام بى ورعايتى، فلن ألتزم أنا أيضا بالاهتمام بما جذبك نحوى ولن أرعى هذا الجمال).

كانت ردة فعل أبى تجاه موت ابنته الرضيعة مغايرة تمامًا. فبعد مرور فترة الحداد المعتادة، استأنف نشاطه الليلى المعروف عنه. فكان يخرج دون أن يصحب زوجته معه ولو من قبيل التخفيف عنها وإخراجها من القوقعة المغلقة التى انسحبت إليها.

فى نظر إيديث، كانت عودة أبى لحياته الليلية هو دليل دامغ على أنانيته وحقيقة أنه لا يستطيع التخلى عن سعيه للمتعة حتى بعد تلك المأساة. ورغم سنوات الزواج الطويلة التى دامت بينهما لم تفهم أمى ليون مطلقا. فقد كانت عادة ليون فى مغادرة المنزل لا تختلف كثيرًا عن تقهقر إيديث لحجرتها التى لم يعد أبى يشاركها إياها. وتمامًا كما تغلبت على ما تمر به من مشكلات وصعاب بالهرب من العالم، التمس أبى الراحة فى المغامرة بالولوج الى أعماق العالم، وكانت ليالى البوكر التى لا تنتهى والرقص والبهجة برفقة نساء ورجال آخرين هى التى تساعده على السلوى والنسيان.

الفصل الخامس

سجينة شارع الملكة نازلى

هرعت عماتى إلى منزلنا فى اللحظة التى سمعن فيها أن إيديث تريد الطلاق. لقد هددت بمغادرة المنزل مع الأطفال. ومن ثم خرجت العمات مارى وربيكا وليلى عن شعورهن، فالطلاق أمر غير وارد ولا مجال للتفكير فيه. لقد أقامت عائلتهن بمصر لمدة تزيد على نصف قرن، اجتازت فيها الكثير من المواقف ومرت بها الكثير من الأحداث كالجنون والانتحار والقتل والخيانة الزوجية وحتى المحرقة النازية، لكن الطلاق!؟ لم يحدث ذلك مطلقًا فى تاريخ عائلتهن.

وللدقة ليس "مطلقًا"

فهناك فشل ابنتى عمى جوزيف المراهقتين فى زيجتيهما اللتين انتهت كل منهما بكارثة. لكنهما كانتا تقطنان حى الزمالك الذى يعد واحدا من أرقى أحياء القاهرة ويقطنه فى الغالب الأثرياء وعلية القوم لذا فإن غض الطرف عن الزيجات الفاشلة وتقبل فكرة الطلاق هما من الأمور المعتادة فى مثل هذه الأحياء، لكن هنا فى حى غمرة! يكاد الطلاق أن يكون أمرا غير معروف.

وقفت عماتى مع إيديث فى المطبخ يحاولن تبصيرها بعاقبة ما تنتويه وإن أبدين تعاطفهن معها. كان من الممكن اعتبار حزن إيديث صامتا ويكاد يكون دفينا، أما غضبها فقد كان غضبا شديدا وبلا حدود لقد ألقت أمى بكل اللوم على أبى، لعناده وأنانيته وعدم منطقيته فى التعامل مما أدى لوفاة الطفلة ألكسندرا وتدهور حالتها المرضية هى الأخرى حتى أصبحت على شفا الموت.

"لا يوجد طلاق فى عائلتنا"- chez nous'on n'a pas le divorce قالتها عمتى مارى بالفرنسية بلهجة قاطعة، بينما أختاها أومأتا برأسيهما ببطء دليل الموافقة.

كانت أخوات ليون طيبات القلب وعطوفات وعصريات بطريقتهن الخاصة بصرف النظر عن تلك الطريقة التى كانت عمتى ريبكا تلف بها شعرها إذ كانت تحكم لف شعرها حول بكرات لف الشعر السميكة التى بطل استعمالها والتى توحى بأنها من عصر آخر. كانت عماتى على ثقة من قدرتهن على أن يجمعوا بين حياة العالم القديم بحلب -ذلك العالم الذى يتجاهل رغبات المرأة- والذى كان أبى رمزًا له، وبين العالم الأكثر تحضرًا الذى كانت تعيشه قاهرة الخمسينيات. ويحسب لهن أنهن لم يأخذن جانب أبى تلقائيًا، الأمر الذى جعل منهن نساء رائعات، كن يتمتعن بجدية شديدة فضلاً عن كونهن حسنيات النية ولذلك كانت أمى تأنس إليهن وتشعر أنهن مصدر ثقة، ورغم إيمانهن الشديد بضرورة تكاتف العائلات لمواجهة العالم، ورغم أنهن تربين على تقديس رابطة الدم ووجوب أن تعلو تلك الرابطة على كل شىء، فإنهن كن يشعرن أيضًا برابطة ما نحو "إيديث المسكينة "la pauvre edith

طنط ربيكا مع زوجها،
القاهرة ١٩٢٠

كانت المفارقة أن حياتهن الأسرية مختلفة تمامًا عن حياتنا على نحو لافت للنظر. فعماتى ريبكا وليلى ومارى تزوجن من رجال يبجلهن ويكرسون أنفسهم لخدمتهن. ومن ناحية أخرى فإن "هينيريت" زوجة عمى الأكبر "رافاييل" كانت قد وضعت حدا لولعه بليالى البوكر وأصرت على بقائه فى المنزل معها ومع أولادهما؛ و لم تمنحه أى خيار غير طاعتها. فهناك من النساء من يتمتعن بقوة الشخصية، ويفرضن إرادتهن، حتى فى داخل المجتمع الشرقى الذكورى.

كان من المقبول بين جيرانهم من العرب أن يترك الرجال نساءهم ويمضون لقضاء سهراتهم فى الاستمتاع باللهو والمرح. كانت الازدواجية هى سمة حياة هؤلاء الرجال، فقد كانوا يفرضون الاحترام الأخلاقى على بيوتهم كآباء وأزواج، ومع ذلك كانوا يخرجون كل ليلة لممارسة ملذاتهم مع الخليلات دون أى شعور بالذنب.

كان لليهود أسلوب حياة مختلف، إذ كانوا يشاركون فى إضفاء التألق على الحياة الاجتماعية فى مصر الأربعينيات والخمسينيات مثلهم فى ذلك مثل الأجانب، فإذا خرجوا فى المساء لم يخرجوا فرادى بل مع زوجاتهم، وإذا كانت الأمسية راقصة قام الرجال بمراقصة قريناتهم، وإذا ذهبوا لمشاهدة الراقصات الشهيرات اللاتى كن يؤدين رقصاتهن عندما يعلن ليل القاهرة عن انتصافه، كانت الزوجات يجلسن بجوار أزواجهن، يستمتعن بمشاهدة العرض الراقص وهن يضحكن ويصفقن بحرارة، تمامًا مثلما يفعل أزواجهن.

أما يهود حلب فقد كانوا مختلفين من غير ريب عن غيرهم من اليهود. كانوا يهودًا بحق كما كانوا عربا بحق سواء أكانوا يعيشون فى مصر أم فى باريس أو فى جينيف أو سانت باولو أو مانشستر أو نيويورك، فقد كانت طريقة تفكيرهم وفهمهم لأمور الحياة مماثلة لطريقة جيرانهم القدامى من المسلمين. كان يهود حلب يطفون فوق سنوات القرن العشرين غير مدركين لما طرأ على الحياة الاجتماعية من تغيرات، وعلى وجه الخصوص ذلك التغير الذى يتعلق بوضع المرأة داخل المجتمع، ورغم مغادرة أبى لحلب وهو مايزال غضًا صغيرًا، فإن هويته الحلبية كانت ظاهرة عليه بوضوح.

كثير من يهود سوريا كانت تحكمهم العادات والتقاليد القديمة، حين كانت النساء سلبيات يقدسن الرجل، ولا حول و لا قوة لهن.

أزعجت تصرفات والدى مع عروسه، عمتى مارى التى كانت أقرب إليه من أى شخص آخر. تراءى لها فجأة ذلك الجانب الآخر البارد المتكبر الذى لم تلحظه من قبل فى أخيها أو ربما فضلت ألا تراه. كانت تراه يأمر إيديث هنا وهناك. وكانت حين تعود

لمنزلها، تشكو لأبنائها سوء معاملة أخيها لأمي فهو لا يعاملها بأفضل مما يعامل به الخادمة. أما زوج عمتي فكان على النقيض من ذلك، كان يرعاها ويلبي رغباتها إلى حد بعيد، كان يشعر أنه بزواجه من عائلة كبيرة ذات حسب ونسب قد نال شرفا عظيما، وكان مما وطد دعائم هذه الزيجات حقيقة كوننا من يهود حلب، وأننا ننحدر من سلالة نبلاء وأننا يومًا ما كنا نتناول الطعام على مائدة الملوك.

كان هذا الماضي النبيل هو كل ما يهم ولم يكن أحد يخلد أسطورة هذا المحتد الكريم أفضل من جدتي ظريفة.

تعامل ليون بالتأكيد مع العالم بتعالي الآلهة ويرجع ذلك من ناحية لملامحه الجسمانية طوله وهيئته غير المعتادة وحقيقة أنه "رجل وسيم" bel homme فيض رجولة مع وعيه بذلك، فضلًا عن استغراقه في أسطورة عائلتنا كما وردت على لسان أمه. كان تجسيدًا حيًا لكل الأساطير التي كانت جدتي مغرمة بسردها: المعبد الخاص الذي كانت تمتلكه العائلة، آلاف الأتباع المخلصين الذين كانوا يأتون للصلاة والدراسة فيه، أجيال الأحبار من القادة والمفكرين والعلماء الذين يحملون اسم عائلتنا التي كان لها نفوذ واسع وسطوة امتدت إلى ما وراء حلب.

صعب هو هبوط الآلهة على الأرض، حين يستفيقون ويجدون أنفسهم متزوجين من بشر فانين، وهذا بالطبع ما تحولت إليه أمي تلك الشابة الجميلة، الرقيقة، التمثال المتقن من البورسلين* التي وقعت عيناه عليها من سنوات مضت في الباريزيانا، تحولت الآن إلى كتلة من الغيظ والحنق الشديد. لم تستطع مطلقا قبوله على ما هو عليه، رجل لا يمكنه الارتباط ببيت واحد أو امرأة واحدة ولو لليلة واحدة.

لم تكن لديها القدرة على أن تسوس أبي الذي كان شريكا صعب المراس: كان مثل القاهرة نفسها، تلك المدينة التي كان سحرها بلا حدود حتى أن زوجة شابة صغيرة متعلمة وجميلة استحالت عليها منافستها.

من سوء حظ أخوتي أنهم كانوا شهودا على المناوشات المتواصلة بين والدي، فقد كان إشعال فتيل العراك ممكنا في أية لحظة، إما في الصباح الباكر وقت عودة أبي من الكنيس، أو في وسط النهار أثناء جلوسه لتناول طعام الغداء في المنزل آملًا أن ينال قسطًا من الراحة ساعة القيلولة أو حتى بحلول المساء حين يستعد إخوتي للنوم مع هبّة نسمة من هواء عليل ويستعد أبي لارتداء ملابسه إيذانا ببداية ليلة السهر.

* المادة التي يصنع منها الخزف الصيني.

لقد ظلت المعارك والخلافات مستمرة بين ليون وإيديث منذ العام الأول لزواجهما، كان يتخللها فترات هدوء قصيرة ترجع لانشغال إيديث بطلبات أطفالها. أما الآن ومنذ وفاة الرضيعة فقد استعر غضب إيديث، وأخيرًا وصل إحساسها بالمرارة واليأس لأسماع أخواته، فلا توجد أسرار فى حى غمرة، وقد شعر ليون أن تهديدات زوجته تبدو حقيقية هذه المرة: كانت إيديث مصممة على الطلاق. كانت سوزيت تشاهد عماتى وترقبهن من زاوية بالمنزل وهن يهدئن من روع إيديث بتكرار ما اعتادت النساء على قوله لبعضهن فى مثل تلك الأمور على مر العصور. وفى الحقيقة كان ما قلنه لا يعدو عن كونه نسخة شرقية من المثل الأمريكى "الرجال سيظلون رجالا"- boys will be boys قائلين لها بالفرنسية les hommes sont comme ca هكذا هم الرجال مناشدين فطرتها السليمة: عزيزتى إيديث تذكرى عائلتك الرائعة، "عزيزتى إيديث لا تنسى من هم الضحايا لأى انفصال وعلاوة على ذلك ما هو الضرر من خروج الرجل للعب البوكر مع أصدقائه كل ليلة!؟" كما كن يقلن لها "دعيه يحيا حياته، الرجل يجب أن يحيا حياته"، أنت تعلمين عزيزتى إيديث أنه مخلص لعائلته وأنك المرأة الوحيدة التى يحبها.

كانت عماتى فى غاية الرقة والحساسية بتلمسهن الألفاظ ليذكرنها بأنه ما من خيارات لديها. فقاهرة الخمسينيات لم تكن تنظر بعين الرضا لامرأة تعيش بمفردها دون رجل. فعلى الرغم من أن إيديث كانت لديها من المهارات ما كفل لها الحصول على وظيفة محترمة عندما عملت مدرسة للأطفال فى الخامسة عشرة من عمرها، فإنه لم يكن واضحا ما إذا كان بإمكانها أن تعمل ثانية فى تلك الفترة المضطربة التى أعقبت قيام الثورة، كما لم يتبين أيضا ما إذا كان الأجر الذى ستحصل عليه سيكون كافيا لتغطية نفقاتها ونفقات أبنائها، هذا فى حال سماح أبى لإخوتى أن يعيشوا معها. وحتى إذا تحقق كل ذلك فى أحسن الظروف، فقد كان كل شىء فى صف الرجل: العادات والدين والثقافة والقانون، كل ذلك بالإضافة إلى ما يجرى الآن من فقد اليهود لمشاريعهم ووظائفهم بعد سيطرة النظام الجديد القاسى، والإحساس الدائم بالخطر لتآكل الجالية اليهودية، وخروج العديد من العائلات اليهودية من مصر، ولكل هذه الأسباب فإنه ما من فرصة لأن تعيل امرأة وحيدة نفسها.

وبجانب ذلك كله كانت أمى لما تزل تعانى من ذكريات جد بعيدة تتصل بغياب دور الأب فى تربيتها، حين لم تستطع ألكسندرا حتى مواصلة توفير المال اللازم لإطعامهم. كانت إيديث لاتزال تذكر الشهور والسنين حين كانت تبيت جائعة بسبب فقرهم المدقع،

كان هذا ما يعنيه الطلاق لامرأة لا تملك سبل العيش، وهو ذات السبب الذى جعل من أمى سجينة منزل بشارع الملكة نازلى، ظلت به منذ كانت سنها عشرين عامًا.

وعلى الجانب الآخر كان أبى يراقب ما يحدث من اضطراب متزايد فى منزلنا بعيون باردة .كان مدركًا أنه فى مركز قوى وأن قبضته محكمة على الأمور فمهما بلغت رغبة إيديث فى الطلاق فلن تحصل عليه أبدًا. إنه الوحيد الذى يمكنه أن يمنحها إياه وليست لديه الرغبة فى ذلك فضلاً عن عدم رغبته بالزواج من أخرى، فقد كان لديه الأطفال الرائعون الذين طالما تمناهم وكان منهم الذكور الذين سيخلدون اسمه. كان أبى مقتنعا بأنه يوفى بالتزاماته. طالما كان بالمنزل فى ليلة الجمعة وحتى غداء السبت وكان يفعل ذلك دومًا، من ثم فإن له الحرية ليفعل ما يحلو له باقى أيام الأسبوع، وعلى الرغم من انفجار إيديث بالغضب، لم يحدث أبدًا أن تقدم أبى بالخطوة التى تخمد هذا الغضب فى حينه وتخفف من توترها: كأن يغير من نمط حياته ويتوقف عن الخروج أو على الأقل يعود إلى البيت مبكرًا، حتى لو طلب منه أن يقوم بذلك من أجل سلام وهمى سريع الزوال، أو من أجل انسجام وهدوء يعمان أرجاء المنزل، لقد كان ذلك مستحيلاً عليه.

كانت حياة أبى الليلية وتجواله بردائه الأبيض فى ليالى القاهرة شيئًا أساسيًا له كالأكسجين للحياة.

تعلم أخى سيزار منذ بواكير عمره أن يفصل بين والدىّ المتقاتلين، كانت هناك أولا حقيقة بسيطة مفادها أن سيزار هو الابن البكرى لهما وكانت له مكانته فى أسرة تضع قيمة الأطفال الذكور فوق كل اعتبار، كما أن أمى اتخذت منه حاميا ومدافعا عنها، فلم يكن لأبى الحق فى أن يعرب عن ضيقه من أمى ما دامت هى قد أنجبت له الوريث المرغوب. ولأن سيزار بطبيعته كان طفلًا هادئًا معتدل المزاج، فقد منحه ذلك القدرة على أن يلعب دور حامى السلام. وقد أظهر نضوجًا مبكرًا وتفهمًا للأمور، مما أشعر أبواى بأنه أهل للثقة وبدا أن كليهما مقتنع بحبه الشديد لهما.

بدأت أمى تردد "يجدر دومًا استشارة سيزار" il faut toujours consulter ceaser وهكذا ولدت أسطورة:

"فإذا أردت استشارة فى أمر من الأمور مهما كان شائكا أو متعلقا بأكثر المسائل تعقيدًا فلا عليك، سوى التوجه فورا إلى سيزار"

بدأ أبى يصطحب أخى معه للعمل والمقابلات التجارية، كان لا يزال بعد صبيا صغيرا يبلغ من العمر سبع أو ثمانى سنوات ولكن أبى قرر أن الوقت ليس مبكرًا لتعليمه فنون

التجارة وتهيئته لهذا النوع من العمل وأخذ يحاضره عن ضرورة الاهتمام بهيئته وبطريقة ارتدائه لملابسه حين يكون مستعدًا لمقابلة الزبائن.

وفى ذات الوقت تعودت أمى على حسن الظن بأخى لأنها تقدر نفاذ بصيرته. كانت صحبة سيزار لوالدى صحبة هادئة لطيفة على العكس من صحبة سوزيت التى كانت منذ نعومة أظافرها طفلة مشاكسة عنيدة. كانت المشكلات التى يغرق فيها منزلنا تنعكس على أختى فى صورة تصرفات أكثر مشاكسة حتى صارت بمرور الوقت أكثر تمردًا وعصيانًا. ففى وقت مبكر ارتكبت أمى خطأ كبيرًا بأن حكت لسوزيت كيف تلقى أبى نبأ ولادتها، ومنذ ذلك الحين وإلى الأبد انقلبت الابنة على أبيها.

على عكس سوزيت كان أخى يزداد هدوءًا مع تصاعد الخلافات بين والدىّ ورغم ذلك لم يكن أحد أكثر انزعاجًا منه عندما أخبراه بأنه سيرافقهما إلى حى العباسية. وعندما كان جالسا بين والدىّ فى التاكسى لعشر أو عشرين دقيقة فى الطريق. إلى الجوار البعيد عن شارع الملكة نازلى، بدا الطريق فى عينيه بلا نهاية ومخيفًا بعض الشىء. فقد لاحظ أن والدىّ لا يتحدث أحدهما مع الآخر، وأنهما يوجهان الحديث إليه فحسب. كان التوتر على وجه الخصوص يجتاح أمى فكانت تمسك بيده ضاغطة عليها. أما أبى فكان أكثر هدوءًا وانفصالًا عن الأحداث يحدق بهدوء من نافذة التاكسى حيث تتغير المناظر من مشاهد مفعمة بالحياة والرقى الذى يتميز به شارعنا العريض الواسع، إلى القاهرة القديمة التى تتميز بالشوارع الضيقة الفقيرة الصاخبة المزدحمة بالناس وعربات الباعة الجائلين حيث يقوم الباعة والتجار بعرض بضائعهم الرخيصة.

بين الحين والآخر كان أبى يبحث فى جيبه عن قطع من "البون بون" ويقدمها لأخى مما يزيد من قلقه، نظرًا لتعجبه من نوع الرحلة التى يشرعون فيها؛ فإذا كانت مجرد نزهة بسيطة للعائلة فلماذا لم يصحبوا سوزيت وإيزاك اللذين تركوهما فى المنزل بشارع الملكة نازلى؟

أخيرًا توقف التاكسى أمام مبنى صغير يضم عددا من المكاتب الإدارية التابعة للجالية اليهودية بالقاهرة*. إن سيزار مازال يحتضن يدى أبويه متابعًا فى سيرهما إلى مكتب رجل طويل، صارم النظرة يرتدى قلنسوة كالحة على رأسه، خاطبته أمى مباشرة بقولها "حاخام" وهو لقب ينم عن التبجيل والاحترام عند مخاطبة الأحبار، وقد دعاهم للجلوس حول مكتبه "ما أجمل هذا الصبى الصغير quelle gentil petit garcon" قالها الحبر بالفرنسية مادحًا سيزار فابتسم والداى بلطف، وإن كان واضحًا أن أمى فى ذروة الانفعال.

* مازالت تلك المكاتب التى تخص الطائفة اليهودية موجودة بمدرسة الأهرام (مدرسة الطائفة اليهودية سابقًا) بميدان الجيش بالعباسية. (المراجع).

كان الحديث الذى دار بين الحبر ووالدىّ موجزًا فقد سألهما عن حال زواجهما وما خطبه؟ ولماذا أصبحت الحياة بينهما مستحيلة؟ وطوال فترة حديثه كان ينعم النظر فى أخى الجالس بهدوء بين أمى وأبى. ولاحظ الحبر أن أخى يختلف عن الأطفال الآخرين الذين لاحظهم فى مواقف مماثلة، فقد كانت لسيزار قدرة لافتة على الجلوس ساكنا بكل ما فى الكلمة من معنى.

"لقد أحسنت تربية هذا الصبى "-ce garcon est bien eleve. هذا ما أخبر به أمى، التى كان يسعدها دائمًا ملاحظة الآخرين لسلوك سيزار المثالى.

"إن ابنك لوسيم votre fils est tres beau "قالها الحبر لأبى الذى أومأ برأسه مسرورًا لسماعه مرة أخرى أنه أنجب ابنًا وسيمًا.

بهاتين المجاملتين اللطيفتين وضع الحبر المبجل أخى فى منطقة مركزية تماما هى تلك التى أرادها له.

فى قاهرة الخمسينيات لم يكن هناك محامون متخصصون فى أمور الطلاق على قدر عال من المهارة كما لم يكن ثمة معالجون لمشكلات الزواج يمكن اللجوء إليهم، وهو يعد أفضل الوسائل وأنجحها فى أمريكا، لكن هنا بالقاهرة عندما يستحكم الخلاف بين الزوجين فإنه يتم اللجوء إلى أفراد من العائلتين من الأعمام والأخوال والعمات والخالات أو من ذوى النسب والقرابة الذين يلتفون حول مشكلة أهل المنزل مستعدين لقول أو فعل ما هو ضرورى لاستمرار الحياة الزوجية، فإذا فشلت مساعيهم أو نجحت فقط لفترة زمنية مؤقتة فيتم عندها اللجوء إلى الحبر.

كان الحاخام يتمتع بهيبة غير عادية داخل المجتمع اليهودى، الذى يجمع بين الإخلاص للدين والانصراف لشئون الدنيا والانهماك فيها، يستوى فى ذلك الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، طبقة المتعلمين الذين يعيشون فى فيلات وطبقة المعدمين وأحيانا الأميين من يهود الجيتو القديم، كل هؤلاء تعلموا فى سن مبكرة داخل أوساطهم أن يبجلوا أحبارهم وأن الأهم من التبجيل والتوقير هو الإذعان لأحكامهم ،يتم اللجوء للحاخامات لإصلاح ذات البين بعد فشل جميع السبل الأخرى فيقف الحاخامات فى المواجهة يمثلون خطوط الدفاع الأولى للمعركة من أجل الحفاظ على تماسك العلاقات الأسرية فى مواجهة الخصومة والحقد أو الخيانة الزوجية، أو السب والعنف، أو حتى انطفاء جذوة الحب والرغبة ،تلك الأمور التى كان من شأنها إذا أثيرت فى المجتمعات الغربية أن تؤدى حتما إلى انحلال الرابطة الزوجية فورًا.

لكن ذلك لم يكن يحدث فى القاهرة...

فالطلاق كان نادرا جدًا، وكان للأحبار بصفة خاصة نفوذ قوى وتأثير هائل على أعراف وحياة اليهود المصريين، بحيث يكون الفوز فى جانبهم دائمًا. وعلى هذا فقد كان حدوث الطلاق بين زوجين غير مرغوب فيه باعتباره شيئا بغيضا وتكون واقعته حديث المجتمع اليهودى لسنوات قادمة. رغم أنه كان من السهل وبخاصة على أفراد الطبقات الغنية أن يحصلوا على الطلاق فإن هذا الأمر ظل من المحرمات التى يجب ألا يتم الاقتراب منها. وقد كان من الثابت أنه فى حالة الطلاق فإن أحد الطرفين، غالبا ما يكون أهل الزوجة، سيكون عليه التضحية بثروة طائلة لأن للزوج وحده فى الشريعة اليهودية وله وحده حق التطليق، وله وحده أن يضمن لزوجته انفصالا رسميا موثقا بوثيقة رسمية تعرف باسم "جت" أما إذا رفض ووضع العراقيل أمام الانفصال الموثق، كما يفعل معظم الرجال، أو كانت له مطالب مادية مستحيلة التحقيق تتمثل فى مبالغ نقدية أو أصول ثابتة وربما أكثر من ذلك، فإن المرأة تجد نفسها فى وضع لا يسمح لها بالزواج مرة ثانية فضلًا عن عدم قدرتها على أن تحيا حياة عادية، فمهما كانت المرأة غنية أو جميلة أو تقية ورعة فإن رجلا آخر لن يقربها، تصبح منبوذة فى المجتمع.

لقد كان الوضع أبسط من ذلك بالزمالك، وإن كان مضللًا أيضا، فالمرأة التى تترك زوجها لتعود لفيلا أهلها لن تموت جوعًا، كما عانت جدتى ألكسندرا، لكنها من الناحية الاجتماعية تكون قد دُمرت. كانت ابنة عمى "مارسيل" قد تزوجت فى سن الرابعة عشرة من رجل يبلغ من العمر خمسين عامًا وطلبت الطلاق من الزوج الذى تكرهه، ترجت وناشدت دون جدوى وعلى أية حال فقد تركته. وعلى الرغم من كونها صغيرة وجميلة بدرجة تفوق الوصف عند انفصالها عن زوجها، فإنه ما من يهودى أقدم على الزواج منها أو التودد إليها، فوجدت نفسها فى سن الثامنة عشرة عانسا فى مواجهة الحياة وكان الخيار الوحيد أمامها أن تتزوج من مسيحى أو مسلم. فآثرت مارسيل رجلا مسلما ثريا وتخلت عن ديانتها وصارت مسلمة. أما أختها التى تبلغ من العمر ستة عشر عامًا "إيفون" فلم يكن حالها بأفضل من حال أختها حين قررت الانفصال عن زوجها زير النساء. ورغم أن والدها كان على أتم استعداد لدفع أية مبالغ مالية مهما كانت قيمتها للحصول على طلاق رسمى موثق فإن ذلك لم يكن كافيًا للحصول على "جت" وأجبرت ابنة عمى على التخلى لزوجها عن ابنتها الرضيعة فى اتفاق تولى فيه الحاخام الأكبر فى مصر أمر التفاوض، حينئذ فقط وافق زوجها الخائن على تطليقها ومنحها حريتها.

لم يكن من قبيل المصادفة أن يستدرج سيزار فى أوائل الخمسينيات لتلك الجلسة الأقرب لجلسات المصالحة، فقد كان الأطفال هم سلاح الأحبار الأكثر فاعلية، و لم يخجل أولئك الأحبار من استخدام الأطفال كعون لهم فى قضايا الطلاق تلك، أو الاستعانة بهم لتذكير الزوجين بالثمن الغالى الذى يجب أن يدفع للحصول على الطلاق. كان ذلك مؤلما موجعا صادما جارحا للأطفال، ولكنه كان ضروريا إذا كانت نتيجته أن تظل العائلة معًا.

فى ذلك الصباح حظى كل من أبى وأمى بفرصة التصريح بمكنون صدره ولكن لدهشتهما ظل الحبر ملتفتًا إلى أخى. مع من يرغب فى العيش فى حال الانفصال، الأم أم الأب؟ من منهما الذى يحبه أكثر؟

ولأن سيزار وجد صعوبة فى الإجابة، لأن الرحلة الطويلة التى اجتازها راكبًا التاكسى والتى بدت بلا نهاية حتى وصوله لتلك الجلسة مع الحبر الجليل كانت كالكابوس بالنسبة له، فقد أراد البكاء أو مغادرة الحجرة. أفصح الحبر عن رأيه بأن ما يحدث هو خطأ شديد بل هو «حرام»، وأنها خطيئة أن يجبر طفل على المعاناة بسبب شجار زوجى ويحمل على الاختيار بين أبيه وأمه فذلك شىء بغيض.

بعد سنوات لاحقة، نسى سيزار كثيرًا من التفاصيل التى حدثت ذلك اليوم، لكن ما لم يستطع مطلقًا أن يتخلص منه هو ذلك اليأس الذى كان يحسه وهو جالس بين أبويه فى المقعد الخلفى من التاكسى، ثم فى مكتب الحاخام. الإحساس بأنه أسير أو سجين أجبر على خوض رحلة كان من الممكن أن تنتهى بكارثة.

"لولو، لا تتزوجى أبدًا من رجل سورى" كانت أمى تردد هذه الكلمات مرات ومرات على مسامعى ولقد منحتنى مع هذا التحذير نافذة لأطل منها على عالمها المملوء بالأسى والندم والغضب الذى مازالت تكنه فى صدرها على مدى سنوات كسجينة فى ذلك المنزل بشارع الملكة نازلى، كان ذلك فى فترة لاحقة بعد أن أطلق سراحها من منزلنا الجميل ذى الشرفات المتعددة وبعد أن أصبح أبى رجلًا طاعنًا فى السن ضئيلا ضعيفا وعاجزا عن أن يكون ذلك المهيب الحاكم بأمره.

كان ما يدفع أمى لترديد تلك الكلمات على مسامعى مرارًا وتكرارًا، كما لو كانت تأمل فى أن توحى إلى بها مغناطيسيًا، هو إحساسها العميق بالندم الذى مازالت تشعر به لبقائها قابعة بالمنزل، لأنها لم تكسر أسرها من ٢٨١ شارع الملكة نازلى حين كان بمقدورها أن تفعل ذلك، وتتجاهل النصيحة الرقيقة الجزعة لعماتى رييبكا ومارى وليلى، وتدير ظهرها لأبى وحبر العباسية.

الفصل السادس

روح الأسماء

يقول الصوفيون (إن اسمك هو قدرك، غير اسمك، عندها سيمكنك أن تتجنب حتى أفظع مصير).

عندما ولدت بعد أربعة أعوام تقريبا من وفاة الرضيعة ألكسندرا، غمر عائلتى شعور بالراحة أعقبه ذعر مفاجئ. خرجت سيمشا اليجرا القابلة -التى ولّدت أمى فى الحجرة الخلفية من منزلنا بشارع الملكة نازلى والتى يعنى اسمها بالعبرية والإيطالية فرح- إلى ردهة المنزل لتبشر أبى بالأخبار السارة. لقد رزق بطفلة وأن الأم وابنتها بصحة جيدة، كان هذا ما أعلنته القابلة التى كانت تتكلم بثقة ونفوذ يناسب امرأة ولّدت مئات الأطفال.

كان من النادر أن تحظى طفلة رضيعة بالترحاب داخل تلك العشيرة السورية الكبيرة المغرمة بإنجاب الذكور، إذ اعتبر ميلادى فألًا حسنًا وعلامة على تغير حظ العائلة فقد أظهر الله الرحيم الذى استرد وديعته ألكسندرا الرضيعة، عطفه اللامتناهى بأن وهبنا من جديد بمنزلنا بشارع الملكة نازلى.

لكن هذا الابتهاج اقترن بخوف تحول إلى عجز. فقد بدا أن الجميع تملكتهم الحيرة بشأن الاسم الذى سوف يطلقونه علىّ. للأسماء أهمية جد خطيرة لتقرير مصير الإنسان ولأن وفاة أختى كانت لاتزال تلقى بظلالها فقد تحول أمر تسميتى إلى رهان كبير مع لعبة الحظ لكن ما من أحد أراد أن يلعب.

فكرت أمى سرًا فى أن تطلق علىّ اسم ألكسندرا. فقد كانت سعيدة جدًا لإنجابها فتاة صغيرة، وإن لم تكن بعيون زرقاء، ظنت أمى ذلك لأنها كانت تؤمن بالخرافات وتعتقد بعودة الموتى. فإذا كنت أنا حقًا الطفلة ألكسندرا العائدة من العالم الآخر، لذا أليس من المعقول أن أسمى باسمها؟، كان الأمر مغريًا وإنسانيًا للغاية أن تحاول مرة أخرى لكسر اللعنة وتحدى سوء الطالع، ومنح الحياة للمخلوق الذى سيجعل ذلك الاسم يحقق النجاح والازدهار ولا يقع فريسة لعين الحسود. كانت أمى على قناعة تامة بأن كل من يتمتع بجمال رائع أو يتسم بالصلاح، هو شخص يخاطر بتعريض نفسه للهلاك بفعل عين الحسود par le mauvais oeil.

لكن من عساه يقوم بإلقاء هذا العبء الثقيل على الطفلة الوليدة؟ فهذا الاسم ملعون بكل تأكيد بالنظر لما حدث لابنتها، وما حدث لأمها التى صارت مهجورة محرومة كزوجة، فقيرة معدمة تعيش على الصدقات التى يتنازل أقاربها بمنحها إياها، واختصرت حياتها فى إشعال سيجارة من أخرى والهرولة من منزلها كل يوم متجهة إلى سينما ريالتو* للهرب من محنتها.

كانت جدتى تقوم بجولتها المعتادة إلى منزلنا عصر كل يوم وشعرها الطويل الأسود الناعم الذى كانت مربيتها فيما مضى تمشطه بعناية، وتربطه من الخلف بشريط من الستان، صارت تلملمه الآن بلا اهتمام، وتعقصه خلف رقبتها على شكل شينيون، بينما ملامح وجهها المنحوتة بدقة، وبشرتها الناعمة -التى أصبح لونها أسمر ضاربًا للصفرة بسبب سيرها الدائم تحت أشعة شمس القاهرة الحارة- قد جعلا وجهها يبدو أصغر سنًا بكثير مما هى عليه، رغم أن مظهرها وظهرها الذى أصبحا إلى حد يجعلانها تبدو أكبر بسنوات عديدة.

كانت النونا la nona مخلوقًا محبًا، رقيقة رغم حياتها القاسية، معطاءة رغم أنه ليس لديها ما تعطيه... مع عجزها المادى، كانت ألكسندرا تأتى محملة بالهدايا، كميات كبيرة من الكتب ونسخ قديمة من مجلات فرنسية كانت تحصل عليها من الأقارب الذين يعطفون عليها.

بعد ميلادى جاءت جدتى بلفافات غاية فى الفخامة والروعة. نظرت ألكسندرا إلى ميلادى على أنه مناسبة دينية، كانت متيمة بالطفلة ذات العينين الزرقاوين التى حملت اسمها لفترة وجيزة وبلغ حزنها على وفاتها ما لا يقل عن حزن أمى على ابنتها

* كانت سينما ريالتو تقع فى شارع الظاهر أمام مدرسة دى لاسال و لايزال مبناها موجودًا.

كما غمرها نفس اليأس اللامتناهى عليها. ولكن الحقيقة هى أن ابنها هو من كانت تفتقده بالطبع، وقد ظلت فى حدادها عليه لسنوات عديدة لاحقة. لقدكانت كل الطرق بالنسبة لألكسندر تعود للوراء، إلى ذلك الطفل المفقود فى السوق.

كنت أنا وإخوتى أكثر المستفيدين من هذا الحب المُحْبَط. فبالنسبة لى فقد ألحت جدتى على بعض من أبناء عمومتها الأثرياء –من أفراد عشيرة «دانا» المقيمين بالقاهرة– لإعطائها ملابس أطفالهم التى ضاقت عليهم فبدأت تجود على بالبطاطين، وصدريات الأطفال المطرزة يدويًا، والمناشف الناعمة وفساتين بالغة الرقة من قماش الفوال الأبيض تليق بأميرة صغيرة، حتى أن أبى الخبير بأنواع الأقمشة الراقية كان يشعر بالامتنان نحوها. تدبرت جدتى أمر سد احتياجاتى من الدنتيلا والكتان والقطن الناعم التى يمكن أن تحتاجها طفلة مثلى يصعب التعامل معها فى الأغلب، كان صوتها هو الذى يبعث الهدوء فى نفسى حينما كنت لا أتوقف عن البكاء.

لم يعد هناك بيانو لتلعب عليه، فقد كانت تقطن حجرة قريبة من منزلنا لا تحوى سوى سرير سفارى وموقد تضع عليه كنكة لإعداد café turc القهوة التركية السوداء المحلاة فى فناجينها العشرة أو الاثنى عشر التى لا تكلف خاطرها حتى بغسلها بالماء. مع غياب البيانو، كانت مواهب ألكسندرا الموسيقية قد وجدت متنفسًا لها فى الأنغام العالمية التى كانت تغنيها لإخوتى والآن تغنيها لى. ثمة أغان من سنوات الحرب العالمية الأولى والثانية كانت تغنيها بصوتها الجميل بالفرنسية والإيطالية لتجذب انتباه العائلة .بموسيقى من زمن ولى ومضى.

كانت جدتى تقترب من سريرى على استحياء وتشرع فى الغناء، لا بتلك الأغانى التى يهدهد بها الأطفال بل تلك الألحان التى يتغنى بها الكبار عن رجال رحلوا ونساء يلقين عليهم باللوم، تمزج تلك الأغانى كلها فى صورة رائعة لعالم كانت فيه البيوت بيضاء والحدائق مزهرة والبحر أزرق والحب أبديا –plaisir d'amour سعادة الحب»، J'attendrai "أنا منتظرة"، Santa Lucia "سانتا لوشيا" أما أحبهم إلى قلبها فقد كانت ارجع إلى سورنتو torna a Sorrento.

غنت ألكسندرا، المخلوق الملائكى الصغير المرفرف حول مهدى «انظر، انظر إلى الحديقة – استنشق، استنشق زهور البرتقال». guarda، guarda questo gardino senti senti questi fiori d'arancio هكذا كانت تغنى لى قبل أن أعرف بسنوات

قبمة الحدائق الإيطالية ورائحة زهور البرتقال التى تدير الرأس وبحر سورينتو بينما جدتى البائسة الرومانسية سيئة الطالع تتجول فى طرقات شوارع القاهرة القديمة.

لقد ظللت لعدة أيام طفلة دون اسم.

كانت هناك أسطورة تقول: إنه منذ مئات السنين أصاب جدى الأكبر الحبر **لنيادو الحلبى** مرض عضال وكان أن لمح ملك الموت كامنًا بجوار فراشه وإذ عجز الأطباء عن إنقاذه فقد قرر أن يقوم بنفسه بمعالجة الأمر. قام بتغيير اسمه وأمر عائلته أن يعلنوا أنه لم يعد الحبر لنيادو. وكان لتلك الخدعة فعل السحر فقد خدِعَ ملك الموت حتى أنه غادر الحجرة وعاش هذا الحبر عمرًا مديدًا.

نعم... يمكن للاسم أن يفعل ذلك، يمكن أن يعنى حرفيًا الفرق بين الحياة والموت. أخذت عائلتى تفكر طويلًا وتتجادل حول اختيار أنسب اسم لى، ورغم أنهم كانوا قد

لولو وهى رضيعة فى القاهرة

استعرضوا قائمة طويلة لأسماء جميلة مرشحة لى فإن رفض أختى لأن تنادى باسم **ظريفة** قد ألقى الرعب فى قلب والدى من الأسماء العربية، كان هذا يعنى أن أسماء الجمع الغفير من العمات وأبناء العمومة التى كانت مرشحة لتسميتى بإحداها من قبيل -بهية، إينسول، وليلى عمتى المفضلة التى يعنى اسمها ليلة- لن تؤخذ فى الاعتبار. وكان مما رجح استبعاد تلك الأسماء أن أبى لم يكن قد نسى بعد مشاهد البكاء والجدل الموجع مع أختى، التى أصرت على أن تُسمى سوزيت.

مع ذلك فقد كانت التقاليد تملى أن أسمى باسم إحدى قريباتى، فمازال ظريفة هو اسم أختى فى الأوراق الرسمية، كان سيزار هو عيزرا تيمننًا باسم جدى لأبى الذى توفاه الله منذ عقود مضت. أما أخى الآخر وكان اسمه إيزاك تيمننًا باسم جدى لأمى الذى كانت أمى متيمة به، رغم أنه خان عائلتها وهجرهم و لم يمنعها ذلك من أن تختاره متجاهلة المخاطر المحيطة به.

أخيرًا، وجد سيزار الحل للخروج من هذا المأزق. إذ كان متعلقًا بمدرسة فى المدرسة، مدموازيل لوسيت، وعندما أخبرها بمولدى عانقته ولثمته بقبلة. تورد وجهه خجلًا من ذلك المشهد العاطفى وركض سيزار إلى المنزل مخبرًا عائلتى التى راعتها المفاجأة بأنه يجب إطلاق اسم مدرسته الباريسية الحسناء علىّ. نظر أبواى كل منهما إلى الآخر ثم إلى أختى وجدتى ألكسندرا، التى كانت تسير على مهل بالقرب من مهدى، تدندن فى نعومة بأغانيها الإيطالية العاطفية الراقصة.

أومأ أبى برأسه موافقًا، أضاء وجه أمى و لم تبد أختى أى اعتراض وواصلت ألكسندرا غناءها، وهكذا اختير اسمى.

"ca lui portera bonheur in shallah "سيجلب لها الحظ السعيد إن شاء الله"

كان ذلك تعليق أمى على اسمى.

بعد ذلك بنحو شهر بدا العالم وكأنه على وشك الانفجار. ففى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ قامت الحرب فى قناة السويس. كنت أصرخ عند مرور الطائرات فوق رؤوسنا بينما تدوى صفارات الإنذار منذرة بهجوم وشيك.

قالت أمى إن صراخى كان جد حاد يخترق الآذان، مزعجًا لكل من فى البيت، محيرًا إياهم فيما عليهم أن يخشوه أكثر، غارة أخرى من الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين أم انفجار الصراخ من لولو.

هذا هو اسمى الذى عرفت به **لولو**. كان أكثر من مجرد اسم شهرة، كان أيضًا يمثل شخصيتى، فأنا الأصغر بين إخوتى، الكل شغوف بى ويعمل على تسليتى. تناول أبى بمهارة كنيتى الباريسية واختار المقطع الأول منه وليس المقطع الثانى. لولو تبدو عربية فببساطة شدد على المقطع الأول من اسمى LOUlou وليس louLOU كما ينطقه الفرنسيون. كنت كزهرة تفتحت فى الجليد، كنت الابنة الطفلة لرجل فى أواخر الخمسينيات التى ظهرت فى حياته حين أصابه الشعور بثبوط همته، وبدا العالم من حوله فاقدًا لكثير مما عهده فيه وكان متاحًا له، حتى أنه رحب بقدومى كما تعانق رقعة من شجيرات الشتاء وردة صغيرة تمكنت من أن تُنبت أول أوراقها. فى غمرة هذا كله، كان لايزال يرتعد خوفًا من مطالبات أمى بالطلاق، ورفضها أن تسامحه على الحرية التى يمارسها والتى كان يجدها ضرورية لبقائه حيًا، وقد توقف عقله عن التفكير من الجدال الدائر فى المنزل، حيث سوزيت، التى أصبحت الآن فى الثانية عشرة من عمرها، والتى لم تكف عن النقاش معه فى كل مناسبة، متحدية نفوذه وسطوته بالمنزل، ساخرة من إيمانه.

كان ما فعله، ربما على سبيل الثأر، هو أنه منحنى كل الحنان والعاطفة التى كان يظن أنه غير قادر على منحها. لقد عشت حياتى فى حماية الكابتن، ناعمة مستمتعة بحبه، وجدت فى ابتسامته الهادئة راحة لم أجدها فى عبارات أمى المنمقة، لم أعان من السلوك القاسى المتغطرس الذى نفر إخوتى منه وعلى وجه الخصوص أختى.

لما أكن قد بلغت أسبوعى السابع بعد حين قصف الإنجليز والفرنسيون والإسرائيليون مصر بنيران صواريخهم، كان سيزار مسئولًا عن تأمين سلامتى وسلامة المنزل. كان يعمل على التأكد من أن المصاريع الخشبية قد أحكم غلقها بالمزلاج، ثم كان عليه حمل المهد الذى أرقد فيه، والتوجه به إلى منتصف حجرة النوم الباردة المظلمة الواقعة فى خلفية المنزل. كان صوت صفارات الإنذار عاليًا وله صرير يسمع، كان إشارة لإطفاء الأنوار والاستلقاء على الأرض. كانت الانفجارات على بعد كيلومترات فقط ولذلك كنا أحيانًا نستطيع رؤية طائرات محلقة فى السماء، وقد شاهد سيزار على المدى من مكانه العالى بجوار النافذة سحابات الدخان السميكة السوداء. كانت الصفارات تنطلق ثانية عند انتهاء الغارة فيحتضن أفراد العائلة بعضهم بعضا لنجاتهم وهم فى الحجرة الخلفية من منزلنا بشارع الملكة نازلى.

كنت لا أكف عن الصراخ.

ألقى الاضطراب الذى ساد مصر بظلاله الكثيفة على خروجى للحياة. فقبل شهور قليلة من ميلادى، تحدى عبد الناصر العالم بتأميم قناة السويس، وقد أغضب هذا التصرف الإنجليز والفرنسيين فضلًا عن الخطبة التى ألقاها ناصر ضد إسرائيل والتى زادت من العداوة الدائمة لها عن أى وقت مضى، وقد أرسل الفدائيين للبدء فى حرب العصابات وشن هجمات داخل البلاد. كان الإسرائيليون على قناعة بأن ناصر يعد العدة لغزوهم وعلى هذا فقد اتخذوا قرارهم بالقيام بهجوم عسكرى مضاد. وقد وجدوا فى رئيس وزراء بريطانيا سير أنتونى إيدن الذى شبه عبد الناصر بموسولينى بل وحتى بهتلر، حليفًا مؤيدًا إذ كان متحمسًا للإطاحة به. وفى اجتماع سرى اتفق كل من سير أنتونى (إيدن) وجى موليه رئيس وزراء فرنسا، وديفيد بن جوريون رئيس الوزراء الإسرائيلى على إرسال جيوشهم لمصر، لاسترداد القناة وإسقاط ناصر.

فى غضون أسبوع من الهجوم على مصر بدا أن نهاية العالم قد شارفت على الاقتراب، فقد تحركت القوات الروسية إلى داخل المجر، بجيش ضخم من الدبابات والجنود لسحق ثورة ضد النظام الشيوعى. وعلى الرغم من غزوهم الوحشى لدولة أخرى فإن الروس تمكنوا أيضًا من تعبئة الرأى العالمى ضد استعراض الغرب لقواته العسكرية فى القناة. أدانوا الاعتداء بقوة وهددوا بغزو لندن وباريس. وكانوا على أتم استعداد لاستخدام «أسلحة الدمار الشامل» إذا لم يكن هناك انسحاب فورى.

خذل الرئيس الأمريكى أيزنهاور حلفاءه التقليديين، وانضم للروس فى مطالبتهم بوقف فورى لإطلاق النار فى الشرق الأوسط.

صُدمَ رئيس الوزراء البريطانى إيدن، وشعر بعمق الإهانة، فسحب قواته فى خلال أيام، وكذلك فعل الفرنسيون. ولأن الحرب كانت من أجل الحفاظ على الامتيازات الأجنبية لإيدن فى قناة السويس التى كان لها أعمق مغزى تاريخى، فقد كان معنى هذا هو نهاية كل من رئيس الوزراء البريطانى والإمبراطورية البريطانية.

أحدثت حرب السويس التى انتهت فى السادس من نوفمبر، تغيرات عنيفة داخل مصر .فقد مُنح كل من يحمل جواز سفر بريطانيًا أو فرنسيًا مهلة زمنية قصيرة تتراوح بين ثمان وأربعين ساعة، واثنتين وسبعين ساعة لمغادرة البلاد. عائلات عاشت فى مصر لأجيال طويلة، وعائلات خرج أولادهن للنور بمصر ولا يعرفن بلدًا غيره سيقوا للمطار فى حراسة فرق من الجنود المدججين بالسلاح، ليرحلوا على متن طائرات متجهة لأوروبا.

كانت خُطَب ناصر تطفح بالحقد. فقد أَقْسَم أن يُخَلص مصر من كل الأجانب، وأن يمحو دولة اليهود، وأن يزيل الآثار المتبقية للاستعمار والملكية. بين عشية وضحاها فقد الناس وظائفهم ومصادر أرزاقهم، فقد كان النظام الحاكم يصادر المصانع، والشركات ويقوم بإحلال ضباط ناصر والموالين له محلهم فى الإدارة، وكان الإصرار على أن يكون معظم الموظفين من المصريين. وخضع النشاط الصناعى بالكامل للتأميم مع اقتراب ناصر أكثر وأكثر من السوفيت.

فى فترة الاستراحة كانت دور السينما تعرض لقطات لناصر وأم كلثوم وهما يحتفلان بهزيمة الغزاة الأوروبيين وإسرائيل. كانت المغنية واحدة من آثار عهد فاروق الملكى، ونظرًا لشعبيتها الطاغية لدى الشعب المصرى، لم يكرمها ناصر فحسب بل كان معروفًا أنه من أشد المعجبين بها. فى تلك الأيام، كانت المرأة التى تُيم بها أبى والتى قيل إنها كانت خليلته، قد ألقت خطبة مسهبة نارية ضد إسرائيل وجعلت من نفسها ابنة شرعية للثورة.

تابع يهود مصر دوامة الأحداث بإحساس عميق، ينبئ عن وقوع كارثة. فالحياة التى تميزت بالسحر والجمال والتى عهدوها فى زمن فاروق وأبيه، ذلك الإحساس بأنهم أحد أكثر المجتمعات اليهودية تدليلا والأكثر تمتعًا بالامتيازات بين المجتمعات اليهودية فى العالم – قد شارف على النهاية.

ترددت أصداء ذلك فى كل بيت يهودى، ومن بينهم بيتنا. كان إخوتى جميعًا من طلاب المدارس الفرنسية التى وجدت نفسها فجأة محرومة من معظم هيئة تدريسها.

ففى lycee francais de bab el louk مدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق، حيث كانت أختى طالبة بها، كانت سوزيت تتلقى دروسًا فى التربية الرياضية حين تعلمت رقصة الكوادريل وهى رقصة جميلة فرنسية الأصل من القرن الثامن عشر يؤديها الراقصون وهم يأخذون شكل المربع. ولكن فى أعقاب كارثة قناة السويس، بدأت المدرسة سلسلة من التدريبات العسكرية الخاصة لطالباتها لتلقنهن القتال ضد الغربيين واليهود – الغزاة. كانت أختى وزميلاتها يتسلمن بنادق قديمة ثقيلة، بعضها يعود تاريخه للحرب العالمية الأولى، وكن يلقن كيفية تحديد الهدف وإصابته. فى المدرسة الفرنسية للبنين، كان أخى سيزار البالغ من العمر أحد عشر عامًا خضع لتعلم نفس المهارات العسكرية ويتدرب على بندقية لا يقوى حتى على رفعها.

كان ثمة توجه جديد قوى يشدد على تعلم اللغة العربية. فيما مضى كانت الفتيات المصريات من بنات الطبقة الراقية يحتقرن لغتهن الأم ويظهرن ثراءهن ورقيهن بالتحدث فقط بالفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية، أى لغة ماعدا لغتهن. ولكن الآن فى الليسيه وجدت سوزيت أن عليها حملا ثقيلا من مقرر اللغة العربية وذلك لمسايرة روح الثورة.

انخرطت أختى فى برنامج اللياقة البدنية، وتعلمت أن تغنى الأناشيد الوطنية المصرية الجديدة بحماسة بالغة. كان سلوكًا مضادًا لصميم جوهرها، كانت تؤيد ناصر وتقول لكل من يسمعها، بمن فيهم عائلتى التى روعتها المفاجأة، إن الفرنسيين والإنجليز كانوا على خطأ فى غزوهم لمصر وأن القناة هى ملك للمصريين، ورغم ذلك كانت ترغب فى مغادرة البلاد، لقد تأكد كل الشباب من أنه لا مستقبل لهم فى مصر.

أصبح المعبد الكبير فى شارع عدلى محورًا لنوبة من نشاط محموم وصارت الزيجات المتعجلة مشهدًا يوميًا. كانت العائلات تستعد للفرار لأى دولة يمكن أن تقبلهم، لقد عزموا أمرهم على الفرار لنهاية العالم بالمعنى الحرفى للكلمة -أستراليا، فنزويلا، كندا، جنوب إفريقيا، البرازيل- اختار المحبون من الشباب أن يتزوجوا خشية أن يفترقوا للأبد. كانت الخطبة التى عادة تمتد لشهور تستمر الآن لقرابة يومين، بينما الأعراس التى كانت تستغرق ليلة كاملة يتم إنجازها اليوم فى ساعة واحدة.

إن الحبر **شيم ناحوم أفندى**، الحاخام الأكبر الموقر فى مصر قد وجد نفسه يعقد العديد من مراسم الزواج فى اليوم الواحد. كان ثمة زواج بالجملة، مع قليل من مراسم الأبهة التى تميز الزيجات التقليدية فى معبد بوابات السماء.

كانت الزوجات الشابات يعانقن أهلهن إيذانًا بمغادرة البلاد على ظهر أول باخرة.

لم يكن هناك وقت للبكاء، كان هناك فحسب إحساسٌ بأنه يجب على المرء أن يغادر بأى ثمن.

لقد شهدت مصر من قبل مثل تلك الهستيريا،وذلك فى سنة ١٩٤٨، خلال أول حرب عربية إسرائيلية، ثم فى يناير ١٩٥٢، فى اليوم اللاحق ليوم الأربعمائة حريق على نحو ما كان الإحساس باليأس وقرب النهاية أكثر وضوحًا من كارثة السويس.

لم يعد هناك من شك على ضرورة مغادرة مصر ولكن السؤال كان متى؟

حث أبى كل فرد من إخوته وأخواته بالذهاب فورًا إلى إسرائيل، البلد الذى يمكن أن يستقبلهم ، لم يطرح أى منهم أية أسئلة.

و لكن فى منزلنا بشارع الملكة نازلى لم يحرك أبى ساكنًا للسفر لأى مكان، وكان يجيب سائليه قائلًا بالفرنسية "ذلك بسبب لولو" c'est a cause de Loulou نحن أيضا سوف نرحل، موضحًا أن الأمر يتعلق بصالحى فبعد ما حدث للطفلة ألكسندرا، لم يكن مستعدًا لأن يلقى بابنته الطفلة الرقيقة فى موقف خطر فى رحلة بحرية طويلة من الممكن ألا تحتملها، هذا فضلًا عن الاستيطان فى بلد بدائى مثل إسرائيل، حيث دارت همسات بأن القادمين الجدد يُدفع بهم للإقامة فى خيام أو فى ثكنات من المعدن، كانت الحرارة فيها تعادل حرارة الأفران حين تسطع الشمس. مع ذلك، كان يؤكد بأنه سيترك مصر quand loulou est un peu plus grande عندما تصبح لولو أكبر قليلا.

كان يقسم بأنها مسألة شهور.

لقد أنهى الحاكم بأمره كلامه. استعد الكثير من أفراد عائلتى مجموعة إثر أخرى لما يمكن اعتباره، فى حقيقة الأمر، خروجًا ثانيًا. استعد للمغادرة لأرض الميعاد كل من عماتى وأعمامى، مارى وأبنائها الستة، والعم رافاييل مع ابنتيه الجميلتين وابنه الوحيد، وكذلك العم شالوم، والعمة ريبكا برفقة زوجها وواحد من أبنائها للمغادرة لأرض الميعاد on va se revoir bientot inshallah

أقسم أبى بأنه سوف يلاقيهم قريبًا إن شاء الله.

ثم حان دور ألكسندرا للرحيل.

بدأ كل من كانوا يقدمون مساعدات مالية لألكسندرا فى الاختفاء واحدًا بعد الآخر، كسلسلة السجائر التى تدخنها. رحل أبناء العمومة من الدرجة الأولى ومن الدرجة الثانية الذين جنبوها الفقر المدقع –أو بالأحرى سمحوا لها أن تحيا رغمًا عنه– فى مجموعات. و لم يعد communaute juive للمجتمع اليهودى بجمعياته الخيرية وجود وقد كانت تلك الجمعيات رغم عملها بطريقة عشوائية تتمتع بشىء من الكرم وكانت ألكسندرا تعتمد عليها أحيانا فى الحصول على القليل من الإعانات المادية كصدقة أو وجبة غذائية. اختفى كل المتبرعين الرئيسيين فضلًا عن أولئك الثانويين وأُغلق hopital israelite المستشفى الإسرائيلى فى سنة ١٩٥٦ وتحول إلى المستشفى العسكرى لجنود ناصر. وكل ما استطاع المجتمع اليهودى أن يفعله هو محاولة ضمان بقاء بيت اليهود للمسنين فى هليوبوليس مفتوحًا، والتبرع بأموال للسرايا الصفراء،

مأوى مرضى الأمراض العقلية، حتى يستمر المرضى من اليهود فى الحصول على العلاج اللازم.

وقد بدا أن الاختيار الوحيد العملى لألكسندرا هو اللحاق بابنها فليكس المقيم بإسرائيل، الذى أرسل كلمة صرح فيها بأنها يمكنها اللحاق به. لم يكن أحدنا يعرف شيئا ولو بسيطا عن الخال فليكس، ذلك البائع المتجول ذى الشخصية الجذابة عديم النفع الذى كان سرق خاتم خطبة أمى ورهن أحجاره الكريمة الغالية فى ليلة زفافها، والذى أظهر نفسه دائما بمظهر الشخص غير القادر على المحافظة على وعد أو التزام طوال حياته.

وهكذا لم يكن لأحد أية انطباعات عنه، فيما عدا ألكسندرا. بالطبع، كانت جدتى تود أن تنتقل للإقامة معنا ولكنها كانت خجولة ومتواضعة، حتى أنها لم تطرح هذا الموضوع من تلقاء نفسها كما لم يعرضه أبى عليها وكانت أمى أضعف من أن تصر عليه، وكانت أختى أصغر سنًا وأشد إزعاجًا -إذ كان سرعان ما يثور غضبها- من أن تطلب ذلك بالطريقة التى كانت تبدو أنها هى الوحيدة القادرة عليها للوقوف فى وجه أبى.

تخلت ألكسندرا عن حجرتها الصغيرة وكنكتها المفضلة وانتقلت للإقامة معنا فى فترة قيامها بإنهاء أوراق سفرها.

وحيث إن كل أسِرّةِ المنزل كانت مشغولة، فقد كان سريرها عبارة عن صندوق كبير فى ركن من حجرة المعيشة، تم فرشه من بطاطين ووسادات هكذا. هنا كانت ألكسندرا ترقد فى أيامها الأخيرة معنا، امرأة ضئيلة الحجم خائفة وما من أمنية لديها يمكن أن تلبى ليلة سفرها، راقدة على صندوق كبير قديم تم ترتيبه ليبدو كفراش.

وبعد عدة أسابيع، غادرت للإسكندرية حيث قابلها الأقارب -الفرع الثرى من العائلة التى كانت يومًا ما عظيمة ونبيلة dana famille عائلة دانا. كانوا هم أيضا قد رتبوا لهروبهم على عجل، وكمعروفٍ أخيرٍ منهم- حيث عرف عنهم أنهم من أكرم المتبرعين فى المدينة- أعدوا لجدتى حقيبة صغيرة، حشوها بكل ما أمكنهم جمعه: مجموعة من الملابس مع قمصان نوم حريمى، وكتابين لن تستطيع قراءتهما لإصابة عينيها بالمياه البيضاء، مع عدد من علب السجائر، وبسكويت، وبيض مسلوق، وعلب من القصدير بها الكعك المحلى خشية أن تشعر بالجوع على ظهر الباخرة.

ذهبت عائلتى لرؤية ألكسندرا أثناء استعدادها للرحيل، صدمت سوزيت لرؤيتها، فقد تحول شعرها الأسود اللامع إلى اللون الأبيض. تغير لونه فى تلك الفترة التى

استغرقتها فى السفر من القاهرة إلى المدينة التى هجرتها فى شبابها الإسكندرية. كانت ألكسندرا على ثقة من أننا سنلحق بها يومًا ما.

ربما اعتقدت هى ذلك، ربما اعتقدناه جميعًا لم يرد بخاطرنا، ألا يرى بعضنا بعضا مرة أخرى، كانت تلك العائلات سترحل إلى آلاف الاتجاهات المختلفة، مثل البواخر التى تحملهم من ميناء الإسكندرية.

كان رصيف الميناء شديد الازدحام، كما لو أن كل من تبقى من يهود مصر قد اختاروا تلك اللحظة للرحيل. سُمح للمرأة النحيلة ذات الشعر الأبيض المعقوص بأناقة من الخلف على شكل كعكة، بالصعود على ظهر المركب دون ضجيج. لم يمد أحد إليها يد المساعدة، أو يعرض حمل أغراضها عنها. اختفت هى أيضًا تلك الشهامة التى كانت يومًا أحد المقومات الضرورية للحياة فى مصر، كما لو كانت هى كذلك من آثار الاحتلال التى يجب أن تُستأصل.

رحلت ألكسندرا السكندرية، امرأة عجوز، تكاد لا ترى، تحاول الإمساك بحقيبة سفرها الثقيلة على ظهر باخرة مزدحمة.

لم يكف دمع أختى، التى سوف تكبر لتتزوج من رجل اسمه ألكس، وستسمى ابنتها الوحيدة ألكسندرا. تركتنا سوزيت وعرجت على دار سينما بالإسكندرية، حيث اشترت تذكرة بقرش صاغ. كانت السينما تعرض فيلم love me tender أحبنى أيها الرقيق الذى كان بطله الأمريكى ألفيس بريسلى ذلك الوجه الجديد خاطف قلوب العذارى. بكت سوزيت من أول مشهد فى الفيلم حتى آخر مشهد منه. كانت وحيدة تجلس فى تلك الدار المظلمة الباردة، كما فعلت ألكسندرا ذلك دائمًا، بكت أختى كما لم تبك من قبل وهى تشاهد ألفيس وتسمعه يغنى كلمات تلك الأغنية التى سترتبطها للأبد بهذا اليوم الفظيع من صيف ١٩٥٧:

love me tender، love me dear، tell me you are mine I'll be yours through all the years، till the end of time.

أحبنى أيها الرقيق، قل لى إنك لى، سأكون لك عبر كل السنين حتى نهاية الزمان.

كان ذلك ما غناه ألفيس. بينما أختى كانت تفكر بشوق فى جدتنا، متسائلة فى حيرة عما تفعل وحيدة يائسة فى سفرتها على مركب يتخبط على ظهر الماء.

الفصل السابع

ألكسندرا فى أرض الميعاد

ما إن وطأت أقدام أقاربى إسرائيل، حتى تحققت أسوأ المخاوف. فقد سُكن بعضهم فى مستوطنات وعرة فى قلب الصحراء، أو فى مناطق زراعية نائية، حيث كانت المنازل عبارة عن خيام أشبه بالثكنات العسكرية، أو أبنية واهية من الألمونيوم. روعت عمتى مارى لقذارة حياتهم الجديدة، متسائلة ما الذى دفعها بحق السماء إلى الانصياع لأبى، فقد كانت مصر أفضل من ذلك حتى مع تدهور أحوالهم بسبب الوضع السياسى المضطرب.

وأين هو ليون؟ لماذا قذف بهم إلى هذه البرية؟ هكذا كانت تعتبر كيبوتز "جيفات برينر" kibbutz givat brenner.

كانت خطابات أبى إليهم تشد من أزرهم دون أن تعدهم بشىء.

كان أبناء عمومتى يعيشون فى مبان بدائية سابقة التجهيز جدرانها من الألمونيوم، وكانت الحجرات حارة لدرجة لا تحتمل وغذاؤهم بسيطًا بعيدًا كل البعد عن الترف، فقد كان العشاء الفاخر المكون من الدجاج واللحم الذى كانوا يستمتعون به فى القاهرة قد أصبح مجرد ذكرى.

وقد جاءت السلوى الوحيدة من الشخص الذى يكرهه أبى أكثر من أى شىء، عمى المفقود، الراهب سالومون. لقد حضر إليهم الأب جين –مارى بمجرد وصولهم قادمًا من ديره فى القدس ليكون فى عون عائلته. كان بالنسبة إليهم كحلم، يتراءى بين

الحقول، ماشيًا بخطى واسعة فى رداء الرهبان الأسود الطويل، وكان المقيمون فى مزرعة جيفات برينر يندهشون لرؤيتهم رجلًا قصير القامة ممتلئ الجسم قوى البنية ذا لحية، يحيط برقبته صليب كبير ويتدلى من وسطه حزام وهو يقطع طريقه إلى منطقتهم.

وكانت دهشتهم تزداد أكثر عندما يتأكدون فى النهاية أن الغرض من قدومه هو زيارة تلك العائلة شديدة الفقر التى جاءت ضمن اللاجئين القادمين من مصر، وبصفة خاصة، المرأة ضئيلة الجسم، القصيرة السمينة التى لا تستطيع أن تنطق بكلمة عبرية واحدة والتى لم تتوقف عن البكاء منذ لحظة وصولها كيبوتز جيفات برينر.

أما عمتى مارى التى فقدت كل أمل لها فى الحياة منذ غادرت مصر، فكان لقاؤها مع أخيها الكبير مرة أخرى بمثابة المعجزة، إذ كانت تراه فى صورة قديس يأتى ليظهر لهم العطف والحنان من بين خشونة الحياة المذهلة فى وطنهم الجديد.

كان حال العم رافاييل أكثر ضيقًا وعسرًا، فقد بدأت صحته فى التدهور دون وجود أبى -شريكه فى تجارة علب السردين والمربى وزيت الزيتون- ليسرى عنه، وكان مايزال كسير الفؤاد بسبب الأحداث التى وقعت بمصر، وأخيرًا أصيب العم رافاييل بنوبة قلبية وتوفى على أثرها ولم يكن قد مضى على وجوده فى إسرائيل سوى ستة أشهر فقط.

بعد وصولها لإسرائيل بفترة وجيزة، أصيبت عمتى ريبيكا أيضا بالمرض وقد شُخص مرضها على أنه سرطان الرئة، رغم أنها لم تدخن سيجارة واحدة طيلة حياتها، وقد عاد ابنها دافيد المجند بالجيش الإسرائيلى أدراجه إلى المنزل للمساعدة فى العناية بها وعند احتضارها، ظل زوجها جاثيًا على ركبتيه بجوار فراشها.

بعد ذلك، كانت هناك ألكسندرا.

لقد حطت جدتى رحالها وسط بساتين البرتقال بمستوطنة جنة تكفاه الزراعية التى تقع على بعد أميال من أقرب مدينة، كانت تلك المستوطنة بالنسبة لها نهاية العالم، لقد كانت جنة تكفاه فى نظر جدتى، رقعة مهجورة من العدم لا تحوى شيئًا سوى الكثير من البرتقال ولكنها فى الوقت نفسه كانت أيضا موطنها الجديد المزعوم، لأنها المكان الذى يقيم فيه ابنها الخال فليكس الذى كان يعمل بالصحافة كلما سنحت له الفرصة.

كانت تشعر فى الحقيقة بأنها مخلوق قادم من كوكب آخر بعيد، لم تكن تعرف أحدًا ممن هم حولها ولم تكن تتحدث لغتهم، فبدت عاجزة عن اكتشاف ما حولها،

وحتى لو كانت قادرة فما من أهمية لذلك بمكان إذ لم يكن ثمة شىء يمكن أن تحظى به.

كان بيتها عبارة عن سرير ضيق فى هيكل خشبى سابق التجهيز من الخشب حيث يقيم خالى مع زوجته إيمى، كان خالى وزوجته دائمًا على خلاف ويتبادلان الأقوال اللاذعة قولًا وراء قول.

أخذت ألكسندرا تفعل ما تفعله دائما للهروب من المواقف الصعبة، فكانت تخرج للمشى. ذات يوم غادرت جدتى بيت ابنها الخشبى وأخذت تتجول جيئة وذهابًا عبر الممرات المفروشة بالحصباء التى كانت تقوم مقام الطرق فى تلك القرية المقفرة، حيث كان كل ما يستطيع المرء أن يراه على مدى أميال وأميال هو بساتين البرتقال.

مشت جدتى كثيرًا جدًا بعد أن ساءت معنوياتها، وهى تتحدث إلى نفسها، لا تفارق السيجارة شفتيها حتى أنها لفتت انتباه ذلك المجتمع المهاجر، المكون معظمه من اللاجئين الوافدين من مناطق الشرق الأوسط: طرابلس، تونس، الجزائر، كازابلانكا (المغرب).

كانوا على يقين من أنها مجنونة، هذه المرأة الحدباء العجوز، التى تتحدث إلى نفسها دائمًا حين مرورها جيئة وذهابًا على نفس الطرق الضيقة، التى كانت أحيانًا تتوقف لتوجه لهم حديثًا بلغة لا يفهمونها. كان يبدو عليها أنها تطلب المساعدة ولكنها لا تعرف كيف تعبر عن ذلك بالعبرية أو بالعربية.

أصبحت ألكسندرا مخلوقًا مثيرًا للشفقة، والأدهى أنها صارت مثارًا للسخرية، كان الأطفال يتهكمون عليها ويضحكون فى وجهها ساخرين، و لم يكن أهلهم أفضل حالًا منهم. كان مجتمعًا قاسى القلب ذلك الذى كانت عليه إسرائيل الخمسينيات، لقد أظهر لها أبناء جلدتها من اليهود عطفًا أقل كثيرًا مما كان يظهره لها العرب الذين كانوا يقابلونها حين تسير لا تلوى على شىء فى شارع الملكة نازلى. فقد اعتاد المصريون أن يعاملوها بتلك الصفة الرائعة التى يسمونها "الرحمة"

لم يسخر أحد من ألكسندرا فى مصر. بل على العكس، كانت حالة الكرب واليأس التى تبدو عليها تثير تعاطفهم وكانوا غالبًا ما يتوقفون ليسألوها إذا ما كانت تريد مساعدة. كان ذلك هو الفارق بين مجتمع هو في أساسه شرق أوسطى رغم تاريخه

الطويل مع الاحتلال، ومجتمع فى أساسه غربى، رغم موقعه الجغرافى، ويتوق لمزيد من التوجه للغرب.

لم تكن جدتى مجنونة، كانت ببساطة وحيدة يقتلها شعور فظيع أنها غير مرغوب فيها وغير محبوبة. كانت تتساءل متى ستأتى إيديث والأولاد؟ متى سيفى ليون بوعده وينتقل بالعائلة إلى هنا كى يجتمع شملهم من جديد؟

على الرغم من إقامتها فى عائلة مع ابنها وزوجته، فإنها من كل الوجوه كانت وحيدة، لم تكن تمتلك مليمًا، وكذلك كان حال ابنها -خالى فليكس- الذى لم يتغير قيد أنملة بين القاهرة وجانيه تيكفاه، فعلى الرغم من طبيعته السمحة، فإنه ظل من غير الممكن الاعتماد عليه. فمنذ لحظة وصول جدتى أعلن عن رحيله واختفى بعيدًا إلى الجانب الآخر من إفريقيا، أو الجانب الآخر من المدينة.

فى مصر، تصورت الأسرة أن حياة ألكسندرا أصبحت مستقرة، وإن لم تكن مثالية تمامًا. قيل إن خالى فليكس سيكون بانتظارها فى إسرائيل للإقامة معه بمنزل يقع بين المزارع وحقول الريف. ولكن بالنسبة لألكسندرا وتبعًا لمعاييرها كانت جانيه تكفاه أرضا قاحلة رغم تربتها الخصبة وفواكهها كبيرة الحجم حلوة الطعم، فهى قرية ليس بها محلات أو مسارح أو حياة، لم يكن بها غير دكان صغير للبقالة. لم تكن كيبوتز

ألكسندرا بنت الإسكندرية ١٩٥٠

بالمعنى المتعارف عليه ولذلك لم يكن هناك أى نوع من الأنشطة الاجتماعية التى كان من الممكن أن تخفف إحساسها بالعزلة. فهى لم تكن تتحدث اللغة العبرية و لم تكن تعرف المنطقة كما أنه لم يكن لديها مال البتة.

وفوق ذلك كله، كانت تكره البرتقال.

كم هى مختلفة جانيه تكفاه عن القاهرة، حيث كان يمكن لألكسندرا فيها حتى وهى فى أشد حالات تدهورها، أن تخرج من حجرتها المستأجرة وأن تجد صحبة وتبتهج بتجوالها بين السلسلة المذهلة من البوتيكات والأكشاك والمقاهى والمطاعم وعلى الأخص دور السينما. ليس فقط سينما ريالتو، ملجأها الصغير التى كان موظفو التذاكر فيها من أصدقائها، وإنما أيضًا دور السينما الصيفية cinemas en plein air مثل سينما ركس وسينما سانت جيمس*، حيث كان من الممكن الجلوس على مقاعد مشغولة من خشب البامبو والانتعاش بنسمات النيل الباردة والاستمتاع بمشاهدة عرضين سينمائيين.

كانت ألكسندرا مفتونة بنجوم السينما من جيل الخمسينيات: فان جونسون، ديبورا كير، روك هيدسون، جريس كيلى، إليزابيث تايلور، دائمًا إليزابيث تايلور. لقد حُظيت جدتى بحب سوزيت لأنها كانت دائما ما تشبهها بإليزابيث تايلور. كم كانت مغرمة بالذهاب لمنزلنا بشارع الملكة نازلى كى تقص على أطفال إيديث قصص أحدث الأفلام وذلك بعد أن تزيد من جاذبية الحبكة الدرامية، ببعض الإضافات وإن كانت، بالطبع، إضافات قليلة.

كان هواء جانيه تكفاه مثقلا برائحة زهور البرتقال. فى يوم من الأيام كانت مغرمة بغناء "استنشق استنشق زهور البرتقال" Senti senti questi fiori d'aroncio ولكنها الآن تحس بالاختناق من أنها لا تستطيع الهرب من أشجار البرتقال الهائلة ورائحتها التى تملأ المكان.

كم كانت تفتقد حجرتها القديمة "وكنكة" Kanaka القهوة الصغيرة التى كانت أقرب أصدقائها.

---

* كانت سينما ركس مجاورة لسينما سان جيمس وكانتا تقعان بشارع الألفى (الحالى)، وكان البلكون فى سينما سان جيمس يتميز بوجود «بناوير» يتاح فيها تقديم العشاء أثناء مشاهدة الفيلم.

أخيرًا، صار لجدتي صديقة، **جوزيت** ذات الثمانية عشر ربيعًا، حديثة الزواج، كانت هي أيضًا تشعر بالضياع والحنين إلى الوطن. كانت تحن للقاهرة وسبل التسلية بها، وأبويها اللذين تخلفا عنها. كانت تنظر إلى ألكسندرا على أنها مبعوث للمدنية والتحضر فى تلك الأنحاء. أخيرًا وجدت جدتى على الأقل شخصًا ما يمكنها مشاركته ارتشاف فنجان القهوة التركى café turc والاستمتاع بتبادل أطراف الحديث بالفرنسية، لا بالعبرية أو العربية.

كانت جوزيت تعيش مع زوجها فى كوخ من الخشب فى جانيه تكفاه وتمر بها ألكسندرا فى جولاتها التى لا ترمى لشىء.لقد كانت هناك صلة قرابة بجدتى وخالى فليكس عن طريق زوجها، فجد زوجها كان إيزاك، الرجل الذى تزوج من ألكسندرا ثم هجرها، وكانت أمه العمة روزيه التى كانت إيديث بمثابة أخت لها، وكان من المنطقى أن تتوصل جوزيت وزوجها إلى خالى فليكس عندما وطأت أقدامهما أرض إسرائيل.

رغم فقر جدتى المدقع، فإنه كان بإمكان جوزيت أن تحدس من مجمل سجاياها أنها ذات ثقافة راقية. كان لها مظهر أرستقراطى، وكانت فرنسيتها جد رفيعة، كما كانت أيضًا بارعة بطبيعتها فى سرد القصص والأخبار، وكما استطاعت يومًا أن تزجى أوقات فراغ إخوتى بضروب التسلية، استطاعت أن تأسر المرأة الشابة. بفرنسيتها الراقية، بعثت ألكسندرا إلى الحياة فى ذاكرة جوزيت بعضًا من زميلات طفولتها بمدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق، الفتيات الثريات المتميزات اللاتى كن يحضرن كل صباح للمدرسة فى سياراتهن الكاديلاك يقودها السائقون من منازلهن بجاردن سيتى والزمالك وكانت خادماتهن يحضرن لهن الطعام ساعة الغداء، وما لم تكن تعرفه جوزيت هو أن ألكسندرا كانت يومًا ما فى زمرة هؤلاء الفتيات.

لقد حظيت المرأة العجوز بإعجاب جوزيت فكان كل ما بداخلها من متناقضات آسرًا لمشاعر جوزيت مثيرا لذكرياتها.

من ناحية أخرى كانت ألكسندرا بلا حول ولا قوة، كانت أكثر الأشخاص الذين صادفتهم جوزيت بحياتها عجزًا. ففى إسرائيل، لم تملك جدتى –تمامًا كما كان حالها بمصر– من المهارات الحياتية ما يمكنها من التوافق مع مقتضيات الحياة الضرورية.

كانت ألكسندرا بالنسبة لجوزيت زهرة، ولكنها ليست كأى زهرة. فهى كالزهرة النادرة، ما أشبه تنوع رقتها بتلك الزهرة البيضاء الجميلة شديدة الرقة التى تنمو على سفوح الجبال المسماة بالزنيان edelweiss.

كانت هناك سجية أخرى لم تستطع جوزيت تحديدها بدقة تتلخص فى ذلك السر الذى يلف أسى المرأة الدفين. كانت حالة من الغموض، شعور بأنها تبحث عن شىء ما، تبحث عنه وهى تمشى جيئة وذهابًا فى تلك الممرات الضيقة المظللة بأشجار البرتقال، ولكن عم كانت تبحث؟ عن أى شىء. "إنها تبحث عن ابنها" هذا ما استنتجته المرأة الشابة. لذا فقد كرهت فليكس ولامته على تعاسة ألكسندرا.

عندما وصل والدا جوزيت أخيرًا إلى إسرائيل استقرا فى كوخ خشبى مجاور وعلى الفور قاما باحتضان جدتى. لقدكانت ألكسندرا تمر على بيتهما أثناء سيرها الدائم الذى لا يلوى على شىء تمامًا كما كانت تمر لرؤيتنا فى منزلنا بشارع الملكة نازلى. كان والدا جوزيت شخصيتين محبوبتين. تعودا على تمييز دقة الباب الخجولة أربع دقات، ثم تظهر ألكسندرا بعلبة سجائرها فى يدها ، وابتسامة خفيفة على وجهها القلق.

فى ذلك الوقت أضحت شديدة النحافة. كانت ربما تتضور جوعًا، كانت قدماها دائمًا ما تصطدم بثمرات البرتقال الناضجة اللذيذة، قطع من الفاكهة مبعثرة على أرض جانبيه تكفاه، وخلال أى من مسيراتها، كان يمكن لألكسندرا أن تنحنى وتغترف منها. ولكنها لم تفعلها أبدًا. كانت تحيا بالكاد على نظام غذائى من السجائر والقهوة التركى والبيض المسلوق الذى تتناوله أحيانًا كل يومين. وعلى الرغم من أن صحبتها كانت مبهجة، فإنها كانت تبدو شديدة الذهول، لا تقدر على البقاء جالسة لأكثر من عدة دقائق، إنها دومًا فى عجلة من أمرها للوصول إلى محطتها التالية.

كانت جوزيت أو أمها يسألانها "عزيزتى هل تريدين تناول شىء من الطعام؟" tu ne veux rien manger، cherie?. كان من عادة ألكسندرا أن تهز رأسها بالنفى وتستأذن بأدب جم تاركة إياهم لتستأنف سيرها الذى كان سريعًا وبلا هدف.

كانت جوزيت ترقبها من النافذة فتاة صغيرة ضائعة على هيئة امرأة، ذاهلة عما يدور حولها.

كان الحظ السيئ وعين الحسود la guigne ملازمين لجدتى طوال حياتها واستمرا وراءها حثيثًا حتى هنا فى أرض الرب. المكان الوحيد فى العالم الذى تتوه فيه اللعنات وتولد فيه المقادير من جديد.

كانت جوزيت تدعو ربها قائلة "اللهم لا تجعل حياتى تنتهى على هذه الشاكلة"

فى حقيقة الأمر كانت جدتى واعية بشدة لما حولها. ولقد كانت أيضا -كما خمنت جوزيت- تَجدُّ فى البحث عن ابنها.

لكن ليس هذا الابن، ليس خالى فليكس. كان ابنها الآخر هو من تبحث عنه، هو طفل السوق ذو العينين الزرقاوين، الذى أملت ألكسندرا أن تعثر عليه بين بساتين البرتقال. بالطبع لن تنتهى حياة جوزيت كما انتهت حياة جدتى، فى رقعة مقفرة حتى من العدم، مفلسة وحيدة وغير مرغوب فيها، دون أن تتوصل حتى لحل ذلك اللغز الذى كان هاجسها الدائم طوال كل هذه السنين. لقد كان وسواس جدتى الذى يعاودها فى عزلتها المؤلمة إنما هو اجتماع شملها مرة أخرى مع ذلك الابن.

لابد أن يكون الآن ابنها قد كبر بالفعل، ولكنها كانت متأكدة بحاسة الأم التى لا تخيب أنه قد غادر مصر أيضًا، وأنه فى مكان ما على مقربة منها.

كانت مقتنعة أنه هو أيضا قد وجد طريقه لأرض الميعاد.

لقد كانت جانيه تكفاه تعنى -رغم ذلك كله- حديقة الأمل، وقد واصلت سيرها فى الطرق المظلمة المفروشة بالحصباء، مصممة على الاحتفاظ بذلك الأمل.

الفصل الثامن

درس اللغة العربية

دائمًا ما تشدنى الصور الفوتوغرافية التى تنبئ عن أحداث مستقبلية. حين تبدو فيها المشاهد السعيدة متضمنة إشارات خفية لمأساة قادمة. عادة ما يظهر كل من بالصورة مبتسما، ولكن فى مكان ما عند حافة الإطار، تلوح بقعة داكنة أو ظل ما منبئا بأن حدثا خطيرا يوشك أن يقع، رغم كل الابتسامات التى ترتسم على الوجوه المبتهجة.

على كثرة ما تأملت آخر صورة لأبى مرتديًا بدلته الشركسكين البيضاء، لم أجد أثرًا لتلك الإشارات الخفية. ها هو أبى فى ساحة معبد حنان، بمناسبة الاحتفال بإجراء عملية ختان، واقف مع حشد من الضيوف الذين تجمعوا على شكل نصف دائرة أمام نوافذ المعبد الإيطالية المزخرفة الجميلة. كان الجمع مشرقا متأنقا، النساء فى ثيابهن الحريرية الناعمة الفضفاضة والرجال فى بدلاتهم التى فُصلت خصيصًا. كان ابن عمى إدوارد واقفا فى منتصف الحلقة بجوار زوجته، وأمها تهدهد الوليد بين ذراعيها. ورغم أن أبى كان يقف -إلى حد ما - فى جانب الصورة، فإنه كان ظاهرًا نظرا لطوله، ولمظهره الفخيم، وابتسامته البسيطة الواثقة، يعلو بهامته المديدة كل الموجودين ممن حوله فضلًا عن أناقته التى تسلب اللب.

كان كل الرجال يرتدون بدلات سوداء تقليدية.

وليون وحده يرتدى بدلته البيضاء الشركسكين.

ظل هذا المشهد يبعث فى النفس السعادة. أنظر إليه دائمًا على أنه آخر صورة سعيدة ليهود مصر. لم يكن فيها ما ينذر بالأحداث القادمة. كما لم تكن ثمة إشارة من

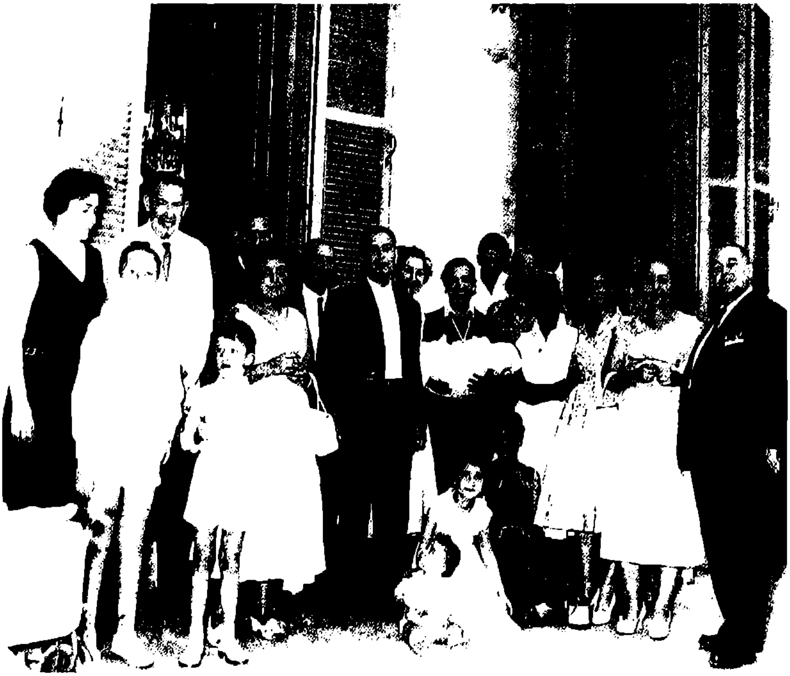

آخر صورة سعيدة ليهود مصر، معبد حنان، القاهرة، ١٩٥٨

أى نوع توحى أنه خلال أسابيع أو شهور سينتهى كل ذلك. فوالدا الطفل الوليد إدوارد ابن عم أبى وزوجته سيرحلان للتو لأمريكا مصطحبين ابنهما الصغير. سوف تتشتت النساء اللاتى يبرقن فى ثيابهن الفخمة فى عشرات البلاد الغربية. سيغدو معبد حنان مهجورا، وستخلو ساحته بشكل يدعو للرثاء. أما أبى فلن يتأنق أو يقف أو يبتسم بمثل تلك الطريقة ثانيةً.

فى صيف ١٩٥٨، لم نذهب إلى الإسكندرية كعادتنا كل عام حيث كنا نقوم بتأجير منزل أو شقة بالقرب من البحر. فقدت الحياة الكثير من بريقها بعد الخروج الجماعى لأقاربنا من مصر. لف منزلنا الخواء، فقد حُرم من زائريه الذين اعتدنا عليهم. ووصلت لأبى خطابات من إسرائيل، تتساءل عن موعد وصولنا للانضمام لباقى أفراد الأسرة.

بعد الفزع الذى أعقب أزمة قناة السويس، ساد البلاد مناخ يتسم بالاستقرار. وبدا أن الحياة استأنفت فى ظاهرها حياة الدعة التى اعتادها أهل الشرق. ورغم أن أبى ظل يؤكد لأقاربنا بأننا نرتب للحاق بهم، فإنه بشكل فعلى لم تبد ضرورة ملحة لذلك.

كان الخوف هو بالضبط ذلك الأثر الذى تخلف عن حرب ١٩٥٦، وكان هناك أيضا شعور مزعج بأن نظام ناصر يتجسس علينا، وبأن الخطر صار جد قريب. كان من الممكن لأى شخص، الخادمة، البواب، والبائع المتجول أن يتجسس علينا لصالح أتباع ناصر. كانت أمى أحيانًا تشير لإخوتى بالصمت قائلة لهم «les murs ont des oreille إن للحيطان آذانا"، مشيرة للخادمة التى تجلس على المائدة.

صادرت الحكومة الكثير من الأعمال التجارية المملوكة لبعض معارفنا، ولكن ليون لم يكن لديه تقريبًا شيء يمكن للحكومة أن تحجز عليه أو تصادره. ومن ثم استطاع أن يستمر فى عمله بأسلوبه السابق الغريب دون تغيير، إذ كان حريصًا على أن يعمل بمفرده. لقد فاق ليون حكومة ناصر حيلة ودهاء فاستطاع أن يناور النظام حتى لا يضع يده على ما نملك. لم يكن ناصر نفسه بقادر على اختراق الأسوار العديدة للسرية التى وضعها أبى حول مصادره التجارية.

ظل أسلوب أبى فى العمل على وتيرته. فقد ظل يستيقظ كل يوم عند شروق الشمس لتأدية طقوسه الدينية. ثم يعود بعدها إلى المنزل ليتناول إفطارًا خفيفًا، ثم يغادر المنزل مرة أخرى ليذهب إلى وسط المدينة لإجراء المقابلات مع زبائنه. وكان من عادته أن يتوقف قليلا ليشرب كأسا من البيرة المثلجة، يعرج بعدها على البورصة ثم يقوم بالمزيد من المقابلات التجارية.

كان يحب التجوال عبر أرجاء القاهرة، وكان يتمتع بقوة ونشاط حتى أنه الآن وهو على مشارف الستين من عمره لا يحتاج إلى أن يبطئ فى سيره، وقد أشعل حماسته أكثر، شعوره أنه صار مسئولا عن إطعام أربعة أفواه صغار، من بينهم أنا، الوليدة الجديدة.

كنت مسئوليته الشخصية منذ البداية. فقد كانت إيديث تتركنى فى رعايته حين يكون بالمنزل، وكنا أنا وهو نذهب معًا للعب فى الحديقة المجاورة عبر الطريق، فى حرم مدرسة القلب المقدس sacre coeur أو على الأقل نظل فى حجرته المواجهة لشارع الملكة نازلى، بينما هو يعمل أو يقلب فى صفحات جريدة الصباح. كنت

أرتشف اللبن الطازج المحلوب من البقرة التى مازالت تأتى خلف المنزل فى بواكير كل يوم، كما كان الحال فى عهد جدتى ظريفة.

ذات صباح، مر ابن العم إدوارد على منزلنا، فاسترعى انتباهه أننى ألعب بين ذراعى أبى على حافة النافذة

ليون ولولو

فقال لأبى صائحًا «bonjour، captain، ca va?» صباح الخير كابتن، هل كل شىء على ما يرام؟ رد عليه أبى مبتسمًا "dieu est grand" «ربنا كبير».

كان إدوارد يحاول أن يرأب الصدع الذى حدث بينه وبين أبى، فقد حدث بعد ختان ابنه مباشرة أن تسرب كلام عن ترتيبه للسفر لأمريكا، الأمر الذى حاول أن يبقيه سرًا حتى آخر لحظة. ورغم أن الغالبية العظمى من أصدقائه وافقوه على تلك الخطوة، فإن أبى هاج وماج. والآن وجب عليه أن يواجه غضب الكابتن الشديد. فقد كان والد إدوارد عليلًا، مريضا فى دار المسنين بهليوبوليس. فكيف يجرؤ إدوارد على التخلى عنه؟

حث أبى إدوارد على أن يبقى هادئًا ويعيد النظر فى الأمر، فما من حاجة ماسة لمغادرة مصر فى الحال. لكن ابن عمى كان قد تملكه الذعر. فقد رسخ فى ذهنه أنه ليس ثمة خيار إلا أن يهجر وطنه وعمله وحياته فى القاهرة. كانت زوجته عنيدة قاسية القلب فأقنعته أنه حتى وإن كانت الحياة أكثر أمنًا الآن مما كانت عليه بعد حرب السويس، فإن مصر لم يعد بها فرص عمل ثابتة أو دائمة لليهود.

ذات صباح آخر، استدعى أبى مصورًا فوتوغرافيًا لالتقاط صورة لنا فى الخارج بشارع الملكة نازلى. سرت بخطى حثيثة ونحن نعبر الطريق العريض إلى رهبانية القلب المقدس، ممسكة بيد والدى، كان البناء الكبير المهيب يمثل خلفية للصورة وجزءًا من المشهد الذى التقطه المصور لنا وكان الجيران والمارة يراقبون المصور أثناء قيامه بنصب حامل الكاميرا وكاميراته القديمة الطراز فى منتصف الطريق.

وقعت عين أبى على سيارة قديمة جميلة من طراز شيفلد تقف أمام القلب المقدس. رفعنى إلى الأعلى ووضعنى فوق مقدمة السيارة ثم انحنى للأمام، مشيرًا إلى الكاميرا، آملا فى أن ينتزع منى ابتسامة. لم تفلح محاولته معى، فلم تكن استجابتى لها سوى أننى حملقت –بعيون متسعة لا تطرف– مباشرة فى اتجاه المصور الذى دس رأسه فورًا تحت الغطاء وصاح قائلًا: parfait «مضبوط».

ظهرت الصورة وفيها أبى يحتضننى بطريقته الفريدة التى تظهر حنانه وحمايته لى. ورغم أننى كنت أبدو مرتبكة، فإن ابتسامة أبى كانت عريضة بما يكفى لتعبر عن كلينا. لم يكن ملبسه رسميًا بشكل كامل، فقد كان يرتدى قميصًا ورابطة عنق، دون الجاكت؛ فى حين كنت أرتدى فستانا محتشمًا أنيقًا من القطن وحذاء من الجلد يختلف عن ذلك الحذاء البووت الذى كان شائعا حينئذ، وكان شعرى مسترسلا حتى كتفى بينما أطرافه ملتفة للداخل. التقطت الكاميرا كل هذه التفاصيل: فرحة أبى الغامرة باحتضانى، الإحساس بالأمان المطلق الذى كنت أحسه عندما أوى إلى تلك البقعة المفضلة لدى التى كنت أرنو إليها فى تلك الزاوية العميقة من كتفه au creux de son epaules

كان عالمًا لاثنين، خُلقًا هنا فى شوارع قاهرة الخمسينيات، وسيظلان هكذا دائمًا، أنا وأبى نتحدى معًا عالمًا رحبًا فسيحًا يصعب التعامل معه، بخيلاء وابتسامة وسيارة

غالية الثمن لم تكن حتى ملكا لنا. لم يكن هناك شيء فى الصورة يوحى مطلقا بأن هذه الحال سوف تتبدل، بل كان الإيحاء أن هذه الأنشودة ستستمر للأبد.

وقد استمرت ولكن فقط لمدة أسبوعين تاليين.

فى الرابعة من صباح أحد الأيام استيقظ أبى كعادته، وفى نيته أداء صلاته الأولى فى معبد حنان. وقد ارتدى أخف ملابسه وأكثرها بياضًا، إذ كانت الحرارة شديدة بالخارج، فقد كان ذلك فى واحد من أشد فصول الصيف حرارة.

بدأ مسرعًا كالمعتاد فى سيره خلال العشر دقائق الأولى فى طريقه للمعبد قاطعًا الممر المجاور لمنزلنا، ثم انتقل إلى الطريق الرئيسى الذى يقود إلى ميدان السكاكينى، ذلك الميدان الذى يشهد حركة مرورية واسعة، والذى يقع فى منتصفه القصر الأسطورى لآل السكاكينى من الباشوات والبكوات، ثم سلك الطرق الموحلة الضيقة التى يعرفها عن ظهر قلب، حتى أنه يمكنه السير فيها وهو معصوب العينين. كان يقطع تلك الطرق التى اعتاد عليها فى كل يوم لأكثر من عشرين عامًا، منذ أن انتقل هو وظريفة للإقامة بذلك المنزل بشارع الملكة نازلى.

ربما كانت فتحة بالوعة أو شقا من شقوق الطرق الفقيرة المعبدة أو قطعة من الزلط أو رقعة زلقة من الأسمنت.

ظل أبى لسنين بعدها يتساءل ولكن لم يعرف إطلاقا كيف تعثر بالضبط.

وجد أبى نفسه فجأة وقد وقع وهوى إلى الأرض.

طار أبى فى الهواء وارتفع ثم سقط وارتطم بالرصيف بقوة حتى أنه كان متأكدًا من تكسر كل عظامه وأنه سوف يلقى حتفه لا محالة. كانت تلك نقطة ضعف من يتصف بطول القامة وقوة البنية، فقد انهار أبى بسرعة خارقة على إثر ارتطام هائل و لم يستطع الحركة، فبقى فى مكانه يئن، بينما المارة احتشدوا من حوله، إذ لم يكن من المعتاد فى قاهرة ذاك الزمان، أن يتجاهلك أحد إذا كنت مصابًا بأذى فيدعك وشأنك.

كان أبى غائبًا عن الوعى عند وصول سيارة الإسعاف، التى أسرع طاقمها به إلى مستشفى الدمرداش، أقرب المستشفيات للمنطقة. كان مستشفى الدمرداش مؤسسة علاجية عامة تُعنى بعلاج الفقراء من أفراد الشعب، المعوزين والفلاحين. كان أبى دائمًا ما يقول إنها إرادة الله التى دفعت به إلى هذا المستشفى.

وصلت أخبار الواقعة إلى منزلنا فى وقت متأخر من ذاك الصباح. عندها صرخت أمى واندفعت من فورها للبواب ba–wab ليستدعى لها «تاكسى». وبينما البواب يساعدها فى الصعود إلى التاكسى بدت ضعيفة هشة وكانت ترتجف وبعيدًا عن الأنظار كان أخى وأختى يبكيان.

فى المستشفى استعاد أبى وعيه بسرعة. عاد بذاكرته إلى ما مضى من حياته، إلى فنائه فى حب الله، إلى حقيقة أنه كان مخلصًا فى صلاته وفى إحسانه للفقراء، وفى تصرفاته التى اتسمت بالود تجاه الآخرين. وتعجب لماذا يكون هذا عقابه، لماذا هو بالذات دون الناس أجمعين عليه أن يتحمل تلك الآلام المبرحة.

حين كان يصرخ ألمًا كان يسأل عن شخص واحد فحسب، ظريفة جدتى، التى توفيت منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة.

وحده منزل شارع الملكة نازلى هو الذى تلقى النبأ ببرود صامت، فقد أصبح منذ زمن منزل الدموع ، وكم كان مستعدًا لتقبل قدره من جديد.

وقف الطبيب أحمد خطاب رشدى بجوار فراش أبى. كان الجراح يهز رأسه آسفًا وهو يشرح ما حدث: لقد تفتتت عظام الساق وتحطمت عظام مفصل الفخذ تمامًا بفعل شدة الوقوع والاصطدام ويجب القيام بإجراء جراحة فورية فى محاولة لإصلاح مفصل الفخذ، وإن لم يكن متفائلًا إلى حد بعيد.

كان مستشفى الدمرداش مجرد مستشفى صغير يقوم على رعاية أفقر الفقراء الذين يأتون إليه للعلاج. منذ البداية كانت عائلتى متحيرة فى أمر بقاء أبى فى هذا المستشفى أو مغادرته، خاصة أن مستشفى دار الشفاء الذى يقع فى مواجهته على الجانب الآخر من الطريق، كان مركزًا علاجيًا خاصًا مذهلًا يقال إنه يضم مجموعة من أفضل أطباء مصر، ومنهم قمة المتخصصين فى جراحة تقويم الأعضاء وكانت غرف العمليات الجراحية به على أحدث طراز، كانت كل تلك المزايا سببًا فى الاعتقاد بضرورة نقل أبى إلى هناك على الفور.

لكن أبى لم يكن يريد سماع أياً من ذلك.

كان يقول لأمى إنه إذا كان الله قد أرسل به إلى مستشفى الدمرداش، فهذا هو المكان الذى يريده الله أن يبقى به.

ببساطة كان أبى عنيدًا، و لم يكن أحد يستطيع إثناءه عن قراره. كان بالتأكيد يملك الإمكانيات التى تتيح له الانتقال للمستشفى الراقى بالجهة المقابلة، أو أى مستشفى آخر بالقاهرة. ولكن لم يكن هناك من يقنعه بذلك رغم محاولات أمى وإلحاحها إذ إن أمى لم تكن من الحزم بما يكفى لأن تصر على ذلك.

قام الطبيب خطاب بإجراء العملية مستخدمًا أحدث الأساليب العلمية التى برع فيها. من أجل إصلاح الفخذ المكسورة، قام بإدخال مسمار من المعدن الصلب عرف باسم مسمار سميث بيترسون نسبة للجراح البارز الذى اخترعه بجامعة هارفارد. ورغم أن أبى كان تحت المخدر، فإنه ولسنوات، بل لعقود لاحقة كان بإمكانه أن يستعيد مرتجفا تلك الدقات الثقيلة المتكررة للمطرقة التى استخدمت لدفع مسمار سميث بيترسون داخل جسمه.

بعدئذ كان هناك الألم، الألم الذى لا ينقطع.

كل يوم، كانت أمى تقطع طريقها للمستشفى راكبة الترام أو التاكسى. لم تكن تدرى تمامًا ماذا يمكنها أن تفعل بشأنى، لذا كانت غالبًا ما تتركنى مع أختى، إذ إن سوزيت لم تبد اهتمامًا للذهاب إلى مستشفى الدمرداش، فرغم بلوغها سن الرابعة عشرة، فإن غضبها تجاه أبى كان مازال على حدته. وعندما كانت تتحدث مع أمى عن تلك الحادثة، كانتا تتحسران فى حديثهما على إصرار أبى على الاستيقاظ فى تلك الساعات المشئومة من ذلك الصباح للذهاب إلى المعبد، فى حين لايرى غيره من الرجال المتدينين ضرورة للقيام بذلك.قالت أختى «هذا عاقبة التعصب» c'est simplement du fanatisme، وهو ما وافقتها عليه أمى. لقد كان أبى مفرطًا فى ولائه للدين وهو ما جر علينا كل ذلك الاضطراب.

فى بعض الأحيان، و لم أكن قد بلغت الثانية من عمرى بعد، كانت والدتى تصطحبنى معها إلى مستشفى الدمرداش، ومن هنا كانت بدايات تذوقى لطعم المستشفيات.

أبى الذى كان دائمًا مثالًا للصمت الشديد والرزانة، أصبح الآن يثور لأتفه الأسباب، وصار على الدوام فى حالة من الهياج والتذمر يشكو من أمور تافهة نسبيًا، من قبيل الطعام، مما دفعنا لإحضار طعام مطهو بالمنزل إلى المستشفى فى آنية صغيرة من الألمونيوم معدة للرحلات* وتحتوى على أطباقه المفضلة من لحم ضأن مسلوق، ورق عنب محشو، أرز أبيض، بطاطس مقددة.

* كانت تلك الآنية معروفة بين العامة باسم «العمود» تتكون من عدة أوان صغيرة الحجم ترص فوق بعضها تتصل وتنفصل عن بعضها من خلال العمود الذى يربطها معا.

كان يتناول الطعام ثم يهدأ للحظات، ولكن بعدئذ يخرج عن شعوره ويعود لغضبه مرة أخرى، شاكيا من الممرضات، قذارة المستشفى، حقيقة أن الأطباء لا يقومون بزيارته مرارًا كما يتمنى، رغم أنه كان مغرما بالطبيب خطاب، الذى بدا مخلصًا لعمله، إذ كان يجلس بجوار فراش أبى أكثر مما يتطلب الأمر ، محاولًا زرع قليل من الأمل فى نفسه.

أبى الذى كان يقوم بتعريف نفسه طيلة حياته بأنه فارس منتديات المدينة الليلية، أصبح قانطا من فكرة عدم قدرته على السير مرة أخرى.

كان سيزار -الموجود دائمًا بالمستشفى- قد اتخذ لنفسه هواية جديدة، هى الرسم، ولشغل وقته خلال الزيارة كان يأتى معه بأوراق الرسم ومجموعة من أقلام الفحم لاستخدامها فى هذا الغرض. وفى عصر أحد الأيام حين كان الطبيب خطاب يقوم بالمرور على أبى فى فراشه، بدأ أخى فى رسم صورة للطبيب، وياله من رسم شديد الواقعية حتى أن الطبيب عرض شراء اللوحة فى التو

رسم سيزار الممرضات، الفلاحين الذين يعج بهم المكان بجلابيبهم الطويلة البيضاء، كما رسم أبى واثنين من المرضى. كان لأخى الأكبر أسلوب هادئ ناعم، ولكن هذا الأسلوب لم يفلح فى تهدئة أبى أو التخفيف من ألمه الوجودى.

كان أبى يعلم، مثلنا جميعًا، بأنها لم تكن ساقه وحدها التى تحطمت ذاك الصباح وهو فى طريقه لمعبد حنان، ولكنها حياته بالكامل قد تغيرت. لم يكن من قبل يطيق البقاء جالسًا لفترات طويلة، إلا، وللغرابة، فى المعبد، حيث كانت له تلك القدرة على الجلوس فكان بإمكانه أن يظل جالسًا فى كرسيه المفضل بجوار «تابوت العهد»، لتكون صلاته أطول وأكثر حماسًا وبقدرة على التركيز أكثر من الآخرين، بل أكثر من الحبر ذاته.

ليلًا، لم يحدث أبدًا أن أقعده التعب، أو الملل فى السهر ليبقى فى المنزل. فكان يتوجه رأسًا بالتاكسى إلى أماكنه الليلية المفضلة: أوبرج الأهرام، المقطم، المطاعم المزدوجة التى كانت تجمع بين الكازينو والمقهى، حيث يمكن تناول العشاء ثم القيام للرقص، إذ كان يستمتع بالرقص بكل كيانه، كما كان العهد به فى شبابه.

والآن، انتهى كل شىء، أسلوب فى الحياة كان يعشقه لدرجة أنه عرّض زواجه للخطر حتى لا يتوقف عما يقوم به.

لن يرقص أبدًا مرة أخرى، كان متأكدًا من ذلك. لن يذهب للنوادى الليلية ولن تتقلب النساء الجميلات بين ذراعيه، ومع أفول الليل لن يرقص سعيدًا مبتهجًا رقصة

رومبا أو تشا - تشا - تشا، فالس راق، أو رقصته المفضلة «التانجو» التى كان يؤديها بتركيز شديد وبدقة متناهية.

كان الخريف قد قارب على الانتهاء حين عاد أبى إلى المنزل. استقر للتو فى سريره المصنوع من النحاس الأبيض، فى كل يوم تحضر ممرضة إلى منزلنا تقوم بتدريبه على التمارين اللازمة، وكان الطبيب خطاب يمر علينا كثيرًا ليفحص أبى، ويراجع حالته خلال مراحل شفائه.

لم يكن قد تعافى بعد، كان هناك ضغط شديد على المسمار حتى أنه كسر، أصر الجراح على أن أبى فى حاجة لجراحة أخرى لإزالة أجزاء المسمار المكسور. لكن أبى الذى لازمته ذكرى الدقات الثقيلة المتكررة للمطرقة لدفع المسمار داخل جسمه، هز رأسه مؤكدًا رفضه لا لا لا

«ربنا كبير»، أعلنها أبى بقوة حين تساءل الطبيب، كيف إذًا يتوقع الشفاء دون إجراء الجراحة المطلوبة.

أومأ الجراح المسلم برأسه متفكرا، دلالة على احترامه لرغبة أبى وإن كان فى نيته تكرار محاولة إقناعه مرة أخرى. فقد كان من الواضح له أن بقاء مسمار مكسور يؤدى إلى كارثة.

فى نفس الوقت، وصف الطبيب علاجًا صارمًا حتى لا تتقلص الساق المصابة. كانت فكرته تقوم على بقاء تلك الساق ممدودة واستعان فى ذلك بأسلوب بدائى مكون من أدوات منزلية استخدم فيه موازين ومعادن، كان منها المكواة الثقيلة المرهقة التى يستخدمها الخدم فى كى الملاءات والملابس الكتانية للمحافظة على الساق مشدودة.

جعل ذلك الضغط أبى فى حالة من الانزعاج والقلق المستمر. فى الحقيقة، كان كل من بمنزلنا على المحك. وجدت أمى فجأة أن عليها مساعدة ورعاية ستة أفراد هم كل أسرتنا، و لم تكن لديها أدنى فكرة عن كيفية القيام بذلك كله. كان أبى دائمًا كتومًا فيما يتعلق بأموره المالية، كما كان هو الحال بشأن عمله، وكانت هى لا تعلم شيئًا عن الحسابات البنكية وشهادات الأسهم وملكية الرهن والأموال السائلة. كان أبى هو من يقوم بسداد الالتزامات بما فيها مرتبات الخدم ومصاريف المدارس الخاصة لإخوتى، فى حين كان يمنح أمى مبلغًا صغيرًا من المال كمصروف شخصى.

في لحظة يأس واجهته أمي بحالها. إذ لم يتبق معها مال و لم تعد قادرة على شراء أى شيء ولا حتى الضروريات الأساسية التى يحتاجها المنزل.

"je ne peux même pas payer le loyer"، قالت له أمى «لا أستطيع حتى دفع إيجار المنزل». كان في ذلك قليل من المبالغة، إذ إن إيجار المنزل كان بسيطا، فقط بضعة جنيهات مصرية، بما يعادل دولارا أو اثنين، و لم تتغير قيمة إيجار المنزل كثيرا منذ أن استأجره أبى وانتقل إليه مع ظريفة وابن عمتى سالومون عام ١٩٣٨

أخيرا لان لها وأشار إلى السندرة، ذات الارتفاع المحدود فوق المطبخ التى كانت موجودة بكل بيت فى مصر، والتى كانت عبارة عن مخزن يستخدم لتخزين علب الطعام المحفوظة، وقطع الأثاث الزائدة عن الحاجة، والكتب والأشياء التى تستخدم فى تزيين المنزل، بل حتى المغارف وأوانى الطهى القديمة التى تخلفت عن أيام جدتى ظريفة، والتى وضعتها أمى فى السندرة بعد أن توفاها الله. قال أبى لأمى إنه أخفى فى عمق السندرة حقيبة قديمة، يمكنها أن تجد بداخلها نقودًا وأيضا شهادات الأسهم التى تستطيع استردادها.

تسلقت أمى سلمًا صغيرًا، وانتشلت الحقيبة الجلدية الصغيرة، وتملكتها الدهشة من اكتشاف مفتاح موارد أبى المالية: شهادات الأسهم، والحسابات البنكية، فضلًا عن جنيهات مصرية من فئات ورقية كبيرة. لقد كانت زوجة لأبى لمدة خمسة عشر عامًا تقريبًا و لم تكن لديها أدنى فكرة عن وجود تلك الحقيبة. ودون الرجوع إليه أخذت أمى ما تحتاجه من رزمة الأوراق النقدية وسحبت شهادات الأسهم الضرورية التى عزمت على أن تستردها وأعادت الحقيبة إلى مخبئها ثم عادت أدراجها إلى جوار أبى.

كان لدينا ما يكفى لأن نحيا حتى يتعافى أبى. تولت أمى الآن المسئولية. كانت تتخذ كل القرارات وتقوم بالإنفاق وتسدد كل الفواتير. ولكن بدلا من أن تكون قوية وأكثر ثقة بنفسها بدا أن الإفراط فى المسئولية جعلها أكثر قلقًا وقسوة. كما لو كانت قد تجردت من دورها التقليدى كزوجة تابعة لا تستطيع تحمل الضغوط، فأصبحت بكل تلك الصرامة والحزم شبيهة بالرجل المستبد الذى كانت تخشاه كل تلك السنين.

لكن الغريب فى الأمر أن سيزار –ذا الاثنى عشر عامًا، الابن المثالى والمفضل، قد تحمل نيران غضبها الشديد، كان مايزال صغيرًا جدًا على أن يؤدى الدور الذى كان سيؤديه لا محالة عندما يصبح كبير العائلة– كان قد تخلى ببساطة عن ذلك كله وانغمس فى الرسم. قام برسم كل شخص وقعت عليه عيناه فى شارع الملكة نازلى: الخادمة

والبواب وأصدقاء أبى من كافة المعابد التى اعتاد الذهاب إليها، أبى فى فراش مرضه، والطبيب خطاب فى زياراته المنزلية لنا. كان سيزار يرسم جالسا بجوار نافذة حجرة والدى وكان يرسم – من الذاكرة – المناظر الطبيعية التى تميز مصر مثل الهرم الأكبر فى الجيزة و أبى الهول، أو الفالوكة التى تشق مجرى النيل.

لقد أكثر من الرسم لدرجة أنه خلال شهور الحادثة التى وقعت لوالدى وفترة نقاهته المؤلمة، كان قد انتهى من رسم عشرات اللوحات التى خطها بالأبيض والأسود.

كانت تلك وسيلته للنسيان، وللهرب من الصرخات التى أصبح المنزل يمتلئ بها الآن بصفة دائمة.

ذات يوم، بينما أخى يجلس فى الحجرة الواسعة خلف المنزل، يرسم بهدوء، دخلت عليه أمى، كانت مكفهرة الوجه، كعادتها فى تلك الأيام. رأى سيزار أنه من الحكمة أن يتجنبها ولكنها لم ترض بذلك التجاهل. سألته لماذا يترك فراشه فى مثل تلك الحالة من الفوضى. لماذا يرسم بينما لديه من الواجبات المدرسية ما يجب عليه الانتهاء منها؟، ألا يشعر بالمبالغ التى تدفع من أجل استمراره فى مدرسة الكولاج الفرنسية (الفرير)؟

لم يجبها سيزار، وأبقى رأسه منخفضًا شاخصا بصره فى الرسم.

لقد حدث ذلك سريعًا تمامًا كواقعة أبى فى الطريق.

فجأة جذبت أمى رسوماته وشرعت فى تمزيقها، لم تأبه لتوسلاته بأن تتوقف، فلم تسمع له. وأخذت تمزق لوحة تلو الأخرى إربًا إربًا لم تبق على أى منها، مزقت كل لوحة رسمها باذلًا فيها غاية جهده: صورة الطبيب خطاب التى رسمها بالفحم، المناظر الريفية للنيل والأهرامات رسومات الخادمة والغسالة والبواب، القطة، بل وأبى وهو ينظر بشوق لشارع الملكة نازلى.

شيئًا فشيئًا بدأ أبى يستعيد قدرته على المشى. كان من عادته أن يبدأ المشى بخطوات صغيرة مترنحة فى حجرته، ثم يجر قدميه لباقى المنزل، ولكن الأمر أخذ منه قرابة عام أو أكثر ليخرج من المنزل، كان خروجه حينئذ على سبيل التجربة فحسب ولأقصر مسافة.

كانت أول وجهة له حين استطاع الحركة معتمدًا على نفسه هو الذهاب للمعبد. كان هذا ما لم يتغير أما الذى تغير الآن فهو مقدار قلقنا عليه.

فى كل مرة يخرج فيها، كان سيزار يبقى فى الشرفة منتظرًا عودته. كان يرقبه فى خروجه وهو يمشى في الممر الضيق حتى يغيب عن عينيه، ثم يبقى فى مكانه بالشرفة ليتحقق من عودته سالمًا. كان أخى ينزعج خشية ألا يعود أبى، أو أن يسقط مرة ثانية. كان أبى يبدو متأرجحًا هشًا فى سيره بعصاه الخشبية. لم يعد لهيئته الواثقة وجود. كان يبدو أقل طولًا، ربما بسبب انحنائه عندما يتكئ على عصاه. فى الليل يكون كمن زاد عمره سنوات. كما أصبح خروجه نادرًا وبالنهار فقط وكان عندما يخرج، يعود مبكرًا ويرقد فى فراشه. لم يعد هناك كازينوهات، أو نواد ليلية، أو لعب بوكر مع الأصدقاء، ولا نساء.

إلى حد ما، بدا أن وجود أبى طوال الوقت فى المنزل لا يحقق سعادة لأمى، أكثر من تلك حين كان وجوده نادرًا. مع ذلك، ورغم عجزه وضعفه فإنه كان جليس أطفال مثاليا. لقد اكتشفت أمى أن بإمكانها أن تتركنى معه وتشرع فى تنظيم يومها ما بين قضاء مهامها ومقابلة أصدقائها فى محل جروبى، والتسوق أو استشارة la couturiere الخياطة فى حياكة فستان جديد دون أن يعتريها أدنى قلق على أى منا.

كان سهر أبى على رعايتى وسيلة أيضا لإلهائه وشغل وقته فقد كان مولعًا ولعًا شديدا بالأطفال الصغار، لذا لم يكن ينظر لرعايته لى على أنها عبء ثقيل، ولكنه اعتبرها متعة. منذ البداية كنت أنا وأبي غاية فى الانسجام. وكنت رغم طفولتى أحس بآلامه وأحاول جاهدة أن أسلك سلوكا حسنًا.

كنت بطبيعتى، طفلة هادئة أميل إلى السكينة والدعة. لم أكن أهتم باللعب مع الأطفال الآخرين، كنت قانعة مكتفية بمجرد الجلوس بجواره يوما بعد يوم. وحين تكون لديه القدرة الكافية للانتقال من فراشه إلى مقعد بجوار النافذة، كنت أتبعه، أجلس فى حضنه أو على وسادة على حافة النافذة، ويكون شارع الملكة نازلى، مسرحنا الخاص، مصدرا ثابتا للهو والتسلية. ويعود الفضل فى عدم استسلام أبى لليأس والقنوط، إلى تلك القوى العلاجية التى يحفل الطريق بها، ونبض الشارع بالحياة والنشاط.

لم يعد يتطرق الحديث لمغادرة مصر. فبطبيعة الحال لم يعد بمقدور أبى ذى الساق المريضة أن يغادر حتى ولو كانت هذه رغبته رغم ذلك ظلت الأمور كما هى بالنسبة لليهود، فقد ظلوا يتدفقون للخارج، يجرفهم إحساس بالذعر والرعب أكثر من كونه إحساسا بأنه قدرهم المحتوم.

اختفت الحياة التى عرفوها فمصر، وبالأحرى مصر ذات المواطن اليهودى، انتهت ولن تعود ثانية.

قبل أن أبلغ الخامسة من عمرى، قامت أمى بإدخالى مدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق، حيث لم أبق فى روضة الأطفال إلا يومًا واحدا فقط. فقد رأت أمى أن ألعاب الأطفال والرسم بالأصابع* مضيعة للوقت وأنى سابقة لعمرى بمراحل. علمنى أبى فى فترة نقاهته، كيف أقوم بالعد حتى الرقم عشرة مستخدما شيئا قريبا وعزيزا على قلبه: مجموعة أوراق اللعب. كان يظهر صورة ماستين فى ورق اللعب فكنت أهتف deux اثنين، أو أربعة من القلوب الحمراء الجميلة فكنت على الفور أقول quatre أربعة. أحيانًا كانت أختى تنضم إلينا للمشاهدة، فحتى هى كانت تتسلى بطرق أبى غير التقليدية فى التعليم.

أشادت أمى بمعرفتى بمبادئ الرياضيات، وأقنعت الليسيه بأن أتخطى مرحلة رياض الأطفال.

تكرمت الليسيه ووافقت على التحاقى بالصف الأول الابتدائى، فى ذلك الحين كان هناك منهج دراسى ثنائى اللغة. فمنذ الحرب أصبح تعلم اللغة العربية شيئا هاما، وكان مطلوبًا من الأطفال الصغار إجادتها. كانت المشكلة أننى ميئوس منى فى تعلم اللغة العربية. لم أكن حتى أستطيع تذكر الأناشيد العربية البسيطة التى يتكون منها معظم المنهج الدراسى.

بدأت تقارير مدرستى للغة العربية تتوالى على المنزل، أشارت فيها إلى عدم قدرتى على فهم الكثير من الكلمات العربية وأن نطقى لها به عيب ميئوس منه، وأننى لا أستطيع أن ألفظ حتى التحية البسيطة أو أتابع الغناء مع باقى التلاميذ فى الصف.

وضع رسوبى فى اللغة العربية فى الصف الأول عائلتى فى مأزق.

لقد قامت أمى بمهمة رائعة بتعليمى اللغة الفرنسية مستخدمة مهارتها التى اكتسبتها من العمل فى مدرسة قطاوى. ورغم أنى ولدت بالقاهرة فإننى كنت أتكلم كواحدة من بنات «المحتلين» الذين كانوا يفرون من مصر وكانت عائلتى قد منحتنى لقب «خواجاية»، لأنى كنت أتحدث العربية بطريقة متلعثمة، متكلفة ومترددة كما لو كنت فتاة أجنبية.

كانت مدرستى للغة العربية صادقة، حتى أنها تحيرت ماذا يمكنها أن تفعل معى، وحملت عائلتى تلك المسئولية، محذرة إياها من رسوبى فى الامتحان.

كانت تلك أول أزمة من الأزمات العديدة التى تتعلق بهويتى. كنت فى مصر أجنبية لعدم قدرتى على تحدث العربية وفى فرنسا حيث أقمنا مؤقتا لفترة وجيزة، ورغم

* طريقة فى الرسم تقوم على نشر الألوان بالأصابع على ورق رطب.

طلاقتى فى التحدث بالفرنسية، كنت أيضا أجنبية لأنى مصرية، وفى أمريكا مازلت أجنبية لأنى قادمة من القاهرة وباريس.

بدا أن ذلك هو قدرى المحتوم، أن أكون دائما أجنبية بصرف النظر عن أى مكان من العالم أقطن.

كان أبى –من بين كل أفراد عائلتى– الأكثر قلقًا. فالعربية هى لغته الأولى؛ لم يكن يصدق أو يدور بخلده فكرة أن واحدة من أبنائه لا تجيدها.

قرر أبى أن يمسك الخيوط كلها بيديه. كان يدعونى لحجرته كل يوم بعد عودتى من المدرسة ليقوم بمهام المدرس الخصوصى. كان دائما ما يجلس فى مضجعه يصلى أو يقرأ الجرائد وكنت أتسلق الفراش وأجلس بجواره، أسند ظهرى إلى مجموعة من وسائد الريش كبيرة الحجم كما يفعل هو، وكان على فى بداية كل درس أن أقوم بتعريف نفسى.

«اسمى لولو» تعلمت أن أنطق اسمى بالعربية.

كان من عادته أن يتناول كتبى المدرسية بين يديه ثم يبدأ التدريب. لاحظت أنه يحمل تلك الكتب بعناية واحترام كما يفعل بكتاب صلواته الأحمر الأثير لديه.

كان يشير لكلمات معينة ويطلب منى قراءتها بصوت عال، ثم يقوم برقة بتصحيح أخطائى ويطلب منى أن أردد خلفه ما يقول. كان من ألطف المدرسين وأكثرهم تركيزا. بعكس أمى، لم يكن يغضب أو يضيق إذا ارتكبت خطأ ما. كان يبدو أن لديه من الصبر ما لا حدود له. مهما تكررت أخطائى، كان ببساطة يومئ برأسه ويستمر. ودائما ما كنت أحصل على قطع من البونبون من المخبأ الموجود بجوار فراشه الذى بدا أنه ممتلئ على الدوام ولا يفرغ أبدا.

كانت أفضل أوقاتى حين نضع الكتب جانبا، ونقوم بمزيد من التدريبات العملية. رغب أبى أن أعرف أسماء كل ما هو موجود بحجرة نومه أو حتى بعض ما يظهر فجأة مثل «بُسْبُس» «قطة»otah* كان يقولها مشيرا للقطة، التى كانت تتجول بحثًا عن طعام لا درس خصوصى.

«قطة» رددت وراء أبى، رافعة إياها إلى الفراش لتنضم إلينا. كنت أريد أن تذاكر «بسبس» اللغة العربية أيضا؛ وقد أكد والدى على أنها فكرة جيدة.

فى البداية فقط بدا أن بسبس قد التبس الأمر عليها إلى حد ما.

---

* هكذا تنطق فى العامية المصرية.

كان من السهل على تعلم كلمة قطة وكذلك كلمة حلوة تعلمت أن أقول لبسبس إنها جميلة جدا «قطة حلوة». قدم لها أبى قطعة من الجبن، أحد أفضل وجباتها الخفيفة. تناولتها ببراثنها بنعومة، ولكن كان السماح لها بتناولها مشروطا بأن أظهر لهما أننى أجدت نطق كلمة «جبن».

كانت بسبس تطلع إلى متلهفة، بينما أجهد عقلى لأتذكر.

«جبنة»، أخيرا صحت بها. ضحك أبى، وجذبت القطة قطعت الجبن وأتت عليها، ثم وقفت منتصبة منتظرة لمزيد من دروس اللغة العربية اللذيذة.

حين يكون مزاج أبى رائقًا كان يعلمنى الكلمة السهلة «سردين» وكان ذلك سهلًا جدًا على، إذ إن كلمة سردين بالعربية كانت هى نفسها بالفرنسية sardines ولكن ليكون متأكدا من أننى تحققت تماما من معرفة الكلمة عن ظهر قلب، علمنى أن أقول كلمة «سمك» بدلا من سردين. كنت أقولها لبسبس، وأنا ممسكة بيدى سردينة، وأرفعها لأعلى على نحو يمكنها من الوصول إليه ولكنى لا أدعها تفعل.

كنت أريدها أن تتعلم هى أيضا الكلمة. «سمك» أخذت أكرر بشدة حتى أن القطة طرفت بعينيها، كما لو أنها وجدت أن اللغة العربية مربكة. وكان أبى يهدئ من روعها بمنحها سردينة أخرى غير مقيدة بشرط.

لم أتمن مدرسًا أكثر مما كان عليه أبى من الرقة والخُلُق والإبداع. ورغم أنه كان معروفا بالقسوة والصرامة، فإنه لم يكن كذلك معى ونحن نجلس جنبا إلى جنب، يوما بعد يوم، كنت أتدرب على كلمات عشوائية وعبارات مما يخطر بباله: السيارات المارة على طول شارع الملكة نازلى، الممرات الضيقة المملوءة بالحياة التى نطل عليها من جانب منزلنا، البنات الجميلات اللاتى يمررن بنا فى طريقهن مبتسمات، وكل صفة أو نعت يتعلق بقطتى، من أول درجات لون فروتها المتعددة الألوان حتى شغفها الدائم بقطعة الجبن المالحة الصلبة.

اعتبر أخواى أن ما يفعله أبى هو مزحة كبيرة لاعتقادهم بأنه ميئوس من أمرى، وأن ما يفعله أبى ما هو إلا مضيعة لوقته. فاللغة العربية تتطلب حنجرة قوية لنطق حرف الحاء. كان ثمة نتائج مضحكة وأخرى محرجة. الكلمة المقابلة للشارع هى حارة*، تنطق الحاء بخشونة مشددة. ولكنى كنت أنطقها خارة khara ومعناها بالعربية براز.

* من الواضح أن الأمر اختلط على الكاتبة فحارة لا يقابلها street بالإنجليزية.

ظللت أتعثر فى نطق أبسط الكلمات وفى أصوات الحروف الهجائية، وكان أخواى يضحكان ويضحكان.

كان أبى يبرز كالمدافع المخلص ليدفعهم عنى آمرًا إياهم بمغادرة الحجرة، ثم بهدوء يستأنف دروس اللغة العربية، لم يكن يسمح بحضور أحد غير بسبس.

«مجرم» هكذا كان أبى يصرخ خلفهم ثم يتبعها بقوله «ابن كلب».

كان يسعدنى أن أكرر هذين المصطلحين باللغة العربية وأصيح بهما. فكان أبى ينهرنى بحزم بالفرنسية: "loulou non" لا يا لولو.

بدأ أبى حملة دولية للحصول على رأى ثان فيما يتعلق بحالته، ثم رأى ثالث ورابع وخامس. سعى للحصول على آراء المتخصصين فى كل مكان من إنجلترا وفرنسا وحتى أمريكا وإيطاليا. كان يبعث بخطابات لأشهر أطباء العالم يطلب فيها بكياسة نصيحة الخبير الطبية.

لم يختر أبى سوى ألمع الأطباء على مستوى العالم. فكان منهم طبيب بريطانى حاصل على درجة فارس، ومدير لمصحة تقويم الأعضاء فى ميلانو؛ وكان منهم أشهر مدير لمؤسسة علاجية ببولونيا. أمَلَ أبى فى أن يتصل بالمتخصصين الأمريكان فأرسل نسخا من الأشعات القديمة لابن العم إدوارد الذى كان قد غادر مصر بعد ختان ابنه بوقت قصير، واستقر فى سان دييجو مع زوجته وطفله.

تأكد إيمان أبى وثقته بالإنجليزعندما تلقى الرد الفورى المهذب من السير ريجينال سن– جونز بلندن. فقد طلب السير أن يفحص أبى بنفسه ودعاه للحضور فورا لإنجلترا حيث «سأبذل قصارى جهدى لمساعدتك»، كما أنه نوه باعتقاده بضرورة الجراحة التى لا يمكن إغفالها: « بكل تأكيد يجب إزالة المسمار».

جند أبى لمساعدته سالومون ابن أخته الذى يعيش بميلانو، كان سالمون قد غادر القاهرة سنة ١٩٤٩ عائدا إلى إيطاليا حيث شرع فى بحث محموم لمعرفة ما جرى من أحداث فى الأيام الأخيرة لأبويه وأخته الصغيرة. تزوج من امرأة أمريكية –كانت هى أيضا من أصول حلبية يهودية– ولكنه أصر على أن يصطحبها معه لميلانو ليعيشا معًا. كان سالومون لايزال ممتنا لفضل ظريفة وليون عليه وللسنوات التى عاشها فى المنزل بشارع الملكة نازلى، كان سالومون يذكر أبى كل ليلة حين يؤدى فى حجرته صلاته الليلية وهى العادة التى كان قد اكتسبها من أبى. لذا لم يكن ليتردد فى تلبية أى طلب

له. فإذا طلب منه الخال ليون أن يحمل صور أشعة إكس الكبيرة وتقارير الأطباء وأن يطوف بها على مختلف المتخصصين فى أنحاء أوروبا فإنه سوف يفعل. لقد قبل بكل سرور الطرد المحتوى على صور الأشعة الشفافة بالأبيض والأسود التى تظهر عظام الحوض وعظمة الفخذ وأجزاء المسمار المكسورة ومعها التقارير الطبية.

كان الحكم واحدا فى كل مكان: أبى بكل تأكيد يحتاج لإجراء جراحة أخرى لعلاج مشكلات الجراحة الأولى، ولإخراج المسمار المكسور المسبب للألم الذى يزيد من خطر المضاعفات. ومع ذلك كان الأطباء فى أوروبا متفائلين إذ بإمكانه استرداد عافيته وعودته للمشى بصورة طبيعية مرة أخرى.

كان أبى—الذى روعته الدقات الثقيلة المتتالية للمطرقة التى دفعت المسمار فى فخذه وما تلاها من آلام فترة النقاهة— غير مستعد بأن يخطو تلك الخطوة ويجرى الجراحة ولا حتى مع أمثال السير ريجينال سن جونز، أو نظيره البارز البروفيسور أنطونيو بولى من مؤسسة جيوتانو بينى بميلانو ولا حتى البروفيسور المميز سكاجليتى من مؤسسة أورتوبيديكو ريزولى ببولونيا

من مكانه العالى بجوار النافذة المطلة على شارع الملكة نازلى، واصل أبى مراسلات حملته. فاندفع بقوة ونشاط فى الكتابة للمزيد من الخبراء فى كل مركز علاجى شهير مهما بعدت مسافته، آملًا فى الحصول على الرأى الثامن والتاسع أو العاشر الأقرب لرأيه: وجهة نظر لا تصر على جراحة أخرى.

لكنه لم يقم أبدا بإعداد أية ترتيبات للسفر، ولم تكن لديه خطة واقعية للسفر لرؤية أى من هؤلاء الأطباء المشاهير. ورغم أن خروج اليهود من مصر كان لايزال مستمرا، ورغم أن أبى كان لديه الآن أكبر دافع للرحيل، حيث إمكانية الحصول على رعاية صحية أكثر فعالية غير متاحة فى القاهرة فإنه لم يجد فى نفسه القدرة على التخلى عن مصر. وبدلًا من ذلك كان يأمل أن صرخاته وصلاته تجدى بشكل أو آخر فى تخفيف آلام ساقه وآلام التحرك الضرورى.

فى سان دييجو، انتابت ابن عمى إدوارد الهواجس بشأن خطاب أبى. فقد رصد فى تلك الخطابات يأسا، بل فقدان أمل. خصلتان لم يرهما من قبل فى أبى، إذ كان يراه من بعيد، طويلا، واثقا من نفسه، شخصا كما فى الأحلام، يمشى فى بدلته البيضاء الشركسكين بخطى نشيطة واثقة فى أرجاء طرق القاهرة.

الفصل التاسع

النداء الحزين لبائع الورد

كنت جالسة وبسبس بين ذراعى فى مكانى العالى المفضل بالشرفة –حيث يمكننى مراقبة كل ما يجرى فى الزقاق المجاور لمنزلنا– عندما صاحت أمى «لولو ابتعدى عن الشرفة» loulou، eloigne toi du balcon

كانت أمى تفضل أن أجلس بجوار أبى فى نافذة حجرته، وكانت تسألنى مستنكرة تصرفى "أليس النظر إلى شارع الملكة نازلى الجميل أكثر متعة من الحملقة فى زقاق صغير جانبى ملىء بأولاد ومارة فقراء قذرين؟"

لم تفهم أمى سر افتتانى بالزقاق!

كان أبى وحده هو من يعرف تمامًا أن شارع الملكة نازلى الغنى بالصور الحية وحركة المرور السريعة والمارة الذين لا ينقطع سيرهم، يجذبنى أكثر من أى شىء آخر، لذا كان مترفقًا بى وهو يحاول إقناعى بالعودة لمزيد من الوجبات الخفيفة المصاحبة لدروس اللغة العربية.

نعم كنت أحب شارع الملكة نازلى وأفضله ولكن استمتاعى بما يدور فى الزقاق لم يكن يعادله أية متعة أخرى.

كنت أنا وبسبس فى كل صباح نطل من تلك الشرفة على ذلك السيل المنهمر من الباعة الجائلين، الذين يقومون بجر عربات يدوية تتكدس بالمحاصيل الطازجة. كان

هؤلاء الباعة دائمى الوجود بالجوار منذ أيام جدتى ظريفة، ينادون على بضاعتهم من خضر أو فاكهة، عنب، تين، فاصوليا خضراء، برتقال، كرفس، بامية، طماطم، جبال من البطاطس، المشمش الحلو المذاق الزكى الرائحة.

كان معظم هؤلاء الباعة من الفلاحين المصريين الفقراء، وكان ما تحويه هذه العربات هو كل رأسمالهم، وكانت القروش القليلة التى كانوا يتكسبونها من بيعهم هى مصدر دخلهم الرئيسى.

أما الذين لا يملكون ثمن العربة اليدوية أو أجرة النقل فقد كانوا يحملون بضاعتهم فى سلال كبيرة من الخوص يضعونها فوق رؤوسهم.

كانت أصوات الباعة ترتفع بالغناء معلنة عن حضورهم وعما يحملون من بضائع: سمك –طازج من النيل– مثلا أو ورق عنب أو بقدونس أو أوراق(بتلات) الورد الأبيض ذات الرائحة العطرة التى كنت أفضلها على ما عداها.

صرت مهووسة بمراقبتهم وكنت أتعجب من قدرتهم على السير بتلك الرشاقة وهم يحملون تلك السلال الضخمة، وكانت المسألة التى تشغل بالى هى كيف يحمون أوراق الورد من التناثر على قارعة الطريق، وظل هذا الموضوع مسيطرًا على تفكيرى حتى تبين لى أنهم يغطون أوراق الورد بقطعة عريضة من القماش الأبيض المندى بالماء، وذلك للحفاظ على نضارة أوراق الورد وحتى لا تذروها الرياح.

كان ورق الورد يباع بالكيلة التى كان ثمنها مليمين فقط، وكانت له سوق رائجة، إذ كانت ربات البيوت يتهافتن عليه ليصنعن منه مربى الورد، فقد كان صنع تلك المربى أمرًا شائعًا فى ذلك الوقت، كما كان الحال فى زمن جدتى، أو حين كانت عماتى يسكن بجوارنا فى شارع الملكة نازلى، لقد كانت عمتى ريبيكا مشهورة بعمل مربى الورد la confiture de roses ، أما عمتى ليلى فكانت تقوم بتقطيره لتحصل على ماء الورد الذى كانت تعتبره من العناصر اللازمة لعمل المخبوزات، وكان كل ما تصنعه من حلويات وفطائر يفوح برائحة الورد، وقد كان شائعًا أن أجود أوراق الورد هى تلك التى تباع خلال شهر واحد من السنة وذلك حين يكون لونها أبيض مرمريًا.

فى موسم الورد، كان الباعة يبدأون يومهم بالطواف فى الطرقات وهم يغنون «الورد، الورد، يا ورد مين يشتريك» بصوت عال حاد ثاقب للآذان، ليضمنوا وصول أصواتهم لقاطنى الأدوار العليا من البنايات إذا ما أطل أحدهم برأسه من النافذة وأشار

للبائع بالصعود يقوم البائع بصعود السلالم بجهد جهيد وهو يحمل سلته التى تفيض.بما فيها ومعه ميزانه الصغير لم يكن بائع الورد يبيع الورود بتمامها، وإنما يبيع أوراقها (بتلاتها) فحسب.

فى بعض الأحيان، كانوا يعرضون رؤوس الأزهار دون سيقانها، الأوراق وتيجانها فحسب، تلك التى تؤخذ لتقطف ليبقى عطرها الفواح بالمنزل.

كان الباعة يغيبون عن ناظرى فى زحمة الزقاق بعد الانتهاء من البيع بينما صدى غناءهم «الورد الورد» يظل يتردد فى أذنى حتى بعد رحيلهم.

ظل الزقاق يشغلنى ويستحوذ على اهتمامى حتى فى غير موسم الورد، فقد كانت الأحداث التى تتكون تدريجيًا أمامى وأنا أطل من الشرفة هى فرجتى المفضلة.

كان الزقاق أسفل منزلنا هو المكان المناسب لإقامة حفلات الزفاف وتلقى واجبات العزاء، حيث كان يستلزم ذلك بعض الاستعدادات والترتيبات كنصب الخيام (الصوان) الذى كان يقوم به رجال يرتدون ثيابًا بيضاء متهدلة (جلاليب)، وقد كنت أراقبهم وهم يعلقون المصابيح ويبسطون السجاجيد ويشرعون فى عملهم هذا منذ الصباح الباكر.

كانت بسبس رفيقتى الدائمة تجلس مستسلمة بين ذراعى على درابزين الشرفة إذ كانت تعرف بغريزتها أنها إذا ما سمحت لى بحملها فسوف تحظى بألوان الطعام التى تفضلها: جبن، قطع من الخبز، دجاج أو سردين وأى طعام يتبقى من وجبات المنزل.

وأستطيع أن آخذه من المطبخ، وفى حين كنت أربت عليها لأبقيها ساكنة كنا معا نرقب ما يدور من أحداث فى الزقاق، فقد أسرت بسبس مثلما أسرتنى تمامًا تلك الحركة الدائرة أسفل المنزل.

كنت أشاهد -مبهورة- ما يقوم به أولئك الرجال الغرباء عن الحى كل يومين تقريبًا، عندما ينصبون خيمة كبيرة، ثم ينقلون عشرات المقاعد الخشبية المطوية إلى الداخل فيفردونها، ثم يشرعون بعد ذلك فى مد السجاجيد على الأرض بعناية.

وما إن ينتهى دورهم فى نصب الخيمة، حتى يأتى دورى فى أن أحزر الغرض الذى نصبت تلك الخيمة من أجله، فكنت إذا سمعت أصوات الموسيقى الصادرة من فرقة موسيقية، أو أصوات أناس تصفق ونساء يزغردن أيقنت أن هناك احتفالًا مبهجًا يكون فى الغالب حفل زفاف أو خطوبة.

ولكن فى أحـوال كثيرة كنت أرى رجـالا تكسو وجوههم الكآبة يدخلون ويخرجون و ليست هناك أصوات لموسيقى على الإطلاق ـ فقط صرخات عالية تهتك ستر الليل وتمزق وضح النهار، تنطلق من حناجر نادبات يصبغن وجوههن بلون النيلة فأعرف على الفور أن هناك ميتا.

لم يكن مسموحًا لى بالاقتراب من أية جنازة، حتى لو كانت جنازة لقريب، فما بالك بجنازة غريب، فحين تبدأ الترتيبات لأية جنازة فى الزقاق يبدأ أبواى فى التدخل وتأمرنى أمى بمغادرة الشرفة فورًا، كما لو أنه كان لازمًا إبعادى عن الموت مهما تكلف الأمر.

ذات صباح، لاحظت أن جيراناً جدداً قد انتقلوا للسكنى فى شقة بالدور الأرضى بالعمارة التى تقع مباشرة على الجانب الآخر من الزقاق، كانا زوجين مسلمين حديثى الزواج، وكان باديا أن كليهما يحب الآخر حبًا شديدًا، كان الزوج رجلًا لا يميزه سوى وجهه العابس، أما العروس -التى عقدت على الفور صداقة معى- فقد كانت جميلة جدًا، لها شعر طويل أسود فاحم وعينان سوداوان، وكانت لها ابتسامة مرحة مبهجة، كانت تفتح شيشها كل يوم وتقف فى الشرفة وتلوح بالتحية مشيرة إلى بسبس، فأحرك يدى ردًا على تحيتها رافعة القطة إلى أعلى بين ذراعى، وقد حدث أخيرًا، وبعد عدة أسابيع من الإشارات والأحاديث عالية الصوت عبر الزقاق، أن أشارت إلى بالمرور عليها لزيارتها.

أسرعت إلى أبى وأخبرته عن صديقتى الكبيرة وسألته هل يمكن أن نقوم بزيارتها؟

لاح السرور على وجهه، رد قائلا نعم، بالطبع؛ فقد لاحظ هو أيضا جارتنا الجديدة من نافذة حجرته وسره أن يصطحبنى لزيارتها.

فى عصر ذلك اليوم، جازفنا أنا وليون وذهبنا إلى بائع الورد القريب ولأنه كان غير واثق من قدرته على السير، فقد سرنا على مهل واشترينا باقة ضخمة من الورود والقرنفل فى أوج تفتحها، وسمح لى أبى بحملها لشقة المرأة الصغيرة وراقبنى مبتسمًا وأنا أقدمها لها.

ألجمت الدهشة جارتى وأصابها الارتباك من حجم باقة الورد.

ما اسمك؟ ألقت سؤالها هذا وهى تتناول منى باقة الورود، ذلك أننا رغم كل تلك الأسابيع من الصيـاح و الإشارات عبر الزقاق لم نتعارف بأسمائنا.

رددت: «لولو».

كان اسمى هو الكلمة الوحيدة التى نطقت بها فى الحديث الذى كان صامتًا حتى الآن.

قالت لى إن مشاعرها قد اهتزت لقيام طفلة مثلى بتقديم تلك الهدية الجميلة لها، ودعتنا كلينا للدخول والجلوس بحجرة المعيشة.

كانت حجرة المعيشة أصغر كثيرًا من حجرة معيشتنا، وكان الأثاث فيها بسيطًا ومن الطراز الحديث وليس الطراز القديم الثقيل للأرائك والموائد التى فى بيتنا.

حين رأيت جارتنا وجهًا لوجه وجدت أنها أجمل بكثير مما كنت أراها عليه عبر الزقاق، كانت شديدة النحافة، ينسدل شعرها على كتفيها حتى وسطها تقريبًا، كانت باسمة الثغر دائمة الضحك وقد دار الحديث بحرارة اللغة العامية وكان معظمه مع أبى.

كان واضحا أنه مفتون بها.

لقد كان بإمكانى دائما أن أعرف متى يطرى أبى امرأة ويكون له رأى حسن فيها، أبى لم يكن يستحسن غير المرأة الجذابة الفاتنة، كان يؤمن أن الجمال هو الصفة الوحيدة الضرورية للمرأة، بل هى أهم من الثروة ومن المكانة الاجتماعية ومن أصل عائلتها، وبالتأكيد من التعليم، كانت تلك آراءه التى لا يحيد عنها، وقد كان حريًا بى أن أسأله عن سبب اهتمامه بإعطائى دروسًا فى اللغة العربية، وإصراره على مذاكرتى لها.

فجأة انتفضت مضيفتنا من مكانها، واندفعت هنا وهناك فى أرجاء المنزل، تبحث عن مزهرية كبيرة الحجم تناسب باقة الورود الضخمة، ولقد انقضى معظم وقت الزيارة فى مراقبتنا لها وهى تركض من حجرة لأخرى، و لم نلمح زوجها بالمنزل خلال تلك الزيارة.

كانت تبدو قلقة للغاية، وجال بخاطرى أن السبب هو الزهور، لكن لم يخطر ببالى أن وجود أبى هو الذى أثار أعصابها ظلت تنظر لباقة الزهور الكثيفة، ترفعها قبالة المزهرية الصغيرة التى بيدها، ثم تنزلها مرة أخرى، فى النهاية قررت أن تقسم باقة الورود على عدة أوعية، وقد طلبت مساعدتى فى البحث عن زجاجات كوكاكولا فارغة أو قدور فخارية أو كئوس طويلة، أى شىء فى المطبخ حتى انتهت من وضع كل الورود فى الماء، وتوزيعها هنا وهناك، فى أركان مختلفة من أنحاء البيت.

وفى لفتة دالة على كرم وحسن ضيافة المصريين، أحضرت العروس الشابة طبقًا كبيرًا من الكنافة والغُرَيبة التى كان فى منتصف كل قطعة منها حبة واحدة من الفستق

الأخضر، وقد رأت العروس أن تقدم الحلوى لى أولا قبل أن تقدمها لأبى، واتبعت نفس الأسلوب فى الحديث فكانت أثناءه، تتوجه إلى محاولة إغرائى بالمشاركة فى الحوار الدائر، كما لو كانت تؤكد على أننى ضيفتها الأساسية فقبل كل شىء كنت أنا من أحضرت الورود.

وقد أخبرتنى أنها حين ترزق بطفلة سوف تطلق عليها اسم «لولو» تيمنًا باسمى. «حتى لو كان صبيًا فسوف يحظى بنفس الاسم، لولو». كانت تضحك، وأضافت معقبة مع غمزة من عينها «حينئذ سيكون هناك شخص تلعبين معه غير القطة».

بعد تلك الزيارة بشهرين، سمعت صراخًا يتردد فى الفناء، ركضت إلى الشرفة، فرأيت رجالًا مسنين عابسين يشرعون فى نصب خيمة جديدة، ويمدون سجاجيد لونها أحمر قان على الأرض، كنت أسمع عويلًا ونحيبًا طوال النهار والليل، كانت النادبات بالخارج يندبن بكل قوتهن، على الفور أمرتنى أمى بمغادرة النافذة. «لولو» قالتها لى بطريقة صارمة ثم أخذت تردد «ابتعدى عن النافذة فورًا، ليس هناك ما يسترعى النظر» eloigne- toi de la fenetre tout de suite Il n'y a rien a voir.

أطعتها هذه المرة، وذهبت إلى ركن بحجرة الطعام وجلست على سجادتها الفارسية، وبدأت أنتحب كما تفعل النادبات، وظللت أبكى بشدة، وقد شاركتنى «بسبس» بكائى بحركة تفيض رقة وحنانًا جعلتها أثيرة عندى للأبد، إذ شرعت تلعق دموعى بلسانها، وقد كان لسانها الصغير يتحرك بسرعة على وجنتى.

كانت صديقتى، العروس الشابة، هى التى توفاها الله، لم تفتح النوافذ عبر الزقاق بعد ذلك أبدًا و لم أفهم ماذا حدث؟! و لم يرغب أحد من أفراد عائلتى فى إطلاعى على ما حدث، ولا حتى أمى التى كانت بالتأكيد تعرف الكثير ولكنها لا تفشى سرًا، بل ولا حتى والدى الذى أعرب عن صداقته لها يوم أن أحضرنا لها الورود. كطفلة صغيرة، كانت وفاتها تمثل لى أمرًا شديد الغموض، و لم أتوقف عن التفكير فيها، خاصة فى الشهور التى تلت حين وجدت نفسى فجأة مريضة بمرض محير. كانت معركتى القصيرة، قد جعلت الهواجس تنتابنى أكثر وأكثر وزاد من حدتها فقدانى لصديقتى الجميلة، لقد كنت مشتاقة إليها وللطمأنينة التى كنت أحسها فى وجودها، لابتسامتها وتلويحها بيديها عبر الزقاق.

الفصل العاشر

الشفاء من حمى خدش القطة

قبل أن أبلغ السادسة بقليل، أصابتنى سلسلة من الأعراض المرضية الغامضة التى أربكت كل الوسط الطبى بالقاهرة.

بدأ الأمر بارتفاع طفيف فى درجة الحرارة أَبَى أن يزول، صاحبه تورم غريب بالفخذ ومضاعفات تمثلت فى طفح جلدى وأوجاع بالجسم وقد تسبب ذلك كله فى إحساس شديد بالكسل والميل إلى النوم، مما كان متعارضًا مع طبيعتى كطفلة مغرمة باللعب.

قدم لنا الأصدقاء ومحبو الخير العديد من النصائح، من أول العلاج بالوصفات البلدية التى يتم إعدادها بالمنزل الى آخر ما توصل إليه الطب الحديث

فمثلًا، وصفت لنا خياطة أمى الأثيرة نوعًا من الكمادات توضع على مكان الورم أو الوجع فى ساقى مرة واحدة على الأقل كل ليلة، وذلك بإعداد عجينة دافئة تفوح منها رائحة الخردل والخل ومجموعة من الأعشاب، كنت أضعها على موضع الألم قبل أن أخلد إلى النوم لأطول مدة ممكنة.. لمدة ساعة أو ساعتين وأحيانا كنت لا أستطيع تحملها لفترة أطول فأنتزعها من تلقاء نفسى.

هبط على منزلنا فى شارع الملكة نازلى جمع غفير من الأطباء، قاموا بحقنى بأنواع مختلفة من الأدوية، كما وصفوا أنواعًا لا حصر لها من الأقراص وأدوية الشراب، أختى

سوزيت، التى كانت تأمل أن تصير طبيبة يوما ما، والتى انتهى بها الحال إلى وظيفة مدرسة برياض الأطفال فى مدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق، اقترحت الاستعانة بواحد من أشهر المتخصصين الذين تقع عياداتهم بوسط البلد en ville –وحبذا لو كان أوروبيًا– فلم يلق أى من الأطباء الذين استدعاهم أبواى قبولًا عندها.

أما عبده بواب المنزل السودانى فقد نصحنا ببساطة بالصلاة.

لم تفلح أى من تلك المحاولات على الإطلاق قرر أبى –الذى أصبح محنكا لطول علله– أن يتولى أمرى بنفسه، فقمنا معًا أنا وهو بالعديد من الزيارات لكبار الأطباء، كنا ننتقل من واحد لآخر لثالث فى بحث مستمر عن إجابة لعلة مرضى.

كان معظم هؤلاء الأطباء من الذين أشرفوا على علاجه لسنوات وكانوا على معرفة طيبة به، فمنذ حادثة سقوطه بعد ميلادى بقليل، تحمل أبى آلاما مبرحة متكررة فى منطقة الكسر بساقه وفخذه كانت تسبب له إزعاجًا شديدًا، وذلك لرفضه إجراء جراحة لإزالة المسمار المكسور، فكان يعانى من عرج ملحوظ

كنا نسير معًا فى جولاتنا على المتخصصين من الأطباء، شخصان يشكلان منظرا غاية فى الغرابة، رجل راق أنيق يتميز بطول القامة له شعر أبيض فضى، ساقه اليمنى بها درجة من الإعاقة، يسير يدًا فى يد مع طفلة شديدة الصغر ذات شعر أسود وعينين سوداوين، تمشى هى الأخرى متثاقلة قليلًا على ساقها اليسرى.

فى لقائه مع هؤلاء الصفوة من المتخصصين الذين تقع عياداتهم فى أرقى أحياء المدينة، كان يتصرف على سجيته وكأنه فى بيته، وكان يسأل كلا منهم بمنتهى الأدب وإن غلب عليه التزلف «هل يمكنك فحص ابنتى؟» كما لو كانوا هم الذين يقدمون له معروفًا بوضع ابنته المعتلة تحت أيديهم لفحصها، وكما لو أنه لن يكافئهم على عملهم هذا بدفع مبلغ كبير من المال، من حافظة نقوده سدادًا لفواتيرهم الضخمة.

تملكت الحيرة كل الهيئات الطبية القاهرية، فتحاليل الدم سلبية، وأشعة إكس التى خضع لها كل جزء من جسدى لم تكشف عن شيء غير عادى، وكل أدوية الشرب والأقراص والحقن لم يكن لها أدنى مفعول.

رفض الورم فى ساقى أن يخمد، وظلت الحرارة على حالها تعلو و تهبط فضلًا عما أصابنى من طفح جلدى خفيف، كنت أشعر بإرهاق شديد حتى أنى زهدت فى اللعب إلا مع بسبس، لم يستطع طبيب بعد آخر أن يضع يده على ما أشكو منه، ورغم كل

ذلك فإننى لم أكن أشعر بالخطر أو الانزعاج إلا فيما يخص الإصرار والإلحاح على معرفة حقيقة ما أصابنى.

أخيرًا، اكتشفت أختى طبيبًا معروفًا بمكانته العلمية حتى أنه كان يلقب «البروفيسور».

كانت سوزيت على يقين أن الطريق الذى نسير فيه اتباعا لأوامر الأطباء الذين يستشيرهم أبواى سيودى بنا إلى كارثة، كانت دائما على غير وفاق مع أبى ولديها قناعة تامة بأنه سيخذلنى ويلقى بى إلى التهلكة، وكان اهتمامها بى هو ذريعتها الأخيرة لغضبها من أبى.

كان البروفيسور رجلا ذا شأن، مشهوراً جداً فقليلون هم من لا يعرفونه، كان مرضاه الذين لا يحصى لهم عددٌ ما بين يهود وعرب، فضلًا عما تبقى من المجتمع الأوروبى، يوقرونه ويبجلونه. كانت له عادة غريبة فقد كان دائما يرتدى قفازات قطنية بيضاء – لإخفاء ما تعانيه بشرة يده، ربما من الأكزيما وقد زادت هذه العادة من هالة الغموض والرهبة والقوة المحيطة به، وإلى مزيد من خوفى منه أيضا.

بعد أن فحصنى الطبيب بدقة، خاصة الورم، مال إلى تشخيص حالتى على أنها إصابة بحمى خدش القطة، la maladie des griffes du chat ، جفل أبى –الذى لم تكن المصطلحات الطبية غريبة عليه– عند سماعه لذلك التشخيص وتساءل ما هو بحق السماء مرض خدش القطة هذا ولماذا كل هذا الوقت فى تشخيصه؟

حدثنا الطبيب بوجه صارم عن هذا المرض الغامض، فقال بأن أول من اكتشفه وحدد هويته كان عالمًا فرنسيًا وقد حدث هذا سنة ١٨٠٠، وحتى الآن فإن مرض خدش القطة غير معلوم إلا لقلة لا تزيد على حفنة من الممارسين لمهنة الطب، وأنه لا يوجد أى طبيب – سوى الذين درسوا فى باريس والمراكز العلاجية الأوروبية – يعرف هذا المرض الغامض الذى يبدو أنه قد هاجم جهازى المناعى بالكامل، ويُعتقد أن الحمى سببها خدش أو عضة قط ينتج عنها تهيج مؤلم للغدد الليمفاوية، يعد الأطفال هم الأكثر عرضة للإصابة به، ومما لا شك فيه أن قطتى قامت بخدشى قرب فخذى ونتج عن ذلك كيس بشع أسماه البروفيسور إصابة فى عقدة لمفاوية un ganglion.

لم أفهم الكثير مما قاله الطبيب – لكنى وعيت فقط أنه يلقى باللوم على بسبس، فأنا أقوم بحملها بين ذراعى أغلب الوقت كل اليوم، بسبس التى تشاركنا طعامنا على

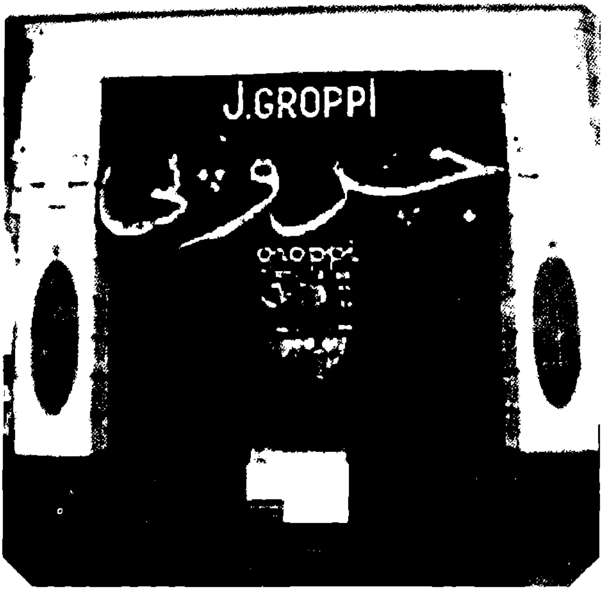

جروبى القاهرة

المائدة فى حجرة الطعام، كيف يمكن لقطتى المدللة بسبس أن تكون السبب فى كم الحقن التى وخزت جسمى، وكميات الدم التى سحبت منى، والجمع الغفير من ذوى المعاطف البيضاء الذين فحصونى!؟ والريبة والخوف والاحتمال أنى مريضة على نحو خطير- هل كان كل ذلك خطأ القطة!!؟

بعد أن شخص الطبيب المرض، بدا غير متأكد تمامًا من العلاج، فقد قال لنا إن حمى خدش القطة مازالت من الناحية الطبية مرضا يكتنفه الغموض وفى الحقيقة هو مرض غير مفهوم، وعبر الطبيب عن أمله أن تشفى الحمى من تلقاء نفسها.

لقد أخبر والدى، فى حين كان يربت على رأسى، غالبًا ما يكون شفاء الأطفال كالسحر، إذ تبدو عليهم أعراض شدة المرض ثم، بين عشية وضحاها، يصبحون أصحاء ثانية صرخ أبى «ربنا كبير»، وهو يقول ذلك دائمًا عندما يداخله الأمل أو الخوف.

لقد أومأ البروفيسور موافقًا، لكن ذلك بدا وكأنه يؤكد رهانه ويطمئننا وهكذا قدم لنل أملًا وكان العرض أن أعاوده مرة أو مرتين فى الشهر كى أكون تحت ملاحظته

ليقرر إذا ما كنت أبدى أيا من علامات التحسن، ابتسم لى البروفيسور وأنا فى طريقى للمغادرة ولكننى لم أبادله الابتسام؛ فقد ظللت أمعن النظر فى قفازه الأبيض.

أصابتنى تلك القفازات بالقلق؛ فكنت أتساءل، ألا يخلعهما أبدًا ؟!، سحبنى أبى من يدى، واعدًا بإحضارى بعد أسبوعين تمامًا، وانطلق بى خارجًا إلى الطريق حيث استدعينا «تاكسى».

بحث أبى فى جيوبه وأخرج منها عددًا من قطع الحلوى فى لفافة فضية جميلة، ثم قال لى «لولو خذى» loulou prend وكانت يده مملوءة ببعض الحلوى (بون بون)، وهو ما اعتقد أنها كانت مكافأتى، لتحملى الفحص القاسى للبروفيسور، كان أبى لا يغادر المنزل أبدًا دون أن تكون جيوبه مملوءة بالحلوى إضافة إلى سجائر لاكى سترايك التى يحتفظ بها فى علبة فضية، ورغم أنه لا يدخنها فإنه يحب أن يقدم السجائر الأمريكية المشهورة لأصدقائه وزملائه فى العمل.

سأل أبى سائق التاكسى أن يذهب بنا إلى أفضل الأماكن وأحبها إلى قلبى: «جروبى». كان يعلم أنها طريقة مؤكدة وفعالة لبعث الفرحة والسرور فى نفسى، تمامًا مثل تبسطه معى، وموافقته على أن أطلب كأسًا من peche melba «مالبا الخوخ». وبينما أجلس مع أبى بين فخامة وأبهة حديقة جروبى المفروشة بالحصباء ألتهم آيس كريم الخوخ المغطى بالكريمة المخفوقة فى الكأس الطويلة، كان كل ما يتعلق بأمر الطبيب ذى القفازات البيضاء قد اختفى تقريبًا من ذهنى.

كان جروبى محل الحلوى الأسطورى الشهير يصارع من أجل البقاء فى عالم ما بعد الاستعمار، حتى بعد أن غادر معظم زبائنه البلاد، كان لا يزال محتفظًا بمحلين فى موقعين مميزين، الأول وهو الأهم والأفضل والأكبر فى ميدان سليمان باشا، والآخر الذى أميل إليه أكثر، فى شارع عدلى باشا، لأن له موائد خارجية أنيقة مرتبة فى الهواء الطلق بالحديقة المفروشة بالحصباء.

جروبى رمز الحقبة الأجنبية استطاع أن يتدبر أمره، وأن يجد صيغة للتعامل مع رجال الثورة، الحكام الجدد، وقد ترددت همسات بأن ناصر والسادات يمران عليه أحيانًا، كل على حدة، أما البقية الباقية من المجتمع المهاجر، القلة المتناثرة من اليهود والفرنسيين والإيطاليين، الذين استطاعوا البقاء بطريقة ما فى البلاد، فقد جعلوا من جروبى مركزًا رئيسيًا غير رسمى لهم.

فهم أبى أن البروفيسور لم يحظ بقبولى وأننى لا أميل إليه ومع ذلك فقد كان مزاجه مرحًا، كان كافيًا لديه أن مرضى صار معروفًا، فقد كان ذلك فى حد ذاته تقدمًا كبيرًا، عاشت عائلتى حياة القلق لعدة شهور، متحيرين عما ألم بى، وقد سمعت أختى بالصدفة تستخدم كلمة «ورم» لوصف النتوء الذى يأبى أن يزول، لم يكن لدى أدنى فكرة عن معنى الكلمة، ولكنى حزرت من طريقة حديثها أنه شىء سيئ، سيئ جدا.

بمجرد عودتنا اندفعت أمى من فورها بالسؤال عن رأى البروفيسور فى حالتى، وعلى الفور صدرت الأوامر: يجب أن أبقى بعيدة عن بسبس قدر الإمكان، قالت أمى معترضة «القطة هى السبب فى ذلك» tout ca، c'est a cause du chat. أخيرًا وجدت أمى سببًا للتعبير عن غضبها، كائن ما تلقى عليه مسئولية مرضى الغريب، كان لدى إحساس قوى بأنها لو استطاعت أن ترفس بسبس وتطردها خارجًا وتحرم على اللعب معها ثانية لفعلت، ومع ذلك استطاعت أن تحصل منى على وعد بعدم احتضان القطة أو حملها هنا وهناك بين ذراعى، كما يحلو لى أن أفعل دائمًا.

أتممت السادسة من عمرى فى خريف سنة ١٩٦٢، وكانت عائلتى موزعة النفس بين أن تترك البلد الذى يسكن أعماق قلبها ولكنه لم يعد يرغب فيها، أو أن تجازف بالبقاء ومكابدة المخاطر مع السلطات.

آثر أبى الذى لم يكن يستوعب أن يعيش خارج مصر البقاء كما هى حاله دائما، كانت صحته معتلة، لا تحتمل رحلة السفر لمسافات طويلة، فضلًا عن أن كل ما يخصه كان موجودًا فى مصر، عمله وأماكن صلواته والمعابد التى يذهب إليها، ورغم أن كل أفراد عائلته الكبيرة، إخوته وأبناؤهم، أخواته وأبناؤهن وغيرهم من الأقارب ممن يتعذر ذكرهم لكثرتهم قد رحل، فإنه كان مايزال لديه أصدقاؤه ومعارفه فى القاهرة.

لكن الأمر كان يزداد صعوبة يومًا بعد يوم، وتتضاعف سطوته على أبى لمحاولاته مقاومة الضغوط الواقعة على كاهله، فقد كانت حشود اليهود تغادر مصر.

لقد كان رحيل اليهود جاريًا على قدم وساق من جميع أرجاء بلدان الشرق الأوسط، من بلاد كان اليهود يعيشون فيها فى انسجام وتناغم مع جيرانهم العرب لأجيال طويلة، لقد اكتشفوا على حين غرة أنه أصبح من المتعذر عليهم الدفاع عن أنفسهم وأحوالهم وأوضاعهم، تشتتت المجتمعات اليهودية وتفرقت واحدًا بعد الآخر، فى ليبيا، الجزائر، اليمن، العراق، تونس، المغرب، لبنان، مصر بالطبع، ولقد

خلفوا من ورائهم معابد، ومدارس، ومستشفيات غاية فى الروعة والفخامة فضلًا عن طريقة معيشة وأسلوب حياة، كان فى كثير من تلك البلاد مبهجًا خاليًا من التعصب.

كانت الحرب العالمية الثانية مازلت عالقة بأذهان الجميع، وكذلك الأخطاء التى ارتكبها يهود ألمانيا وأوروبا بتصميمهم على البقاء، حيث لا يرغب فيهم أحد، فالعالم الذى مازال يعانى من آثار كارثة الهولوكست، كان عازمًا على عدم السماح بوقوع مذبحة أخرى لليهود، بدأت البلاد واحدة بعد الأخرى فى فتح أبوابها لهم، ومنذ أواخر الأربعينيات حتى أوائل الستينيات، كان نحو مليون يهودى شرقى قد تفرقوا فى جهات الأرض الأربع، فالبعض رحل لإسرائيل والبعض لأمريكا، فضلًا عن الذين طاروا إلى إيطاليا وإنجلترا وإسبانيا وفرنسا وحتى أستراليا وأقصى أرجاء أمريكا اللاتينية.

لكن للأسف لم يتمكن أحد من أن يقف فى طريق الهولوكست الثقافى*، فقد أهملت مئات المعابد ثم هُدمت، و نهبت الشواهد الرخامية للمقابر، وافتقدت المتاجر الفاخرة التى كانت مملوكة لليهود اهتمام أصحابها الجدد وعنايتهم بها، وخلت المدارس فجأة من تلاميذها، كنا جميعًا شهودًا على نهاية أسلوب حياة و طريقة معيشة يشعر بها الكثيرون حين يتذكرونها بمزيج من الشوق والمرارة.

حاول بعض اليهود، مثل أبى، البقاء فى بلادهم رافضين أن يُزحزحوا عنها، عاجزين عن تقبل مثل هذه النهاية.

استمرت حياتنا على منوالها المعتاد، لكن تحت هذا المظهر العادى الخادع، كانت مراجل الشك تغلى، إذ لم نكن على يقين من إمكانية بقائنا هنا لشهر أو سنة أو عشر سنين، كان من المفترض أن أبدأ دراستى بالصف الثانى الابتدائى فى مدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق، ومع ذلك لم يسدد أبى المصروفات، لم تكن المسألة متعلقة بقدرته المادية، فقد كان لايزال يملك من الإمكانيات، ما يمكنه من سداد فواتير أشهر الأطباء، وأفضل المطاعم وأفضل المدارس لأبنائه، لكن المستقبل فى تلك الفترة كان غامضا، وكان يحس أن نظام ناصر يضيق عليه الخناق، كان أكثر ما يؤلم أبى هو تجريده من أسهمه الأثيرة لديه فى الشركات، فقد أمم ناصر الشركات الواحدة تلو الأخرى مما ترتب عليه فقدان أبى لما يملك من قيمة أسهمها.

---

* تعنى استئصال مظاهر الوجود اليهودى فى مصر–المراجع.

فى عصر أحد الأيام قال أبى لأمى «لقد فقدنا كل شىء، لم يبق لنا شىء» on a tout perdu، on n'a plus rien، كاد يبكى وهو يتفوه بتلك الكلمات، خاصة أن أمى لم تكن أبدًا توافقه على ولعه بالمضاربة فى البورصة بهذه الطريقة، وكانت تؤمن بأن ثمة مخاطر فى المضاربة بالأسهم، كانت دموع أبى عزيزة وكان من النادر رؤيتها، كان فى حوزة أختى سوزيت عشرون جنيهًا، قدمتها إليه لكنه رفضها.

أرجأ أبى سداد مصروفاتى المدرسية، فلا يعقل أن أبدأ سنة دراسية من الممكن ألا يقدر لى تمامها؟، ونتيجة لذلك كانت ناظرة المدرسة مدركة تمامًا لما تقوم به حين لم تدرج اسمى ضمن تلميذات المدرسة، وقد أزعج هذا التصرف أمى، وأصابها بالضيق إلى حد بعيد، ودون أن تُطلِع أبى على الأمر أخذتنى وعبرنا معًا الطريق إلى جماعة راهبات القلب المقدس -التى كانت واحدة من أكثر المدارس احترامًا فى مصر، وكانت تسمح أحيانًا بالتحاق اليهود بها، وكانت أختى إحدى تلميذاتها- لإجراء مقابلة معى.

عندما علم أبى بالأمر استشاط غضبًا، فقد كان يشعر أن مدرسة القلب المقدس هى التى مهدت الطريق لعصيان سوزيت له و لم يكن مستعدًا للمجازفة بى.

jamais de la vie «أبدا» قالها أبى.

لكن أمى، التى قلما تصر على موقفها، كانت للغرابة عنيدة صلبة، وتمسكت برأيها تلك المرة. فإذا ما كان رافضًا لالتحاقى بمدرسة القلب المقدس فعليه التوجه فورًا إلى مدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق وتسديد مصروفاتى، حتى يسمحوا لى بالانضمام لفصولى الدراسية. فى اليوم التالى، كنت مدرجة مرة أخرى فى الليسيه فرنسيه بباب اللوق، أسير هنا وهناك فى فنائها الواسع مع صديقاتى.

صرف مرضى أنظار الأسرة عن الضغوط الكثيرة التى نواجهها. فرعاية طفلة مريضة، وزوج كهل معتل الجسد، فضلًا عن الحاجة لاتخاذ قرار حاسم بشأن ما إذا كنا سنرحل ومتى، كان لها آثارها السيئة على أمى. فكانت دائمًا دامعة العينين حزينة، متحيرة متسائلة عما سيحدث لنا وعلى وجه الخصوص «لولو المسكينة» pauvre loulou . وهى العبارة التى أخذت تنادينى بها منذ بدايات مرضى بالحمى.

كان ما يغذى لهيب هذا الضغط هو إصرار سوزيت على التخلى عن مصر والرحيل فورًا. فقد غادرت صديقاتها البلاد واحدة تلو الأخرى، وفى هذه الأيام، لم يكن لها أية صديقة لتصطحبها لمشاهدة فيلم سينمائى، أو للقيام بمشتريات فى فترة ما بعد

الظهيرة. لم يبق لها سوى القليل ممن صادقتهن من الفتيات المسلمات. كانت متلهفة على أن تبدأ المرحلة التالية من حياتها. لم تكن عاطفتها تجاه البلاد قوية ثابتة مثلنا فضلًا عن أنها كانت ترى بوضوح الخطر المحدق بنا فى حال رفضنا التزحزح عن مصر، وكانت رؤيتها فى ذلك أكثر وضوحًا من أبى. ومع ذلك لم تستطع إقناعه بتلك الفكرة فقد كان يصم أذنيه عند سماعه هذا الكلام الذى لم يكن يلقى قبولًا لديه.

اعتقد أبى أن الاضطرابات العنيفة التى شاهدناها، ما هى إلا مرحلة وقد مرت بسلام. وأن الوضع السياسى سيستقر حاله كما حدث من قبل مئات من المرات، وستنخفض حدة الانفعال المستعر فى الشوارع، أما هو فسيظل ماكثًا فى مكانه فى ذلك الكرسى، مستمتعًا بالحياة التى تدب فى الشارع الذى يطل عليه من نافذته بالطابق الأرضى من منزله بشارع الملكة نازلى.

كان الهدوء يسود الأسرة عندما تجتمع فحسب لتناقش ما يصنعون بشأنى. فقد كانوا يجتمعون بحجرة الطعام ويتبادلون الحديث، وكأنى لست معهم أو أنى لا أستطيع فهم ما يتحدثون بشأنه، وقد سمعتهم وهم يحللون أعراض مرضى، ويتدارسون احتمالات أن تسوء الحالة.

رغم أن احتكاكى بالقطة بسبس قد قل كثيرًا، فإن حمى خدش القطة كانت على حالها رافضة للرحيل. ورغم قدرتى على الذهاب للمدرسة فإننى كنت أشعر باعتلال صحتى. فقد كانت أعراض تلك الحمى تندلع فجأة ثم تتراجع ثم تندلع ثم تتراجع وهكذا دواليك. كانت ساقى اليسرى لاتزال منتفخة والورم باق على حاله، كبيراً، صلباً، يتوعدنى بالخطر. لقد أصبت بضرب من الحمى لم يفلح الأسبرين فى التخفيف من حدتها. كنت أعاود البروفيسور لمراجعته، أو كان هو يمر علينا بمنزلنا بشارع الملكة نازلى. كنت أفزع من فحصه لى، وعلى الأخص قفازا ته البيضاء. رغم لطفه فى بحثه عن علامة لهبوط الورم الغريب وخموده، أو لانخفاض درجة حرارتى. بعد مرور شهرين أفصح عن تحيره وارتباكه، وبأنه ليس لديه ما يقوله أو يفعله بشأنى.

وفى تعبير عن إحباطه وفشل جهوده أمام علتى، اقترح علينا أنه ربما يكون من الأفضل عرضى على المتخصصين فى فرنسا أو أمريكا.

ارتعد أبى عند سماعه ذلك، فالطبيب الذى قدم لنا حافزًا قويًا للبقاء، أورد الآن سبباً ومبرراً أقوى لا يمكن إغفاله للرحيل. عدنا للمنزل وأطلعنا باقى أفراد الأسرة على

تلك الأخبار المثبطة للهمة. فأشهر وأكبر متخصص فى القاهرة يحثنا الآن للبحث عن المساعدة فى أى مكان آخر. فلم يعد لدينا حلول أخرى فى مصر تفى بالغرض.

على مر السنين التى لازم المرض فيها أبى، كان غالبًا ما يقال له بأن الأطباء فى الخارج لديهم من الحلول لحالته أكثر مما فى القاهرة، التى كانت فى صورتها قطعة من باريس، إلا أنها فى كثير من النواحى الأخرى، لا تزال جزءًا من العالم الثالث. فبعد واقعة سقوط أبى فى عام ١٩٥٨، عانى من آلام دائمة. ولكن مع تحسن حالته وقدرته على السيطرة على الألم، الذى كان فى جزء كبير منه يرجع للصبر والأناة اللذين تمتع بهما الحشد الكبير من صفوة أطباء القاهرة ممن مدوا له يد العون والمساعدة، ضعف لديه باعث السعى للحصول على آراء أطباء آخرين كما ضعف أيضا الحافز على الرحيل ومغادرة البلاد.

مع مرضى المحير المربك، عاد صوت فكرة الذهاب للغرب يدوى مرة أخرى فى رأس أبى.

بدأ كل من أبى وأمى يحلم بذلك الطبيب الأسطورى الأكثر معرفة من نظرائه القاهريين المحليين. فبكل تأكيد، هناك طبيب قادر على شفائى فى باريس أو ميلانو أو نيويورك.

فى خضم حيرته، تذكر نصيحة بواب منزلنا السودانى بالصلاة وأدرك أن الحل فى الصلاة.

كان والدى يفضل «الكُتاب» ذلك المعبد الصغير الواقع على ناصية الشارع. لسنوات، كان أبى يذهب كل صباح إلى ذلك البناء العائلى البهيج حاملًا معه مواد تموينية، قهوة، شايا، سكرا، يقوم الخادم بتجهيزها للمتعبدين. ويبقى أبى فى مكانه بعد مغادرة الآخرين حتى وقت متأخر من الصباح، ثم يعود أدراجه فى نهاية اليوم لتأدية طقوس المساء. كانت هناك أوقات يقضى فيها الليل كله فى الصلاة والمزاح مع رفاقه، فالكتاب كان شأنًا اجتماعيًا كما كان شأنًا دينيًا، كان قريب الشبه بناد خاص يضع فيه مجموعة من رجال الأعمال الأثرياء الشرقيين الذين يعرفون بعضهم لعقود مخاوفهم وقلقهم جانبًا، ويعملون على التركيز فى الصلاة تمامًا كما ينهمكون فى النميمة.

رغم الدفء والحميمية التى تسود المعبد ، فإنه –وللغرابة– كانت تعمه روح الخيلاء والاهتمام الزائد بالتأنق.

كان أبى قد اتفق مع كبار المترددين على المعبد على أن تكون كامل ثياب المصلين التى يؤدون بها طقوس الصلاة من كل أسبوع بيضاء، كلها بيضاء، حقا، كانوا فى ثيابهم متأنقين كما كان حالهم فى الأربعينيات من الاهتمام بجميع التفاصيل، عندما كان كبار الضباط الإنجليز هم المرجعية فى أناقة الملبس، إلا أن رجال معبد الكتاب ظلوا حتى الآن ورغم رحيل أولئك الضباط، والحالة التى أصبحت عليها مصر من الفقر والحزن فى عهد ما بعد الاستعمار، يحرصون على أن يكون كل ما يرتدونه أبيض حتى الخيوط التى حيكت بها ثيابهم بيضاء، ولشدة بياضها كان لها ظل خفيف عند تعرضها لوهج النور، كانوا يرتدون البياض من قمة رأسهم لأخمص أقدامهم، وكان بعضهم يفضل الأبيض الموشاة حوافه باللون البنى.

غالبًا ما كنت أصاحب أبى فى ذهابه إلى المعبد للصلاة صباح كل سبت، وبينما النساء كن يجلسن فى القسم الخاص بهن، كان مسموحًا لى بالجلوس معه ومع الرجال الآخرين، مما كنت أعتبره تكريمًا رائعًا لى، شرفًا كنت أحاول أن أكون أهلًا له. وبدلًا من اللعب مع الأطفال الآخرين، كنت أتناول كتاب الصلاة العبرى، لم أكن أعرف القراءة، ولكنى كنت أتظاهر بمتابعة الطقس الدينى. وحين يصيبنى الملل، كنت أتجول بالخارج حيث كانت بساتين زهور الياسمين فى أوج تفتحها. لزهور الياسمين عطر قوى جذاب. كنت أقوم بقطف الزهور البيضاء الرقيقة وأصنع منها أكاليل صغيرة أحملها معى إلى الحرم المقدس ومن فورى أعطى كل الرجال من تلك الزهرات المتفتحة حتى يعلقوها فى طيات صدور ستراتهم.

كانت أفضل لحظاتى هى تلك التى يقف فيها الجميع ليتقبل المباركة الكهنوتية.إن هذا الشأن المقدس يستلزم أن يكون من يقوم به كاهنًا، ينحدر من درجة كهنوتية جليلة من درجات الكهان الكبار، حتى يقف أمام الحرم المقدس ويبارك الجمع المحتشد من المصلين. كان كل المتعبدين يقفون ويرفعون شال الصلاة ويلفونه حول رؤوسهم ويغضون من أبصارهم. كان أبى يصر على أن أكون بجانبه إذ يقوم برفع الشال ولفه حول رأسينا معًا مكونًا شكل خيمة. وكان من عادته أن يضع يده على رأسى كما لو كانت يده امتدادًا لمنح البركة من الكاهن.

لم أحس الأمان فى حياتى مثلما كنت أحسه فى تلك اللحظات تحت شال الصلاة الأبيض. لم يكن هناك ما أخاف منه، ولا حتى آلام حمى خدش القطة.

ونظرًا لأن المرض اشتد على، فقد قرر أبى أن يزيد فى كميات المواد التموينية التى يزود بها المعبد. وكان أحب تلك المعابد إلى قلبه، رابطة المحبة والصداقة، الذى أغلقت أبوابه فى سنوات لاحقة، بعد أن غادر معظم أعضائه البلاد متوجهين إلى أمريكا. غير أنه كان هناك ما لا يقل عن ستة معابد لا تزال أبوابها مفتوحة بالجوار. التى تمتد من الكتّاب الموحى بالألفة والدفء إلى معبد حنان الأكثر فخامة وأبهة بسقفه ذى الأقواس وفنائه الواسع.

ذات صباح توجهنا إلى معبد حنان، الذى تضاءل عدد المترددين عليه وعندها سأل أبى الحبر أن يصلى صلاة خاصة من أجلى. وضع الحبر يده على رأسى وبدأ فى تلاوة صلاته ودعائه لله حتى يشفينى ويعافينى من حمى خدش القطة. ثم تناول وعاء فضياً يحوى ماء ورد ذا عبير فواح وقام برشه على وجهى وذراعى.

بدأت أمى بإلحاح من أبى ومنى بالطواف على كل الأماكن المقدسة فى القاهرة، التى عرف عنها وقوع معجزات بها.

بدأ مشوارنا بزيارة معبد بوابات السماء، أهم معبد يهودى فى مصر كلها، الذى تم بناؤه فى القرن التاسع عشر. وتروى الأساطير أن المتبرعين من الأثرياء قاموا بإلقاء عملات ذهبية وفضية نفيسة فى أساس المعبد لجلب الحظ السعيد. وهو المعبد الذى تمت فيه مراسم زواج والدى فى ربيع ١٩٤٣، حيث وقفا عند المذبح الذى نثرت فوقه الورود البيضاء.

أخذتنى أمى من يدى لأصعد معها على نفس السلالم الرخامية التى صعدتها حين كانت عروسًا فى العشرين من عمرها. كانت رقائق التوراة النفيسة تحفظ خلف ستائر من القطيفة، فقامت برفعى إلى الأعلى حتى أتمكن من تقبيل الستار، الذى كان فى ذاته مقدسًا همست فى أذنى "سوف يجلب لك الحظ السعيد"

كانت رحلتنا الثانية إلى معبد "بن عزرا"، المعبد الذى عرف عنه أن العديد من الأنبياء المذكورين فى التوراة قد أقاموا به. أرميا المتشائم النوّاح والمتنبئ بالكوارث المقبلة، الذى دفن تحت أساس المعبد. بينما النبى إيليا، الذى كان من الطهارة والنقاء حتى أن الأسطورة تقول بأن الله لم يحتمل أن يتركه للموت، فأمره بأن يبقى مؤقتًا هنا فى مقامه هذا، لإنجاز العديد من أفعال الخير عبر أرجاء الأرض. يقع معبد بن عزرا فى

القاهرة القديمة، فى أكثر أماكنها قدمًا. صباح أن ذهبنا لزيارته كان المعبد مهجورًا، وكانت مقاعده خالية من المتعبدين.

فى طريقنا للخارج، تركت أمى هدية صغيرة: عبارة عن دورق من السكر الأبيض، وزجاجة من ماء البرتقال ذات الأريج. وفسرت لى أن تلك الهدية إنما هى للنبى إيليا ، لينظر إلى بعين الرحمة ويأتى ليخلصنى من حمى خدش القطة.

فى الجانب الآخر من البناء كانت تقع "جينيزا القاهرة" وهى حجرة ملتصقة بالمعبد تقع على سطحه، يوجد بها ما تخلف من رقع جلد الماعز المليئة بالكتابة وأجزاء من كتب الصلوات التى يرجع بعضها إلى مئات من السنين تم دفنها لأن من المحرمات إلقاء تلك القصاصات الورقية التى كتب عليها اسم الله للتخلص منها. كانت كنوز الجينيزا قد تم نقلها منذ سنوات مبكرة إلى جامعة كمبريدج بإنجلترا حيث عكف الباحثون على دراستها. غير أن أمى كانت تَجِدُّ فى سيرها باتجاه تلك الحجرة فوق السطح طالبة منى أن أصلى، لأنه حتى وإن كان المكان لا يعدو أن يكون قبرًا مهجورًا إلا أنه مكان مقدس يمكن أن تؤدى زيارته لوقوع معجزات.

فى نهاية كل رحلة من تلك الرحلات، كانت أمى تتشاور مع أبى ويتبادلان الرأى فيما قمنا به. كان أبى بالطبع مشغولًا هو الآخر بجهوده التى يسعى من خلالها لتحقيق شفائى، ولكن محاولاته كانت أكثر تعقلًا وحكمة. ففى صباح كل يوم كان يقيم صلاة من أجلى فى الكتاب أو معبد حنان. وفى كل مساء يشعل فتيلة تطفو على سطح كوب زجاجى مملوء بالزيت، وهو يتلو الدعاء ليتحقق لى الشفاء.

الرحلة الأخيرة والأكثر أهمية كانت للحبر موشى rav moshe هيكل المعجزات الكبرى."معبد ميمون" الشافى الأعظم ،كان مبنى المعبد القديم الصغير يقع فى قلب الجيتو اليهودى المترب المعروف باسم "حارة اليهود" لم يكن يسكن بحارة اليهود سوى أفقر أفراد المجتمع اليهودى، أولئك الذين أدار لهم الزمن والمال ظهريهما.

لم يجرؤ أحد منا من قبل أن يجازف بالذهاب إلى هناك. فأثرياء اليهود –الذين يتعدون قدر إمكانهم عن الحى اليهودى– كانوا يؤجرون بيوتًا راقية فى وسط المدينة أو حيث تقيم عائلتى، على طول شارع الملكة نازلى ذى الهواء الطلق ليتجنبوا التعامل قدر المستطاع مع أولئك الذين يسكنون الجيتو اليهودى.

فيما عدا وقت الكوارث والنكبات.

عندئذ فقط يذهب أكثر اليهود القاهريين أناقة إلى الحبر موسى، هيكل المعجزات الكبرى حيث تقول الأسطورة: إن موسى بن ميمون، العالم التلمودى والطبيب الأشهر فى القرن الثانى عشر الذى كان يؤمن بقوة كل من الدواء والسحر، كانت له إنجازات عديدة وأعمال فذة فى إبراء وشفاء المرضى داخل جدران الهيكل. لا أحد على وجه الحقيقة يعرف ماهية تلك الأعمال أو الإنجازات، ولكن فكرة ممارسة موسى بن ميمون لكل من دينه وعلمه داخل هذا الصرح الصغير، كانت كفيلة بجذب الزوار من كل أنحاء الشرق. فقد أصبح هيكل المعجزات هذا هو "لوردز"* بالنسبة لليهودى. كانت الأمهات يجلبن إليه أطفالهن من المرضى والمعاقين، كما كان هناك أطفال يصاحبون أقاربهم المحتضرين، وكان هناك أرامل من الجنسين لا يبرحون المكان لسعيهم الحثيث فى طلب المساعدة.

تبعت أمى فى هبوطها درجات السلم إلى ذلك البناء البارد المظلم الشبيه بالكهف الذى يقع أسفل البناء الرئيسى. ثمة فجوات صغيرة نحتت بصعوبة فى الصخور الرمادية وحوّلت إلى أماكن للنوم، بها فرش رفيعة، وسادات، ملاءات، بطاطين. كانت أشباه الأسرّة تلك جد منخفضة كأنها على الأرض، وكانت الحجرة مظلمة تقريبًا، مع خيوط من أشعة ضوء باهت تتخلل المكان عبر نافذة مربعة صغيرة بلا زجاج يغطيها. كنت أستطيع رؤية أشباح أجسام ممدة داخل تلك الفجوات بعضها لكهول ممددين تمامًا دون حراك وأخرى لأمهات حاضنات لأطفالهن الباكين.

فجأة ظهر من حيث لا أعلم رجل طاعن فى السن فأعطانا كوبًا زجاجيًا مملوءًا بالزيت. زيت موسى بن ميمون، الشافى الأعظم، صانع المعجزات، كان يقول ذلك مشيرًا لبقعة من الأرض، هامسًا بأن إصبع موسى بن ميمون مدفون فى مكان ما أسفل تلك البقعة التى نقف عليها الآن. ونصح الرجل أمى بأن تمسح جسمى كله بنقاط من الزيت المقدس حتى تتحسن حالتى. ثم التفت إلى متسائلا: هل هناك شىء معين تشتكين منه؟

أشارت أمى إلى ساقى وردت بحزن قائلة إنها مريضة بحمى خدش القطة.

Elle a la maladie des griffes du chat.

---

* مدينة جنوب غربى فرنسا كانت قبلة الحجاج المسيحيين من الكاثوليك منذ ١٥٨١ حين أعلنت إحدى الفلاحات الصغيرات أنها رأت السيدة العذراء عدة مرات.

أومأ الرجل برأسه كما لو أنه مرت عليه آلاف من الحالات المشابهة لحالتى، وأن حمى خدش القطة هو مرض معروف له يشاهده كل يوم. وقد نصحها بأن تصب المزيد من الزيت على تلك الساق المصابة ثم جذب صندوق التبرعات. ودون أن تنبس أمى بكلمة فتحت حافظة نقودها وسحبت منها عملات معدنية وورقية، ودستها فى الصندوق الصغير. انحنى الرجل واختفى فى ظلمات سرداب الموتى.

قبضت على يد أمى فى حين كانت تبحث عن تجويف خال. وقد وجدت واحدًا عند الزاوية، فطلبت منى أن أرقد وأخلد إلى النوم. ولكنها قامت أولا بتنفيذ ما سألها الرجل أن تقوم به على أكمل وجه، فمسحت بالزيت على ساقى كلها بينما وهى تتلو صلاة لموسى بن ميمون.

"اصنع معجزة لنا الآن" همست أمى بتلك الكلمات.

وأخذت تتلفت من حولها خلسة مسترقة السمع كأنما موسى بن ميمون الشافى الأكبر سيخرج لها بنفسه من الظلام.

لابد أن الفزع كان باديا على وجهى مما جعلها تعدنى أنها لن تتركنى وحدى وأنها ستجلس إلى جوارى طوال الليل إذا استدعى الأمر، ولكن المهم هو أن أذهب فى النوم. فموسى بن ميمون لن يحضر فى حال يقظتى، ليس بإمكانه صنع معجزاته وأنا أشاهده مفتوحة العينين. ظللت غير قادرة على أن أغلق عينى، ولهذا لجأت أمى لما تلجأ إليه دائمًا معى فى آلاف الليالى بمنزلنا، وذلك أن تقص على قصة من قصص ما قبل النوم. كانت جالسة على حافة فراشى القاسى حين بدأت بالعبارة الشهيرة "يحكى أن "il etait une fois"

يحكى أنه كانت هناك سيدة جميلة رائعة ثرية – صديقة للعائلة – قامت بزيارة كل طبيب فى القاهرة بسبب إصبعها التى تورمت وأصبح لونها أحمر، وكانت شديدة التلوث، حتى أنها أصبحت الآن معرضة للبتر لإصابتها بالغرغرينا وكان كل الأطباء الذين تقع عياداتهم بالقرب من شارع قصر النيل الشهير مصممين على ضرورة إزالة هذه الإصبع على الفور. فى ليلة الجراحة قامت المرأة برحلة من منزلها بالمعادى، وهو من أرقى الأحياء فى كل القاهرة، للمعبد الذى يقع بأفقر أحياء القاهرة. جاءت بمفردها، دون أن تصحبها حاشيتها من الخدم، ورقدت فى فجوة تمامًا كالتى أرقد فيها، دون أى شىء غير بطانية ووسادة بالية. عندما استيقظت المرأة فى الصباح التالى، كانت

إصبعها قد شفيت تمامًا من الالتهاب. لقد جاء موسى بن ميمون وأبرأها تمامًا من المرض فلم تعد بحاجة لجراحة. نفس الشيء سيقع لى، أقسمت أمى، أنه حين يسفر الصباح عن وجهه سأكون قد برئت تمامًا من حمى خدش القطة.

فى رقادى فى تلك الفجوة، كنت أسمع المرضى من الفجوات الأخرى وهم يناشدون الحاخام الشافى المتوفى منذ أمد بعيد أن يأتى ويبرئهم من أمراضهم.

أخيرًا تمكنت من إغلاق عينى. ورغم أن أمى لم تغادر مكانها بجوارى، فإنى ظللت خائفة، خائفة من الكهف، من الآهات والأنات التى تتردد حولى، من أن أترك وحدى هنا إلى الأبد فى الظلام، وأكثر ما كان يخيفنى هو مقابلتى موسى بن ميمون وجهًا لوجه.

تملكتنى الرغبة فى أن أكون مع بسبس فى منزلنا بشارع الملكة نازلى.

لا بد أن النوم قد غلبنى، فعندما استيقظت كان الصباح قد حل. كان ضوء خفيف من أشعة الشمس يتخلل المكان من النافذة الصُغيرة. تأكد لى أن أمى حافظت على وعدها، وظلت جالسة بجوارى طوال الليل فى ذلك الوضع الغريب، الذى لم تكن فيه بالجالسة أو بالراقدة.

خفت وطأة ظلمة الحجرة، وإن دبت فيها الحياة والحركة حيث بدأ الناس يتحركون للخروج. رأيت امرأة تحمل ابنها المريض، وفتاة صغيرة تساعد رجلًا عجوزًا، ربما كان أباها أو جدها فى صعود السلم. لم تصدر عن أى من الموجودين أية أنات أو آهات.

هل تحققت لهم المعجزة!!؟

مرة أخرى ظهر الرجل الذى قدم لنا الزيت ليلة البارحة لكنه فى هذه المرة كان يحمل حوضًا للغسيل مملوءًا بالماء. وقال الرجل إنه يمكن لأمى أن تساعدنى فى الاغتسال بالماء من الزيت المقدس، ومن ثم يمكننا المغادرة. ابتسمت أمى فى حين كانت تصب الماء البارد على كل جسدى وهى على يقين من أننا وجدنا دواء لمرضى الغامض.

الفصل الحادى عشر

الابنة الجامحة

ما من أحد فى منزلنا بشارع الملكة نازلى كان يتصادم مع أبى بشكل متكرر ومرير سوى أختى الكبرى، فرغم أنها شارفت على الثامنة عشرة من عمرها، فإنها ظلت تتميز غيظًا من الظلم الذى لحق بها من إطلاق اسم ظريفة عليها، ورفض أبى حتى الآن مناداتها باسم سوزيت، ذلك الاسم اللطيف الذى سمت به نفسها.

وما زادتها محاولات أبى المتكررة لإخضاعها لسلطته الأبوية إلا عنادًا وتمردًا، فقد أحب أبى دينه ومارس كل الشعائر والتعاليم ليكون يهوديًا حقًا، لكنها كرهت الديانة اليهودية، وبدأت فى مخالفة معتقداتها وتعاليمها واحدة تلو الأخرى.

كان أبى يحن للزمن القديم ويرق لحى غمرة ولحياتنا القديمة المفعمة بالحب والمشاعر الحلوة الأليفة ولشقتنا بالطابق الأرضى؛ بينما هى تموت شوقًا للفرار من شقتنا بشارع الملكة نازلى، إلى تلك الشقق الأنيقة بالأدوار العليا الواقعة فى وسط المدينة.

كان يأمل أن تتزوج سوزيت وتحيا حياة الاستقرار، أما هى فقد أصابها القنوط لتوقفها عن الدراسة، وكانت تأمل أن تكمل دراستها العليا وتلتحق بالجامعة، كان يود أن يقع اختيارها على شاب أنيق لطيف من شباب العائلات التى تربطها بنا الصلات، وكانت هى توبخه وتوبخنا بطريقة ساخرة معلنة عن رغبتها فى الزواج من أشقر ذى عيون زرقاء un blond aux yeus blues.

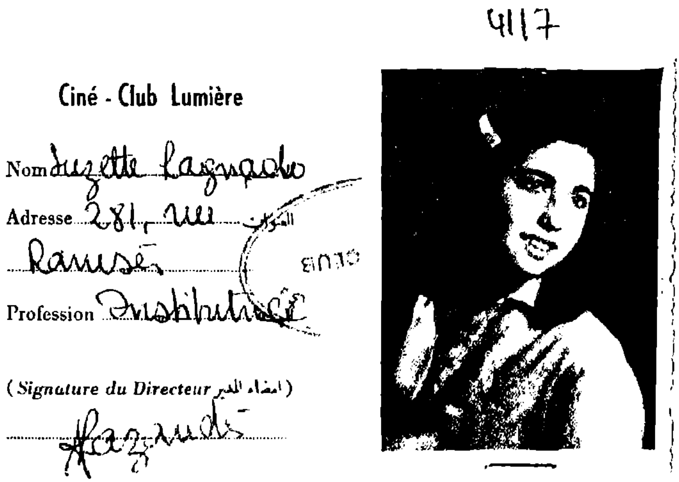

4117

Ciné - Club Lumière

Nom Suzette Lagnado

Adresse 281, rue العنوان

Ramsès

Profession Institutrice

(Signature du Directeur امضاء المدير)

Lagnado

بطاقة عضوية سوزيت لنادى السينما

كانت القاهرة تعج بالأجانب لكنهم كانوا يختلفون عن أجانب الأيام التى ولت من الإنجليز والفرنسيين والبلجيك، لم يجعل ناصر من صداقته بالاتحاد السوفيتى سرًا، فمنذ أزمة قناة السويس، توطدت العلاقات بين الدولتين، وكان ذلك مفسرًا للحضور الروسى والشيوعى المشهود فى أنحاء العاصمة المصرية، فضلًا عن وجود ممثلين لدول أوروبا الشرقية، من ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا.

كان الكثير منهم بيض البشرة من ذوى العيون الزرقاء blond aux yeus bleus ويتمتعون بوسامة وجاذبية لا توصف، كانوا من ذلك الصنف الذى يحظى بإعجاب أختى.

كانت سوزيت تهزأ فى أحيان كثيرة من سلطة أبى على نحو شائن، فكانت تبقى بالخارج لوقت متأخر من الليل، ويزداد تأخرها كلما اتسعت دائرة معارفها، لم يكن أى ممن تعرفهم من اليهود، بالطبع، وهنا كانت نقطة الخلاف.

ظلت أمى معلقة بينهما دون أن تجد من يعينها فى محاولاتها للتخفيف من حدة إرادة زوجها الصلبة أو إخضاع ابنتها التى لم تكن أقل من أبيها عندًا وتصميمًا، أما أنا

فقد شاهدت أمورًا محيرة ومربكة، وعجزت عن فهم سر سرعة اشتعال فتيل الشجار بينهما.

كنت أحب أبى فقد سادت علاقتى به السلام التام والوئام وتوطدت بيننا الرابطة فى شهور ما بعد واقعة سقوطه، حين اجتمعنا معا أنا وهو، رجل فى أواخر الخمسينيات ينظر بعين الرعاية لطفلة، فضلًا عن تلاقى أفكارنا وتشابه أمزجتنا، فما كان يحبه أبى كنت أحبه، المعبد، جروبى، بسبس، اسم لولو، وبالطبع شارع الملكة نازلى.

كان الصدام بينهما فى طريقه لأن يكون صدامًا ملحميًا، ومع ذلك لم نكن جميعًا مستعدين له حين وقع.

ففى ذات ليلة دق جرس الهاتف عند انتصاف الليل، كان المتحدث من الشرطة وقد أصر المتحدث على محادثة أبى، حيث قال له: «لقد تم إلقاء القبض على ابنتك، وعليك التوجه لقسم الشرطة فورًا».

اعتقلت الشرطة أختى المراهقة وزج بها فى السجن، ولم يكن ثمة من يعرف لم وقع لها ذلك، وسرت الشائعات سريان النار فى الهشيم وترددت الأقاويل، قيل إنها كانت فى حفلة مع جواسيس من الروس، قيل إنها ذهبت لمراقصة بحارة من النرويج، وأنها كانت برفقة دبلوماسى من تشيكوسلوفاكيا فى فندق فخم، حيث قامت الشرطة وهى العين الساهرة تحت قيادة النظام الديكتاتورى الجديد، بالإغارة على الفندق.

كانت هناك النظرية الأخرى التى تقول ببساطة بأن أختى المراهقة لم تكن إلا ضحية بريئة، مجرد رهان فى أيدى القوة السياسية الناهضة. ففى قاهرة ١٩٦٢، كانت الاعتقالات شيئا مألوفًا، فقد تشعبت أيادى النظام الناصرى الدكتاتورى القاسية التى لا ترحم، وتوغلت فى كل مكان، وكانت كل الأوهام المتفائلة عن أن النظام الجديد سيكون أكثر تنويرًا من العصر الملكى، قد ذهبت أدراج الرياح.

كانت السلطات متعطشة لإنزال الخوف فى قلوب كل هؤلاء الذين يُسمونهم باستخفاف «بالأجانب»: بقايا الجاليات التى جاءت وعاصرت عهد الاحتلال الإنجليزى، اليهود وغيرهم، باختصار كل من طالت إقامته عن الوقت المتوقع لبقائه موضع الترحيب، كل من ظل مقيمًا فى مصر فى حين كان من المفترض أن يكون قد غادرها.

أصبح لدينا رعب من طرقات الباب فى منتصف الليل. وظلت أمى تسأل أبى فى تلك الليلة وكل ليلة لاحقة «لماذا لم نغادر؟ كان لابد أن نكون قد رحلنا منذ سنوات»، و لم أستطع التوقف عن البكاء.

أبدت أمى استعدادها للذهاب مع أبى لقسم الشرطة، ولكنه هز رأسه بالنفى. وعوضًا عن ذلك قام بالاتصال بأحد أصدقاء الأسرة، رجل أعمال يدعى منصور جاتينو الذى كان يسكن فى أول الشارع، وطلب منه مصاحبته لقسم الشرطة، ورغم أن أبى كان ممن يتمالكون أنفسهم ويتمتع بسلوك هادئ حتى فى أحلك اللحظات وأشد الأزمات، فإننى رأيت أبى فى تلك الليلة كما لم أره من قبل على تلك الصورة من الهياج والغضب.

ظل أبى يضرب الحائط بقبضته، صائحًا بأنه قد حل بنا الخراب والدمار.

ارتدى أبى ثيابه على مهل كما لو كان غير قادر على الحركة، لقد كان فى ثياب النوم حين دق جرس الهاتف، والآن وهو يرتدى بالكاد قميصًا وبنطالًا، بدا كما لو كان يتدبر حاله للوقوف فى وجه التحدى القادم، ثم ألقى على نفسه سترة قديمة نادرًا ما كان يرتديها، ورابطة عنق باهتة اللون، وقبعة من القش أكل عليها الدهر وشرب، ثم نادى مستنجدًا بالبواب الذى كان غارقًا فى النوم بغرفته التى يسكنها فى البدروم، ليستدعى له «تاكسى»، وفى طريقه للخروج جذب العصا الخشبية التى يتوكأ عليها فى سيره والموجودة بجوار الباب، والتى كان قد توقف تقريبًا عن استعمالها وخرج صافقًا الباب خلفه.

ازداد قلق أمى مع كل ساعة تمر علينا، كان أخواى يمشيان بخطوات ثقيلة هنا وهناك، وقد ارتسمت على وجهيهما علامات الحيرة مما حدث، لم يكن أى منهما على وفاق تام مع سوزيت ومع ذلك فقد كان واضحًا أن ما يحدث هو أكثر من مجرد قصاص تستحقه، كان جليا أن الهدف مما يحدث هو أن يغمر الذل العائلة كلها.

لم أستطع النوم فى تلك الليلة نتيجة للضوضاء والارتباك الذى أغرق المنزل، توجهت من حجرة النوم لحجرة المعيشة، حيث كان الجمع فى انتظار الأخبار، أخذت بسبس بقوة بين ذراعى، كان انتباه أمى منصرفًا عنى تماما حتى أنها لم تأمرنى بإنزال القطة، كانت الحمى قد خفت وخمدت منذ ليلة زيارة معبد موسى بن ميمون، إما بسبب تدخله السرى أو بسبب المضادات الحيوية الجديدة التى وصفها البروفيسور.

كان جرس الهاتف يدق من حين لآخر، وقد التقطت أذناى بالصدفة أحاديث متقطعة. كانت أمى تجذب سماعة الهاتف عنوة من أيدى إخوتى، وتبكى بصوت عال غير مصدقة، وهى على شفا هستيريا قائلة: «جواسيس» des espions أو «سويدى» un suedois، وبينما الليل يمر بطيئًا ثقيلًا كان هناك المزيد من المحادثات التليفونية، واستمعت إلى أن أختى متورطة فى علاقات متعددة مع أشخاص من الدنمارك وألمانيا الشرقيـــة وكوبا وبولندا والنرويج وأيضا روسيا، وكانت هناك إشارة إلى وجود علاقات مع جنود وبحارة ودبلوماسيين، بل وشخصيات رسمية حكومية، ومع كل إشاعة جديدة أو مفاجأة كانت أمى تذوب من كثرة دموعها، وأنا أزداد فقط التصاقًا ببسبس، كما لو كانت قطتى سوف تحمينى من الأذى.

أما هناك فى قسم الشرطة بوسط البلد، فقد استحال أبى إلى شخصية مؤثرة على نحو غير عادى، ولافتة للنظر، وقد بدأ هذا التحول مع سحبه لعصاه من مكانها بجوار الباب، كان الفخر والزهو المصاحبان لادعائه أنه ضابط إنجليزى معروف باسم الكابتن قد اختفيا ولم يعد لهما وجود، وبدلًا منهما رأى رجال الشرطة والشرطة العسكرية رجلًا مهذبًا، كهلًا مطأطئ الرأس، سوى السلوك، كانت عيناه الخضراوان مغرورقتين بالدموع، يتوكأ بكل ثقله على عصاه الخشبية البنية اللون بصحبة كهل آخر مهذب ووقور.

انحنى أبى أمام الضباط وسألهم المساعدة لإطلاق سراح ابنته، ولما كان كل شرطى لا يبوح سوى بالقليل من الحقائق التى يعلمها عن وقائع الليلة الفائتة، فقد ظل أبى يدس فى أيديهم بخفة أورقًا نقدية من حافظة نقوده، ومرت الساعات حتى بدأ الفجر يسفر عن وجهه وأبى لمّا يزل مستمرًا فى الانتقال من ضابط لآخر.

كان أبى فى كل مرة يدس فيها يده فى جيبه يخرجها مملوءة ببضع قطع من الحلوى «البون بون» لها نكهة مميزة، نفس النوع الذى اعتاد أن يمنحنى إياه، أو يقدمه لأطفال الجيران أو لسيدة جذابة، وقد تقبل الضباط الحلوى بسرور شديد، وظل أبى مستمرًا فى دس الأوراق النقدية المصحوبة بالحلوى حتى وصل إلى المأمور.

أخيرًا، ظهر مأمور القسم، كان المأمور جنديًا محنكا من المدرسة القديمة، وهو ما اكتشـفه أبى من خلال الحديث الدائر بينهما فهما يتشاركان فى كثير من وجهات النظر ويتحدان فى العديد من الآراء التى من بينها، إدراكهما بأن شباب اليوم ضائع

ميئوس منه، وأن العناية والرعاية التى تحتاجهما تربية الابنة لضمان خضوعها للإشراف الكامل لوالدها، إنما هو عمل مرهق وشاق لأكثر الآباء، وأن تربية الابن هى أفضل بكثير، وتحسرا معًا على حال شباب اليوم.

كان الأمر بالنسبة لأبى وكأنه يسير على حبل مشدود وعليه أن يكون حذرًا في كل خطوة يخطوها وإلا وقع ، أقر أبى أن سوزيت ضلت السبيل، حتى وهو يحاول أن يظهر الأمر على أنه أقل خطورة مما هو عليه، وأن ما حدث ليس إلا تصرف فتاة ساذجة مثل الكثيرات من أقرانها من هذا الجيل الذى لا يستحق الثقة، فقد حادت عن الطريق القويم وانقلب الأمر كله على رأسها، قدم أبى للمأمور سجائر من العلبة الفضية التى كانت تحتوى، كالعادة، على سجائر لاكى سترايك، وقبل المأمور السجائر الأمريكية، وبينما هو يشعلها، أومأ برأسه وهو مستغرق فى التفكير بأن الواقعة كلها لا تعدو أن تكون خطأ صاحبه سوء الحظ.

فى تلك اللحظة انهمرت الدموع من عيون أبى، هناك، فى الساعات الأولى من الصباح، فى المركز الرئيسى للشرطة بوسط مدينة القاهرة، وبينما الدموع تجرى أنهارًا على وجنتى والدى حتى أن الأمر اقتضى مساعدته كى يحافظ على توازنه، مع إحضار كرسى ليجلس عليه، فى حين قدّم المأمور منديله القطنى الأبيض للسيد ليون محاولًا مواساته فى شأن ابنته الجامحة

أما فى داخل القسم، فكانت أختى وصديقتها دوريس التى كانت مدرسة هى الأخرى بمدرسة الليسيه، مذهولتين من قضائهما ليلتهما بالسجن، لم يفهما لماذا ألقى القبض عليهما، وكان السؤال الأكثر إلحاحًا هو لماذا لم يحضر ذووهما حتى الآن لإنقاذهما، كانتا جائعتين، متعبتين، ذاهلتين، فنشأتهما المتميزة لم تهيئهما لهذه الإقامة الجبرية فى عالم القاهرة السفلى، مع عاهرات رخيصات وسارقات تشاركهن زنزانة وحدة.

أخيرا، أطلق سراح أختى وصديقتها، حيث قابل أبى -الذى كان حقًا هائجًا ومائجًا يستشيط غضبا- سوزيت بوابل من الإهانات،كان بحق متلهفًا أن يظهر للشرطة أنه لن يصفح أو يتغاضى عن سلوك ابنته بأى حال من الأحوال، لقد قام بتوزيع المال الكافى وتفوه بعبارات أعرب فيها تمامًا عن ندمه وأسفه العميق حتى تم إطلاق سراح ابنته.

ظلت أختى بالسجن ليلة كاملة.

وصل أبى وأختى فى النهاية إلى المنزل، دخلا معًا، الحاكم بأمره وابنته الكبرى الجامحة.

كم كان التشابه بينهما لافتًا للنظر، فبخلاف أمى التى كانت صغيرة الحجم، دقيقة البنية، كانت أختى طويلة لها طلة أخاذة، كانت النسخة المؤنثة من أبى، فلها أنفه المعقوف وفمه الممتلئ، حتى شكل عيونهما كان واحدًا رغم أن لون عينيه كان أخضر زاهيًا وكانت عيناها بنيتين بلون القهوة.

كان أكثر ما شاركت سوزيت فيه أبى، هو العزم والتصميم على القيام بما يحلو لها دون أن تخضع أو يكون لرأى الآخرين تأثير فيها، ورغم عدم اعترافها بذلك،فإنها فى كل جزء منها كانت مهيبة مستبدة مثله تمامًا، شخصية حلبية صميمة، مع أنها ولدت وترعرعت فى مصر إلا أنها اتخذت لنفسها صورة المرأة الأوروبية، فقد كانت تمشى واثقة الخطى غير هيابة؛ حتى أن الابتسامة المرتسمة على وجهها كان بها مسحة من استخفاف.

لم يبادلها أبى كلمة واحدة حين خرجت من الحبس.

لكنه ما إن دخل المنزل حتى انفجر فيها «لقد دُمِّرنا جميعا وخرِب البيت على يديك» وظل يردد ذلك، لم تنبس أختى بحرف وتصرفت كما لو كانت لم تنزعج من كلامه. ثم صفعها على وجهها وكانا فى منتصف حجرة الطعام، أمام أمى وإخوتى، بينما أنا مختبئة فى ركن من الحجرة مع بسبس، على إثر ذلك انسحبت أختى إلى حجرتها وقد زادت كراهيتها له أكثر مما سبق.

فى هذا المساء غادر أبى المنزل فى طريقه للكُتاب، كانت طقوس الصلاة قد انتهت منذ زمن، لم يبق أحد من المتعبدين ولكن لم يكن هذا الأمر يعنيه فى شىء، فقد جلس فى مقعده المفضل، أمام الحرم المقدس الصغير، وشرع يصلى، بقى هناك حتى الفجر، غير راغب فى العودة للمنزل.

فى الأيام التى تلت تلك الواقعة التقطت مسامعى كلمتين مرعبتين «جواسيس»، «روس».

لقد عبرت أختى خط ماجينو غير المرئى فى مدينة كانت على الرغم من أنها مدينة عالمية فإنها تزداد تمسكًا بجذورها الإسلامية، إضافة لذلك فقد حدثت تلك الواقعة فى

* هو خط من الحصون الدفاعية التى أنشأها الفرنسيون قبل الحرب العالمية الثانية لحماية حدود فرنسا الشرقية من الهجوم الألمانى ولكنهم التفوا حوله فى يسر وغزوا البلاد.

وقت أفصح فيه النظام الناصرى بكل وضوح، عن رغبته فى رحيل كل اليهود من البلاد، كانت هذه الأجواء السلبية تغرى على اختلاق رواية تقول إن النظام الحاكم استهدف فتاة يهودية شابة من عائلة محترمة، مدركًا أن مثل هذا الاتهام سيضغط بشدة على والديها للرحيل وهى رواية يمكن أن يصدقها الجميع.

كان أبى واعيًا للتغيرات العنيفة التى طرأت على الأوضاع فى البلاد والتى ملأت يهود مصر خوفًا وجعلتهم يسيرون على خيط رفيع.

كان والدى مدركًا أكثر من أى شخص آخر للطبيعة الاستبدادية للنظام الجديد وغياب المنطق عن تصرفاته، وعلى ذلك فقد أدرك تمامًا أن امرأتين شابتين، لهما -إلى حد ما- هيئة أوروبية، وتتصرفان بقدر من الحرية، كانتا هدفًا مثاليًا لمثل هذا النظام.

لكن ليون فى غضبه وخوفه لم يقم اعتبارًا لاحتمال أن تكون ابنته ضحية لتعنت النظام السياسى، فهو حريص على تربية ابنته وفقًا لطريقة حلب القديمة، وعليه فقد كانت معاييره الأخلاقية شديدة الحزم لا تختلف عن عادات وأخلاق جيرانه المسلمين، وما أشعل غضبه أن أختى بتصرفها الطائش لم تفكر فى العار الذى ستجلبه علينا، ولا يشفع لها عنده، أن سلوكها -وفقًا للأخلاق العصرية- يعتبر سلوكًا بريئًا أو شبه برىء، وعليه فقد أضحت سوزيت ضحية للتزمت المزدوج تزمت النظام المصرى المستبد وتزمت أبى الصارم.

لقد حاولت مرارًا أن أسأل أختى مباشرة ماذا جرى. ولكنها رفضت أن تبوح بكلمة عن هذا الموضوع، كما لو أنها قد أقسمت ألا تعود لتلك الحادثة مرة أخرى.

وبعد عدة عقود أخذت تسترجع معى أحداث تلك الليلة، فقد ذهبت هى وزميلتها دوريس إلى وسط المدينة وبينما هما تتسكعان جيئة وذهابًا فى الطريق بفستانيهما الرائعين، ترتشفان الكوكاكولا مستمتعتين بالطقس المعتدل، التقيتا ضابطين شابين يفيضان نشاطًا وحيوية فى زيهما الرسمى.

ضحكت أختى قائلة لم يكونا جاسوسين روسيين.

لم يكونا حتى روسيين.

كانا فى الواقع من السويد، من قوات الأمم المتحدة المفوضة للحفاظ على السلام، التى تم تعيينها لحراسة السلام فى الشرق الأوسط، كانا يتسمان بالوسامة والمودة، ومن أصحاب القبعات الزرقاء، القوات الرسمية لحفظ السلام التابعة للأمم المتحدة.

«مازلت أستطيع أن أتذكر اسميهما» قالتها سوزيت مقهقهة، بطريقة كانت فيها أقرب لابنة الثمانية عشر ربيعًا التى كانتها، وليست تلك المرأة المتزنة العاقلة البالغة من العمر ستين عامًا حين قصت على تلك القصة. «كان أحدهما يدعى لارس والآخر سفن، وكانا يرتديان تلك القبعات المحببة للنفس، ذات اللون الأزرق الفاتح».

توجه الأربعة إلى مطعم معروف «كنا فقط نتناول طعامنا من البيتزا»، أصرت أختى، على أن تضع ألف خط تحت تلك العبارة، لتوضح أنه كان مساءً بريئًا ليس به ما يشين، ثم فجأة ومن حيث لا نعلم، انقضت على المكان مجموعة من ضباط الشرطة والشرطة العسكرية، وألقت القبض عليها هى ودوريس، وتركت ممثلى الأمم المتحدة يمضيان لحال سبيلهما، فقط احتجزت الشابتين، صفدت أختى وزميلتها بالأغلال وأجبرتا على الصعود إلى سيارة الشرطةً ونقلتا إلى سجن المدينة ووضعتا خلف القضبان.

«كنا محتجزتين مع السارقات والعاهرات والنشالات ومحترفات الإجرام من كل نوع وصنف» قالتها أختى وهى تضحك كما لو كان الأمر كله مزحة.

أما أخى سيزار فقد استدعت ذاكرته الأحداث لتضعها فى درجة أبعد من أن تكون طيشًا، وفى قالب لا يخلو من سوء النية، تذكر سيزار أن إلقاء القبض عليهما تم فى فنـدق، وليس فى مطعم للبيتزا، وربما فى حجرة بالفندق، حيث تم إبلاغ السلطات أن هناك شابتين شُوهِدَتا وهما تدخلان مع اثنين من الأجانب، وفى عهد جنون الاضطهاد لنظام اتسم بجنون العظمة، كانت أختى وزميلتها قد تعديتا الحدود ومن ثم دفعتا الثمن.

لكن ما هى التهمة؟ أنا مصرة على أنه كان هناك بالتأكيد قواعد تحكم حالة الجنون التى أصابت السلطات المصرية فى تلك الفترة ، فحتى حينذاك، لم يكن يتم إلقاء القبض على أحد هكذا ببساطة دون اتهام، إذًا فما هو الاتهام الذى كان وراء إلقاء سوزيت ودوريس فى الحجز؟ هل تم اختلاق الموضوع كله وتدبيره!؟ «نعم لقد تم تلفيق الموضوع كله»، هذا ما تقوله أختى التى ظلت تردد «حدث محير مخيف وقع فى عصر محير مخيف».

حين كنت أستمع لتلك النبرة الهادئة المازحة فى صوت أختى خلال الحوار الدائر بيننا، كانت قد التمعت فى ذهنى إجابة لسؤال، ظل يراوغنى طوال تلك السنوات،

منذ تلك الليلة التى قضتها أختى فى قسم الشرطة، حين ظلت أمى تبكى وهى جالسة على الأريكة، حين كان إخوتى يذرعون الحجرة جيئة وذهابًا بسبب اعتزازهم بسمعتهم، حين ازداد التصاقى ببسبس، حين قررت العائلة أن ترحل وأن تغادر مصر، حين قرروا أنه لا فائدة من محاولة البقاء لأن أبى نفسه رأى أن حياتنا هناك قد انتهت بصورة فعلية، حتى أنه لا يوجد ما يدعو للتمسك بالبقاء بعد الآن.

وجاءت الإجابة عن سبب ذلك كله فى كلمة واحدة: «دعارة». وخلال أسابيع من إلقاء القبض على أختى، تكفل أبى بتقديم الأوراق اللازمة التى تحتاجها العائلة لمغادرة القاهرة.

الفصل الثانى عشر

الزيارة الأخيرة للبار خافت الضوء

صور لى خيالى كطفلة صغيرة أن البار الموجود بفندق النيل هيلتون، هو البار الوحيد، ليس فى مصر كلها فقط بل فى العالم بأسره، ومع أنه كان من المألوف أن يتوجه الناس إلى البار فى نهاية يومهم، فإن الأمركان مختلفًا بالنسبة لى أنا وأبى، فقد كان البار غالبًا هو محطتنا الأولى التى نتوجه إليها وقت خروجنا صباح كل يوم من منزلنا، كان البار هو المكان الذى نحدد منه وجهات انطلاقاتنا اليومية.

فى الشهور التى سبقت رحيلنا من مصر بدأنا أنا وأبى نكثر من الذهاب إلى النيل هيلتون، كنا نذهب تقريبًا كل يوم، ودائمًا ما كانت الأمور تسير على نفس المنوال، نستقل «تاكسى» دون تعجل من شارع الملكة نازلى إلى كورنيش النيل، ثم نقوم بنزهة سيرًا على الأقدام على طول ضفة النيل، كنت أستمتع بتلك النزهة القصيرة تحت أشعة الشمس مع أبى، إذ كنت قد تعافيت تقريبًا من حمى خدش القطة.

كنا نشاهد فى الأسفل ذلك الرصيف الذى ترسو عليه المراكب، والذى كان يبعد عنا بضع خطوات حيث ترسو مئات الزوارق الصغيرة، وكان معظمها مخصصًا للصيد والبعض للاستمتاع بالنزهات النيلية، ومن حين لآخر كان أبى يتوقف عن السير؛ كانت ساقه تؤلمه لكنه لم يكن يهتم فقد كان عاشقًا للنيل، مولعًا بصفحته المنبسطة الرقراقة، مأخوذًا بسكونه، مغرمًا بمشاهدة المراكب التى تكاد تلمسها أيدينا.

سألنى برغبة يشوبها حزن وهو يشير إلى زورق، هل تودين القيام بنزهة نيلية؟،كنت قد ارتجفت رعبًا من فكرة صعودى على سطح ذلك الزورق، الذى بدا لى ضئيلًا مهملًا، يهتز متأرجحًا على صفحة النيل، فأومأت برأسى علامة الرفض، وأنا أتشبث بيد أبى وأقبض عليها بشدة، ودفعته بعيدًا عن الزوارق وعن الكورنيش بأسره، ضحك أبى ضحكة خافتة واستأنف سيره لا يلوى على شىء، كنت أفضل على ذلك الزورق الصغير تلك الفلوكات الكبيرة التى كنا نلمحها فى الأفق، بأشرعتها الأنيقة التى ترفرف مع هبات النسيم وهى تبحر فى النيل.

ملأنى شعور بالارتياح حين وصلنا فندق الهيلتون حيث الأمان، دلفنا إلى الداخل عبر باب جانبى غير باد للعيان، بعيدًا عن ردهة الفندق التى تعج بالحركة والنشاط بواجهاتها الزجاجية الغارقة فى أشعة الشمس، والسائحين بأصواتهم المرتفعة، والدبلوماسيين بهدوئهم المعهود والموجودين بالفندق ليلًا أو نهارًا يجوبون المكان جيئة وذهابًا، لقد انتهى بنا المطاف إلى بار خافت الإضاءة، مكسو كله بالجلد الداكن، تنساب فى أرجائه موسيقى ناعمة و هواء بارد.

توجه أبى رأسًا إلى ركنه المفضل، أى إلى أقرب مائدة للبار، وجريت أنا لأجلس بجواره.

كان أبى دائمًا ما يطلب من رئيس السقاة الودود مشروبه المفضل: بيرة «ستلا» وهى بيرة محلية شائعة فيسرع من فوره جالبًا له قدحًا منها. كان على أن أعتمد على نفسى لأطول وعاء الفول السودانى فكان الساقى يضعه أمامى معبرًا عن حفاوته بى وكانت حبات الفول السودانى المقرمشة والمملحة لذيذة الطعم ، كان الشعور بالرضا يغمرنى تمامًا، فقد كان البار ذو الضوء الخافت، رائعًا حتى أن طفلة مثلى فى السادسة من عمرها كانت تشعر وكأنها فى بيتها.

كان أبى أحيانا يسمح لى برشفة من البيرة، كانت يداه -اللتان أصيبتا بما علمنا لاحقا أنه مرض باركينسون «الشلل الرعاش»- ترتجفان قليلًا حين كان يمرر لى قدح البيرة، كنا نتبادل بالكاد كلمة أو اثنتين، كان يكفينا فقط أن نجلس باسترخاء فى مقاعدنا نستمتع بموسيقى البيانو الرقيقة بعيدًا عن الحرارة اللافحة بالخارج.

لم يكن لهذا السياق الثابت أن يتغير إلا مع قدوم أحد عملاء أبى، فقد اتخذ أبى من بار الهيلتون بديلًا مؤقتًا لمكتبه، غالبًا ما يعقد به أكثر مقابلاته أهمية، التى ازدادت

فى تلك الأيام الأخيرة، كانت تخيفنى اجتماعات أبى بمن تنم هيئتهم عن الجدية، وأجزم أن الدهشة كانت تصيبهم لرؤيتى، لم يستطيعوا أن يفهموا السبب فى السماح لفتاة صغيرة مثلى أن تحضر اجتماعاتهم الممتدة.

كان أكثرهم كياسة يحاول التودد إلى، فيطلب من الساقى أن يعد لى شرابًا خاصًا بالأطفال، كان عملاء أبى كثيرًا ما يتلعثمون عند محاولتهم تذكر اسمى مما كان يصيبهم بالحرج الشديد رغم أن أبى كان حريصًا على تعريفهم بى، فكنت على الفور أصيح «لولو، اسمى لولو» lou lou'je m'apple lou lou.

لم أكن أتفوه بما يزيد على ذلك، فقد تعلمت منذ نعومة أظافرى أن أحسن التصرف فى حضور الكبار، ففى وجودهم، كنت أبعد ما أكون عن الأطفال الذين هم فى مثل سنى، ولم يحدث أبدًا أن قمت بالجرى هنا وهناك داخل البار، أو صدرت عنى ضوضاء أو أصابتنى نوبة غضب مما يصدر عن الأطفال ممن هم فى مثل عمرى، فمنذ أن كنت أحبو تعلمت أن أرقب أبى وألمح منه ما ينبغى على فعله، والذى يعنى عادة عدم القيام بأكثر من الابتسام وقبول ما يقدم لى بكل أدب، سواء أكان ذلك كلمة لطيفة أو ضمة صدر أو حتى الهدايا التى كانت تقدم لى فى المناسبات.

فى النهاية، كانت ثمة دمية فى ثياب زرقاء، قدمها لى أحد أفضل عملاء والدى، كان رجلًا ودودًا قابلته من قبل، وقد جاء ليودع أبى متمنيًا له كل الخير، سلمنى صندوقًا كبيرًا من الكرتون مستطيل الشكل. ارتسمت الابتسامة على وجهيهما حين نزعت غطاء الصندوق، وفى هذه المرة لم أستطع أن أتمالك نفسى.

فى داخل الصندوق كانت هناك دمية فاتنة ساحرة، لها هيئة أجنبية غير مصرية، كان شعرها أحمر ناريًا ترتدى فستانًا قصيرًا من قطيفة لها لون الفيروز، كانت طويلة نحيفة ولم يكن سهلًا على أن أضمها لصدرى حتى شعرها القصير المصبوغ كان هائشا بمثبت للشعر ليبقى على شكله المنتفخ، لذلك لم أدر تمامًا ماذا يمكننى أن أصنع بها، كانت ملتصقة بالقاعدة التى تقف عليها، فكان من الصعب على أن أحملها أو ألهو بها، أو أن ألبسها أو أخلع عنها ثيابها كما أفعل مع باقى الدمى التى كنت أملكها.

وفى حين كنت منشغلة بالدمية، استغرق أبى وصديقه فى حديثهما، وهما يطلبان قدحا يعقبه آخر من البيرة، ومن ثم فقد استغرقا وقتًا أكثر مما كانت عليه **العادة**

بالهيلتون، ارتسم على وجه أبى الارتياح التام حين كان جالسًا فى مقعده على مائدته المفضلة فبدا كما لو كان يمكنه أن يبقى جالسًا هنا سعيدًا إلى الأبد.

كنت أعتبر عملاء أبى متطفلين ينافسوننى فى صداقتى الوطيدة بأبى، ويكدرون صفو الوقت الهادئ الذى نقضيه معًا داخل البار، إذ كان المكان يبعث على السعادة ويبث الشعور بالسلام فى آن واحد مقارنة باختلاط الأمور المتصاعد فى منزلنا بشارع الملكة نازلى.

كان قد بقى لدينا شهران فقط لنتدبر أحوالنا، كان علينا أن نبيع شقتنا، ونصفى ممتلكاتنا ثم نحولها إلى نقد، فلم يكن باستطاعتنا وفقا لقوانين النظام الناصرى البالغة القسوة أن نخرج من البلاد بأى متعلقات عدا القليل من الجنيهات المصرية، كان مسموحًا لعائلتى البالغ عددها ستة أفراد بمغادرة البلاد بما لا يزيد على مائتى دولار.

لم يكن أمامنا خيار إلا أن ننفق نقودنا داخل البلاد، ورغم أنه لم يكن هناك الكثير الذى يمكننا أن ننفق فيه أموالنا، كما أن الجواهر والأنتيكات والمقتنيات القيمة التى تورث من جيل لجيل، كالأيقونات الدينية ورقائق التوراة والأعمال الفنية التى تحتفظ بها الأسر وتتوارثها لأجيال، لم يكن مسموحًا أن تخرج من البلاد، فقد كانت القوانين من الصرامة والشدة لدرجة إجبار النساء على ترك خواتم خطبتهن.

كانت الملابس من بين الأشياء القليلة التى يسمح بخروج كميات كبيرة منها، وقد قامت عائلتى كبقية العائلات اليهودية بالقيام بحملة من الشراء المحموم، بدأت مشاوير لا نهاية لها لمحلات القماش، للمحلات الكبرى، وللخياطين، كان سعينا المحموم منصبًا على تحويل جل مدخراتنا العائلية، إلى بدل وسترات ومعاطف وفساتين ومنتجات من القطن المصرى كالملاءات والبطاطين.

كنا سنرحل إلى طقس بارد قارس، وكان فى تصورنا أن المناخ فى أوروبا وأمريكا سيكون مشابها لمناخ آلاسكا أو القطب الشمالى، وهى مناطق إن لم نحتط فيها من البرد فإننا قد نتجمد حتى الموت ببنيتنا الرقيقة التى تميز سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط كانت أمى دائمًا ما تلقى بملاحظتها تلك «الثلج دائم التساقط هناك».

il neige la-bas tout le temps.

لم يحدث أن سافر أى فرد من أفراد عائلتى المقيمين فى الشرق إلى الغرب من قبل، ولا حتى أبى الذى كان يرى نفسه خبيرًا بالناس ومتمرسًا بالحياة، لصداقاته مع الإنجليز

والفرنسيين واليونانيين وكل الأجانب الذين عاشوا فى مصر، لم يكن أبى منذ أن غادر حلب قد سافر أبعد من الإسكندرية.

البلاد المغطاة بالثلج التى صورها لنا خيالنا، أوحت لنا بضرورة أن نكون عمليين، فنفضل الأقمشة الصوفية أو القطنية أو قماش الفلانيلة السميك، كنت أسحب من يدى من دكان لآخر بحثًا عن معطف للشتاء، و لم يكن شىء من هذا القبيل متاحًا فى بالقاهرة؛ فلم يكن هناك شتاء بالمعنى المعروف فى ذلك البلد الذى تسطع فيه الشمس دائمًا، لذا لم يكن من السهل أن نجد معطفًا يقينى قسوة برودة الأيام القادمة وظلت أمى تردد «يا للولو المسكينة» pauvre loulou.

ذهب أبى للموسكى الحى القديم الشهير ببيع الأقمشة، واشترى عشرات الأمتار من قماش البروكار اللامع. وقد اختار أبى قماشًا مطرزًا بخيوط من الفضة على خلفية من لون أزرق ملكى، وأحمر قرمزى، وأخضر. كان شراء هذا الصنف من الأقمشة نوعًا من الاستثمار إذ ظن أبى أنه سيكون هناك سوق لتلك الأقمشة البراقة الغريبة فى لونها وطرازها خارج مصر، وقد أسرف فى الشراء من قماش البروكار حتى أن الخياطين جُندوا لحياكة العديد من «روب دو شومبر» له ولإخوتى.

كان ما حاكه الخياطون أشبه ببعض ما كان يصور به ممثلو أفلام هوليوود فى الأربعينيات، وجد ليون الذى كان طوله يزيد على ستة أقدام نفسه فى «روب دو شومبر» يصل إلى كاحله، مع حزام من قماش البروكار يناسبه وقد رأيته يرتديه مرة واحدة فقط، كان ذلك يوم أن قام بقياسه فى القاهرة، وقف أمام المرآة متأملًا لصورته المنعكسة، كانت له هيئة ملكية تبعث على الاحترام، وللغرابة كان يبدو أصغر من سنه التى تعدت الستين.

طُويت مجموعة الـ«روب دو شومبر» التى حيكت له ولإخوتى وما تخلف من قماش البروكار رصت فى حقيبة كبيرة من الجلد البنى التى كانت واحدة من ست وعشرين حقيبة تم شراؤها لرحلتنا، كانت الأرواب ضخمة وثقيلة حتى أنها ملأت الحقيبة تمامًا، وكنا عند إعداد الحقائب ما أن تُحزم حقيبة حتى يحكم إغلاقها وتوصد بقفل ومن ثم تنقل لحجرة أخرى، بينما أخرى تحل محلها، وكانت كل حقيبة تحمل بطاقة مكتوبًا عليها «عائلة لنيادو»، إذ لم يكن لنا وجهة معينة famille lagnado».

أخيرًا، فى «شيكوريل»، أحد أشهر محلات القاهرة الضخمة، استطاعت إحدى البائعات أن تساعدنا فى أن نجد معطفًا من الصوف للأطفال، كان صوفه من النوع

الردىء وكان موجودًا بالمخزن. كان المعطف رمادى اللون رقيق السُمك، يقفل بزر واحد وكان معه وشاح جميل مناسب من الصوف، وقد أكدت لنا البائعة أنه سوف يحمينى من فصول الشتاء القارسة بالغرب، بدت واثقة لكن معلوماتها كانت محدودة، ففى القاهرة كان من النادر أن تنخفض درجة الحرارة عن ٥٠ أو ٦٠ درجة فهرنهايت، كان المعطف الجديد من الضآلة حتى أنه أمكن طيه فى شكل مربع صغير واحتل ركنًا فى حقيبة لم تكن كلها خاصة بمتعلقاتى، فقد كنت الوحيدة فى عائلتى التى لم تكن لها متعلقات كثيرة، حتى يكون لها حقيبة خاصة. لقد حسم شراء المعطف أمرى، فقد أعلنت أمى بوضوح أن لولو أصبحت جاهزة للسفر loulou est toute prête.

جلست فى ركنى المفضل بحجرة المعيشة أراقب ما يجرى من أحداث بينما القلق يعترينى، وجدت أن علينا ترك كل ما نملكه تقريبًا وراءنا.

ففيما يتعلق بأبى وولعه بالثياب البيضاء، كان على علم تام بأنه بعد مغادرته مصر، سيفسح المجال لأكثر الألوان رصانة وقتامة فى العالم، ورغم أن له مطلق الحرية فى أن يأخذ من الملابس ما يشاء، فقد عزم على ألا يجلب مقتنياته الثمينة، بدلاته الشركسكين البيضاء، وستراته الأخرى التى جمعها على مر السنين. كان الحال كذلك بالنسبة لمجموعة أمى وسوزيت من الأحذية البيضاء، فقد بدا فجأة أنها زائدة عن الحاجة وغير ضرورية، كانت تذكارًا لنمط حياة فى طريقها للزوال، كان الطربوش الأحمر فى مخبئه السرى وهو أيضًا من الأشياء التى خلفها أبى وراءه.

كانت معظم الملابس تحاك يدويًا، لذا فقد كانت أمى وأختى تخرجان عدة مرات يوميًا لقياس الثياب عند الخياطة، كانتا تعودان محملتين بكميات هائلة من اللفائف، فساتين طويلة على أحدث خطوط الموضة، قامت سوزيت بتفصيل العديد منها على كل لون، ومن جميع أنواع الأقمشة، كنت أحملق بحسد فى فستان فاتن من القطن المضلع له ملمس القطيفة بلون الكرز الأحمر، وكان الجزء السفلى منه واسعًا متموجًا، تمنيت أن يكون لدى مثله، حتى أمى التى اتسمت ثيابها دائمًا بالبساطة الشديدة، كانت تعود هى الأخرى بثياب جديدة، تختلف إلى حد بعيد فى طرازها وشكلها عما عهدته فيما ترتديه من ملابس، لقد حاكت ثوبها الجديد من القماش المنقط ذى اللون الأزرق الملكى على غرار أحدث صيحات الموضة، وقد كنت محبطة أتفرس فى ثيابها متعجبة، ما الذى يدفع أمى الرصينة فجأة لارتداء قماش منقط.

هل يمكن حقًا أن تكون ست وعشرون حقيبة كافية؟ كان أحدهم أحيانًا يعطينى شيئًا نافعًا قد اختاره لى. مثل سترة مقاسها يكبرنى بعدة مقاسات، أو بنطالين فضفاضين من الصوف، أو بيجامة من قماش الفلانيلة وملابس داخلية قطنية، لم يكن ما حظيت به يقارن بالملابس والحلى التى كان يشتريها الآخرون من أفراد عائلتى.

لم يبد أى من أفراد عائلتى اهتمامًا لما انتابنى من شعور بالضياع، كان لديهم هموم الكبار، ومشتريات يجب أن يقوموا بها، ومقابلات كثيرة لتوديع المعارف، والأصدقاء مما كان يستلزم جهدًا شاقًا، ومن ثم فقد كان قلق طفلة تبلغ من العمر ستة أعوام من التفاهة ليهتم به أحد.

كانت بسبس هى المخلوق الوحيد الذى ظل باستطاعته أن يفهمنى ويتجاوب مع احتياجاتى. عادت بسبس لتكون صحبتى الدائمة، بعد أن زالت المخاوف التى كان يثيرها اقترابى منها، أو ربما لأن أفراد عائلتى كانوا أكثر انشغالًا من الانتباه للتفريق بيننا.

بينما الفوضى فى المنزل جعلتنى فريسة للقلق الشديد، كان السرور الطاغى باديًا على بسبس لذلك الهرج والمرج، فقد كانت تندفع كالسهم من حقيبة لأخرى من الحقائب المفتوحة، تدس بأنفها فى مجموعة الروب دو شومبر من قماش البروكار، حيث وجدت فى تلك الأمتعة الجديدة ملايين الزوايا والأركان التى يمكنها أن تختبئ بها، بصفة عامة سعت بسبس إلى إمتاع نفسها، على الرغم من—أو ربما بسبب— الأحداث المضطربة التى نمر بها.

كانت بسبس بالبيت منذ ولادتى، قطة ضالة من قطط الطريق، تتحرك بحرية تامة دخولًا وخروجًا بين الزقاق وبين منزلنا بالطابق الأرضى، مثلها فى ذلك مثل كل القطط الأخرى التى سبقتها فى الإقامة بمنزلنا فى شارع الملكة نازلى، على الفور انجذبت بسبس لليون، تمامًا كالقطط الأخرى، وقد علمها ليون أن تستطيب الطعام الآدمى، حيث لا يوجد طعام للقطط فى القاهرة، ولا توجد علب طعام القطط المحفوظ من ماركة «little friskies» أو «purina cat chow»، فى بلد يستطيع فيه الشخص متوسط الدخل أن يشترى بالكاد رغيفًا من الخبز، كانت بسبس تأكل من كل ما كان أبى يتناوله من طعام، فعندما كان يستمتع بتناول وجبته الخفيفة المفضلة من الجبن والخبز الفلاحى المصرى، كانت القطة تلوك مكعبات صغيرة من الجبن وكسرات من الخبز.

تصورت أن القطة ستشرب أيضًا بشغف، ذلك الشاى الساخن الذى يشربه ليون بعد كل وجبة فى كوب طويل، لكنه كان يصب لها قليلاً من الحليب الطازج فى طبق صغير من البورسلان، ويضعه بجوار كوب الشاى الساخن الخاص به. وكانت بسبس فى رفقة أبى لا تتناول طعامها على الأرض أبدًا.

ومع اقتراب موعد رحيلنا، ازداد توتر أمى وقلقها، شاهدتها ذات صباح تضع فستان زفافها المؤلف من عدة أمتار من قماش الساتان مع الطرحة فى حقيبة من الحقائب، كان يستحيل عليها طيه، لذا وضعته بكامل طوله فى الحقيبة الجلدية الضخمة، ولمزيد من حمايته وضعت فوقه بالطو من الفراء لم أرها أبدًا ترتديه. وحين لاحظت أنى أنعم النظر فيه قالت لى بتيه «إنه من فراء الأستراكان» ah، c'est de l'astrakhan. كان هذا البالطو كفستان الزفاف هو الآخر من عصر مختلف، حين كانت فراء الخراف الفارسية مظهرًا من مظاهر الثراء، ودليلًا على مسايرة أحدث خطوط الموضة، لقد كان هدية أبى لها فى إحدى الفترات السعيدة الفاصلة فى تاريخ زواجهما، الذى استمر عشرين عامًا من القلق و الاضطراب.

وأخيرًا، رأيتها تتناول صندوقًا مستديرًا من الفولاذ الرمادى الداكن، أدامت النظر فى محتوياته، ثم وضعته برفق تحت فستان الزفاف، أيا ما كان يحتوى عليه الصندوق فسيكون آمنًا تحت طبقات من الفراء والساتان والدانتيلا والصلب.

ملأ أبى حقيبتين بأغراضه المفضلة، كانت إحداهما متخمة بكتبه، عشرات وعشرات من كتب صلواته، كان بعضها قديمًا جدًا ومهترئًا، لدرجة أنه يمكن الاعتقاد بأنها آثار مقدسة، كانت صفحات الكتب هشة بالية حتى أنى لم أجرؤ على الاقتراب منها، خوفًا من أن تتمزق لأقل لمسة، لقد كنت على وعى تام منذ أن تفتحت عيناى، بأن تلك هى الكتب مقتنيات نفيسة لأبى، من ثم كانت فكرة ترك الأكثر قدمًا وعطبًا منها مسألة غير واردة.

أما الحقيبة الأخرى فقد خصصها لعلب الأغذية المحفوظة، كما لو كانت المدن التى سنغامر بالذهاب إليها تفتقر للأغذية الصالحة للاستهلاك الآدمى، ومن ثم ستتضور العائلة جوعًا. أخذ أبى الذى كان يتعامل فى تجارته مع عدد من مصانع الأطعمة المحفوظة على عاتقه، أن يقوم بجمع السلع المطلوبة، التى كان يعتقد أننا سنحتاجها لنبقى على قيد الحياة خلال الرحلة.

كنا بعد زيارتنا الصباحية لفندق النيل هيلتون، نستقل «تاكسى» لمخازن تقع فى مناطق متباعدة من ضواحى القاهرة، كان أبى يتركنى بداخل المصنع ويجرى مقابلاته مع أصحابه فى غرف مغلقة، ثم يخرج منها بصناديق لأغذية محفوظة من المانجو، الجوافة، الخوخ، الأناناس.

كان يغمره إحساس بأن امتلاكنا لهذا المخزون من تلك السلع، سيجعلنا بمأمن من أن نموت جوعًا، فى أحلك اللحظات هذه التى قد نكون فيها بلا مأوى أو نقود، وكانت علب السردين الذى كان أبى مغرمًا به، هى أهم تلك العلب المحفوظة على الإطلاق.

ذات صباح، أراد أبى أن يغادر المنزل فى موعد مبكر عن المعتاد؛ يومها لم نذهب كعادتنا إلى فندق النيل هيلتون، بل اتجه بنا التاكسى إلى مصنع يقع فى إحدى ضواحى القاهرة. كان مع أبى كيس صغير رأيته فى الصباح وهو يدسه فى الجيب الداخلى لسترته وكان قد أطلع أمى على محتوياته قبل أن نغادر المنزل.

بمجرد وصولنا للمصنع، اتجه ليون مباشرة لمكتب المدير، وقد صحبنى معه إلى الداخل هذه المرة بعد أن أمرنى بألا أتكلم مطلقا. ما إن أُغلق الباب وجلس الاثنان على المكتب حتى أخرج أبى من جيبه ذلك الكيس وأفرغ محتوياته على سطح المكتب كان المدير مشدوها وقد اتسعت عيناه عند رؤيته لما تساقط من الكيس، فقد كان ما تناثر منه عبارة عن ست سبائك صغيرة من الذهب وخاتم من الزفير.

كان الخاتم ذو المظهر الراقى المميز هو الخاتم المفضل لأمى، ويعود تاريخه لأيام رواجها الأولى، وكان أبى قد فاجأها بإهدائه لها فارتدته فوق دبلة الزواج. كان الخاتم من الذهب المرصع بالألماس، وفى وسطه كان هناك حجر كبير من اللازورد، له لون أزرق كلون البحر الأبيض المتوسط، أو كلون عينى الطفلة ألكسندرا.

سُحق قلب أمى حزنًا لمفارقتها هذا الخاتم الذى أقنعها أبى أنها بخلعه من إصبعها إنما تحافظ عليه وتستبقيه.

تبادل أبى مع صاحب المصنع بضع كلمات بصوت هامس، فلم أتبين من حديثهما شيئًا إلا ما بدا على وجه ليون من قلق على غير العادة، وكان الرجل يحاول طمأنته. أخيرًا نهض كلاهما وأشار أبى لى بأنه قد حان وقت الانصراف، ولدهشتى التقط المدير سبائك الذهب والخاتم بخفة وأعادهم إلى الكيس، ووعد أبى بأنه سيهتم بالأمر. فى

طريقنا للمغادرة رافقنا فى جولة سريعة بالمصنع، واختار لنا تشكيلة مما نفضله من المربى برتقال، كمثرى، جوافة، مشمش، فراولة، تين، حتى أوراق الورد لنأخذها معنا.

حين عدنا بعد عدة أيام، كان المدير فى انتظارنا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يشير إلى ست علب من المربى موضوعة على مكتبه. كان خاتم أمى مخبأ داخل علبة مربى وقد أحكم إغلاقها داخل المصنع نفسه، حتى لا يبدو أى اختلاف بينها وبين العلب التى تباع فى محلات البقالة،كذلك تم إخفاء سبائك الذهب داخل علب مختلفة من علب المربى. بدت تلك الطريقة هى الطريقة المثلى لتهريب جزء – على الأقل – من ثروتنا خارج البلاد. تناول أبى العلب واستدعينا «تاكسى»، عاد بنا لبيتنا فى شارع الملكة نازلى، حيث أخبر أمى وإخوتى بما فعل.

مرت عائلتى بأيام مرعبة ومفزعة كانت تلك أيام عصيبة، فقد عاشت أسرتى فى رعب من طرقات الباب خشية أن يأتى رجال الحكومة ليمنعونا من السفر لسبب أو لآخر، وكان الخوف الأكبر من أخذ أحدنا إلى السجن..

وهذا ما جعل أبى مؤرقًا من انكشاف حيلته، فكان ينظر لعلب المربى التى تحوى قطع الذهب والخاتم، ويتساءل إذا كانت تلك الحيلة من المستحيل أن يكشفها أحد كما يظن، ويفكر فى العواقب الوخيمة التى ستجرها علينا لو انكشفت.

أخيرًا تمت تعبئة الست والعشرين حقيبة، بالإضافة إلى حقائب من الدفيل* وقد أُغلقت جميعها بإحكام وحُملت فى شاحنة مقفلة، سبقتنا إلى الإسكندرية التى كانت المحطة الأولى فى رحلتنا.

فى ليلة سفرنا، أخذ أبى علب المربى التى تحتوى على سبائك الذهب وخاتم أمى وأخبرنا بهدوء أنه لن يمضى قدمًا فى هذا الأمر حتى منتهاه، فقد كان ببساطة أمرًا شديد الخطورة نظرًا لاحتمال اكتشاف الذهب والخاتم بطريقة ما، بواسطة السلطات مما كان سيعرضنا جميعًا لخطر نحن فى غنى عنه.

كنا قد سمعنا قصصًا مرعبة عن مفتشى الجمارك وكيف يقومون بتفتيش كل من يغادر البلاد بدقة وبلا رحمة، وبخاصة اليهود. فهناك قصة سيدة كانت تعمل خياطة، إذ قامت بإخفاء خاتم خطبتها فى مكواة كانت تستعملها لكى حاشية الثياب، وفى

---

* حقائب على شكل أسطوانة من نسيج صوفى غليظ كالمستخدم فى معدات التخييم.

لمحة ذكاء منها قامت بتغطية عملات ذهبية بقطع من القماش، لتبدو كأزرار عادية ثم ثبتتها فى فستان. وبينما هى فى طريقها لمغادرة البلاد، قام أحد مفتشى الجمارك بفحص المكواة، فاكتشف خاتم الخطبة المخبأ وبعدها بدقائق كان قد نزع الأزرار المزيفة من الفستان، وشرع فى تمزيق كل قطعة من ملابسها تقريبًا، حتى أنه قام بشق حشو أكتاف سترة زوجها الراقية والمحاكة يدويًا فى بحثه عن أية جواهر مخبأة. كانت معجزة أن سمح لها بمغادرة البلاد دون أشيائها الثمينة.

على المائدة قام أبى بفتح علبة من مربى البرتقال، كان الخاتم الزفير هناك بالضبط كما أقسم على ذلك صاحب المصنع، ثم فتح علبة أخرى ووجد كتلتين من الذهب واحتوت العلب الباقية على باقى الذهب. أخذت أمى خاتمها وغسلته بالماء ثم جففته بالفوطة بعناية.

طلب ليون من أمى أن يستعيد الخاتم ليتخلص منه بالبيع. لم يدر أى حوار بشأن السبائك الذهبية، ولكنها كانت قد اختفت مثل الخاتم، ولم تقع عين أحد عليها مرة أخرى. لم نعلم أبدًا على وجه الدقة ماذا فعل أبى بتلك القطع الذهبية الجميلة.

حان الوقت لمغادرة شقتنا بشارع الملكة نازلى، كانت بسبس هى شغلى الشاغل. أمسك أبى بالقطة بينما أنا أودعها. «ألا نستطيع اصطحابها معنا؟»، قمت بطرح هذا السؤال على كل فرد من أفراد عائلتى التى لم يبد على أى منهم الرغبة فى مصارحتى وإخبارى بكل وضوح، بأننا سنترك بسبس وشارع الملكة نازلى إلى الأبد، ولكنى بالطبع كنت على علم بذلك.

على المائدة بحجرة الطعام كانت ثمة بقايا أشياء، نثريات تركناها حتى اللحظات الأخيرة، إذ كنا لا ندرى كيف يمكننا أن نتصرف بها، فى أحد الأركان كانت هناك،حقيبتى الجلدية، أول حقيبة مدرسية لى التى كنت أحملها ببهجة وفرح أثناء ذهابى لمدرسة الليسيه بباب اللوق، وكنت أحس وهى فى يدى أنى فتاة راشدة.

أقبل أبى لاصطحابى إلى خارج المنزل، فدائمًا ما كنا نمشى معا يدًا فى يد، ونظرًا للعرج الذى أصيب به، فقد كان يمشى على مهل، مما جعل سرعتنا فى السير متقاربة، وهو ما لم يكن سهلًا على عندما كنت أمشى بصحبة البالغين الآخرين. ذهبت لأمسح بلطف على شعر بسبس للمرة الأخيرة.

«ستكون بخير» طمأننى أبى بتلك النبرة المعتدلة فى صوته، التى دائمًا ما يستخدمها إذا تعلق الأمر بشىء هام.

كان من الممكن اعتبار أبى فظًا ومتغطرسًا، لكن ذلك كان فى الأمور الثانوية فقط، أما فى الأمور التى تستحق عناية واهتمامًا، فقد كانت تدهشك رقته.

أخبرنى أبى أن بسبس هى التى فضلت البقاء لأنها ترفض أن تبرح مكانها. «هى تفضل البقاء هنا، لأنها تحب القاهرة»، قالها مرارًا وتكرارًا، كان يحاول أن يهدئ من روعى ويسترضينى برسم صورة للقطة وهى باقية مقيمة فى شقتنا المهجورة، قطة قاهرية صميمة، رافضة لأن تتخلى عن بلدها. ستخلو لها الشقة كلها فيمكنها أن تتمتع بالشمس فى الشرفة، أن تنام مستلقية فى أى ركن تفضله من أركان البيت، وأن تأكل كميات الطعام الضخمة التى خلفناها وراءنا. ستكون ملكة فى مملكتها.

ظل أبى مصرًا على أن بسبس ليس لديها أية رغبة فى الرحيل، ليس لديها أية رغبة تمامًا، ولكنى لم أستطع التوقف عن البكاء، فى النهاية قال لى أبى إنه سيتحدث مع القطة فى هذا الشأن ويقنعها بأن ترافقنا للإسكندرية. هى فقط تحتاج لعدة أيام أخرى حتى تكون جاهزة للسفر، هذا كل ما فى الأمر ثم ستلاقينا فى الميناء. وقدم لى المنديل الكبير الأبيض الذى يحمله دائمًا فى جيبه، لأجفف به دموعى، وقررت أن أصدق ما قاله أبى.

لم ترفع بسبس حتى رأسها للنظر إلينا وقت مغادرتنا المكان، فقد انسحبت إلى بقعتها المفضلة فى الشرفة، وجلست ملتفة حول نفسها فى وضعها المفضل. وبينما نحن نمشى بخطى متثاقلة مجهدة فى طريقنا للخروج، استمرت هى ترقب الحياة بهدوء فى شارع الملكة نازلى.

فى الإسكندرية، توجهنا إلى فندق صغير كنا نقضى فيه أحيانا إجازاتنا الصيفية. كان عبارة عن نَزل صغير قريب من البحر، حجراته صغيرة وإن ازدادت صغرًا مع كومة الأمتعة التى كانت معنا. كانت الإسكندرية ترتبط فى ذهنى بالإجازات المبهجة الخالية من الهموم، والأيـام المليئة بالمرح، والمتعة على شاطئ البحر، لذلك فقد أصابنى الارتباك لأن أحدًا من أفراد العائلة لم يتحدث عن الذهاب للشاطئ. ما من أحد تفوه بأى شىء على الإطلاق.

كنت طيلة الوقت أحمل الدمية ذات الرداء الأزرق، رغم أنى لم أكن قد اعتدت على حوافها الحادة التى لم تكن لينة فى تكوينها، وقابلة للضم والعناق، كما كانت قطتى بسبس.

احتلت الحقائب الجلدية وحقائب الدُفيل الجزء الأعظم في حجرة أو حجرتين من ذلك النزل. قام إخوتي بكتابة « عائلة لنيادو » بحروف بيضاء كبيرة على جانبي كل حقيبة بالإضافة للبطاقات المتدلية من أيدي الحقائب، حتى لا تقع حقيبة أمي التي تحوي فستان الزفاف أو حقيبة أبي التي تحتوي على الطبعات البالية من التلمود، في أيدي أسرة أخرى.

في آخر ليلة لنا بمصر، أخذني أبي كي نمشي. قطعنا طريقنا يدا في يد عبر الممشى الخشبي على الشاطئ عابرين من شاطئ لآخر،كان يتوقف من حين لآخر ويتوجه قبالة البحر، وإن لم يتفوه بكلمة. كانت هناك مقاه لا تعد ولا تحصى، ورغم كوننا في شهر مارس فإنه كان بالإمكان أن نرى محبي الليل، وهم يستمتعون بنسيم مساء سكندري، يدخنون ويحتسون البيرة أو العرق، ذلك المشروب المسكر المصنع مَحَليا، الذي كنت أحب رائحته دون أن أستطيع تذوق قطرة منه لفرط قوته، استقر أبي على الجلوس بالمقهى الأخير الذي وصلنا إليه. كان المقهى شبه خال، ولدهشتي جلسنا في الداخل حيث كان الضوء خافتًا والمكان هادئًا، تمامًا كضوء البار الخافت في فندق الهيلتون.

أشار أبي للساقي طالبًا قدحًا من البيرة. عاد الساقي الذي بدا على معرفة بأبي بقدح كبير من البيرة المثلجة، كما استضافني بكوب طويل من شراب أحمر اللون عبارة عن عصير فراولة بالصودا، كان هذا الشراب على حساب المحل، قالها الساقي وهو يضع الكوب على المائدة محدثًا صوتًا، «هذا للصغيرة» قالها لأبي بود. كان مرحه لا يتناسب ومزاجنا الكئيب.

خفف هذا العصير اللذيذ حلو المذاق من الحزن الذي خيم على الليل، وجعلني أحس بالراحة وأنا أرتشف رشفات صغيرة منه. استأنفنا سيرنا على الكورنيش ثم عدنا للفندق. ظل أبي ينظر للبحر دون أن يدع يدي تفلت من يده.

في الصباح اتجهنا للميناء حيث كان من المتوقع أن تبحر سفينتنا عند الظهيرة. كانت منطقة الانتظار مزدحمة بشكل مذهل ورغم أنه كان يومًا حارًا فإن أمي ألبستني ملابس الشتاء، فستانًا وفانلتين و«سويتر»، ثم «سويتر» آخر.

شدد على والدي بأن أحسن التصرف في حضور مفتشي الجمرك، أن أبتسم وأعرف نفسي حين حل دوري، شاهدت رجلًا طويلًا أشار إلى بإصبعه بأن أقترب

«لولو، أنا اسمى لولو»، أخبرت الرجل الذى كان مرتديًا زيه الرسمى، محاولة ألا تنم نبرة صوتى عن خوف. أحسست بأنى أختفى تحت كومة الملابس التى أرتديها. لم أكن متأكدة من أن الرجل كان يرانى بوضوح. ابتسم الرجل وأشار إلى بالمرور بالسويتر وبكل ما معى كان هناك العديد من العائلات مثلنا، يجلسون فى مقاعد صغيرة محاطين بجبال من الحقائب. يتحدثون عشرات اللغات أشهرها العربية والفرنسية بالطبع، وكانت هناك أيضا الإنجليزية واليونانية والإيطالية والإسبانية. كانت تلك هى مصر بطبيعة الحال، وفجأة أصبح الأجانب غير مرحب بهم فى البلد الذى كان معظمهم يشعرون فيه شعورًا عميقًا بأنه وطنهم.

كانت هناك سيدة تجلس فى الجانب الآخر المواجه لنا، تحمل قفصًا صغيرًا. رأيت بداخله قطة. كانت أحيانًا تفتح باب القفص، وتمسح على شعر القطة التى تموء وتتمتم ببضع كلمات محاولة إقناع القطة بأن تمكث هادئة.

ولكن أين بسبس!؟

ظللت أتلفت حولى لأرى ما إذا كانت فى الطريق كما وعدنى أبى، كنت مضطربة، فأخذت ألوم عائلتى قائلة «كان بإمكاننا أن نأخذها معنا مثل تلك المرأة»، وبدأت فى البكاء من جديد. وافقت أمى بأسف على أن وضع بسبس داخل قفص، ونقلها خارج مصر، كانت فكرة جيدة.

«إنها لا ترغب فى التخلى عن القاهرة» هذا ما قاله أبى مستخدمًا مرة أخرى نبرة صوته المعتدلة. لقد جعل الأمر يبدو لى كما لو أنه قام بحوار عاقل مع قطتى، وأنها عبرت عن رغبتها فى البقاء حيث هى وأثناء صعودنا للسفينة، طلب منا أحد مفتشى الجمرك أن نقوم بالتوقيع على آخر ورقة رسمية.

كانت استمارة معروفة باسم «خروج بلا عودة»، وقعنا عليها، كانت تعهدًا منا بأن نغادر مصر وألا نعود إليها أبدًا.

الكتاب الثانى

الكتاب الثانى

المنفى

باريس وما بعدها

١٩٦٣-١٩٨٢

الفصل الثالث عشر

الجوهرة بالداخل

لم تكد السفينة تغادر ميناء الإسكندرية حتى سمعت صرخة أبى «رجعونا مصر» أصبحت تلك الجملة لازمة له، الترنيمة التى يرددها على ظهر سفينة البضائع التى تحولت إلى باخرة للركاب والتى كانت تتأرجح بشدة وهى تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط حتى أننا لم نقدر على البقاء ولو للحظة فى قمرتينا المتواضعتين بالأسفل، فكنا ننطلق إلى ظهر الباخرة حيث كان الأمر أفضل قليلًا، وهناك كنا نقضى ليلنا ونهارنا جالسين على مقاعد لها ظهر مرتفع من قماش الكنافاه تم ترتيبها فى صفوف مستقيمة، لم نكن بقادرين على النوم أو الأكل أو فعل أى شىء سوى التفكير فيما تركناه خلفنا وفى المستقبل الذى ينتظرنا.

فقد اختلطت كل الأمور علينا فجأة، ماضينا وحاضرنا أصبحا غائمين كتلك الصورة الوحيدة الباقية التى التقطت لى مع أبى على ظهر الباخرة massalia «ماساليا» حيث احتضن كل منا الآخر، بينما عشرات من الناس يظهرون خلفنا جالسين فى صمت يتطلعون إلى البحر، كانت مثل لقطة لإعلان فاشل عن رحلة بحرية، فقد أظهرت الصورة حالة التعاسة التى كان عليها الركاب الذين كان أبى أتعسهم فى قبعته الداكنة من اللباد والسترة ورابطة العنق، كان أبى يرتدى ملابس لا تناسب رحلة بحرية، فهى أكثر رسمية من أن تناسب ذلك، كان يحدق مباشرة فى الكاميرا، متجهم الوجه مرهقًا، ولأول مرة، بدت علامات كبر السن واضحة فى ملامحه، وقد شاركته

ليون ولولو على الماساليا

حزنه فبدوت مطأطئة الرأس، خافضة العينين، ذلك أنه إذا ما كان من الممكن أن يسيطر الشعور بالإحباط على طفلة فى السادسة من عمرها، فقد كنت أنا هذه الطفلة، لقد بدوت أيضا فى الصورة فاقدة لكل أمل لى فى الحياة، كنت أضع رأسى على كتفه وألتصق به، ألتمس حمايته التى لم تعد بإمكانه.

كان أخى هو من التقط لنا تلك الصورة المهزوزة فى مارس ١٩٦٣، مستخدمًا كاميرا محمولة رخيصة الثمن.

لقد كان أبى يتحدث بهوس عن بيتنا فى شارع الملكة نازلى، كما لو كان ينتظر منى أن أتمسك بكل ما فقدناه، فبعد شهور من النشاط المحموم، لم يبق لنا من شىء فعله، لا شىء مطلقا سوى الاستلقاء على كراسى المركب، والتأمل فيما انتهى إليه مصير أسرتنا، فها هى عقود من حياة عائلة قد اختصرت فى قمرتين شديدتى الرطوبة على نحو

مزعج، مجاورتين لمحرك هادر، لباخرة صغيرة تهتز بعنف على سطح البحر، ترافقهم الحقائب الست والعشرون التى تحوى كل ما يمتلكونه فى هذا العالم.

«رجعونا مصر» ظل أبى يصيح بتلك العبارة، لقد فقد القدرة على كبت مشاعره، وأصبح ذلك الرجل الذى كانت حياته مثالًا للأناقة ولآداب المجتمع فاقدًا للياقة، فكان يصرخ بتلك العبارة حين يكون وحيدًا، ويصيح بها أمام كل الركاب، سيان عنده أن نكون معه أو يكون بمفرده، يستوى فى ذلك أن نكون فى قمرتينا بالأسفل، أو نكون على ظهر المركب فى الهواء الطلق، والغريب فى الأمر، أن أحدًا لم يعلق أو حتى يتعجب من رؤية ذلك العجوز الغاضب، الذى كان أحيانا يصرخ هاتفًا بتلك العبارة، أو ينتحب بها فى صوت خفيض «رجعونا مصر». لقد كان ينفث بما تجيش به صدورهم جميعا.

كانت الباخرة «ماساليا» تهتز علوًا وهبوطًا على سطح مياه البحر الخضراء بلون عينى أبى، حينذاك بدأت ألاحظ كم تبدل حاله، وكنت قد انتبهت إلى بدايات هذا التغيير بذلك المقهى بالإسكندرية، لاحظته فى ذلك الذهول الذى لاح مع احتسائه للبيرة، التى لم يكن من عادته أبدًا أن يحتسيها بمثل ذلك التمهل، ساعتها كان المرح والثقة بالنفس اللذان يعدان سمة جوهرية فى شخصيته قد اختفيا.

كان الأمر برمته مربكا لى، فقد بدا كما لو أن الرجل الذى أدعوه أبى صار شخصًا آخر حل محل أبى الحقيقى، رجلًا يائسًا غريبًا عنى لم أعرفه من قبل.

لم يكن سن أبى خمسة وخمسين عامًا، كما هو مبين فى أوراق خروجه الرسمية، بل كان اثنين وستين أو ثلاثة وستين عامًا، لكنه كان يبدو أكبر سنًا من ذلك بكثير، وبينما باخرتنا تشق عباب البحر كان يتساءل، وهو يعانى من ألم متكرر يهاجمه، ألم لا ينفك يظـــهر ثم يختفى فى الفخذ ومفصل الفخذ، كان يفكر كيف سيبدأ من جديد فى البحث عن عمل، وكيف سيرعى أسرة مكونة من زوجة وأربعة أطفال بمن فيهم طفلة صغيرة، تتشبث به لإنقاذ حياتها.

أثناء إبحار الباخرة ماساليا عبر البحر الأبيض المتوسط، بمحركها الهادر توقفت أولا على سواحل اليونان ثم إيطاليا، لم أكن أتعامل تقريبًا مع سوزيت التى انتحت جانبًا و لم ترغب فى الانغماس فى ذلك الشعور الجماعى باليأس الذى ساد السفينة، فقد كانت على العكس من أبى، غمرها الشعور بالارتياح مع إقلاع الباخرة من الإسكندرية،

كانت مصر بالنسبة لها كابوسا حتى قبل إلقاء القبض عليها والغضب من سلوكها، مصر البلد الذى يفتقده أبى بشدة، والذى يبكيه حتى يسمح له بالعودة إليه مرة أخرى، لم يعد له وجود الآن بالنسبة لأختى سوزيت، كما أنه لم يكن موجودًا من قبل.

أخيرًا ها هى حرة، تستمتع بالتفكير فى حياتها المستقبلية فى الغرب دون القيود والأعراف الشرقية الخانقة.

سيزار
على سطح الماساليا

فى تلك الأثناء، كان أخى الأكبر سيزار يعانى على الدوام من دوار البحر، مما أفقده القدرة على التفكير بجلاء، فلم يشارك أختى سوزيت تفاؤلها اللامحدود، كما لم يشارك أبى يأسه اللانهائى، بل ظل معلقا فى منطقة وسط ما بين الاثنين، كان دائمًا ما يسارع بالصعود إلى ظهر السفينة، بحثًا عن الهواء الطلق، غير قادر على تحمل «فوبيا» الأماكن المغلقة التى كان يحسها داخل القمرتين اللتين كنا نشغلهما بالأسفل،

ولا تحمل ذلك الإيقاع الثابت لصوت المحركات، وصوت ارتطام الأمواج المستمر لكوة القمرة. لا أتذكر أى شىء عن أمى و لا إيزاك خلال الرحلة.

أخيرًا، رست بنا الباخرة ذات مساء فى ميناء جنوه، آخر مرفأ نتوقف فيه لفترة قصيرة قبل بلوغنا محطتنا النهائية فى فرنسا، وهناك على رصيف الميناء كان سالومون – ابن العمة الساحر المقيم فى ميلانو – ينتظرنا، كنت كثيرًا ما سمعت أنه يضاهى أبى طولًا، كان سالمون رائعًا مهيبًا شديد الأناقة، كان كل فرد من عائلتى وخاصة أمى يتوق لرؤيته.

كان ذلك أول لقاء بينهما منذ أن غادر سالومون مصر قبل أربعة عشر عاما فى عام ١٩٤٩، كان سالومون قد تزوج وأصبح أبا لثلاثة أبناء، كما أصبح رئيسًا لمؤسسة تجارية تعمل فى التصدير والاستيراد، وحقق نجاحًا كبيرًا فى فترة قصيرة، فاتسع نشاطه وامتد من أوروبا لإفريقيا، ومع ذلك ظل محل إقامته كما هو فى مدينة ميلانو، مدينة الصبا والشباب الحافلة بالذكريات، التى كان شبح والديه وأخته الصغيرة يكمن فى كل ركن من أركانها.

كان سالومون يقطن فى شقة بالقرب من كاتدرائية ميلانو duomo التى لم تكن تبعد عن الميدان الذى يقع فيه الحزب الفاشستى الذى أسسه موسولينى، وحيث أقامت عائلته بعد ولادته بوقت قصير، وحيث توجد المدرسة التى التحقت بها أخته فيوليت التى كتبت بها أول قصائدها الشعرية، وحيث يمكن رؤية السجن الذى كانت هى ووالداه محتجزين فيه، وهناك كانت محطة السكة الحديد التى استقلوا منها فجرًا القطار الذى توجه بهم إلى أوشفيتز دون رجعة.

سار بنا سالومون إلى مقهى قريب، معروف بين البحارة، وكانت زينة عيد الفصح التى امتلأ بها المكان، هى لمحة البهجة الوحيدة فى داخل ذلك المقهى المفتقر بشدة للضوء، ففى الجزء المخصص للمطعم بالمقهى ينتشر بيض عيد الفصح بكثافة، فهو إما متدل على نحو مغر من سقف المكان، أو مرصوص جنبًا إلى جنب على طول الأرفف العالية، كان البيض يبهر الأبصار بورق القصدير الفضى والذهبى الملفوف فيه، الذى تم عقده بفن بشرائط من الساتان، كان البيض مصنوعًا كله من الشيكولاتة، وكان عدد منه كبير الحجم يصل طوله إلى قدم.

استحوذت الشيكولاتة الملفوفة بأوراق القصدير على كل تفكيرى، فغادرت الطاولة لأتفحصها عن قرب، كان والدى وابن عمتى منهمكين فى الحديث، فلم يتنبها لذهابى ومجيئى، كانا مشغولين عنى مستغرقين فى ذكرياتهما، حين كان الشمل مجتمعًا

فى منزلنا بشارع الملكة نازلى، حين كان سالومون وأبى مع جدتى ظريفة ثم انضمت إليهم الشابة الجميلة الغريبة عنهم التى شاركتهم السكنى فى هذا المنزل، أمى إيديث.

كما عرجوا فى حديثهم للمأزق الحالى الذى نمر به وما يجب علينا عمله الآن، وقد حاول ابن عمتى اتخاذ الترتيبات اللازمة لإقامة سوزيت معه هو وعائلته، فذهب لمقابلة موظفين حكوميين على درجة كبيرة من الأهمية، للحصول على الأوراق الرسمية اللازمة لإقامتها، لكن دون جدوى، لم تسمح السلطات الإيطالية لأختى ذات التسعة عشر ربيعًا بالبقاء فى إيطاليا، أما بالنسبة لبقية العائلة، فعلى الرغم من أن ميلانو كانت تروق لنا نظرًا للرابطة الخاصة التى تجمعنا بسالومون والحب الذى نكنه له، فإنها ببساطة لم تكن خيارا ممكنًا.

كان العديد من المصريين اليهود قد استقروا فى إيطاليا واستطاع أغلبهم الادعاء بأنهم إيطاليو الجنسية؛ تحايلوا للبقاء فى روما وميلانو بادعائهم أنهم half-italian نصف إيطاليين، ملوحين بجواز السفر الإيطالى للزوجة أو الوالدين أو الأجداد.

أما نحن فكنا غير محددى الجنسية، مما كان يعنى أن تحركاتنا ستكون مقيدة بشدة.

أُذنَ لنا فقط بالذهاب إلى فرنسا، حيث سُمِحَ لنا بالبقاء عدة أشهر إلى أن نستقر على البلد الذى سيكون مأوانا الدائم.

بينما كنت أواصل تجوالى فى المقهى، أرنو بعينى إلى البيض المصنوع من الشيكولاتة رفعت نظرى لأعلى لأرى سالومون بقامته المديدة يقف ورائى، كان كأبى، قليل الكلام، لذا سألنى مباشرة عن أية واحدة من ذاك البيض أريد، وفجأة تحول ذلك المقهى المعتم الكئيب إلى مكان يفيض بالنور، استبدت بى الحيرة، كنت مدركة بأنه لا يليق أن أختار أكبر بيضة وأبهظها ثمنا ولكن فى الآن نفسه لن أختار الأصغر، فوقفت فى مكانى غير قادرة على اتخاذ القرار. أخيرًا مد سالومون ذراعه الطويلة إلى السقف وسحب بيضة من الرف العلوى وقدمها لى. كانت بيضة أنيقة وكبيرة مغلفة بورق فضى.

سألنى هل تروق لك ca va ؟

أومأت برأسى علامة الموافقة منبهرة بتلك اللفتة اللطيفة التى صدرت عنه، وعدت أدراجى إلى الطاولة، ملوحة بغنيمتى من بيض عيد الفصح، وعندما حان الوقت للعودة للباخرة، وقف الجميع وتعانق أبى وابن أخته، ولبث سالومون برهة بالقرب من أمى ثم احتضنها بحنان، ولوح لنا بيده ثم استقل سيارته وانطلق بعيدًا.

في أثناء سيرنا باتجاه السفينة شرعت فى فتح البيضة، تعين على أن أنزع طبقات من ورق القصدير والورق الشفاف والشرائط التى كانت تربطها، حتى رأيت أخيرًا معالم بيضة ضخمة على شكل الكرة الأرضية من شيكولاتة الحليب كسرت قطعة منها فوجدت البيضة مفرغة من الداخل وتبين لى أن ثمة هدية بداخل تلك البيضة التى هى فى حد ذاتها هدية، ففى الجزء العميق من بيضة عيد الفصح كانت توجد هدية مخبأة، ولقد التقطت أناملى أخيرًا كيسًا من ورق السولوفان يحتوى على حلق ذهبى، صغير، بسيط وجميل.

«سألت أبى هل تعتقد أنه من الذهب؟» tu crois c'est de l'or? انفجر أخواى فى الضحك عند سماعهما لهذا السؤال، فى حين لم يرد أبى بالإيجاب أو بالنفى، وضعت الحلق فى جيبى وتابعت سيرى، وصل إلى أسماعنا أصوات البحارة اليونانيين وهم ينادون بلطف على الركاب، ليسرعوا بالصعود إلى ظهر الباخرة، وكانوا يقدمون يد المساعدة للركاب الضعفاء كأبى أثناء سيرهم على المعبر الخشبى باتجاه السفينة.

رست السفينة أخيرًا فى مرسيليا بفرنسا، ورغم أننا كنا منهكى القوى من الرحلة، فإننا لم نحاول على الإطلاق المبيت فى أى فندق، بل أسرعنا بسحب حقائبنا الست والعشرين للحاق بقطار الليل المتجه إلى باريس، تَرَكَنا سيزار فى محاولة منه لاستكشاف المحطة، كان يرتدى سترته الجلدية الثمينة السوداء blouson noir التى كانت آخر ما اشتراه من مصر، حيث كان يعتقد أن تلك السترة هى جواز مروره للمجتمع الراقى بفرنسا.

وبينما هو يتجول لا يلوى على شىء، وجد نفسه فجأة محاطا باثنين من رجال الشرطة السريين فى ملابسهم المدنية، وقد دفعاه إلى حائط وقاما بتفتيشه فى محاولة للعثور على سلاح بين طيات ثيابه، لقد لاحظاه يتجول بالمحطة متشحًا بالسواد فاختلط عليهما الأمر، وظناه واحدًا من أفراد جماعة blouson noir «القمصان السوداء» التى كانت واحدة من جماعات شمال إفريقيا التى روعت فرنسا وتورطت فى أعمال الاحتجاج على الحرب المرفوضة ضد الجزائر، كان أى شاب تتطابق أوصافه من الناحية البدنية والعرقية لأوصاف تلك الجماعات، محلًا للشك فى أمره على الفور، وكان أخى الكبير نموذجًا نمطيًا بملامحه الشرق أوسطية ـ شعره المجعد، عيناه العسليتان، بشرته الشقراء وزيه الجلدى الأسود، وهو ما أعطى انطباعًا فوريًا بأنه مهاجر جزائرى.

أشار الشرطيان إلى سيارة لا تحمل أية أرقام، وطلبا منه الصعود إليها ومرافقتهما إلى قسم الشرطة للتحقيق معه، اتسعت عينا سيزار رعبًا، وهز رأسه بشدة علامة النفى لا،

لا فقد كان متأكدًا من أنه لو أطاعهما وصعد معهما إلى السيارة فلن يرانا مرة أخرى أبدًا، وفى محاولة منه لاستجماع حصافته المعهودة، أخبرهما أنه فعلًا لاجئ من شمال إفريقيا ولكن من مصر وليس الجزائر، واستحث الشرطيان متوسلًا أن يذهبا إلى والديه الموجودين فى مكان آخر فى المحطة: mon pere est la-bas avec ma mere et ma famille «أبى هناك مع أمى وباقى أفراد عائلتى». لم يبد على الشرطيين أى اهتمام بالبحث عنا فلم يكن أمام سيزار خيار غير مواصلة الحديث معهما لتوضيح الأمر والخروج من ذاك الكابوس.

ظل أخى ذو الستة عشر عامًا يؤكد لهم مرارًا و تكرارًا أنه لا ينتمى لأية جماعة وأن السترة الجلدية التى يرتديها ما هى إلا سترة رآها جميلة فقام بشرائها من القاهرة، ورغم عدم تأثرهما لحديثه البرىء فإنهما أطلقا سراحه على مضض بعد أن أمطراه بوابل من الأسئلة ثم انطلقا سريعا بسيارتهما غير المرقمة.

بعد مغادرتهما، ظل أخى يرتعد رعبًا تحت سترته الجلدية السوداء وقد لحق بنا ونحن نصعد القطار المتجه إلى باريس و لم ينطق بحرف عما حدث له. فلم يمر على وجوده فى فرنسا غير ساعة بالتمام والكمال وحدث له ما حدث.

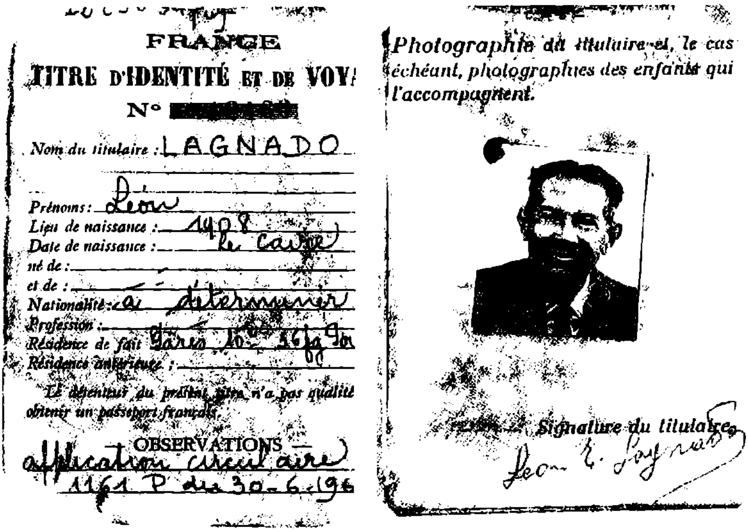
FRANCE
TITRE D'IDENTITÉ ET DE VOY
N° [redacted]
Nom du titulaire : LAGNADO
Prénoms : Léon
Lieu de naissance : 1908
Date de naissance : le Caire
né de :
et de :
Nationalité : à déterminer
Profession :
Résidence de fait : Paris 10e
Résidence antérieure :
Le détenteur du présent titre n'a pas qualité obtenir un passeport français.
OBSERVATIONS
application circulaire 1161 P du 30-6-196

Photographie du titulaire et, le cas échéant, photographies des enfants qui l'accompagnent.

Signature du titulaire

بطاقة هوية ليون، باريس ١٩٦٣، ومدون بخانة الجنسية «غير محدد»

خلدت إلى النوم وأنا أجلس بجوار أبى، كانت يدى لاتزال تقبض بقوة على ما تبقى من بيضة الشيكولاتة الإيطالية، وفى وقت ما بعد انتصاف الليل، فى مكان ما بوسط فرنسا توقف القطار فجأة، وقد أخبرنا بأن هناك إضرابا لعمال السكك الحديدية، وهكذا عَلقْنا فى القطار بسبب واحد من الإضرابات المعروفة عن اتحاد العمال الفرنسى، ولَم يكن أمامنا خيار غير البقاء فى تلك القاطرة المظلمة. تحولت الرحلة من مارسيليا إلى باريس إلى فترات انتظار طويلة موحشة فى مخازن السكك الحديدية المهجورة وقطارات متوقفة عن الحركة، كان التعب قد بلغ منا مداه فضلًا عن إحساسنا بالبرودة، وكم كنا مشدوهين مما يحدث لنا فى أول ليلة لنا خارج مصر.

أخيرًا، آن لليل الطويل أن ينجلى وأن تصل الرحلة عبر فرنسا إلى نهايتها، لقد وصلنا باريس وكان الوقت صبحًا والنور يعم الأرجاء.

أجرى أبى مباشرة اتصالًا هاتفيًا من المحطة مع وكالة الإغاثة اليهودية التى كانت تقدم المساعدات للأعداد المتدفقة من لاجئى اليهود القادمين من الدول العربية، كانت وثائق سفرنا كلها قد سجلت تحت خانة stateless «دون جنسية» فلم نكن قد حددنا بعد وجهتنا النهائية، وقد استعلم أبى وهو قلق عما يمكن أن تمدنا به الوكالة الآن بعد أن غادرنا مصر، فهو مسئول عن عائلة أنهكها السفر فضلًا عن أنه هو نفسه قد بلغ منه الإعياء مداه، وهناك طفلة ذات ستة أعوام، une petite qui est tres fragile «طفلة غاية فى الضعف» كان ذلك ما صرح به أبى لموظف الوكالة المسئول، وقد كان صوته تقريبًا منهكا من التوتر والتعب، وقد أعلمتنا الوكالة بأنه علينا التوجه إلى محل إقامتنا المؤقتة فى الحى العاشر بمدينة باريس حيث يقع فندق فيوليت violet hotel المقر المؤقت لنا.

كان لاسم الفندق وقع جميل فى نفسى، فقد توقعت أن تشرق من حوائطه زهور اللافندر وتنبثق من أرضياته زهور الليلاك، تحت سماء بها مسحة من لون زهور البنفسج، وياخيبة الأمل، كان ما وجدناه مخالفا لكل ما توقعته، إذ وجدنا أنفسنا نحملق فى بناء غريب قذر قبيح يغلب عليه اللون الرمادى، وفى الأجزاء التى سقط طلاؤها ظهر طوب وصخور كالحة اللون.

كانت حجراتنا تطل على زقاق معروف باسم «ممر فيوليت » وهو عبارة عن طريق ضيق تنتشر به محلات الأقمشة وورش لصناعة الفراء، ومصانع صغيرة لصناعة الأزرار والعرائس، لقد فحصت عبثًا الطريق الضيق بعينى، بحثًا عن ذرة للون الأرجوانى، فلم أر أثرًا له.

أما داخل الفندق فكان الأمر أكثر سوءًا.

لقد أصبح بيتنا الآن يتكون من حجرتين بهما ستة أَسِرَّة مع ست وعشرين حقيبة تبعتنا من محطة السكة الحديد، لقد جعلت منا تلك الحقائب الضخمة فى أحجامها ومقاساتها سجناء فى هذا الفندق، إذ احتلت مساحة كبيرة جدًا حتى إننا كنا نسير بحرص بالغ، لنتجنب أن تدمى أصابع أقدامنا من الاصطدام بأى منها، أو يتخبط بعضنا فى بعضنا.

كانت حجراتنا تقع بالطابق الثانى فى مبنى ملحق بالفندق، حاله أكثر سوءًا من الفندق ذاته، كان علينا أن نصعد مجموعة متصلة من درجات سلم متداع، حيث كان ذلك مؤلمًا لأبى فضلًا عن أن الأمر كان يتطلب منه توخى الحذر فى صعود لهذه السلالم.

فى باريس، عادت بغتة إلى الظهور تلك العصا التى كان أبى يتوكأ عليها، والتى حزمت مع أمتعتنا مصادفة حين تذكرناها عند مغادرتنا مصر، فنادرًا ما كنت أراه يتوكأ عليها فى القاهرة، حيث قضى سنوات تحت رعاية أشهر الأطباء الذين ساعدوه على إحراز تقدم ملحوظ على الحركة وفى الاعتماد على نفسه، لكنه الآن يحتاج إلى تلك العصا فى صعوده السلم وفى هبوطه له مرة أخرى.

لم يخطر ببالنا فتح أية حقيبة من الحقائب دون أن ندرى ما هو السبب فى ذلك، هل يرجع إلى حالة الإحباط الشديدة التى نشعر بها أم بسبب عدم جدوى فتحها الآن؟

كانت الحقائب التى حزمتها أختى الكبرى وهى فى قمة الإثارة وحشرتها بخزانة ثيابها الجديدة قد أصبحت الآن مدعاة للسخط والغضب، لماذا لا نفرغ محتويات تلك الحقائب؟ سؤال ظلت تطرحه على أبى، لماذا علينا أن نُبقى على الحقائب مغلقة كما لو كنا على وشك الفرار مرة أخرى؟

هز أبى كتفيه استهجانًا من أسئلتها، كأنه يقول لها بما أنها فى سن التاسعة عشر وفى طريقها لأن تبلغ العشرين، إذًا فلابد أن تكون ناضجة بما يكفى لتتبين الأمر من تلقاء نفسها، فباريس كانت مجرد محطة فى رحلة طويلة لم نصل إلى نهايتها بعد، فحين وصلنا فرنسا فى نهاية مارس من سنة ١٩٦٣، كنا لا نزال فى مرحلة انتقالية وكان الدليل على ذلك أن البطاقات المعلقة بحقائبنا التى كتب عليها famille Lagnado «عائلة لنيادو» كانت بلا عنوان.

على الناصية يقع شارع faubourg poissoniere «فابورج بواسونيار»، وهو شارع ضيق تعصف فيه الريح، وهو لا يختلف كثيرًا عن أى شارع باريسى فى ضيقه،

إلا أنه كان ثمة اختلاف كبير بينه وبين أى شارع مثله، فشارع بواسونيار والمنطقة المحيطة به كانت محطة دائمة لأجيال من لاجئى اليهود، الذين فروا من الدول التى لم تعد ترغب في وجودهم، وعلى مر السنين تغيرت ثقافة وتاريخ المكان، ولكن قصة المنفى والاضطهاد ظلت كما هى لم تشهد أى تغيير.

لقد كانت فرنسا على مر التاريخ نقطة مرور للاجئين، وقد عاد هذا الدور للظهور على أشده الآن، مع تدفق العائلات اليهودية كعائلتى، ففى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين تجمع اليهود الفارون من النازى فى تلك المساحة الصغيرة من الأرض بجوار الفندق، حيث قام بعضهم بفتح ورش وعملوا بتجارة الفراء، ولاحقا فى الخمسينيات والستينيات، حين سعى اليهود للهرب من العنف والاضطرابات التى سادت الشرق الأوسط بعد قيام دولة إسرائيل، فروا إلى فرنسا وأقاموا بشارع فابورج بواسونيار، لأنها كانت المنطقة الجاذبة للمهاجرين من الجزائر وتونس والمغرب وليبيا الذين تم تسكينهم فى تلك الفنادق الحقيرة التى كانت مركزًا لأعمالهم التى حققت ازدهارًا اقتصاديًا كبيرًا، ثم انضمت إليهم بعد ذلك طبقة أخرى من اللاجئين ممن كانوا يومًا ما عائلات ثرية ولها شأنها كعائلتى، من القاهرة والإسكندرية، الذين انقلبوا بين عشية وضحاها من الانتماء إلى علية القوم إلى أدناهم مصدومين مما أصبح عليه حالهم فى حياتهم الجديدة.

كان من الممكن أن تسمع خليطًا متنافرًا من اللغات، وأنت تتجول فى شارع فابورج بواسونيار - فهاهم كبارالسن من تجار الفراء مازالوا يتحدثون الألمانية والبولندية واليديش*، وهناك اللاجئون المغاربة الذين يتبادلون الحديث بلغتهم العربية، فى ظل هذه اللغات العديدة لم يعد يتحدث الفرنسية فى هذا الحى سوى بائعات الهوى والمخنثين الذين يعرضون بضاعتهم، ليس بعيدًا عنا، فى شارع سان دونيس.

كانت باريس فيما يتعلق بوكالات المساعدة تتمتع بنظام فعال نسبيًا يقوم بالتنسيق بين وكالات الخدمة الاجتماعية والإغاثة، التى سخرت كل طاقاتها لمساعدة اللاجئين من أمثال عائلتى، كان يتم تمويل تلك الوكالات من تبرعات المحسنين من أمثال «روتشيلد»، والإسهامات المادية للمنظمات اليهودية الأمريكية، فضلًا عن إسهامات الجمعيات الفرنسية فى محاولة منها لتخفيف آثار الصدمة التى حلت بأولئك المهاجرين، كان اللاجئون يمنحون على الفور أماكن مجانية للإقامة عبارة عن حجرة أو حجرتين فى فندق

* اليديش لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود فى روسيا وبلدان أوروبا الوسطى وهى تكتب بأحرف عبرية.

رخيص، فضلًا عن مساعدات فى شكل وجبات إضافية، كما أتيحت لهم فرصة التواصل مع موظفين رسميين لمساعدتهم فى الحصول على إقامة دائمة فى مكان ما من العالم.

كانت الوكالة الرئيسية التى قدمت لنا المساعدة فى باريس هى cojasor «وكالة كوجاسور»، المنظمة التى قدمت يد المساعدة يومًا لضحايا الهولوكوست، أما المؤسسة الأخرى التى لعبت دورًا هامًا فى تحديد مصيرنا فكانت hias «المؤسسة العبرية لمساعدة المهاجرين»، والتى كان مركزها الرئيسى فى نيويورك وكان لها فروع منتشرة فى أنحاء أوروبا، كان دور تلك المؤسسة هو إعادة توطين اليهود الذين أجبروا على الفرار بسبب الاضطرابات التى اجتاحت العالم العربى.

منذ اليوم الأول لنا فى باريس، أخذنا فى الانتقال من جمعية لأخرى، قامت «وكالة كوجاسور»، التى ساعدتنا فى اجتياز المرحلة التى أقمنا بها فى باريس، بتعيين السيدة اللطيفة «مدام دانا» كباحثة اجتماعية تتولى شئوننا وتساعدنا لتجاوز ذلك المأزق العصيب، بينما hias تساعدنا على التفكير بالمستقبل والاستقرار على المكان الذى نرغب البقاء فيه للأبد.

كانت الاختيارات واضحة ومحددة: إما إسرائيل أو أمريكا، فى تلك الأيام كنا نميل بشدة لإسرائيل، كانت أختى تحلم بلقاء جدتى ألكسندرا مرة أخرى، أما أبى فقد كان يأمل فى الانضمام لأقاربه هناك بمن فيهم أخوه شالوم المريض وأخته الصغيرة مارى.

كان أبى يذهب بصفة دورية إلى «وكالة كوجاسور» ليتسلم مخصصاتنا المالية التى بلغت ثمانية عشر فرنكا لليوم الواحد، أو بالأحرى ثلاثة فرنكات لكل واحد منا يوميًا، وكان من المفروض أن تغطى تلك الميزانية الهزيلة، جميع احتياجاتنا اليومية من الطعام والملابس إلى النزهة والذهاب إلى السينما، كان هذا المبلغ يُسلم لأبى بصفته المسئول عن تحديد وجوه إنفاقه علينا.

حين وصلنا فرنسا لم نكن نمتلك غير ٢١٢ دولارا وهو المبلغ الذى سمح لنا بحمله معنا حين غادرنا القاهرة وكان معظمه قد نفد.

كان أكثر ما يؤلم أبى -الذى أنفق عمره يستثمر فى البورصة ويؤمن غده- أن يجد نفسه معدمًا فجأة، ويعتمد على الإعانة المقدمة له ولأسرته للبقاء على قيد الحياة، لقد كان أبى دوما هو من يمد يده بالصدقة، لا من يمد يده ليأخذها.

كان ما يخشاه أبى هى تلك اللحظة التى يمد فيها يده، لكن لم تكن بيده حيلة ليتجنب ذلك، لقد سمعنا بالطبع عن عائلات نجحت فى تهريب ثرواتها من القاهرة، عن طريق

وسطاء موثوق بهم أو موظفين من القائمين على خدمة السائحين، وذلك بنقل أموالهم وجواهرهم، أو من خلال حسابات سرية فى بنوك سويسرا، لكن معظم اللاجئين من اليهود الشرقيين وجدوا أنفسهم على تلك الحالة حيث فقدوا ثرواتهم ومكانتهم الاجتماعية بليل فانقلبوا من أفراد ذوى نفوذ مادى من الطبقة البرجوازية إلى شحاذين.

أصبح على أبى الآن أن يوازن بين مطالب إخوتى، الذين يريدون مصروفا يوميا للاستمتاع بأقصى ما يمكنهم الاستمتاع به فى باريس، وما يحتاجه ذلك من نفقات وبين حاجات الأسرة الرئيسية.

لم يكن أبى ينفق شيئا على نفسه، لقد أصبح ذلك الوجيه القاهرى يتجول الآن فى معطف واق من المطر رث باهت اللون، ورغم فورة الشراء المحموم فى الشهور السابقة على رحيلنا، فإنه لم يفكر مطلقا فيما يمكن أن يكون بحاجة إليه فى العالم سوى مصر، كانت الأمطار قليلة فى القاهرة، ولذا كانت المعاطف الواقية من المطر نادرة، بل حتى المظلة المعتادة كانت شيئا غير مألوف، وكان نادرًا ما تراها حتى فى متجر كبير مثل شيكوريل أو المحال التجارية الكبرى الأخرى.

ولذا فقد طلب أبى من «وكالة كوجاسور» أن يشتروا له معطفا جديدًا واقيا للمطر، ولكن الوكالة رفضت، ومع أن هذا الطلب كلف الوكالة إرسال تلغرافات إلى مكاتب hais عبر البحار، لكن الإجابة ظلت دائما هى الرفض، لقد كان يجلس فى حجرتنا بالفندق يملؤه إحساس بالصد والإهانة، كان صوته يعلو فقط حين يأمر إخوتى بالصلاة مستجمعًا كل ما تبقى له من سطوة ونفوذ، كان قلقًا لأنهم يؤدون الطقوس القديمة بطريقة تشى بأن اهتمامهم بها أخذ يتضاءل مع الأيام.

كانت أختى التى كانت تجادلنا بحماس متقد لنغادر القاهرة، أكثرنا شكوى من فرنسا، فقد شعرت كأبى أن الحال الجديدة التى أصبحنا عليها nouveau pauvre «محدثى فقر» شىء لا يحتمل، فباريس التى كنا نعيش فيها، لم يكن لها أدنى صلة بباريس التى كانت فى أحلامها، والتى وصفتها كتب الأدب بالشاعرية، لم يخطر ببال سوزيت أبدًا أن تصبح معدمة فى اليوم الذى تأتى فيه إلى باريس التى تحتاج إلى نفقات باهظة حتى يمكن الاستمتاع بسحرها الذى لا حدود له.

أصيبت أختى بذعر دائم من ظروفنا المتدنية، من حجرة الفندق الضيقة التى تضغط على أعصابنا بشكل مستمر، من العلاقة مع الجيران التى اتسمت بالرتابة و لم تثر لديها

أدنى اهتمام، نظرًا لأنها غير قادرة على العمل، أو الالتحاق بأى مدرسة لانعدام الأوراق الرسمية اللازمة لذلك، واحتمال انتقالنا فى أى وقت، مما جعل الحصول على عمل أو الالتحاق بالجامعة شيئا لا معنى له.

كنا بالنسبة لوكالة كوجاسور مجرد ملف يحمل رقم ٤٥,١٣٥ قامت مدام دانا بإعداده وقد ضمنته ملاحظات عن حالتنا فضلًا عن تلك الكلمة الكئيبة stateless «دون جنسية».

غادرت سوزيت الفندق فى الصباح الباكر، لعدم قدرتها على تحمل مسكننا الجديد، وذهبت للتجول سيرًا على الأقدام فى أرجاء باريس؛ فلم تكن تملك نقودًا لتستقل المترو أو الحافلة، لم تكن قادرة على إزاحة اليأس الذى استبد بها، ولا الشعور بأنها إلى حد ما مسئولة عن تلك الورطة التى أوقعتنا فيها بتصرفها، فلو لم يقبض عليها، لكنا الآن فى بلدنا مصر المشمسة دائمًا وأبدًا، نحيا فى بيت حقيقى مؤثث وبين أصدقاء ولدينا ما يكفى من المال.

بعد شهر من وصولنا فرنسا تلقت أمى خطابا أغرقنا فى لجج من الحزن.

نونا nona ألكسندرا عثرة الحظ رقيقة المشاعر.. توفاها الله.

زهرتنا، زهرة إدولويز التى تنمو على سفح الجبل، غادرت الحياة منذ أسابيع قليلة بينما نحن لم نزل فى مصر لم نغادرها بعد. فى صباح نفس اليوم الذى سمعنا فيه نبأ وفاة جدتى ألكسندرا، كان أبى قد ذهب إلى «وكالة كوجاسور» ليخبرهم برغبتنا فى الذهاب لإسرائيل، كنا نأمل أن يجتمع شملنا مرة أخرى مع عائلتنا، وفيما بعد، فى عصر ذلك اليوم عاد إليهم معتذرًا وأخبرهم أننا قد بدلنا رأينا، كما قال لهم بصدق إننا لم نعد نعرف تمامًا أية وجهة نقصد.

لقد وصلنا الخبر المشئوم فى خطاب بالبريد الجوى أرسله لنا خالى فليكس، الذى يعمل الآن بجينيف، لقد فضل ألا يبلغنا بما حدث لعدة أسابيع حتى يجنب أمى الألم، على أية حال «لم يكن هناك ما يمكن القيام به»، فلم يكن هناك سبب يدعو لتعريض ترتيباتنا للهجرة لأى خطر، كان هو، بالطبع، فى سويسرا، يبعد مئات الأميال عن جدتى، وحتى حين تدهورت حالتها الصحية وفقدت كل أمل لها فى الحياة، لم يكلف خاطره برؤيتها رغم أنه لم يكن قد رآها لسنين، وقد قامت زوجته، إيمى، الغريبة عن أمه، بإخباره بنبأ نقلها للمستشفى.

استقل طائرة لإسرائيل ليصل، كعادته دائمًا، متأخرًا.

ألكسندرا بنت الإسكندرية، المرأة العجوز التى كانت أقرب ما تكون لطفلة، الجدة التى كانت هى نفسها بحاجة ماسة للاعتناء بها، ماتت وحيدة ذاهلة فى مستشفى، راقدة على فراش مرضها فى وحدة وعزلة عن الناس، كما كان حالها دائمًا فى مسيرتها، منذ ستة أعوام، بين بساتين البرتقال فى جانبيه تكفاه.

ذكر خالى فليكس فى خطابه المطول المكون من اثنتين وعشرين صفحة: «إنها ترقد الآن بسلام بعد أن عاشت حياة مليئة بالتضحيات والمعاناة والبؤس»، و لم يساعد ما قاله خالى على تهدئة أمى أو إدخال الراحة إلى نفسها، فلم يكلف خالى خاطره بتحديد تاريخ وفاة ألكسندرا، فى أى يوم، فى أى شهر، ما سبب الوفاة، هل مرضت طويلًا أم عانت من مرض مفاجئ، لكن ثمة سطرا واحدا فى خطاب فليكس كان بحق باعثًا على الراحة «لقد قيل لى بأنها ظلت تسأل عنك وعن الأولاد حتى آخر لحظة من عمرها».

أصابت تلك الأخبار أمى باليأس فلزمت الصمت، لقد صُدمت مرة أخرى، الأولى فى القاهرة والآن وهى معنا نحن الخمسة فى باريس، بعيدة عن الإنسان الوحيد الذى أحبته حبًا مطلقا، لم تكن مع ألكسندرا حين وافتها المنية، لم تر الجثمان، كما فاتتها الجنازة.

لن ترى جدتى أو تتحدث معها بعد الآن، لن تسمعها تغنى بعضًا من أغانيها الإيطالية القديمة المفضلة لديها عن الحب، لن تقدر على أن تضم جسدها الرقيق إلى صدرها أو تمشط شعرها الحريرى الذى صار لونه أبيض من الأسى والحزن، والآن، دون مال أو وسيلة للسفر لن تكون قادرة حتى على زيارة قبرها لمرة أخيرة.

كان حال أمى عند وفاة أمها ألكسندرا أسوأ من يوم وفاة ابنتها ألكسندرا.

كانت مدام دانا من «وكالة كوجاسور» هى أول من لاحظ تبدل حال أمى، وقد دونت الباحثة الاجتماعية فى ملفها مدى الانهيار العصبى الذى تعانى منه أمى، ومدى إهمالها لنفسها وتشعث شعرها، كان واضحًا أنها لم تعد تهتم بمظهرها، وقد أبدت مدام دانا قلقها بشأن سلوك أمى المتسم بالسلبية وعدم اعتراضها على أى شىء يقال لها أيًا كان أمره، و لم تعد لدى أمى أى رغبة فى الحياة، لم تعد لديها الرغبة فى أن تقول نعم أو لا، لم يعد لها من إرادة لتطلب أو ترفض شيئًا، فماذا يمكن لباحثة اجتماعية أن تفعل لمساعدة تلك المرأة الجميلة ذات الصوت الخفيض، التى ظهرت عليها علامات

كبر السن وهى لاتزال بعد صغيرة فسقطت أسنانها قبل أوانها، المرأة التى كانت ذات يوم جميلة لكنها لم تعد كذلك الآن؟

اكتشفت سوزيت الآن أن باريس بلد لا يطاق، كانت تحيا على أمل أن ترحل إلى إسرائيل وتنعم برؤية جدتى مرة أخرى، لكن ماذا تعنى إسرائيل الآن بعد رحيل ألكسندرا؟ أرض ميعاد ما عادت تعد بشىء، ففى عالم لا توجد فيه جدتى تفقد كل البلاد جاذبيتها، لم يعد ثمة بلد يمكن لسوزيت أن تشير إليه وتقول نعم هنا أريد أن أعيش.

حتى أبى، الذى كان مستاء من تأثير ألكسندرا علينا وعلى أمى، وجد نفسه يرتعد لتوالى أنباء الوفاة ، أخاه رافاييل، أخته ريبيكا، وأخيرًا حماته التعسة سيئة الطالع، الآن صار أبى هو الآخر مذبذبا، بعد أن كان أكثرنا رغبة فى الذهاب لإسرائيل.

لقد أصابنا نبأ رحيل جدتى بنوع من التردد المرضى، فحاولنا مماطلة كل من وكالة كوجاسور وhias إلى أن نتمكن من الوصول إلى قرار، وأخيرًا تقدمنا بطلب للإقامة بأمريكا، على الرغم من أنه لم يكن واضحًا على الإطلاق أنها المكان الذى نرغب فى الذهاب إليه، كان النقاش الدائر بين إخوتى إما شديد الانفعالية أو يكرر نفسه بشكل ممل، كنت أستمع لنفس الأصوات وهى تتكلم عن الآمال والتوجسات مرارًا وتكرارًا، كان التوتر يحتدم فيتصايحون، ثم يسود الهدوء مرة أخرى، فيبدو أنهم قد توصلوا إلى اتفاق جماعى.

كانت إسرائيل خيارًا أسهل من الولايات المتحدة التى كان استيفاء طلب الهجرة لها عملية تستلزم مجهودا شاقًا قد يصل إلى شهور، كانت هى المكان الذى استقر به العديد من أفراد عائلتنا، وعلى الرغم من رحيل ألكسندرا، فإن إسرائيل كان بها العشرات من أفراد عائلة أبى الذين كانوا على أتم الاستعداد للترحيب بنا، لقد بدت إسرائيل مكانًا مثاليًا لكى نبدأ من جديد ونعيد بناء حياتنا، وهكذا كانت تمضى المناقشات.

من ناحية أخرى كان أخواى يخشيان التجنيد فى الجيش الإسرائيلى، وهو أمر مؤكد إذا وقع اختيارنا على إسرائيل، التى كانت بلدًا يقع تحت التهديد الدائم بالحرب، وذلك بالإضافة إلى ما وصل إلى أسماعنا من صعوبة العثور على عمل هناك، وتدنى الأجور وكيف أن إمكانية الترقى فى العمل محدودة.

أما عن العقارب، فحدث ولا حرج، كنا نخشى مواجهتها حيث كنا سنقيم فى الخيام، كنت أرتعد خوفًا من مجرد التفكير فى هذا الأمر.

الأمل ينتظرنا بأمريكا، هذا ما أعلنه سيزر، فى انتصاره لفكرة الراحة وخلو البال وثقافة المتعة التى أدركها جيدًا من مشاهدته للأفلام الأمريكية أيام كنا بالقاهرة. شاهد أخى مفتونًا لقطة من فيلم لشابى شيكيرز الذى كان يؤدى دورًا فى فيلم the twist «رقصة التويست» فأصبحت رقصة التويست وموسيقى الروك بمثابة دين جديد له، أمريكا تنادى، ليس للفرص التى يمكن تحقيقها هناك فحسب، بل لأنها مغرية، لكونها البلد الذى يوجد فيه شابى وإلفيس بريسلى حيث يرقص الجميع رقصة التويست ويتمايلون على أنغام الروك أند رول، فى ربيع ١٩٦٣، بدا أن أمريكا تمتلئ بالكثير مما نحن فى حاجة ماسة إليه: السلام، ملكية منزل، الأمان، إمكانية تكوين ثروة مرة أخرى واستعادة حياتنا المفقوده.

ظللت أسمع عن الطرقات المفروشة بالذهب فى أمريكا، وصدقت بالطبع ذلك القول بحذافيره. فكنت أغلق عينى وأتخيل السيارات تنساب فى شوارع مدينة نيويورك البراقة، وأنا أسير على رصيف ذهبى، فيا له من اختلاف جميل مغاير لشوارع باريس رمادية اللون.

بدا والداى غير قادرين على الوصول إلى حل لهذا التشاحن، كما لم يكونا على استعداد للمخاطرة بفقدان ابن لهما فى الخدمة العسكرية، التى كانت المانع الحقيقى من الذهاب لإسرائيل. بدت أمريكا مطمئنة إلى حد ما، لم يكن ثمة أى كلام بشأنها، كما لم تصل أسماعنا أية أحاديث بشأن الأحداث المشتعلة فى فيتنام، لم يكن هناك أية لمحة بأنه فى خلال عام أو اثنين سيكون هناك خدمة عسكرية فى أمريكا.

فيما عدا أمر العقارب، كانت أمى مرتاحة لذهابنا لإسرائيل، ولكنها كانت لاتزال فى حدادها على رحيل ألكسندرا، الذى فقدت بسببه الحافز الرئيسى للذهاب إلى هناك، أو لأى مكان آخر، ولولا وجود زوج وأربعة أولاد فى حياتها لشعرت أنها وحيدة بلا جذور. لم يستطلع أى منهم رأيى، ولو أنهم سألونى كنت سأخبرهم دون تردد: دعونا نعود أدراجنا إلى القاهرة، دعونا نبحث عن بسبس.

كان على أبى أن يتخذ القرار النهائى، لكنه هو الآخر كان ممزقًا، كما كان يعانى آلامًا جسدية، فقد كانت آلام ساقه تشتد عليه أحيانًا. وقد ظل أبى على مر السنين يراسل أطباء أوروبا الذين حثوه على المجىء إليهم ما أن تطأ قدمه أرضها، ولهذا كان أبى يطوف بأنحاء باريس حاملًا صور أشعة X السوداء القديمة التى جلبها معه من القاهرة.

ذات يوم حملها معه إلى «وكالة كوجاسور» حين كنا نثبت حضورنا، وأخبر مدام دانا، باحثتنا الاجتماعية، بأنه يأمل في استشارة المتخصصين في جنيف وميلانو ولندن بشأن ساقه التي تؤلمه، بهتت مدام دانا بحق عند سماعها ذلك.

سألته إن كان لا يدرك أننا بلا هوية، وأننا في مثل تلك الحالة نكون خاضعين لأوامر مشددة بالبقاء في محيط باريس؟ قالت، وهي تهز كتفيها في لامبالاة، إن خياره الوحيد هو أن يستشير الأطباء هنا. لقد كانت مخادعة كبيرة، بالطبع، في حين بدا علينا الاستنكار.

لم يكن لدينا مال لاستشارة كبار المتخصصين في باريس أو ميلانو أو جنيف أو حتى لندن، كانت بوابة علاجنا في عالم الطب الغربي الذي حلمنا بالولوج إليه منذ أمد بعيد عبارة عن عيادة مجانية للفقراء. كنت أنا أيضا في حاجة للرعاية الطبية، فقد عاودتني الأعراض المثيرة للقلق لمرض حمى خدش القطة، وذلك بعد وقت قصير من وصولنا وربما كانت موجودة دون أن نلحظها في تلك الأيام الأخيرة التي سادها تضارب الأمور بالقاهرة، بدأ الورم الغريب الذي ظهر في فخذي اليسرى والذي ألقى الطبيب المصري اللوم فيه على بسبس في الظهور، وقد أصابني الخوف، ما الذي حدث للعلاج السحري الذي شفاني على يدي موسى بن ميمون؟ هل اختفى الآن لأننا بعدنا كثيرًا عن ضريحه المقدس؟

شعرت بأن عائلتي قد انتابها القلق على صحتي، فكانت أمي تتنهد في حسرة قائلة: loulou est encore malade «لقد عاود المرض لولو مرة أخرى». تساءل والداي كلاهما كيف يمكنهما بحق السماء رعايتي في تلك الحجرة الحقيرة في ذلك الفندق، في مدينة لا يملكون فيها مليمًا و لا يعرفون فيها مخلوقًا.

تلاقى قدرنا أنا و أبي مرة أخرى، حين غامرنا بالذهاب إلى العيادة المجانية، للبحث عن إجابة ـ ولكن لم يعرنا أحد انتباهًا، ساءت حال أبي، إذ أصبح يسير بخطى ثقيلة غير ثابتة، وصارت حركته محدودة. على مبعدة ناصيتين من فندقنا كانت توجد مقاه وبارات في الهواء الطلق في الشارعين الشهيرين مونمارتر وكابوسين، وبعدهما بمسافة ليست بعيدة توجد مقاه وبارات شارع الأوبرا وشارع هوسمان الأكثر فخامة، إلا أن أبي لم يحاول استعادة دوره القديم كرجل سهرات وحانات في مدينة الحانات والمقاهي، بل كان يقضي كل وقته في حجرتنا بالفندق لا يفعل شيئا سوى الصلاة.

الفصل الرابع عشر

عيد الميلاد المنسى

كان ذلك فى باريس، عندما كاد عيد ميلادى أن ينسى.

كنا قد وصلنا منذ بضعة شهور وبقينا عالقين بفندق فيوليت. وخوفًا على مستقبل أخوىّ حسم أبى أمره وأخذ قرارًا بأن نهاجر إلى أمريكا، لم يكن معنى إتخاذنا هذا بأنه سيكون من المحتم أن تقبل أوراق هجرتنا، كان طلب الهجرة الذى قدمناه يأخذ طريقه عبر الأضابير البيروقراطية للوكالات العالمية لإعادة توطين اللاجئين، ورغم مرور كل هذا الوقت، ظلت حقائب سفرنا على حالها كما حزمناها فى مصر.

أخذ أبى يتجول أحيانا مستكشفًا مونمارتر، حيث توجد ملاه فى الهواء الطلق بجميع مظاهرها المعتادة من منادين يدعون المارة للدخول، ومن ألعاب الحظ المختلفة، واستعاد أبى روحه المرحة بعد عثوره على متنفس للعب القمار فى الأكشاك الصغيرة التى يمكنك أن تلعب فيها ألعاب حظ بأقل من فرنك، مثل عجلة الحظ الدوارة، وكان يمكن لمن يلعب أن يكسب ساعات، أطباقاً، سكينة جيب، راديو ترانزيستور وأحيانا جواهر وهى ما كنت أتمناها كثيرًا حيث إن كل ما أمتلكه من ذهب كان زوجا من الأقراط كنت قد وجدته داخل بيضة عيد الفصح المصنوعة من الشيكولاتة، أصبحت الملاهى مقصدًا ثابتًا لوالدى يذهب إليها يوميًا بعد أن يصلى صلاة الصباح، وقبل أن ينضم للاجئين البائسين الذين يتجمعون فى منتصف النهار بالمطعم الخيرى القريب منا.

كانت وكالة الإغاثة اليهودية كوجاسور cojasor قد وضعت نظامًا محكمًا لتقديم الوجبات لموجات المهاجرين اليهود من مختلف أنحاء شرق المتوسط، فخصصت مطعمًا

جماعيًا فى شارع ريشيه richer يقع على مبعدة شارع واحد من الفندق، وكان يقدم وجبات غذائية متكاملة وساخنة، تعد طبقا للتعاليم اليهودية المتشددة بأسعار رمزية، وكان يأتى يوميًا فى حوالى الثانية عشرة ظهرًا بعض وجهاء المجتمع الباريسى، من الحى السادس عشر ليساعدوا فى إطعام أسر الفقراء والمحتاجين، التى أصبحت أسرتى الآن واحدة منهم فى الريشيه le richer كما كنا ندعو هذا المطعم، كانت تقدم الوجبات طازجة وبكميات كبيرة، كل عدة دقائق كان يأتى إلى مائدتنا أحد المتطوعين متأنقا بالكثير من الجواهر، عارضا ملء أطباقنا بمزيد من الطعام من وعاء كبير موضوع على عربة يسير بها بين صفوف الموائد، كانوا يبدون متحمسين لأن يقدموا لنا المزيد من أطباق طعام ذى مذاق مختلف ولكنه لذيذ، وخصوصًا اللحم البارد الذى يقدم مرة كل أسبوع مع الخبز والمستردة، لم أكن قد تذوقت طعم اللحم البارد فى القاهرة، حيث إن المتعهد الوحيد لطعام الكوشر، كان قد غادرها قبل أن نغادرها.

وجدت أن الشرائح الرفيعة من اللحوم الباردة (اللانشون والسالامى) التى كانت تقدم لنا فى le richer ذات طعم ساحر، وليست مثل أى طعام أكلته فى حياتى.

كانت هناك كونتيسة عجوز - أو هذا على الأقل ما قاله أخى سيزار عمن تكون - تتدلى من يدها أساور ذهبية، وترصع كل إصبع من يدها بأحجار كريمة، كانت هذه الكونتيسة تأتى إلينا لتسألنا نفس السؤال المتكرر بصوتها الأرستقراطى ذو النبرات الرفيعة الحادة، الذى كان أخى يحب أن يقلده، قائلة:

كثيرًا أم قليلًا؟ beaucoup ou un peu ?.

إذا أومأنا بحياء beaucoup (كثيرًا) فكانت تكدس أطباقنا بأكوام هائلة من اللحوم والأرز والخضار والبطاطس أما إذا قلنا لها un peu (قليلًا) فستظل تحاول أن تملأ أطباقنا إلى الحافة، ففى الحقيقة لم يكن يهم ما هى إجابتنا، كانوا يشجعوننا على أن نأخذ طعامًا معنا إلى المنزل، لقد كان من ضمن الخدمات فى فندق فيوليت مطبخ صغير به فرن صغير،حيث كان بإمكاننا أن نعيد تسخين بواقى الطعام واستخدامه لعشائنا، ورغم أن المتطوعين كانوا شديدى اللطف، ويتأكدون أنهم لم يتركوا أحدًا جائعًا فإن أغلبنا وجدوا le richer ينقصه الكثير من احتياجاتنا، فأبى يفتقد وجبته البسيطة من العيش الشامى والجبن، وأختى لا يمكنها الاعتياد على الضوضاء وانعدام الخصوصية التى تتسم بها جلسات الطعام، أما أنا فقد كنت أشتاق كثيرا لجلستى فى حجرة طعامنا بالقاهرة حين كنت أمرر قطعًا من الطعام من طبقى إلى قطتى بسبس.

كانت الأيام تمر يومًا تلو الآخر ولم يكن لدينا ما نفعله سوى أن نذهب للغداء ونضم لجماعة الضائعين الذين كانوا يشاركوننا الإحساس بفقدان الأمل.

وجدت متنفسًا فى مصاحبة أمى أثناء تجوالها فى باريس وهو ما جعلنى أنسى عالم المنفى الذى أعيشه والإحساس بالضياع وقد حدث ذلك نتيجة لحالة الذهول التى انتابت أمى بعد أن بلغها نبأ وفاة ألكسندرا؛ فأخذت تمشى لمسافات طويلة وتأخذنى معها، ممسكة بيدى بقوة و تجبرنى أن أسير معها لساعات لا نلوى على شىء فى أنحاء باريس، كنا نقطع ممر فيولت ومنه إلى شارع مونمارتر بمحلاته الرخيصة التى تعج بالحركة وصخب المشترين الباحثين عن بضائع بأسعار متهاودة ثم نكمل طريقنا ونسير أميالا حيث تتغير المشاهد التى نراها فتصبح أمامنا المحلات الهادئة الخالية من الزحام، والناس ينظرون لواجهات المحلات وهم مهرولون.

كم قطعنا من شوارع ضيقة وشوارع عريضة فخمة، واستكشفنا، أزقة وعبرنا جسورًا وجزرًا، لم يكن بوسعى سوى أن أقبض على يدها بقوة وأحاول أن ألاحق مشيتها، كانت مشيتها سريعة محمومة، على النقيض من مشية أبى البطيئة وهو يجر قدمه بثقل ومعاناة.

الكلمات المحدودة التى كانت تتبادلها أمى مع أبى كل يوم، لم تكن لتزيد على أن تسأله عن بعض العملات المعدنية، التى كانت تنفقها بحرص، لم نكن نملك إلا القليل لكنها كانت تحيينى وتشترى لى آيس كريم أو شيبسى، وكان من اللازم أن يكون أحدهما وليس كلاهما، ولهذا كان على يوميا أن آخذ القرار الصعب، والشبيه فى صعوبته بحيرة أهلى فى الاختيار ما بين الاستيطان فى أمريكا أو إسرائيل.

أنا الأخرى لم يكن الأمر علىّ بيسير، فلم أكن بقادرة على الاختيار بين آيس كريم الفانيليا البارد المنعش وبين بطاطس الشيبسى المملحة المقرمشة التى لم تتذوقها شفتاى قبل قدومى فرنسا، حاولت بلا جدوى أن أتماشى مع القيود التى فرضت على رغباتى والتى لم تخضع لأية قيود من قبل، رغبات فتاة شرقية مدللة، اعتادت على النظر إلى العالم من شرفتها الجذابة المواجهة لشارع الملكة نازلى.

أحيانا، كان لمسيرتنا هدف ووجهة نقصدها، فكنا نذهب لاستكشاف محلات بريونيك prisunic التى تباع فيها كل البضائع بأسعار تتراوح بين خمسة أو عشرة سنتات وكان يمكن المفاصلة فى الأسعار، أو نذهب إلى **tuiletries gardens** حدائق التولورى التى كانت مساحات الخضرة الشاسعة بها تدعو إلى راحة النفس، ولكن أكثر

ما كان يبعث السعادة فى نفوسنا هو الذهاب إلى parc monaceau موناكو بارك الواقعة فى الحى السابع عشر، وهى حدائق وملاعب للأطفال يرتادها الأثرياء، ودهشت أن الدخول إليها مجانا فكان من الممكن أن ندخلها، إذ إن كثيرا من الأماكن فى باريس كان دخولها محظورًا علينا مقاهى باريس وحانتها الصغيرة، المسارح، الأوبرا، والكوميدى فرانسيز، إذ كان الذهاب إلى تلك الأماكن مكلفًا على نحو لا تطيقه ميزانيتنا.

بينما نحن نهم بعبور البوابة الحديدية المحفور فيها بالذهب حرفا pm، أخبرتنى أمى بأن تلك الحديقة كانت ملاعب طفولة الأديب الفرنسى المعروف مارسيل بروست marcel proust، قالتها أمى بكل وجدانها وبإحساس قوى، حتى أننى شعرت أنها تتوقع منى أن أستغرق فى كل هذا السحر الذى قالت إنه يحيط بهواء المكان وحشائشه، حتى المراجيح والملاعب.

لاحظت التغير الذى طرأ على أمى لحظة دخولنا المكان، كما لو كنا قد وصلنا إلى مكان يرتفع فيه مستوى الأكسجين، فتمكنت من التنفس بهدوء مرة ثانية هناك بين الحدائق اليابانية والجداول الجارية، تحت ظلال مجسم مقلد لأهرامات مصر وبقايا معبد رومانى، وحيث تحبو الأطفال أمام نظر مربياتهم الإنجليزيات، بدت أمى كما لو كانت الحياة قد عاودتها، وارتد إليها جمالها.

بينما إيديث جلست على أحد المقاعد شاخصة إلى الأمهات الشابات الأنيقات، شاعرة بأنها ليست شابة أو أنيقة، لكنها دون ريب كانت أكثر أملا، أخذت أجرى على الحشائش، أطعم البط السابح فى البركة، أتسلق التلال وأشاهد عروض الأراجوز، جنبًا إلى جنب مع الأطفال الآخرين، الذين كان ثمن ثوب من ثيابهم يساوى أكثر من كل ما تمتلكه عائلتى الآن.

كان لتلك الملاعب الرملية والمراجيح أثر فى توازنى النفسى، حيث بدأت الاندماج مع فتيات «موناكو بارك» الأثرياء فى ألعابهم و للغرابة كنت أشاركهم اللعب بكل حرية ودون أية مشكلات، إن هذا المكان الخاص بأغنياء باريس، بدا أكثر الأماكن مساواةً بين البشر.

من المؤكد أننى لم أشعر بالغربة فى هذا المكان كما كنت أشعر بها فى مدرستى، فقد التحقت بمدرسة شابرول ecole chabrol، التى تقع قريبًا من الفندق، وعلى الرغم من أنها كانت مدرسة عامة، كل تلاميذها من أبناء الطبقة العاملة، فإنى كنت أشعر بأنى أقل شأنًا من زميلاتى بالفصل، واللاتى كن يحضرن مرتديات مريلة زرقاء أو وردية اللون من النايلون على أحدث خطوط الموضة فوق ثيابهن، لم يكن فى إمكان

والدى أن يشترى لى مثلها، كنت أشعر بغربة عن المكان وأننى غير متلائمة معه فى البنطال الفضفاض الداكن من الصوف والسترة اللذين لا يوجد بينهما وبين أحدث خطوط الموضة أية علاقة، واللذين أحضرتهما معى من القاهرة دون رداء فضفاض ملون فوقهما، كنت أعانى فى صمت، ولا أجرؤ على الشكوى.

عدت بذاكرتى إلى الوراء فى حنين إلى سترتى ذات اللون الأبيض والرمادى التى كانت مطرزة بشعار مدرستى، ذلك الزى الخاص بمدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق.

فى اليوم الأول من الدراسة هناك كنت أتجول كثيرًا فى الفناء مع زميلاتى، كنت أشعر وأنا فى ثوبى القطنى الأنيق بأنى قد كبرت، وبأنى أساير أحدث خطوط الموضة، كنت أضع كتبى فى حقيبتى المدرسية المصنوعة من الجلد البنى التى كان أبى قد اشتراها خصيصًا لى فأحملها بين ذراعى comme les grandes filles مثل الفتيات الكبار.

فى آخر يوم لنا بمنزلنا بشارع الملكة نازلى، وبينما نحن نتخير ما نأخذ أو نترك من أغراض لوضعها فى حقائب سفرنا، ظللت أحدق فى حقيبتى الجلدية الموضوعة على مائدة الطعام، حاولت عشرات المرات أن أمد يدى لألتقطها، ولكن بسبس كانت تطوف بالمكان فتستأثر بكل انتباهى، وهكذا خرجنا من المنزل وبقيت الحقيبة فى مكانها على المائدة.

لقد اكتشفت أن الفتيات الفرنسيات طالبات «مدرسة شابرول» مختلفات، حتى أن الفرنسية، لغتى الأم، بدت غريبة على مسامعى، كنت عندما يحين وقت الغداء أذهب لعائلتى عند ريشيه، على الرغم من أن الفتيات الصغار كن لا يذهبن إلى عائلتهن بل يبقين فى الكافيتريا، أو فى المدرسة أثناء استراحة بعد الظهيرة، فقد كنت أجلس وحيدة فى إحدى زوايا فناء المدرسة، وأتضرع إلى الله أن أقوى على الصمود حتى النهاية.

لم أكن على يقين من الشعور الذى انتابنى حين فاجأتنى مدرستى بهدية، هل هو السرور أم الإهانة !؟

ذات صباح، حين دخلت الفصل وجدت صندوقًا على مقعدى، بداخله حقيبة صغيرة للكتب من قماش الكانافاه ذى اللون البيج منقوش عليها بالجلد pour loulou «إلى لولو». هل لاحظت مدرستى المسئولة عن حضورنا اليومى إحساسى بالوحدة والخيبة؟ ذلك أنه على الرغم من مرور شهور على وجودى بالمدرسة فإنه لم تكن لى صديقة واحدة وبالكاد كنت أتبادل الحديث مع أية زميلة.

بشكل أو بآخر استطعت أن أنهى السنة الدراسية بتفوق فقد كانت درجاتى مرتفعة ونلت الجائزة الأولى فى la distribution des prix «حفل توزيع الجوائز» الذى كان

يقام على مسرح المدرسة، حيث يحضر عمدة باريس لتسليم الجوائز، حين نودى على اسمى توجهت إلى خشبة المسرح حيث صفت كميات من الكتب على طاولة مديدة، وقام عمدة باريس بمصافحتى وقدم لى مجموعة من الكتب، ربطت معا بشريط من الحرير فى ذلك اليوم، مضيت مع أمى إلى وكالة كوجاسور لنطلعهم على الجائزة التى نلتها، مجموعة كتب من أعمال «هانز كريستيان أندرسون»، كتاب فى التاريخ وقاموس لارووس الضخم ، كانت أمى سعيدة على غير عادتها، كما أشرقت ابتسامة مدام دانا وتملكتها الفرحة، ربما من أدائى فى المدرسة، وربما لأن إيديث قد ابتسمت أخيرًا وهو الأكثر احتمالاً

كان يوم ١٩ سبتمبر، وهو يوم ميلادى يقترب، وكنت على يقين من أن كل شىء سيكون مختلفا يومئذ، كان هذا يرجع لإيمانى الطفولى بالقوة السحرية لأعياد الميلاد، وربما كان بعض من هذا السحر يرجع إلى ما اعتدته فى القاهرة، حيث كان عيد ميلادى يومًا لا ينسى، فكأن العالم كله قد توقف عن فعل أى شىء سوى جعل هذا اليوم أسعد و أروع ما يمكن، وكان أبى وراء ذلك كله.

كان يوم ميلادى فى القاهرة يبدأ دائمًا بدق جرس الباب فى الصباح الباكر.

فكان أبى ينادى من مقعده بجوار النافذة المواجهة لشارع الملكة نازلى، loulou،c'est pour toi «لولو، إنه لك». فكنت أجرى إلى الباب لأجد عبده البواب حاملا صندوقًا ضخمًا من الكرتون الأبيض يحمل الاسم المميز بحروف زرقاء maison groppi «بيت جروبى»، كان عبده يناولنى الصندوق الثقيل جدا لأحمله، لم تكن بى حاجة لأفتحه حتى أعرف ما بداخله، ذلك الصندوق الأبيض من بيت جروبى كان يصل بيتنا فى يوم عيد ميلادى منذ أن وعيت.

حتى آخر عهدنا بالقاهرة كان أبى يعمل على إشباع شغفى بجروبى، كان ذهابنا إلى جروبى طقسًا يوميًا لنا أنا وهو، كما كان الحال مع إخوتى فى السابق، حتى أختى المتمردة العنيدة كانت تسعد بمصاحبته إلى جروبى وتسمح له بدعوتها إلى أصناف من الحلوى، ولأننى كنت لا أطيق فراق جروبى فقد كنا نأخذ إلى المنزل ما يذكرنا به فنشترى مثلًا crème chantilly الكريم شانتييه الشهى اللذيذ الغنى بالكريمة، وكان العامل المختص يضع الكريمة فى علبة من الكرتون الأبيض المضغوط ثم يلفها برباط، وهكذا يمكن للكريمة أن تصمد حتى نعود إلى المنزل فى شارع الملكة نازلى.

لكن الصندوق الذى كنت أحمله يوم عيد ميلادى، من الباب إلى حجرة المعيشة، كان أكبر، كنت أفتحه بسرعة لأجد بداخله ما يشبه تورتة الزفاف، كبيرة، بيضاء مع

حروف من السكر الوردى اللون وزهور من الحلوى تزين التورتة، وغيرها من الزينات المتقنة المصنوعة من الكريمة، وعلى وجهها كتب bon anniversaire «عيد ميلاد سعيد» بحروف من الزبد المخفوق، ومع أن الوقت يكون مبكرا جدًا لتناول قطعة منها، لكن لا يهم فقد كان من الصعب على مقاومة الإغراء.

كان أبى يساعدنى فى تقطيع التورتة إلى قطع كبيرة، لتقديمها لأفراد عائلتى الذين تجمعوا على أريكة بحجرة المعيشة، كان بالطبع مسموحًا لى أن آكل من التورتة كيفما أشاء، حاولت دون جدوى إغراء بسبس لتذوق بعض التورتة، وذلك بتقريب قطعة من أنفها، ولكنها بدت الوحيدة فى المنزل بشارع الملكة نازلى، التى لم تبهرها التورتة – وربما فى القاهرة كلها– التى لم تحب منتجات جروبى الشهية اللذيذة، قضيت آخر عيد ميلاد لى بمصر فى الضحك و فتح الهدايا والاستماع إلى عائلتى، وهى تتعجب من كيفية تفوق جروبى على نفسه هذا العام بتلك التورتة.

كادت باريس أن تطمس كل تلك المظاهر.

فى ١٩ سبتمبر من ذلك العام، غادرت المُدرسة كالمعتاد، للاجتماع مع عائلتى على الغداء عند «ريشيه». كانوا جالسين على تلك المائدة التى اعتادوا الجلوس عليها بذلك الركن، كان الجو حارًا داخل المطعم رغم اليوم الخريفى، كما كان أكثر ازدحامًا من المعتاد، ربما بسبب قدوم موجة جديدة من المهاجرين، اقتربت منى الكونتيسة العجوز وحاولت أن تزيد كمية الطعام فى طبقى الممتلئ، وبدأت أسرتى تأكل وتتصرف كأنما هذا اليوم يوم عادى فأخذت أثير الاضطراب بانتقاد الطعام.

حين عادت مضيفتنا الأرستقراطية لتسألنى إن كنت أريد المزيد، فما كان منى إلا أن قاطعتها بسرعة وبحدة، وأخذت طبقى الملىء بالطعام الساخن وقذفته على أرض المطعم، تفتت الطبق وتتطاير فى أنحاء المكان، ناثرًا كتلا من الأرز واللحم والخضر.

جلست عائلتى واجمة وقد أصابها الرعب من طريقتى غير السوية فى التعبير عن الغضب، تحولت أعين من فى صالة المطعم كله نحو مائدتنا تحملق فيما يجرى، حتى الكونتيسة الحسنة النية ألجمها الموقف، فاختفت ابتسامتها اللطيفة، وبدت كما لو كانت على وشك البكاء.

توجهت إلى عائلتى بالحديث مطالبة بأن أعرف أين تورتة عيد ميلادى التى اعتدت أن أحظى بها من جروبى.

mais ou est-il? «أين هى» سألت أبوىّ وإخوتى المذهولين. «أين تورتة عيد ميلادى؟» ?ou est le gateau d'anniversaire.

حاولت أمى أن تكون صريحة معى، فأخبرتنى بأنه ليس من الممكن أن نحتفل بعيد ميلادى هذا العام بشراء تورتة، فبكل بساطة ليس الأمر ممكنًا،فضلًا عن أنى لم أعد طفلة، وقالت أمى إنى فى السابعة من عمرى، كبيرة بما يكفى لأتفهم أحوالنا التى أصبحنا عليها loulou nous sommes a des milliers de kilometers de chez groppi «لولو، نحن على بعد آلاف الكيلومترات من جروبى».

نهض أبى ببطء، كان فى تلك الأيام ينهض بصعوبة من على الكرسى، وأشار لى بأن أتبعه. خرجنا معًا من مطعم «ريشيه»، كنت أشعر بأن كل العيون مصوبة نحونا، أخذنا نجوب الطرقات المجاورة للبواسونيار فى تمهل وقد لفنا الصمت، مررنا بعدد لا حصر له من محلات بيع الفراء بالجملة تعرض معاطف من فراء حيوان المنك وفراء حيوان السمور، معاطف لا أحد فى الجوار يقدر على ثمنها، لقد كانت تلك المعاطف تصنع لزبائن لا يقطنون قريبين منا و لم تقع عليهم أعيننا، فلم يحدث أن تنازلوا بالسير فى شارعنا.

تابعنا سيرنا حتى انتهى بنا المطاف إلى مخبز صغير، مساحته لا تزيد على مساحة دولاب صغير جدًا، يعرض خبز baguettes «الباجيت»*

بالداخل، كان هناك صندوق من الزجاج، به مجموعة متواضعة من التورتات، كان عرضها لا يزيد على عدة بوصات، لكنها كلها كانت شهية وأنيقة، شأنها فى ذلك شأن كل الحلويات الفرنسية، فقد كانت تموج بزينات من الكريز والفراولة والكريم شانتييه.

«combien، madam?» « بكم، سيدتى؟» سأل أبى بكل أدب المرأة الواقفة خلف المنضدة، عن السعر المعروض من التورتة.

عرضت علينا قائمة الأسعار فأشار أبى أخيرًا إلى تورتة صغيرة بالكريمة، قامت بوضعها فى صندوق مربع أبيض اللون، ولفتها برباط وسلمتها لأبى الذى بدوره أعطانى إياها لأحملها، أخذت الصندوق دون أن أنطق بحرف.

انتابنى شعور شديد بالذنب والخجل، حين اتضح لى أن أبى أنفق معظم دخل العائلة، وذلك حتى لا أبكى، حينئذ أدركت أن الحياة التى كنت أعرفها لم تعد كذلك، فبينما الأطفال يحتاجون لسنوات حتى ينضجوا، كنت أنا قد بلغت سن النضج فى عصر ذلك اليوم الذى أتممت فيه السابعة، على قارعة مخبز باريسى صغير.

الفصل الخامس عشر

درس اللغة الإنجليزيـة

ذات صباح كان لدينا موعد هام فى الجمعية العبرية لمساعدة المهاجرين هايسhais، وقبل أن نغادر الفندق إذا والدى يصمم على أن يشاركه أخواى ترتيل الصلاة الصباحية، وعندما رفضا المشاركة راح يصرخ فى وجهيهما بالعربية «صلى صلى» بينما أنا ووالدتى وأختى سوزيت نراقب الموقف فى ذهول، وعندما رضخ أخواى وشاركاه الصلاة بضيق وعدم اهتمام، كانت قد انقضت ساعة وتأخرنا عن موعد المقابلة.

كان المسئولون فى هايس فى غاية الغضب لتأخرنا، وحذرونا بأنه لو تكرر منا ذلك فسوف يمنعون عنا المساعدة فورًا، وتحولت مسألة هجرتنا إلى الولايات المتحدة إلى عملية بطيئة مؤلمة ومضنية، مليئة بالتعقيدات البيروقراطية والألغام الموقوتة.

فى حين أن إسرائيل التى استوعبت جميع العائلات اليهودية كانت سترحب بنا، إلا أننا اخترنا أن نقنع المسئولين فى هايس بحقنا بالعيش فى أمريكا.

نظرًا لأن المجتمع الفرنسى كان مجتمعًا أبويًا patriarchal يمنح الأب والزوج القول الفصل فى أمور العائلة، فقد كان على والدى أن يخطط لدخولنا أمريكا من البداية، وقد انطلقنا جميعا وراءه عندما طُلب منا أن نذهب لمقابلة المسئولين فى هايس فى مكتبهم بشارع لوتا فى الحى السادس عشر.

وجدنا أنفسنا فى حى ذى شوارع تكسوها الأشجار الباسقة وعلى جانبيها قصور خاصة ومبان سكنية تقبع خلف بوابات عالية، لم ننطق بكلمة ونحن سائرون، ولفنا

شعور بالضآلة والغربة، وكأننا قد ابتعدنا آلاف الأميال عن حى مونمارتر الخشن وعن شارع فوبورج بواسُنيير.

رأينا باريس الأنيقة الراقية تماما كما توقعناها عندما غادرنا مصر، وكانت لمحة منها قد لاحت لنا، عندما ذهبت مع والدتى إلى حديقة «مونسيو»، ولكنها كانت زيارة خاطفة عدنا بعدها الى منطقتنا الفقيرة.

التقينا الأخصائيين الاجتماعيين فى مركز «هايس» ليغرقونا بسيل من الاستمارات والنماذج كان علينا، ملؤها، وأمطرونا بوابل من الأسئلة، لماذا أنتم مصرون على الذهاب إلى نيويورك؟ وظلوا يكررون علينا السؤال مرات ومرات لماذا تركتم مصر؟

وكأنهم لا يعلمون، وراح والدى يشرح لهم الشعور المعادى لليهود الذى عانينا منه قبل المغادرة، مما جعل كل أقاربنا وأصدقائنا يرحلون، ورغم الحب الذى يكنه للقاهرة ومصر التى أمضى فيها شبابه فإنه أصبح متيقنًا أن استمرار بقائنا هناك، كان من شأنه أن يعرض حياتنا للخطر هذا ما قاله للآنسة سيجلر المسئولة عن حالتنا « لم أعد قادرًا على توفير العيش لأسرتى، لم يعد لأطفالى مستقبل فى مصر».

كانت الآنسة سيجلر الأخصائية الاجتماعية فى هايس تكن لنا جميعا شعورًا بالكراهية الشديدة، وذلك على العكس من مدام دانا نظيرتها فى وكالة الخدمات الاجتماعية كوجاسور، وكان الغيظ باديا على الآنسة سيجلر بسبب عدم قدرتنا على حزم أمرنا ولا شك أن هذا التردد كان من مسببات حزننا.

فى أواخر خريف عام ١٩٦٣ تحول حلم والدى للحصول على موافقة هجرتنا لأمريكا إلى كابوس، كانت إدارتا «كاسجور» و« هايس» راضيتين تمامًا عن أخى الأكبر وأختى، وكان الموظفون بهما متحمسين لإنهاء إجراءات هجرتهما، فقد كان ينظر إليهما باعتبارهما مهاجرين واعدين، ولكن المشكلة كانت منحصرة فى أبى، كانوا مستعدين لرفض هجرتنا جميعًا بسبب شكوكهما فى مقدرته على التأقلم.

أصبح أبى الذى كان يشبه «كارى جرانت» الذى طالما جعل الجميلات يفقدن صوابهن، وأجبر منافسيه فى الأعمال على الركوع، ينظر إليه على أنه غير مرغوب فيه بأمريكا!

قال المسئولون فى «هايس» إنه كبير السن، مريض، عاجز، ومرهق تمامًا ليس له مستقبل.

كان ليون يبدو أكبر من سنه فى معطف المطر المتهالك وعصاه الخشبية التى يعتمد عليها فى المشى ويبدو أنه خلال الثمانية أشهر التى انقضت منذ مغادرة مصر كان قد كبر بنفس العدد من السنوات.

لقد عبر المسئولون فى «هايس» عن محدودية قدراته، «بالنظر إلى ضعفه الشديد، لذا فسوف يصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل عليه أن يحصل على عمل، ولن يكون فى مقدوره أن يعيل أسرته ومساعدتها، فماذا سيكون مصيرهم ؟»».

لقد كنت أعمل حتى آخر يوم لى قبل مغادرة مصرا راح والدى يشرح لهم بمنتهى الهدوء، ودون أن يبدو عليه التأثر بقسوة تقليلهم من شأنه « سوف أعمل ثانية»، ثم أضاف ربنا كبير.

لم يتراجع، ففى ظهر ذلك اليوم، رأى الأخصائيون الاجتماعيون ومضات من تلك الإرادة التى لا تقهر، والتى كانت مرشدًا لأبى طوال ستة عقود، لقد رأوا لمحة من رجل صلب ولد فى بلد، ثم استقر فى بلد آخر، إلى أن وجد نفسه منفيًا فى بلد ثالث، وهو الآن عازم على أن يبدأ حياة جديدة فى بلد رابع.

ورغم كل ما قاله، فإن الأخصائيين الاجتماعيين ظلوا يذكّرونه بمحدودية قدراته الجسمانية، وبحقيقة أنه يمشى بمشقة، «باستطاعتى أن أجرى لا أن أمشى فحسب» كانت هذه صرخته وبدا عليه وكأنه يوشك أن ينطلق مع عكازه من هذا المنزل فى شارع لوتا، إلى شارع فوشن ثم الشانزليزيه وأن يعود أدراجه ثانية.... ولكن إلى أين ؟

إلى مكان آخر فى غير هذه المدينة التى لا تريد له أن يبقى فيها، رغم أنه ليس هناك مكان آخر يستطيع الذهاب إليه.

ولقد وقعت مداخلته المليئة بالعاطفة على آذان صماء، فى مداولاتهم الداخلية كان قياصرة إعادة التوطين أكثر قسوة فى التعبير عن شكوكهم فى قدرات أبى، دار كل ذلك من خلال البرقيات التى كانت ترد بين ضفتى الأطلنطى. كانوا يرددون أن ليون لن يستطيع أبدًا أن يصبح عضوًا منتجًا فى المجتمع الأميركى، فقال بعضهم لبعضهم إن والدى لن يستطيع الحصول على وظيفة وسوف نصبح عبئًا على الدولة.

سوزيت وسيزار لم يمثلا أى مشكلة، فقد كانا مفعمين بالحيوية وفى صحة جيدة ويتمتعان باللياقة، وفوق ذلك كله فهما فى سن الشباب، وهذا بالضبط ما تتطلبه أمريكا، كان كل ما ينقصهما هو المقدرة على التحدث بالإنجليزية، فكان يتعين على الجميع البدء فورًا فى دراسة الإنجليزية باستثناء والدى.

هكذا بدأنا بالانتظام فى دروس الإنجليزية، مع تعليمات بأن نتكلم ونقرأ بها بأسرع ما يمكننا. لقد سمح لى بأن أرافقهم، وكم كنت مغتبطة لذلك، بعد شهور من ذهاب الكبار وحدهم وتركى وحيدة، فأعلنت بشغف رغبتى لتلقى دروس فى اللغة الإنجليزية الفصول الدراسية تعقد قريبًا من شارع فوشن، وتتولاها مدرسة أمريكية جميلة اسمها هاكيميان فى غاية المرح والفتنة، فكان سيزار يمضى معظم وقته وهو يتأملها بدلًا من التركيز على ما تؤديه من دروس، ولكن أختى التى كانت دائمًا تلميذة ذكية، راحت تدون ملاحظاتها بعناية، أما إيزاك فنادرًا ما كنت أراه أما أمى التى كانت تحضر الدروس أحيانا فقد كانت تحملق بنظرات يائسة من خلال النافذة.

كانت الآنسة هاكيميان تبدأ كل درس بعمل مذهل من أجل جذب انتباهنا، فكانت ترفع كوبًا من البورسلين الأبيض عاليًا فى الهواء وتقول لحظتها «كوب».

وكان علينا أن نردد وراءها «كوب»، وفجأة وبحركة لم تتوقف عن إصابتى بالذهول مهما رأيتها عدة مرات، تلقى بالكوب فتكسره إلى جزأين.

ثم تصيح « كوب مكسور»...

وكان علينا أن نردد وراءها «كوب مكسور» مع التشديد على كلمة مكسور. كانت هذه أولى كلماتى الإنجليزية فلم تكن «هالو» أو «اسمى لولو» أو صباح الخير ولكن، كوب، كوب مكسور، وفى الدرس التالى تفعل الآنسة هاكيميان نفس الشىء فترفع نفس الكوب وتعيد علينا نفس الشىء.

كان لهذا الكوب قدرة سحرية فى أن يعود سليماً من جديد مهما كان عدد المرات التى قامت الآنسة هاكيميان بتحطيمه.

كلما تقدمنا فى الدروس كانت هاكيميان تتوسع فى مخزونها من الحركات المثيرة لانتباهنا، فتضيف إلى ذلك الأطباق والسلطات والكاسات فتلقى بالسلطانية إلى السبورة وتقذف الأطباق على الأرض، وجميع هذه الأشياء كانت تعاود ظهورها فى الدرس التالى وكانت الآنسة هاكيميان تبتسم بغموض وكأنها الوحيدة التى تعرف سر تعافى هذه الأغراض، وهكذا ازدادت حصيلتى من الكلمات لتشمل طبقا، سلطانية، طبقا مكسورا، وسلطانية مكسورة.

على الرغم من افتتنان سيزار بالآنسة هاكيميان، فإنه لم يكن قادرًا على استيعاب أبسط الكلمات أو التعبيرات، وطلب إليه أن يجتاز اختبار لياقة لتحديد نوعية العمل المناسب له عندما يصل إلى نيويورك؟، كان عمره ستة عشر عامًا. عندما كان فى القاهرة

كان سيزار يدرس ليصبح محاسبًا على أمل أن يصبح رجل أعمال كوالدى، كان الاختبار قاسيًا واستغرق منه عدة ساعات، ثم التقى بعد ذلك مع المستشار المهنى، جاء الحكم فى النهاية بـأن سيزار يمتلك مهارات تقنية وقيل له أن يتطلع إلى العمل كميكانيكى سيارات، رغم أن أخى لم يكن له أى اهتمامات بالسيارات، ولم يكن حتى يستطيع القيادة، فلم يعرف هل يضحك أم يبكى؟ !!!

على العكس من إخوتى القادرين على العمل، لم يكن ليون يحتاج إلى دروس فى الإنجليزية، وحتى أولئك البيروقراطيون كانوا معجبين بلكنته الرهيفة فى إنجليزيتها، ولم يخفوا استغرابهم لقدرته على التخاطب بالأسلوب الملوكى، بينما أولاده يفتقرون لأبسط مبادئ اللغة، وعلى الرغم من ذلك فلم يكونوا مستعدين لمنحه أى فرصة، لقد كانوا مقتنعين بأنه سوف يبتز النظام بأكثر مما يستطيع أن يعطى، ولذلك أشاحوا بوجههم لفكرة منحه حق الدخول إلى أمريكا.

أخيرًا تفضل طبيب فرنسى بمساعدة والدى فى التغلب على هذه العقبة فقد أعطاه شهادة برأيه المهنى، ذلك أن «ليون فى صحة وعافية وقادر على أن تُسند إليه وظيفة»، ومن استمارة لأخرى ظل الطبيب الشاب دكتور سناتر، يكرر رأيه الطبى، بأن ليون سيكون بكل تأكيد، قادرًا على العمل كل الوقت بشرط أن يكون عملًا غير شاق وراح يقلل من شأن تأثير الكسر فى ساق والدى وأعطى رأيًا متفائلًا وإن لم يكن قاطعًا بقدرة أبى على العمل.

كان أى ابتهاج مسبق بالنتيجة يعتبر سابقًا لأوانه، فلم يكن لدينا أى فكرة متى سنغادر فندق الفيوليت فلقد طال أمد محاولة إيجاد بيت لنا فى أمريكا، حتى بعد أن بلغنا بالموافقة المبدئية على طلب التوطن هناك، إلا أن الإجـراءات كانت ملغمة بتعقيدات كثيرة، أطلقت هايس محاولة يائسة للبحث عن قريب لنا فى الولايات المتحدة، قد يقبل أن يكفلنا أو يوظفنا أو يساعدنا، بأن يستضيفنا فى بيته أو يساعدنا بأى صورة كانت، وراحت البرقيات تتوالى من بروكلين إلى سان ديجو فى محاولة من المسئولين للعثور على ابن عم لنا انقطعت صلاتنا به منذ زمن بعيد.

تحمس المسئولون فى هايس عندما تقدم أحد أقاربنا للمساعدة، فأبدى استعداده لمنحنا بضع مئات من الـدولارات لمواجهة مصاريف انتقالنا، وبـدأ فعلا بإرسال الشيكات لإدارة هايس.

سيزار في سترته الجلدية السوداء- باريس، ١٩٦٣

لقد تصرف أولاد عمومتنا الأمريكان جميعهم بطريقة عكسية تماما، صحيح أن طلب هايس المبدئى كان مبالغًا، هل يوجد أى قريب مستعد لأن يتحمل إقامتنا حتى نستطيع أن نطعم أنفسنا؟، فجاء الرد قاطعًا لا، حتى أفراد العائلة القريبون كأخت أمى غير الشقيقة روز، أجابت بأنها وأطفالها فى بروكلين يستطيعون بالكاد تدبير أحوالهم.

راحت إدارة هايس تسأل بعد ذلك هل هناك أى أقرباء مستعدون لاستضافتنا فى بيتهم لبضعة أسابيع أو شهور، ولكن مرة أخرى جاءت الإجابة تعيد ذات النبرة «لا»، فلم يكن هناك حجرة لأسرتنا فى أى بيت أمريكى يضيق بسكانه.

اضطرت إدارة هايس أن تخفض من سقف مطالبها، هل يمكن لأقاربنا فى نيويورك على أقل تقدير، أن يبحثوا لنا عن مسكن ملائم؟ ومرة أخرى كان الرد بالنفى، فقال أقارب أمى إنهم سيحاولون رغم انشغالهم الشديد.

ثم سألوا هل من أحد يمكنه أن يأتى لتحيتنا عند الوصول فى الميناء

ولم يكن هناك من رد ثمة أخبار عن تخليهم عنا وصلت أمى، فأصيبت بجرح عميق عندما علمت ببلادة أختها، فقد كانت دائما معجبة بأختها غير الشقيقة «روز»،

وكانت تتحدث بولع عن كيفية ترحيبها بها بحرارة هى وأولادها فى القاهرة، ماذا حدث ليصبحوا هكذا منغلقين على ذاتهم، ومنعزلين فى عواطفهم لهذه الدرجة؟ هل هذا أحد مخاطر الهجرة إلى أمريكا؟ ربما كان ذلك درسًا آخر فى الإنجليزية، درسًا لا ينطوى على مجرد تحطيم الأطباق بل أيضا على تحطيم العلاقات العائلية بلا رجعة.

بلغنا بداية شتاء سنة ١٩٦٣ و لم نكن قد أفرغنا حقائبنا بعد. أيًا كان التقدم الذى أحرزته وكالات إعادة التوطين لمساعدتنا، إلا أنه كان بطيئا بصورة مؤلمة، وكانت شقيقتى على الأخص مستاءة من وظيفة السكرتارية البسيطة، التى استطاعت أخيرًا أن تحصل عليها فى مصنع منسوجات مجاور لنا، لكنها كانت تعمل دون الحصول على حق العمل، لقد حدث ذات يوم أنها لم تجد المرتب بعد أن تسلمته كان هناك أحد احتمالين، إما أنه ضاع، أو سرق، وقد غذت هذه الواقعة إحساسها بفقدان الأمل.

كان صاحب متجر محلى للفراء قد منح أخى الأصغر إيزاك ابن الثالثة عشرة فرصة ليعمل فى مصنعه الصغير الذى كان قريبا من فندق فيوليت.

فى نفس الوقت كان سيزار يحصل على بعض البقشيش من بعض الأعمال المتنوعة، أو من توصيل الطرود لمحلات المانيفاتورة فى ممر فيوليت ولقد أظهر مالك المصنع ذلك الرومانى العجوز نوعًا من الإعجاب بأخى الأكبر، فكان يبعث به إلى جميع أنحاء باريس لتوصيل لفائف من الصوف الفاخر الذى كان يستورده من إنجلترا، وبفضل البقشيشات السخية التى كان يحصل عليها سيزار، استطاع الاستمتاع بالمغامرات الليلية مع أصدقائه من المراهقين المهاجرين، والمقيمين فى الفنادق القريبة، وكان أكثر ما يستمتع به هو العملة البراقة ذات الخمسة فرنكات من الزبائن الأثرياء، والتى تزيد بقدر فرنكين على الإعانة التى كنا نتلقاها من إدارة الكوجاسور، كانت تلك البقشيشات الكبيرة قد عمقت من إحساسه بأنه قد وصل إلى مدينة تبدو الاحتمالات فيها لا نهائية.

فى وقت متأخر من الليل كان سيزار وأصدقاؤه يتسكعون فى حى مونمارتر الملىء بالحيوية حيث كانت المقاهى مفتوحة طوال الليل ومليئة دائما بالزبائن، وفى حانة قريبة من فندق محلى لاحظ أخى وجود سيدتين أنيقتين غامضتين، ترتديان ملابس غالية وعلى درجة عالية من التبرج، تحتسيان الخمور معا كل ليلة، وبعد مدة، اكتشف أخى وأصدقاؤه أن هاتين السيدتين هما رجلان، فأدركوا أنهم يبعدون عن القاهرة بمليون ميل.

إلى جوار فندق فيوليت، كانت توجد علامة أخرى هى الفولى بيرجير، مسرح العروض الاستعراضية التى تعد رمزًا أيقونيًا لباريس، مثلها فى ذلك مثل برج إيفل ومتحف اللوفر، وكانت فتيات الاستعراض الجميلات فى هذا الملهى ذوات شهرة عالمية لجاذبيتهن الجنسية وفتنتهن الطاغية. لقد اعتاد سيزار أن يلتقى أصدقاءه فى المساء عند الفولى بيرجير وهم يرتدون قمصانهم السوداء محاولين التظاهر بالثقة والخشونة وهم يدخنون لفائف الجولواز، ويحملقون فى الراقصات اللاتى يتدللن أثناء دخولهن وخروجهن، وقد لاحظ المدير هؤلاء المراهقين وهم يتسكعون قرب المسرح، فقام بتشغيلهم فى بعض الليالى «لتسخين» المسرح، فقد كان يدفع لهم ليقوموا بالتصفيق والاستحسان للبنات أثناء تقديم رقصاتهن، وهم يستمتعون بالجلوس فى الصف الأول، كان هذا عملًا ممتعًا أفضل بكثير من الروتين الكئيب لحياة المهاجر، كما أن ذلك أعطى لسيزار الفرصة لمعرفة الحقيقة الغامضة عن فتيات الاستعراض الأسطوريات، فعلى المسرح كن يتلألأن ويتسمن ويقدمن عروضهن بأناقة وليونة ولكن بعد الاقتراب منهن، أصيب أخى بخيبة أمل لأنهن أكبر سنًا بكثير مما يبدون على المسرح، ومنهكات وعاديات بأكثر مما كان يخطر له على بال، فدون بزاتهن المتلألئة لم تكن جميلات الفولى بيرجير جميلات.

لو كان سيزار واسع الأفق وأكثر عمقًا، لخرج من تجربته مع باريس والنساء وحياته بعيدًا عن القاهرة، بمعان عميقة، مفادها أن الجمال المبهر دائمًا ما يخيب الآمال، وأنه ليس هناك أى شىء فى هذا العالم، حتى أكثر المدن تألقًا وأكثر النساء فتنة، يمكن أن يشبه توقعاتنا المسبقة.

لكن كل ما خرج به أخى من تجربة عمله فى الفولى بيرجير -لمحدودية نظرته- مجرد مشاعر سلبية تجاه فتيات الاستعراض.

حدث فى إحدى الليالى، بينما هو فى صحبة أصدقائه يتفحصون الجموع المحتشدة أمام صالة الرقص، لمح رجلًا طويلًا فى بدلة صوفية داكنة فخمة، تعرف عليه فورًا، إنه موريس شيفاليه النجم السينمائى الذى يعد أحد رموز باريس مثل الفولى بيرجير، ولكن على العكس من فتيات الاستعراض، لم يكن شيفاليه مخيبًا للآمال، فقد كان له جسم رائع أنيق ومتميز كما يظهر فى أفلامه، ولم يكن فى استطاعة أخى وأصدقائه، أكثر من الحملقة عن بعد، بينما شيفاليه ألقى نحوهم ابتسامته المشهورة،

وأحنى قبعته وراح يمشى فى طريقه، ومرة أخرى تذوق سيزار الحياة المثيرة فى مدينة الأحلام، وكان كلما تذكر أيامنا كمهاجرين وكيف استطعنا البقاء وما هى أكثر الأشياء التى أحبها فى باريس فإنه كان دائما يتذكر تلك الليلة التى رأى فيها موريس شيفاليه، أما أمى فلم تكن تلقى بالًا لأى من ذلك، كانت أمى منزعجة بدرجة كبيرة لأن ابنها الأكبر، يقضى بالخارج كل هذه الساعات من الليل وهو يذوى على قارعة الطريق كالمشردين، وكان لها السبق، حتى قبل والدى، فى إدراك أنه لم يعد لهما نفس التأثير الذى كان لهما من قبل على الأطفال فى هذا العالم خارج مصر، كان إخوتى إما متمردين بدرجة كبيرة، أو مغرورين بدرجة أكبر كى ينصاعوا لما يقوله والداى.

لجأ والدى إلى الأخصائيين الاجتماعيين فى كوجاسور، لمساعدتهما فى هذا الشأن وقد سجلوا بكل عناية إحساسهما بالأسى فى الدوسيه رقم «٤٥– ١٣٥» ولكن السيدة دانا وزملاءها أقروا بأنه ليس بإمكانهم عمل أى شىء، فقد كانوا فى تلك المرحلة الانتقالية، وكانت هناك قيود تمنعنا من العمل وقتًا كاملًا وكان من المستحيل على سيزار أو سوزيت الالتحاق بالجامعة، فقد ظل احتمال مغادرتنا فرنسا فى أى وقت قائمًا ولذا لم يكن بإمكان الأخصائية النفسية أكثر من النصح بالصبر.

فى ذات الوقت اكتشفت أفضل بقعة بالنسبة لى فى باريس، وكان ذلك فى مصنع صغير للعرائس (الدمى)، على بعد خطوات من الممر. كان باب المصنع يبقى دائما مواربًا، مما يمنحنى الفرصة أن أسترق النظر كل صباح وأنا فى طريقى للمدرسة وفى طريق العودة، وكان المصنع يمثل جنة عدن كما تتخيلها طفلة فى السابعة من عمرها، المئات من الدمى فى درجات متفاوتة من الاكتمال والعرى مرصوصة كلها على الرفوف.

كان هناك دمى دون رؤوس، ورؤوس دون دمى، ودمى على الرفوف دون ملابس ودمى أخرى كاملة الثياب، ودمى أخرى بشعور طويلة منسابة ودمى صلعاء، وعلى المشاجب باروكات شعر صغيرة متراكمة فوق بعضها، بعضها أشقر متعرج وبعضها أحمر فى ضفائر، والآخر أسود فى شكل الكعكة على مؤخرة الرأس، وكلها فى انتظار الدور لتستقر على رأس الدمية الموعودة لتصبح فى أجمل صورة، وخلال الأيام القليلة الأخيرة فى باريس أصبحت هذه هى رياضتى المفضلة وكنت قد أدمنت السير أمام باب مصنع العرائس المفتوح والحملقة فى العرائس.

فى أواخر أكتوبر استدعى والدى بشارع لوتا ليوقع تعهدًا فى مقر «هايس»، وهكذا بدا أننا سنذهب إلى أمريكا، فقد كان التعهد يقضى بأن علينا أن نقوم بسداد

الأموال التى ستقدم لنا نظير مصاريف الرحلة بالمركب إلى نيويورك، بما فى ذلك الضرائب والتنقلات الداخلية وكذلك شحن ١٥١٠ أرطال من الحقائب الممتلئة بكميات هائلة من البيجامات، وقمصان النوم، ومفارش الأسرة، وأوانى الطبخ، وعلب السردين، وثوب زفاف مضى عليه ٢١ عاما.

كان تقديم هذا القرض من إدارة «هايس»، إجراءً روتينيًا بالنسبة لتلك الوكالة، التى كانت متخصصة فى المقام الأول بإعادة توطين اللاجئين المصريين فى أمريكا ودول أخرى، فقد كان على الوكالة أن تشترى تذاكر السفر ثم تقرض العائلات المال اللازم لتغطية باقى مصاريف السفر على أن تسترد هذه المبالغ بعد أن يتم للأسرة المهاجرة الاستقرار فى وطنها الجديد وتقف على أرجلها مرة أخرى.

لم يتم تحديد المبلغ فى صك التعهد، وإنما طلب من والدى أن يوقع الصك كما هو، أى أننا نقبل قرضًا غير محدد القيمة، وأيا كان فقد وقع والدى على الصك كما طلب منه، وإن كنا بعد شهور فى نيويورك قد علمنا قيمة الدين وهو ١١٩٩,٩٤ دولار.

عندما اقترب موعد سفرنا، أصبت فجأة بواحد من تلك العلل الغامضة، فانتابتنى حمى عنيفة مع ظهور رشح وتقلصات معوية والتهاب قاتل فى الزور، وكادت أمى تنهار وهى تضعنى فى السرير تحت كل بطانية أمكنها أن تستولى عليها من دولاب الأغطية الفقيرة المخزنة فى فندق فيوليت.

قرر والدى أن يستدعى ذلك الطبيب الطيب دكتور سنانس، الذى سبق أن منح والدى شهادة ناصعة بسلامة صحته، رغم أن ذلك سوف يكلف والدى أتعاب الزيارة المنزلية التى تعادل قيمة المعونة التى نتلقاها فى أسبوع. لم تكن التكلفة أهم من أن يفحصنى طبيب حقيقى، بدلًا من الذهاب إلى تلك العيادات العامة، التى وجدنا أن مستوى الرعاية فيها كان متدنيًا، فبالنسبة لى كان كل ما قدموه هو طلب المزيد من تحليلات الدم، وبالطبع لم يكن يفحصنى طبيب بل ممرضة. كنت أتوق إلى هؤلاء الرجال المرموقين فى ردائهم الأبيض، الذين كانوا ينحنون لفحصى فى عياداتهم الخاصة فى القاهرة لدرجة أننى اشتقت لذلك البروفيسور ذى القفاز الأبيض، وأسلوبه البارد المتعب.

عندما وصل الدكتور سنانس ألقى نظرة على الفوضى فى غرفة الفندق والحقائب المتراكمة فوق بعضها وهز رأسه، وبعد أن فحصنى وألقى نظرة على حلقى وقاس درجة حرارتى نظر إلى الطفح الذى ظهر على جلدى وأخيرًا قدم تشخيصه.

لقد قرر أننى مصابة بالحمى القرمزية، وهو مرض خطير من أعراضه ظهور الطفح الوردى، الذى بدأ ينتشر على جسمى، استمر يشرح أن هذا المرض يبدأ عادة بالتهاب بسيط فى الحلق ولكنه يصبح مرضا قاتلًا، وعليه فلا يمكن أن نفكر فى السفر إلى أمريكا الآن، ولا قبل عدة شهور على الأقل. وعرض أن يوقع على مذكرة تؤكد أنه يجب علينا ألا نغادر فرنسا تحت أى ظروف.

كان والداى فى ذهول كيف بالله أصيبت لولو بالحمى القرمزية؟ كان ذلك سؤال كل منهما للآخر.

لقد وصلت أخبار مرضى إلى المسئولين فى «هايس» و«كوجاسور» وكل الوكالات الأخرى التى كان لها دور فى هجرتنا، وكان رد فعلهم يتسم بالذعر فالحالة لاشك خطيرة وسوف تؤدى إلى إرباك كل ترتيباتهم الدقيقة. كانت «هايس» قد رتبت حجز تذاكر للعائلة على متن السفينة كوين مارى (الملكة مارى)، التى ستبحر من ميناء بورج الفرنسى إلى نيويورك فى أوائل نوفمبر، وكان من الواضح أنه بسبب إصابتى بالحمى القرمزية، لن يكون فى استطاعتنا أن نقوم بهذه الرحلة.

تم إرسال العديد من البرقيات عن مأساتى إلى العديد من المكاتب فيما وراء البحار وجاء فى إحداها «الطفلة الصغيرة ذات الشعر الأسود المحروق مريضة». وصارت هناك علامات استفهام كبيرة، متى سيصبح فى إمكان أسرتى أن تغادر فرنسا خاصة بعد كل هذا المجهود والاهتمام والنفقات، التى تحملتها وكالات الإغاثة المحلية والدولية؟

وفيما بين عدم قدرتنا على اتخاذ القرار وحاجتنا المستمرة للرعاية، وعدم سعادة إخوتى ومظاهر عدم التفاهم الواضحة بين أعضاء الأسرة، كنا قد كلفنا وكالات الإغاثة فوق ما تطيق وكانوا متلهفين ليرونا نغادر فرنسا، وقد احتدم الجدل بين المسئولين فى الوكالة عن كيفية إصابة طفلة فى السابعة من عمرها تقيم فى فندق فى باريس بمرض الحمى القرمزية؟ هل هذه مكيدة مدبرة للبقاء فى فرنسا؟ بالطبع كانوا على علم بتلاعب كثير من المهاجرين للبقاء فى باريس، ولكن أن يصل الأمر إلى حد ادعاء مرض طفلة صغيرة بهذا المرض القاتل، فإنها بلا شك هى المرة الأولى.

أخيرًا قرر مسئولو الوكالة أن يرسلوا لنا طبيبًا محنكًا للتأكد من ذلك التشخيص، وكانت والدتى فى غاية السرور عندما صاحت «لقد وصل الطبيب»، ومرة أخرى كانت تتضرع أن يكون هو الطبيب الأسطورى العالم بكل شىء كما تتخيله هى.

للمرة الأولى لم يخب أملها فقد طرق الباب طبيب فرنسى مرموق يمسك بيده حقيبة سوداء واتجه مباشرة إلى سريرى، وقد بدا عليه عدم الاكتراث بالفوضى التى تعم الغرفة، وبعد أن فحصنى بعناية كبيرة قدم تشخيصه، ليس بها شيء سوى التهاب فى الحلق وربما كان حادًا.

وتساءل والدى وماذا عن الحمى القرمزية؟

«لا وجود لها على الإطلاق» أعلن الطبيب ذلك بهدوء وبلهجة حازمة. بدا أن هذا الطبيب الخارق قد خرج من حلم أمى، وقد كتب لى وصفة من المضادات الحيوية وأمرنى بالبقاء فى السرير لمدة أسبوع، وبعد ذلك فإن باستطاعتى أن أذهب إلى المدرسة أوحتى أمريكا.

عندما عرض والدى أن يدفع له الأتعاب قال: «لا عفوا»، وصافح والدى وانحنى ثم غادر. كان والدى فى شدة الغيظ من الدكتور سنانس بسبب تشخيصه الخاطئ فاتصل به وقال له لماذا زرعت فى قلوبنا الرعب بتشخيصك المرض على أنه حمى قرمزية؟، بينما الحالة لم تكن أكثر من التهاب فى الحلق؟، ولكن الدكتور سنانس بدا محتارًا فقد تصور أننا نود البقاء فى باريس لمدة أطول، وبأننا نحتاج لبعض الوقت لترتيب أمورنا قبل الرحيل، ولذلك فقد حاول أن يصنع لنا معروفًا بأن يشخص مرضى على أنه مرض خطير بحيث يمكن لعائلة طفل مريض أن تطيل إقامتها فى فرنسا.

خلال بضعة أيام أعلنت «هايس» أنهم اشتروا لنا تذاكر على الرحلة التالية للسفينة فى أوائل ديسمبر، وسنبحر على متن عابرة المحيطات من شيربورج لمدة أسبوع، بحيث نصل إلى أمريكا قبل أعياد (أعياد الميلاد) الكريسماس وقد اشتروا لنا خمس تذاكر ونصف وكنت أنا النصف. لم تكن هناك ترتيبات محكمة لرحلتنا هذه المرة، فليس هناك مشتريات كبيرة، إلا أن أمى فى نوبة من الانفعال أصرت أن يأخذنى والدى إلى محل أحذية لشراء حذاء برقبة طويلة (boots)، فهذه هى الطريقة الوحيدة لحماية «المسكينة لولو» من الطقس فى بلد أشد برودة من فرنسا.

سرت ووالدى يمسك بيدى إلى حى مونمارتر، حيث يوجد محل به تخفيضات كبيرة للأحذية، وفى فاترينة المحل التابع لسلسلة شعبية من محلات الأسعار المخفضة كان هناك عشرات من أزواج الأحذية الخاصة بالأطفال، بعضها مبطن بالفراء وبعضها من الجلد الشامواه وبعضها من الكاوتشوك والبعض الآخر من الجلد الطبيعى بالكامل.

لم يكن قد سبق لى أن حصلت على حذاء برقبة، ولذلك فإن مجرد تجربة قياس أحدها كان مغامرة بالنسبة لى. انقضضت على زوج من الأحذية الأنيقة المطاطية ووافق والدى على شرائه، لولا أنه كان من البلاستيك، وفى نفس الوقت وقع نظرى على زوج أحذية من الشمواه الأزرق ذى رقبة تصل حتى الكعب، وكان مبطنًا بالفرو وله نعل كاوتشوك أصفر. كان شبيهًا بالأحذية التى يفضلها الإسكيمو، راح أبى يفحص البطانة بعين الخبير ثم غمز لى باستحسانه لهذا الحذاء.

أحسست بالقوة والمتعة وأنا أخطو لتجربة الحذاء القطبى داخل المتجر، وشعرت أننى الآن مهيأة لأمريكا.

قبل أسبوعين من موعد مغادرتنا سمعنا صراخًا فى ممر الفندق، وكان بواب الفندق يصيح باتجاه شباك غرفتنا، «لقد اغتالوا رئيسكم» رحنا ننظر كل منا إلى الآخر بارتياب وحيرة، هل تم اغتيال عبد الناصر فى مصر؟ هل اغتيل الملك فاروق فى منفاه بإيطاليا؟ أم هو الجنرال ديجول الذى اغتيل هنا فى باريس؟ ومرت عدة دقائق لنعرف بعدها أن رئيسنا هو رئيس الولايات المتحدة، «جون فيتزجيرالد كيندى» هو الذى تم اغتياله، طوال اليوم تجمعت أسرتنا حول الطاولة الصغيرة مع الراديو الترنزاستور داخل الحقيبة الجلدية، الذى كنا قد اشتريناه من الإسكندرية، فصار من وقتها وسيلتنا للارتباط بالعالم الخارجى منذ أن غادرنا مصر، لم أفهم سوى ست كلمات «الرئيس كنيدى هو من تم اغتياله» التى ظلت تعاد مرات ومرات، لقد بدا الذهول على والدى وإخوتى وتحدثوا بصوت خافت، فلم أدرك ماذا كانوا يقولون.

دارت المناقشات حول المكان الذى يجب أن نذهب إليه، وأصبحت المناقشات أكثر حدة عن ذى قبل، هل يجب حقا أن ننتقل إلى نيويورك ؟، أى بلد هذا الذى نود الذهاب إليه، إذا كانوا قد اغتالوا رئيسهم؟ فحتى الملك فاروق الذى أطاح به انقلاب عسكرى، تم السماح له بمغادرة مصر فى أمان، فأبحر على ظهر اليخت الملكى المحروسة.

لقد أصبحت مناقشاتنا عقيمة بالرغم من شعورنا بعدم القدرة على التوقف، ومن بيننا جميعا كانت أختى سوزيت أكثر من أخذ الأمر بصورة عاطفية، فلم أرها تبكى بغزارة من قبل منذ وفاة ألكسندرا، فبالنسبة لسوزيت كان اغتيال كينيدى يؤكد الخوف والشكوك التى شعرت بها طوال الوقت من فكرة الهجرة إلى أمريكا، وإحساسها بأن ذلك بالتأكيد هو المكان غير المناسب لنا.

بعد أسبوعين ركبنا القطار المتجه إلى ميناء شيربورج حيث كانت السفينة «الملكة ماري» (كوين ماري) تنتظر لتبحر بنا إلى أمريكا، وكنا جميعا مكتئبين، فسيزار الذى أحب باريس أكثر منا جميعًا، شعر بأنه يستيقظ من حلم.

عندما وصلنا إلى شيربورج انفصلت أنا وأبى عن باقى الأسرة ورحنا نتمشى فى نزهة طويلة، كانت الشمس قد توارت وكنا دائما نحب أن نتمشى معًا فى الليل رغم أننى لاحظت أن خطوته كانت أكثر ترددًا فى الظلام، وكنت أتساءل عما إذا ما كان يتألم ؟

وجدتنى مع أبى أمام عابرة محيطات جبارة تشمخ فوق الماء العميق الساكن، كانت «كوين ماري»، وكنا قريبين منها جدًا بحيث يمكننا أن نلمسها، كانت تبدو ضخمة، مهيبة، تبدو وكأنها تمتد لمسافة ميل، لم تكن تشبه أى سفينة أخرى رأيناها من قبل، وبالمقارنة فإن « المساليا» كانت أشبه بمركب تجديف صغير، وعلى الرغم من كل أبهتها وعظمتها، لم تقدم لنا كوين ماري أى نوع من الطمأنينة بل على العكس زادت من شعورنا بالرهبة.

كان يتملكنا الشعور باليأس والقنوط من رؤية أنفسنا نبدأ من جديد فى رحلة أخرى إلى المجهول، وأخذت أمسك بيد والدى بقوة أكبر، بينما نحن نسير ببطء منبهرين وخائفين فى نفس الوقت.

كان والدى لا يزال يرتدى المعطف الباهت، الذى أصبح الدرع الذى يحتمى وراءه طوال الشهور التى قضيناها فى باريس، كان يحاول أن يتأقلم مع القرار المشئوم الذى اتخذه، لقد أدرك بالطبع أن تفضيله أمريكا على إسرائيل، قد قضى على كل آماله فى إعادة بناء ما فقده، فلن يستطيع أن يعيش مرة أخرى بالقرب من إخوته وإخوانه، ولن تجتمع العائلة أبدًا ثانية على مائدة الغداء فى شارع الملكة نازلى. لن يلجأ إليه ثانية هؤلاء الرجال فى بيجاماتهم القطنية الزاهية الجديدة والنسوة فى أروابهن الأنيقة لأخذ نصيحته بصفته الكابتن ورب العائلة.

كانت مصلحة العائلة هى الموجه الرئيسى لحياة أبى، تلك كانت طريقة أهل حلب، فالعائلة قبل العمل، والعائلة قبل المال والعائلة قبل الطموح، والعائلة تأتى حتى قبل اللذات الشخصية، وإن كانت أمى تنكر ذلك، والآن نحن فى طريقنا إلى مدينة ليس لنا فيها أحد عدا حفنة من الأقارب الذين لم يعيرونا التفاتًا، ولو من قبيل استقبالنا عند ميناء نيويورك.

الفصل السادس عشر

غضب سيلفيا كرشنر

وفر لى معطفى الرمادى الأنيق الذى اشتريناه من محلات شيكوريل بالقاهرة، الحماية ضد رعشة البرد القطبية على الرصيف البحرى رقم ٩٠ بميناء نيويورك الذى رست عليه السفينة كوين مارى. وقفنا على مقدمة السفينة ننظر نحو الرصيف. أصابتنا الدهشة فقد كانت الأرض كلها بيضاء. قرر سيزار أن يبحث عن السر.

سأل المسافر الواقف إلى جواره عن هذا الذى يغطى الأرض؟

اتسعت حدقتا الرجل كما لو أنه رأى شخصًا قادمًا من المريخ.

أجاب الرجل «إنه الثلج» ثم انطلق بعيدًا.

بعد أن أنهينا إجراءات الجمارك وقفنا على مقدمة الرصيف. كانت حقائبنا مكدسة من حولنا كالجبل، و لم أكن أعرف ماذا ننتظر، أما رفقاء السفر الآخرين فقد أخذوا يتجاوزوننا الواحد تلو الآخر، ويختفون بين أحضان منتظريهم، أو داخل السيارات أو عربات الأجرة، بينما نحن لا نراوح مكاننا فى هذا البرد، لقد قطعنا كل هذه المسافة ولكننا مازلنا نجهل إلى أين نتجه. لم يكن هناك أحد ليأخذنا.

كنا مشدوهين بعض الشىء، نحملق فى السيارات التى تصعد وتهبط على طريق وست سايد السريع، فقد كانت كلها سيارات ضخمة لا تشبه سيارات الستروين الصغيرة والرينو المنتشرة فى باريس، التى تعودنا على رؤيتها هناك.كانت انطباعاتى

الأولى عن أمريكا هى هذا البرد القارس والسيارات الضخمة، التى تقف من حين لآخر لالتقاط بعض الركاب، ولكن لم تتوقف أى عربة لنا.

ذهبت نحو والدى وتناولت يده. كان يرتدى معطف المطر الرقيق القديم الذى كان فى حال أسوأ من حال معطفى الصوفى، ذى والإيشارب المنسق معه، لم يبد أبى أى تذمر، وإن لاحظت أنه لا يرتدى «قفازات»، وشعرت بيده كالثلج. كان صامتًا بشكل غريب فلا يصيح «رجعونا إلى مصر»، ولكنه كان مثلنا جميعًا يحملق فى السماء الرمادية، والأرض المغطاة بثلوج بيضاء، والأفق الكئيب والمبانى المنخفضة والسيارات المتحركة على الطريق السريع. تعلقت بأكمامه كما كنت أفعل دائمًا كلما أردت جذب انتباهه، فقام بمد يده داخل جيبه والتقط قطعة بونبون، من المخزون الذى جمعه من السفينة كوين مارى حيث كان هناك احتفال كل ليلة يعزفون فيه الموسيقى ويغدقون على المسافرين الهدايا والحلويات.

كانت رحلتنا عبر الأطلنطى تشبه رحلة بحرية فى إجازة، كحفلة فاخرة ممتدة، وظللنا طوال الرحلة فيما يشبه الدوار من فرط الرفاهية والبذخ، وخاصة بعد ما عانيناه طوال السنة السابقة من بؤس وحرمان.

كان من حسن حظنا أن سفرنا رتُب ليكون على عبارة محيطات فخمة بدلًا من الطيران لمدة عشر ساعات أو أكثر على خطوط بان أمريكان، وهى الوسيلة المعتادة لنقل المهاجرين، فقد أقنع والدى المسئولين فى «هايس» أنه لا يستطيع تحمل رحلة طيران طويلة بسبب آلام ساقه، وهكذا سافرنا بحرًا، على ظهر السفينة كوين مارى التى كان موعد رحيلها متوافقًا مع التاريخ الذى حدده المسئولون فى «هايس» لمغادرتنا فرنسا، وفى غمضة عين أصبح لدينا تذاكر سفر على ظهر أكبر سفينة، التى كانت مصممة لرحلات الدوقات والذوقة ونجوم السينما المعروفين.

بالطبع كانت أرخص التذاكر المتوافرة هى تذاكر الدرجة الثالثة، ذات الكبائن المتواضعة، التى يفضلها المسافرون الذين يقتصدون فى نفقاتهم. رغم ذلك لم يتولد لدى الانطباع بتواضعها إذا قورنت بالكبائن السابقة، مثل الكابينة المواجهة لغرفة الماكينة فى السفينة ماساليا، أو الغرفة التى كنا نشغلها فى فندق الفيوليت.

كانت الثقافة الراقية والأدب واللياقة الرائعة التى سادت السفينة «كوين مارى» مناسبة لنا، فأخيرًا رأينا عالمًا مثل عالم القاهرة حيث البشر مهذبون، ويتمتعون بالصبر، بل وأكثر من ذلك كانوا ودودين ولطفاء، يبذلون جهدهم ليغمرونا بالعطف والاهتمام.

وقد شعر والدى كأنه فى بيته مع الطاقم الإنجليزى، فكان يمازحهم بألفة بدءًا من الكابتن حتى أصغر الموظفين، مظهرًا مدى تمكنه من اللغة الإنجليزية ولكنتها، و لم يكن فى استطاعة أى منا أن يجاريه فى قدرته على التحدث بالإنجليزية.

كنا قد أبحرنا قبل أعياد الميلاد بأسبوعين، حيث سادت روح الأعياد على الرحلة وكانت هناك مفاجآت لا تتوقف؛ كونشرتو، رقص، أفلام سينمائية، مسرحيات، ألعاب، ومسابقات، بجانب حفلات السواريه التى أشرف عليها طاقم نشيط متحمس لإشعارنا بالراحة، والتأكد من أننا نستمتع بوقتنا.

لم يكن بمقدورى أن أتذكر متى كانت آخر مرة اهتم فيها أحد، ليعرف إن كنا سعداء، وبينما إخوتى يتجولون داخل السفينة التى تشبه مدينة كبيرة كنت أنا أبقى لصيقة بوالدى. ورغم أننا كنا ممنوعين من دخول الدرجة الأولى، فإن سيزار كون أصدقاء استطاعوا أن يمكنوه من استراق النظر إلى صالات الرقص، وصالونات الجلوس المبهرة، والسلالم الطويلة والغرف المفروشة بالسجاد، وفى الليل كان يذهب للرقص فى الملهى الليلى المخصص للمراهقين الذى تقدم فيه آخر صيحات موسيقى الجاز والنسخ اللاتينية من أغنية «لو كنت أملك مطرقة» if i had a hammer التى يغنيها تينى لوييز.

كان العشاء على «كوين مارى» من أكثر الأمور بذخا، فقد استمتعنا بالوجبات الخاصة الراقية، التى كان يقدمها نادل خاص يتفاخر بأنه يتحدث خمسًا وعشرين لغة، طرز أسماءها على أكمام قميصه، كان يظهر فجأة إلى جانبنا فى كل غداء أو عشاء، ويتطوع بأن يترجم لنا قائمة الطعام إلى أى لغة نطلبها، وعلى العكس منا كانت الأسر الأخرى التى تسافر معنا على نفس الجانب من السفينة، تصر على تناول الطعام الحلال «كوشر» kosher، وأن تتم ترجمة قائمة الطعام والمشويات إلى اللغة اليديشية. كنا نلتزم الصمت ونحاول تتبع القائمة باللغة الإنجليزية، وكان الطعام يقدم على أطباق من البورسلين الفاخر مع أدوات مائدة مصنوعة من الفضة الخالصة ومحفور عليها كلمة «كوشر».

كنت أجلس دائمًا إلى جوار أبى الذى كان يبدو منشرحًا أكثر مما رأيته فى الشهور السابقة، وكان للكوين مارى تأثير السحر القوى فثقافتها الإنجليزية وطاقمها المتأنق والخضار اللذيذ الذى تم إعداده فى مطبخ الكوشر (الحلال)، جعل والدى يشعر لأول مرة بالأمل فى مستقبلنا خارج مصر.

شعرنا بالأمان طوال الوقت الذى قضيناه على السفينة، ولكن ها نحن الآن على رصيف الوصول وقد بدأ الشعور القديم بالضياع يعود إلينا، الشعور بأننا تحت رحمة

قدر غير معلوم. لاحظت أن والدى وإخوتى ينظرون بقلق نحو الطريق السريع، وكأنهم يتوقعون أن يظهر وجه مألوف من بين الضباب الرمادى الثلجى، و لم يكن باستطاعة أى منهم أن يشرح لى ماذا نفعل، أو لماذا أتينا كل هذه المسافة لنجد أنفسنا متروكين هكذا فى العراء البارد.

قامت إحدى موظفى «هايس» بالترحيب بنا رسميًا فى أمريكا، واعتذرت عن تأخرها فى الوصول، وقدمت لوالدى مبلغ ٥٠ دولارا للمساعدة فى تدبير أمورنا لعدة أيام قادمة، ثم دبرت لنا «تاكسى» لينقلنا وحقائبنا إلى الفندق.

كان «البرودواى سنترال» فندقًا عتيقًا، انتهى عصره منذ زمن وكان قد أقام فيه عدد من النزلاء اللامعين مثل: جيم برادى وجيمس فيسك أحد ملوك السكك الحديدية الذى اغتيل فى الفندق، وليون تروتسكى الذى عمل فيه نادلًا قبل أن يعود سريعًا إلى روسيا، ليقود الجيش الأحمر (أثناء الثورة البلشفية).

أما الآن فى بداية الستينيات فقد أصبح فندقًا متهالكًا، يوفر الإقامة للمحتاجين من العائلات ذات الدخل المنخفض، أو التائهين من خارج المدينة، أو اللاجئين أمثالنا من غير القادرين على الفنادق الغالية، فصار من أول الفنادق التى تستخدمها الحكومة لإيواء الأسر الفقيرة welfare hotel مما أدى لأن يكون متدنيًا.

وعلى الرغم من إعطائنا جناحًا به، فإنه كان أحقر من غرفتنا فى فندق الفيولت فى باريس، كان ملحقا به مطبخ صغير وغرفتان يرتع فيهما الهواء، بينما الأسرّة رتبت واحدًا إلى جوار الآخر كما فى أجنحة المستشفيات، وكانت هناك خمسة أسرة فحسب، فاضطررت أنا إلى مشاركة أمى فى سرير ضيق إلى جوار حائط به شق كبير.

كنا معتادين على الشتاء المعتدل، حتى فى فرنسا كان الشتاء معتدلًا فى السنة التى أمضيناها هناك، ولكن هنا كان الشتاء قارسًا جدًا، وكنت أذهب إلى النوم فى ملابس الخروج، بنطلون صوفى وبلوفر ذى رقبة طويلة.

كانت أمى وباقى الأسرة يعتبروننى بلهاء، فلم يستطيعوا أن يفهموا لماذا أصر على النوم فى ملابس الخروج الصوفية الخشنة، بدلًا من بيجامات النوم الكستور الرقيقة؟ التى نجحوا فى إخراجها من حقائب السفر، وحتى أنا نفسى لم أفهم لماذا كنت أفعل ذلك؟

عدنا مرة أخرى إلى الطقوس المرهقة لأعصاب البشر الذين لا يجدون شيئًا يفعلونه، كنت أتمشى مع أى من أفراد الأسرة، أمشى مشيًا بطيئًا مع والدى، الذى كان ألمه دائمًا وقد زادت من حدته البرودة القاسية، كنت أمشى أسرع مع سيزار الذى كان شغوفًا

لمعرفة أمريكا، وإن لم يحبها بقدر ما أحب باريس، كما كنت أمشى فى نزهات قلقة مع أمى التى كانت مذهولة من نيويورك بصفة عامة، ونزهات هادئة مع أختى التى كانت تأخذنى مرات عديدة إلى حديقة ميدان واشنطن Washington Square

على أرائك الحديقة كان هناك أناس متشحون كليا بالسواد، لم يكونوا يشبهون أحدًا رأيته من قبل، لم أستطع منع نفسى من التحديق فى تلك المخلوقات الجالسة وسط هذا البياض الثلجى الناصع فى حديقة (ميدان واشنطن) وقد أوضحت لى أختى أنهم البوهيميون.

وكنا نجلس على إحد الأرائك نحملق فيهم على أمل أن يتحدثوا معنا، ولكن لم يكن أحد منهم يهتم بالآخر، فلم أكن لا أنا ولا أختى قادرتين على الاندماج مع أحد، كنا ونحن نرتدى ملابس بلاد البحر الأبيض لا نزال نشعر أننا غرباء، حتى بالنسبة لهؤلاء الفوضويين الذين كانوا ينظرون إلينا باعتبارنا قمة الغرابة.

وعندما كانت سوزيت تتمشى بمفردها كان يلاحقها أحد هؤلاء البوهيميين مطالبًا إياها بإعطائه ما تتصدق به فكانت تهز له يدها بالرفض وتستمر فى طريقها، ولكنها كانت تشعر بالذنب على الرغم من أن ما تملكه ربما كان أقل مما معه.

كان «السوبر ماركت» المحلى أكثر إغراءً بالزيارة من حديقة ميدان واشنطن، فلم يسبق لى أن دخلت مثل هذه المتاجر من قبل. كانت الأشياء فيها تبرق، وخاصة الفواكة والخضراوات، التى كنت قد اعتدت على شرائها بالرطل من البائعين الجوالين، الذين يمرون فى شارع الملكة نازلى، أما هنا فكل شى معبأ فى كراتين خضراء ومغلفة بعناية بورقة سيلوفان، وحتى العنب والكمثرى كانت تبدو بعيدة المنال، براقة وغير مسموح بلمسها كنت أتعجب، لم يتحمل أحدهم هذا الجهد لتغليف الموز أو الفاصوليا الخضراء فى البلاستيك؟ بينما فى كل أنحاء العالم يمكنك ببساطة أن تتناولها باليد، لابد أن هذه هى أمريكا، البلد الذى يتم فيه تغليف بضاعة عادية كالتفاح بغطاء بلاستيكى فتبدو شهية وغالية، هذا ما قر فى نفسى.

أما الخبز فكان أمره غريبًا، كنت معتادة على الرغيف (الفينو، الباجيت) الطويل ذى اللون الذهبى الذى يمكنك أن تحصل عليه ساخنًا مباشرة من الخباز فى باريس، أو رغيف القاهرة حيث نحصل على العيش البلدى اللذيذ من الفرن مباشرة، ولكن هنا فإن شرائح الخبز الأبيض، لم تكن تشبه أى خبز عرفته، فقد كانت كلها عجينة دون وجه محمص، فى حين اعتدنا على الخبز ذى الوجه المحمص مع قلة تعجنه.

كنا ننظر إلى هذا الخبز ونتفحصه بنوع من الشك والاستغراب، كنت متلهفة كى أتذوق هذا الخبز، ولكن أبى كان فى غاية الاشمئزاز فقال «لولو» هذا ليس خبزًا، لم نشتر أبدًا هذا الخبز الأبيض من السوبر ماركت القريب من برودواى سنترال، ونادرًا - إن لم يكن البتة - ما فعلنا ذلك لاحقًا

بعد أيام من وصولنا قامت وكالة إعادة التوطين بالاتصال بنا لمقابلتنا، وكانت «هايس» قد أخلت طرفها فيما يخص حياتنا، وكان كل ما بقى لنا من علاقة معها، هو مبلغ القرض الذى أنفق فى شراء التذاكر لإبحارنا على ظهر السفينة «كوين مارى» والذى تعهد والدى بسداده على فترة من الزمن، ومن الآن فصاعد أصبحنا فى رعاية «نيانا nyana»، وهو اختصار لاسم جمعية نيويورك للأمريكيين الجدد new york association for new american، وقد أطلقت عليها أمى التى كانت تحب فرنسة كل الأسماء الإنجليزية le nyana «النيانا».

ذهب والدى مع سيزار إلى مكتب الوكالة فى منهاتن لمقابلة سيلفيا كيرشنر،الأخصائية الاجتماعية المسئولة عن توطيننا فى أمريكا وهى شخصية خشنة التعامل، ويبدو عليها أنها قررت منذ البداية، أن تتخذ من أبى موقفًا مفعمًا بالكراهية العميقة، فراحت تصدر تعليمات عديدة إلى درجة تسببت فى إرباكنا: علينا أن نختصر الإقامة فى برودواى سنترال لأقصى حد، وأن نجد لنا مكانا للإقامة، على والدى وإخوتى وحتى أمى أن يبحثوا عن عمل، يجب علينا أن نتعلم الإنجليزية.

وأن نلتقى بالناس، ونتخذ أصدقاء وأن نزاول حياة عادية من جديد.

لقد خالجنا الشعور مع استهلال المقابلة بأنه استجواب بوليسى، لماذا لم نبحث عن شقة بعد؟ أين أمى وبقية الأطفال؟ لماذا لم يأتوا معك؟ هل قمتم بالاتصال بالأقارب الذين يمكن أن يساعدوكم فى الحصول على عمل، لم يكن قد مر علينا فى أمريكا خمسة أيام كاملة، لقد كان واضحًا أن السيدة كيرشنر فى عجلة شديدة.

جلس والدى هناك منصتًا فى هدوء ولم يكن يتكلم إلا حينما كانت تلقى عليه السؤال، وكان والدى هادئًا حتى أن الأخصائية الاجتماعية أساءت فهمه فاعتبرت سكوته نوعًا من الازدراء لها، أو تصورت أنه متذلل أو خانع فى حين كان ببساطة يحاول أن يكون مهذبًا بصورة أكبر، خاصة وهو يعلم أن مستقبلنا جميعًا فى يد هذه المرأة.

ودون أن يقصد، جلب والدى على نفسه حنق سيلفيا كيرشنر، لم يكن الأمر فى حقيقته هو عدم ملاحظة السيدة كيرشنر لحالة ضعف والدى وتقدمه فى السن وتأزم

علته، وازدياد اعتماده على الغير، بل على العكس تمامًا فقد أخذت تملأ صفحات وصفحات بالملاحظات الأشبة بمذكرات، فقد ذكرت بالتفصيل فقدان والدى لقوته، وأنه يبدو أكبر من سنه بكثير، ويمشى بعرج واضح وببطء نظرًا لشرخ فى ساقه، ومن الواضح أنه يتألم حتى وهو على مقعد مكتبى مريح لقد لاحظت أيضًا عدم قدرته على الاستقرار فى وضع واحد دون تغيير وضع ساقه أو انقباض وجهه من الألم وأنه كان فى غاية التعب.

ورغم أن والدى كان قد وصل إلى مرحلة الذبول، فإن السيدة كيرشنر لم تظهر أى تعاطف، فقد اعتبرته مثيرًا للمشكلات، وعلى الرغم من حنكتها وحرفيتها وكونها قد ساعدت آلافًا من المهاجرين على الاندماج فى عالمهم الجديد، فإن عملية التحول هذه كانت قائمة على أساس ضرورة التخلص من منظومة القيم والمفاهيم القديمة باعتبارها بالية وعتيقة من أجل تبنى الأفكار الجديدة والحديثة التى هى على الأخص أمريكية.

هكذا يكون التأقلم من وجهة نظرها، بصرف النظر عن كون هذا السيد الشديد الأدب واللطف، صاحب اللكنة الإنجليزية الذى يعانى من شدة العرج، كان يرفض الرضوخ لفكرة التخلص من ثقافته الماضية.

لم يكن والدى مقتنعًا على الإطلاق بأن القيم فى نيويورك تتفوق على تلك القيم السائدة فى القاهرة، فلم يكن يرى أن عليه التخلى عن الثقافة التى أحبها ووثق بها من أجل ثقافة جديدة لا يكاد يعرفها، بل ويرفضها كليًا، كان يفضل أن يبقى مصريًا عتيقًا على أن يصبح أمريكيًا حديثًا، باختصار لم تكن لديه أية رغبة فى الرضوخ، فقال للسيدة كيرشنر «نحن عرب يا سيدتى».

كان هناك صراع بين الحضارات والشخصيات، فكلاهما له إرادة قوية، فوالدى والسيدة كيرشنر كانا متمسكين بأسلوبين مختلفين، مؤمنين بمجموعة من القيم المتباعدة كل البعد، فلا يمكن مطلقًا التوفيق بينهما، وبدا كملاكمين يقف كل منهما فى جانب من الحلبة، وقد أصرا على القتال حتى يدق جرس النهاية، من أجل المبادئ التى يؤمنان بها.

على أى حال، فإن صراع الإرادة بين سيليفا كيرشنر وليون لنيادو فى تلك الوكالة الصغيرة للاجئين فى بداية ١٩٦٤، كان استباقًا للصراع الذى عانت منه أسرتى كلها فى السنوات التالية فى أمريكا، حيث كانت مشاعرنا تتعارض باستمرار مع آراء أصدقائنا الأمريكيين، حول أهمية الله والعائلة ودور المرأة فى المجتمع، كما أنها كانت نذيرًا حول صراع مخيف وأكثر رعبًا ظهر فيما بعد، بين الولايات المتحدة والعالم

الإسلامى، عندما كانت الولايات المتحدة تسعى إلى نشر أفكارها حول الحرية والمساواة لتجد نفسها تواجه بازدراء الثقافات التى تعتبر أمريكا مجتمعًا كافرًا وغير أخلاقى.

كان يمكن لليون أن يكون مجرمًا، أو سارق جواهر، فاسقًا أو محتالًا ولكن لا شيء كان من شأنه أن يزعج الأخصائية الاجتماعية سيلفيا كيرشنر، قدر انزعاجها من رفض والدى للرضوخ لفكرة التغيير، ورفضه أن ينحى جانبًا كل تلك القيم، التى كانت تراها هى مقززة وغير أمريكية، ومن وجهة نظرها كان أبى زعيم عشيرة فى بلد لا توجد فيه عشائر، فقد كان يريد السيطرة على زوجته وأولاده، وربما حتى الأخصائية الاجتماعية نفسها فى بلد لا ينبغى فيه للرجال أن يفكروا بهذه الطريقة.

لقد كتبت إنه «رجل جد متصلب، ذو أفق محدود، وسيكولوجية شرقية تختفى وراء قشرة من الذوق»، لقد كتبت إن «أبى ورؤاه ميئوس منهما فى هذا المجتمع المستنير الذى كان محظوظًا بالانتقال إليه».

أو ربما لم يكن محظوظًا بدرجة كافية. وفى لحظة من التبصر كتبت السيدة كيرشنر إن والدى «كان ينظر إلى الهجرة ليس باعتبارها فرصة، ولكن باعتبارها مأساة».

وبعد انقضاء أسبوع، كان علينا جميعا الذهاب إلى منهاتن، لمقابلة السيدة كيرشنر التى لا يستهان بها، فراحت تعايننا بنظراتها من أعلى إلى أسفل وهى تسجل بعض الملاحظات ثم اتجهت نحوى وحدقت فى، قبل أن تسجل مزيدًا من الملاحظات، كانت أختى سوزيت هى الوحيدة التى حظيت بتقدير من كيرشنر، فقد تبادلا الحديث وتضاحكا وكأنهما صديقتان قديمتان، ونجحت أختى فى نيل استحسانها فكتبت بإطراء فى ملف الملاحظات «آنسة جذابة وراقية».

وإن لم نحظ جميعنا بتقرير طيب...

أما أخى سيزار فقد أغاظها بدرجة تكاد تماثل غيظها من والدى، ورغم أنها لم تتهمه بكونه ينتسب للعالم القديم، فإنها كانت مستاءة من تعلقه بآمال تفوق قدراته الطبيعية بكثير، لقد انزعجت مسز كيرشنر من ضخامة حجم أحلام أخى الأكبر، ورفضه قبول عمل بسيط ككاتب أو ساع، وركزت على ضرورة أن يكون واقعيًا ويبدأ بالعمل.

بعد مرور السنين كان أخى ينحى باللائمة على سيلفيا كيرشنر وجمعية «نيانا»، على دفعه نحو الطريق الذى سلكه، بأن يجبر على العمل فى وظائف وضيعة متدنية الأجر، وهو فى الثامنة عشرة من عمره، فى حين كان يجب أن يداوم على الدراسة لبناء مستقبل أفضل.

وبدلا من ذلك وبسبب المرسوم المشئوم بضرورة حصوله على عمل، أى عمل، فإن الدرجة الجامعية التى كان فى استطاعة سيزار الحصول عليها خلال أربع سنوات فقط، احتاجت منه عشر سنوات إذ لم يكن أمامه من خيار، سوى الالتحاق بمدرسة ليلية، حيث كان معظم المنتسبين إليها من المهاجرين أمثاله، مما عمق من إحساسه بالعزلة والغربة، وقد تطلب حصوله على درجة الماجستير التى لم تكن تحتاج سوى لعامين، إلى خمس سنوات، وعندما حصل عليها كان سيزار قد بلغ الخامسة والثلاثين.

كانت مسز كيرشنر متعاطفة جدًا مع أمى وحريصة على مساعدتها وتغييرها، لتستطيع الاستفادة من الفرص التى لم يُسمح لها بالتمتع بها كامرأة فى مصر.

لقد أصبحت مسز كيرشنر مشغولة الخاطر بمظهر أمى، ذلك أنها فقدت أسنانها وتبدو أكبر من سنها، واعتبرت أن امرأة فى الثانية والأربعين من عمرها تظهر بين الناس دون أى أسنان عملًا بربريًا.

فى عين الأخصائية الاجتماعية كانت إيديث منكسرة، هادئة، قلقة وخاضعة تمامًا لوالدى، كانت أمى «تعطى الانطباع بأنها شخص مذعور» هكذا كتبت مسز كيرشنر مشددة على أن «عينيها السوداوين الكبيرتين تحملق كالأطفال لاستجداء الحماية»، وأن ليون هو المدان فى ذلك، فكل الصراعات والمشكلات والعلل التى تعرضت لها، كانت بسبب شخصيته المسيطرة بصورة غير معقولة

فما الذى تستطيع أمريكا تقديمه لامرأة كتلك؟ ربما لن تستطيع أن تعيد إليها الثقة بالنفس، ولكنها تستطيع على الأقل أن توفر لها طاقم أسنان.

بعد استفسار عنيف لأبى عما منع عرض أمى على طبيب أسنان فى القاهرة، أمرت كيرشنر بضرورة الذهاب فورا إلى عيادة لتركيب طاقم أسنان لها على أن تتحمل الوكالة التكاليف، هكذا أصدرت مسز كيرشنر فرمانها العالى بالإضافة إلى مرسوم بضرورة مغادرتنا البرودواى سنترال.

كان معظم المهاجرين من منطقة شرق المتوسط، قد استقروا فى أحد أركان جنوب بروكلين، أما أسرتى التى لم تكن مرتبطة بمكان معين، فقد كان من وجاهة الرأى أن تنضم إلى مجتمعها المفقود، وقام سيزار برفقة والدى بالبحث يوميا عن مكان يصلح لإقامتنا فى محيط عشرة شوارع بمنطقة بنسون هيرست حيث كان المهاجرون من القاهرة والإسكندرية يعوضون ما فاتهم، بالتجمع فى المبانى المنخفضة المبنية بالطوب الأحمر، ذات الشقق المنخفضة الإيجار، وكذلك البيوت العالية البسيطة المكونة من طابقين.

كانوا يسيرون فى البرد القارس، يبحثون كثيرًا عن لافتة «شقة للإيجار»، لقد عثروا على فرصة واعدة بشقة فى الدور الثانى فى بناية مملوكة لطبيب أسنان يدعى دكتور كوهين، وراح والدى يتحدث مطولًا عن التزامه العميق بالديانة اليهودية، على أمل أن يوفق فى الحصول على الشقة بإيجار معقول، إلى أن أفصح الدكتور كوهين عن حقيقة أنه ليس يهوديًا، وأصيب والدى بالصدمة والارتباك، مذهولًا من تلك البلاد، حيث الحقيقة لا تطابق المظهر، حتى بالنسبة لطبيب اسمه كوهين.

حاولت أنا وأمى أيضا أن نجرب حظنا بالمغامرة فى بروكلين وما حولها، للبحث عن لافتة «للإيجار»، ولكن معظم ما رأيناه كان فوق قدرتنا المالية، وعندما أصابنا الإرهاق قررنا أن نمر على أقارب والدتى وأختها غير الشقيقة، التى لم نرها منذ خمس سنوات، أى منذ تركت خالتى روزى وأبناؤها مصر.

لم يكن قد سبق لى أن رأيت روزى، ولكن أمى كانت تتحدث عنها بكل تقدير كامرأة كبيرة، كانت كأم بالنسبة لها، وكانت تحب أن تذكر أيام خطبتها عندما أخذت روزى على عاتقها تفصيل ثوب العرس، وكانت روزى قد جمعت خصلة من شعرها وحاكتها فى ذيل الفستان لجلب الحظ، ولم تستطع أمى أن تتخلى عن هذا الثوب، وها هو لا يزال محفوظًا فى واحدة من الست وعشرين حقيبة التى رافقتنا طوال الطريق إلى أمريكا.

كانت خالتى تقيم فى شارع ضيق ذى اتجاهين، وبه محلات متراصة تعلوها شقق سكنية، وكان الوقت موسم أعياد الميلاد (الكريسماس)، والمنطقة تتلألأ بزينة العيد، لم يكن ما أثار دهشتى، هو كثرة الأشجار والأنوار والأيائل البلاستيكية، وإنما كانت «المينورا» ذلك الشمعدان اليهودى بأنواره الصفراء والمعروضة، فى عدد كبير من الشبابيك، ولم أكن قد رأيت مينورًا كهربائيًا من قبل، ففى بيتنا كنا نشعل فتيلًا عائمًا فوق مزيج من الزيت والماء.

كنت معتادة على أن الدين تتم ممارسته بتحفظ فيما وراء الأبواب المغلقة بالبيت، أو فى المعبد، ولكن اليهود هنا يحتفلون بأعيادهم علنًا، وبكل ثقة كجيرانهم بأكاليلهم وورودهم، ولافتات «عيد ميلاد سعيد».

تعانقت والدتى وخالتى روزى، التى أحضرت القهوة التركية على صينية كتقليد متبع، ولكن فيما بعد، راحت روزى تلقى على أمى محاضرة عن قواعد الذوق المتبعة فى التزاور فى أمريكا.

فأعلنت أن نيويورك ليست كالقاهرة، وأن عادة القيام بزيارة الأصدقاء أو حتى الأقارب دون ترتيب مسبق يعد أمرًا غير مقبول، قالت لأمى هنا فى أمريكا يجب أن تتصل أولا، ولاحظت أن أمى كانت تتجمد ثم تبتسم بلا إحساس.

أخذنا نتجول فى الطريق مرة أخرى، وفجأة أحسسنا بأن وميض أضواء الأعياد، لم يعد مفعمًا بالأمل، وشعرنا بالبعد الشاسع بين أمريكا والقاهرة، وشَلال الأصدقاء والأقارب الذين كانوا يتقاطرون لزيارتنا بصفة مستمرة، وأثناء رحلة العودة الطويلة إلى منهاتن ران علينا الصمت، فلقد اتضح لنا أن تلك الثقافة التى كان مطلوبًا منا تبنيها بكل وعودها بالثراء والفرص، يمكن أن تكون بنفس القسوة التى يخترق بها هواء ليالى ديسمبر ملابس شيكوريل.

لم تكن تلك المرأة القاسية التى قابلناها الليلة، تشبه بأى شكل خالتى روزى التى تتذكرها أمى منذ حياتنا فى القاهرة، فراحت تصور لنفسها أن ما قالته لنا الخالة روزى كان غلطة أو زلة وأرادت المحافظة على صورة أختها روزى كما تخيلتها، إنسانة أخذت على عاتقها أن تحيك لها فستان زفاف رائع، و أنقذت حياتها عندما أصابها مرض التيفود، وفقدت طفلتها ذات العيون الزرقاء.

كان البرد الشديد فى نيويورك هو أقسى فصول الشتاء التى عرفناها فى حياتنا بل أبرد شتاء عرفته نيويورك. فى كل يوم كان سيزار ووالدى يجاهدان بالمشى، وأيديهما متشابكة فى شوارع بروكلين، يعوقهما الثلج المتساقط الذى بلغ ارتفاعه عدة أقدام، وازدادت شدة عرج والدى بسبب المشى الخطير فوق الثلج، و لم يكن أخى بأفضل منه حالًا، فقد كان طويلا ونحيفًا، فرغم طوله البالغ ٦ أقدام لم يزد وزنه عن ١٤٠ رطلًا (٦٥ كجم)، كان يعانى من سعال فظيع بسبب الطقس الشديد البرودة واعتياده تدخين عدة علب من التبغ يوميًا.

اقترحت مسز كيرشنر أن يذهبا فورًا إلى العيادة الشمالية فى منطقة الـ village بمنهاتن. ومن أجل مساعدة سيزار على الشفاء، وافقت الوكالة على شراء معطف شتوى له ولوالدى، حيث إنهما أصبحا لا ينفصلان، وذهب أخى إلى قسم الخصومات فى سانت كلاين فى يونيون سكوير (ميدان الاتحاد) فقد كان هناك أوكازيون، إلا أنه نتيجة ارتباكه وتوتره وخجله انتهى إلى اختيار معطف أكبر من مقاسه كثيرًا.

لقد انتهت أيام القمصان السوداء المحبوكة على جسده، فالمعطف الداكن الذى كلف ١٧,٥ دولار كان مقاس ٤٦ يصلح لرجل يفوقه طولًا بعدة بوصات، ويفوقه

وزنًا بالعديد من الأرطـال، ولذلك كان يتعدى ركبته وكانت الأكمام طويلة وقد انسدلت الأكتاف بحيث أصبح شكله مثل طراز الرجلون (raglon). وعندما قام سيزار بتجربة المعطف، أومأ والدى بموافقته معلقًا بأنه سوف ينمو بداخله، ولا شك أنه سيحميه خلال أول شتاء له فى أمريكا، لكن وللأسف كان العكس هو الصحيح، فالمعطف الواسع كان أقل حماية له من معطف محكم حول جسده.

وبدونا كمن قذفهم اليم على شاطئ أمريكا، فقد فقدنا القدرة على التمييز والتقدير، فأخى الذى كان يحب دائمًا الملابس المحبوكة وعلى أحدث الأزياء، انتهى إلى شراء معطف لا يتوفر فيه أى من ذلك، ووالدى الذى كان يعطى أهمية كبيرة لتصميم الملابس وطرزها، لم يعد قادرًا الآن على النظر بعناية إلى معطف يشتريه ابنه الأكبر، أو يشير إلى عيوبه الظاهرة، والأسوأ من ذلك، أن أبى لم يعد يهتم بمظهره، ولأول مرة فى حياته أصبحت ملابسه مهرولة فلم يعد يلقى أى اهتمام بمظهره، لقد كانت مسز كيرشنر مصدومة لمنظر ملابس والدى البالية الفقيرة على عكس ما كان فى القاهرة رمزًا للأناقة وهو يتبختر ببدلته البيضاء الشركسكين الأنيقة، وقد وصفته مسز كيرشنر فى ملاحظاتها، بأنه «رث الثياب»، مبدية عجبها من الملابس المفترض وجودها فى ست وعشرين حقيبة.

كان والدى صامتًا سواء فى مكتب مسز كيرشنر أو عند عودته للفندق، فلقد كان لا يستشير إلا نفسه، و لم يكن على استعداد لوضع ثقته فى مسز كيرشنر أو فينا نحن، أو فى أى شخص آخر، ليشكو لهم يأسه مما آل اليه حبيسًا فى غرفة فندق فى منطقة جرينويش فيليج greenwich villag، بلا أى إمكانيات أو مستقبل، ومعه طفلة صغيرة تطلب خبزًا أبيض وفاكهة ملفوفة بورق السيلوفان.

وهكذا فإن المظهر الوحيد لصراعه الداخلى كان ملابسه البالية والمتهالكة.

ذات صباح أفقنا على صوت أجراس تدق، وكنا نسمع أصوات أناس يتزاحمون فى أروقة الفندق، ثم سمعنا مزيدًا من الأجراس، و لم نكن قد بلغنا الخامسة صباحًا بعد و لا نعلم ما الذى يحدث و لم يبق سوى خمسة أيام على عيد الميلاد ورغم ذلك، جلست أمى وصاحت بكل فرح لابد أنها أجراس عيد الفصح، كان هناك دق متسارع على غرفتنا ثم صياح يقول «حريق».

لقد كان فندق البرودواى سنترال يحترق، وكان علينا أن نغادر فورًا.

لما كنت قد ذهبت للنوم بملابس عادية بسروال صوفى وبول أوفر، فقد قفزت من سريرى وأنا فى كامل ملابسى، ولكن الآخرين لم يكونوا مستعدين بعد، وبدا عليهم

جميعًا أنهم إما تجمدوا مكانهم، أو غير قادرين على الحركة، أو يهرولون بلا هدف فى حالة من الذعر، وكانت أمى لا تزال غير مصدقة أن ما سمعته كان جرس الحريق، وحاولت أختى إيجاد ما ترتديه، وتحرك والدى ببطء أكثر من المعتاد، غير واثق ما الذى ينبغى له أن يحمله معه: الأوراق الهامة، أم أهم الحقائب من بين الست والعشرين حقيبة، أما سيزار فقد استرد رباطة جأشه فالتقط محفظته وبعض الأشياء الأخرى، مثل أوراق السفر وصور أصدقاء الطفولة، وبعض الدولارات والجنيهات المصرية.

ظللت أصرخ فى كل منهم دعونا نرحل... دعونا نرحل، أخيرًا أخذت مهاراتى فى البقاء على قيد الحياة تفعل فعلها، وهى مهارة واتتنى حتى وأنا فى سن السابعة، وكان هناك دخان، وكثير من الصخب فى ممرات الفندق، والناس الذين خرجوا بملابس النوم و بلفائف الشعر، يصرخون ويهرولون إلى السلالم والمصاعد.

أخيرًا وكأن دهرًا قد انقضى، كنا جميعا مستعدين للخروج فيما عدا أختى التى كانت لا تزال تعبث بمحتويات خزانة الملابس اندفع والدى للخارج دون حمل أى شىء سوى محفظته، وتبعناه أنا وأمى وأخواى، ووضعت سوزيت معطفها الشتوى فوق البيجامة وأسرعت خلفنا، وتركنا غرفتنا وسرنا عبر الصالة المليئة بالدخان، والمتسخة بالرغوة والماء التى استخدمها رجال الإطفاء لإخماد اللهب، وركبنا المصعد نزولًا إلى بهو الفندق، كانت درجة الحرارة فى الخارج ١٧ درجة مئوية والرياح عاصفة تمرق من خلال ثيابنا.

صحبنا والدى إلى مقهى على الناصية لاحتساء شيكولاتة ساخنة وقهوة حيث انتظرنا بقلق، هل فقدنا محل إقامة آخر؟ هل سيصبح علينا أن ننتقل إلى فندق غيره؟ كان يوجد بالأعلى كل ما نملك و لم نستطع تخيل أن القليل الذى كنا نملكه قد دُمر كله.

بعد عدة ساعات أبلغنا بإمكانية العودة لغرفنا التى نجت بمعجزة من أن تتأثر كثيرًا بالدمار، كنت فى حالة غريبة من الابتهاج فأخيرًا تم تبرئتى من اللوم لأننى أنام بملابسى الكاملة. لقد كان تصورى أنه من الحصافة أن تكون مستعدًا دائمًا فى مثل هذه البلدة.

أخيرًا جاء تسكعنا خلال بروكلين بالفائدة، فوجدنا شقة تتكون من أربع غرف بما فى ذلك المطبخ، وكانت الشقة أصغر بكثير من شقة الملكة نازلى، ولا تكاد تكفى لإيواء ستة أشخاص، ولكن على الأقل كانت لنا شقتنا بعد نحو سنة من السكنى فى الفنادق، فإن هذه الشقة كانت بدت لنا قصرًا، وكانت تقع على شارع يسكنه إيطاليون وعائلات من الشرق.

كان بازل كوهين صاحب العقار المتقدم فى السن – لا علاقة له بكوهين طبيب الأسنان – يعود فى أصوله إلى سوريا، وكانتِ زوجته من حلب مسقط رأس والدى، وبعد مفاوضات تليق باثنين من تجار البازارات فى سوريا، اتفق والدى مع المستر كوهين على إيجار ٩٥ دولارًا. كان هذا الإيجار يفوق ميزانيتنا ولكننا كنا مضطرين لمغادرة الفندق، و لم يكن لنا خيار آخر، فقد كان إصرار مسز كوشنر على ضرورة تركنا للفندق سيؤدى إلى أن نصبح بلا مأوى.

هكذا سنصبح مرة أخرى مثل باقى البشر العاديين، ولنا عنوان حقيقى، وكانت أكثر الأيام إثارة لى فى أمريكا هو يوم ذهابنا لشراء الأثاث، سوف تكون لنا أسرّتنا الخاصة، ومقاعدنا وأرائكنا وطاولاتنا، وكل ما افتقدناه لزمن طويل.

وحينما اتجهنا فى طابور واحد إلى محلات ماسى macy's، لاحظت أن البرد لم يعد يضايقنى ولمحت من على بعد لافتة «ماسى: أكبر محلات العا لم».

كنت فى حالة من الرهبة، وبعد أن أصبحنا فى الطابق الأعلى وتجولنا خلال المعرض الفسيح تعبنا من عدم مقدرتنا على شراء أى شىء.

أرانا البائع سريرًا من الحجم الكبير الرائع، وكأنه من أحد الأفلام السينمائية. لم يكن فى قدرتنا حتى الاقتراب بأى صورة من سداد ثمنه، وعندما لاحظ البائع خيبة أملنا، أخذنا إلى ركن خاص يحتفظ فيه ماسى بالأثاث الأرخص ثمنًا، وأشار إلى سرير إسبرطى حديدى منخفض ويمكن تطبيقه أو فرده ولكنه كان بغيضًا، وكانت المرتبة المصنوعة من الإسفنج الصناعى رقيقة للغاية، ولا يزيد سمكها على بوصتين.

صاحت أمى بالفرنسية قائلة «إنه مثل أسرّة الجيش».

خرجنا من ماسى وقد أنفقنا كل ما معنا على ستة من تلك السرائر المعدنية.

نظرت مسز كيرشنر إلى الفاتورة ٢٥٤ دولارا، واتهمت أبى بالتبذير، وأرادت أن تعرف لماذا اخترتم ماسى؟ لماذا لم تذهبوا إلى المتجر المحلى؟

* استمرت فى اعتبار أبى مسئولًا عن كل ما حل بنا، كانت من أتباع الحركة النسائية قبل أن تظهر هذه الحركة بكثير، فقد نظرت إلى أبى بنوع من الشك والعدوانية حتى أن كل مميزاته تحولت فى نظرها إلى نقائص وعيوب، لماذا يقوم لاجئ من مصر بالتسوق فى أرقى متاجر التجزئة؟ ولماذا يتحدث بلكنة الأرستقراطية الإنجليزية؟ لقد تعجّبت من ذلك، إذ كانت على يقين من أنه كان يتظاهر، عاش أبى حياته كلها متمسكا بقواعد الشرق، ولقد كان يتمتع فى مصر بالاحترام، كما كان ينظر إليه بإعجاب من أجل تمسكه

بمبادئه، كانت الفجوة بينه وبين الأخصائية الاجتماعية عميقة جداً، فلم تكن ترى فيه أى شىء يستحق الإعجاب، حتى لكنته الإنجليزية المحببة. كان إصراره فى المحافظة على التقاليد، قد جعله فى نظرها متمسكًا بخطئه، وكان إخلاصه الشديد للإيمان أمرًا غريبًا بدرجة ميئوس منها، لقد كانت تنظر بنوع من الحذر إلى العاطفة الدينية التى حددت دومًا طبيعة أبى، لأنها كانت علمانية، نشأت فى مجتمع علمانى، فلم تعترف بتلك العاطفة، واعتبرتها نوعًا من الولاء المصطنع الخالى من كل إخلاص صادق.

كان هناك أيضًا مسألة عدم قابليته للتوظيف، على الأقل كان هذا حكم «النيانا» الذى أصدروه بعد عدة أسابيع من وصولنا، فلم يكن باستطاعة الوكالة أن تتخيل مكانًا لوالدى، فى هذا البلد المليء بالفرص والوفرة المعروف باسم أمريكا.

قال أبى لمسز كيرشنر «لقد عملت دائمًا يا سيدتى» على الرغم من أنه كان دائمًا كتومًا معنا فيما يتعلق بعمله وصفقاته، لقد تحدث مطولًا معها عن خبرته كبقال، ومستثمر وبائع أدوية وكيماويات.

كان حريصًا على الحصول على عمل، وعندما أوضحت له مسز كيرشنر إعاقته الجسمانية صاح بها «ربنا كبير»، ولكن ذلك لم يؤد إلى شىء أكثر من جعلها تكتب فى سجل ملاحظاتها، أن أبى كان دائمًا يستحضر الله فى كل شىء، وإن فلسفته الوحيدة هى «ربنا كبير» التى كان دائمًا يرددها باللغة الفرنسية.

وقد ألقت نظرة باردة على توسلات أبى العميقة بشدة حاجته للعمل من أجل إعالة أفراد العائلة الستة كما كان يفعل دائمًا، لقد اقترحت الأخصائية الاجتماعية، أن يقدم والدى طلبًا للحصول على إعانة اجتماعية، بدلًا من محاولة الحصول على عمل، وكانت تلك فكرة أمريكية جوهرية فى أوائل الستينيات، كان هذا الاقتراح منها هو أكثر ما يمكن أن يجرح مشاعره، فلم يكن يريد صدقة، قال لها ذلك بهدوء، إلى جانب أنه كانت لديه فكرة أفضل.

فأثناء تجواله فى منهاتن، لاحظ وجود المئات من المنصات والأكشاك، التى كانت فى كل مكان، فى محطات قطار الأنفاق والشوارع والنواصى ومواقف الأتوبيسات، وبجوار الأماكن المزدحمة، يديرها شخص أو شخصان، وتباع فيها السجائر والجرائد والشيكولاتة والبسكويت والحلويات ورقائق البطاطس (شيبسى) والمجلات، والآن يبدو أن هناك مشروعًا يمكن له أن يتدبره، ولقد ذكّره ذلك بالأيام الخوالى حين قام هو وعمى رفائيل بالاتجار معًا فى منتجات البقالة.

كان على استعداد بأن يبدأ صغيرًا، بالإضافة إلى أنه يعتقد أن هذه الأعمال الصغيرة لها مستقبل كبير، فأكثر ما يهم سكان مدينة نيويورك، هو جريدتهم الصباحية وقالب شيكولاتة باللوز، وعلبة سجائر الجمل (camel) بنفس الطريقة التى كان المصرى التقليدى يعتمد عليها فى شراء زجاجة من زيت الزيتون وعلبة سردين.

وقرر والدى أنه سيفتح محلًا لبيع الحلويات.

لقد بدأ بتقليب صفحات الجرائد بحثًا عن منصة لبيع الجرائد أو كشك سجائر معروض للبيع، فإذا لم يكن أحد فى أمريكا يرغبِ فى توظيفه فهذا هو الحل المثالى، وقرر أن يطلب من مسز كيرشنر ووكالة نيانا أن يساعدوه، فلو أمدوه بقرض بمبلغ ٢ دولار فسيكون ذلك كافيًا، ويصبح قادرًا على إعالة أمى وباقى الأسرة، معتمدًا على نفسه كما كان يفعل دائمًا من قبل.

لكن مسز كيرشنر رفضت حتى مجرد الاستماع للفكرة، لم تشعر بأنها كانت متعسفة أو قاسية بل على العكس شعرت بأنها كانت شديدة الحرص والرأفة بوالدى، الذى أصبحت مسألة عرجه أسوأ بكثير مما كانت عليه عند وصولنا إلى أمريكا، فالأطباء البارزون الذين استشارتهم الوكالة، أقروا بضرورة راحة والدى وإعطاء نفسه الوقت الكافى ليتعافى، وها هو يقترح مشروعًا يستلزم وقوفه طوال اليوم على قدمه، إلى جانب أنه لم يكن قد أعد دراسة متكاملة عن فكرته، وإنما اعتمد كلية على ثقته المفرطة فى نفسه بأنه قادر على إعالتنا.

حتى رغبة والدى بالغة التواضع قوبلت بالرفض، هذا الرجل الذى تعامل مع شركة كوكاكولا، لم يعد أهلًا لبيع السجائر واللبان.

فى منتصف يناير ضربت عاصفة ثلجية مدينة نيويورك، وتجاوز ارتفاع الثلج القدم، وكان ذلك أكثر مما كنا نتوقع، وبعد عدة أيام تركنا البرودواى سنترال إلى شقتنا فى الدور الثانى فى البناية المملوكة لمستر كوهين، فى الشارع ٦٦ ببروكلين، وكان مستر كوهين وزوجته بانتظارنا للترحيب بنا، فصاحوا بالعربية «اتفضلوا» وبالكرم السورى المعتاد قدموا لنا طبقًا من الكعك، وبسكويتًا مملحًا مستديرًا، مغطى بالسمسم لم نكن قد ذقناه منذ تركنا القاهرة، لقد أدركنا بتذوق الحلويات اللذيذة، أننا كنا بعيدين جدًا عن بلدنا وأننا أخيرًا وصلنا.

كانت سرائر متجر ماسى فى انتظارنا، ولم نكن نملك طاولة طعام بعد، وإن كان هناك كرسى واحد لنا نحن الستة. حتى فى شقتنا الجديدة، لم نكن قادرين على التخلص من غضب سيلفيا كيرشنر.

فبعد ستة أشهر من انتقالنا، قررت أن تأتى لزيارتنا، وفى صباح ذلك اليوم، سألنى والدى إن كنت أرغب فى الذهاب إلى منهاتن، وأومأت له بالموافقة متحمسة لأن أرافقه فيما بدا لى أنها مغامرة، و لم أكن أعرف أن والدى أراد إبعادى عن المنزل حتى لا أتعرض لمقابلة أخصائيتنا الاجتماعية.

كان الاثنان عند هذه المرحلة قد أصبحا فى حالة حرب معلنة، وقد اختفى كل أثر للتمدن، فقد راقب والدى هذه المرأة وهى تتقارب مع شقيقتى سوزيت، وتشجعها وتحرضها على عصيان سلطته ، فتقول لها، هنا فى أمريكا من المسموح لسيدة صغيرة أن تكون مستقلة فى حياتها وقراراتها، وكانت أختى فى ذلك الوقت تهدد بترك المنزل لتعيش بمفردها، وكان والدى فى غاية التذمر، فاتصل بالسيدة كيرشنر ليشكو من تصرفاتها، وبأنها قد دفعت سوزيت إلى طريق لن يقودها إلا للخراب.

وقال لها «سوف تدمرى حياتنا يا سيدتى»، واستهجنت كيرشنر تذمر والدى، وكتبت فى مذكراتها بأن والدى كان ميلودراميا بصورة متناهية.

كانت لوالدى خطط أخرى لأختى.

فى نهاية شارعنا وجد والدى مقرًا جديدًا له، «تجمع الحب والصداقة»، وهناك وجد أن معبد القاهرة الذى ظن أنه فقده للأبد، قد بُعث من الموت، حتى بنفس اسمه العبرى الأصلى،ahaba ve ahavah، كان هذا المحفل دافئًا ومرحبًا، فقد جمع بين والدى والعديد من أصدقائه القدامى من مصر، والذين مروا عبر نفس رحلتنا، كانوا يصلون بنفس أنغام التراتيل التى اعتاد عليها يهود القاهرة، بإيقاعاتها المحببة وأوزانها، تمامًا كما كانت فى المعابد حول شارع الملكة نازلى.

كان كثير من الأعضاء فى هذا التجمع لهم أبناء فى نفس سن سوزيت، وكلهم تواقون للزواج وبناء حياتهم، لقد قال والدى للأخصائية الاجتماعية إن هناك عددًا من العرسان المناسبين لسوزيت فى انتظار الموافقة، وبأنه كان قد ساعد شقيقاته الخمس على الزواج، وبالتأكيد فإنه قادر على إيجاد زوج ملائم لابنته.

و لم يترك ذلك انطباعًا جيدًا لدى مسز كيرشنر، فقالت إن البنات فى أمريكا لا يحتاجن من يرتب لهن الزواج، وهن لا يزلن فى سن مبكرة، وأن باستطاعتهن ترك المنزل ومتابعة دراستهن والحصول على وظيفة. لم تكن كيرشنر ترى أن على أختى أى التزام بأن تتزوج أو أن تطيع والدى.

لقد وجد والدى أن ذلك كله، هو تدخل مفرط فى مسئولياته، وفى هذا اليوم الحار من الصيف كان والدى عازمًا على أن يمنع كيرشنر بأى وسيلة من الاقتراب منى.

ساعدنى أبى على حمل الصندوق البنى الكبير الذى كان يصحبه معه إلى كل مكان قى تلك الأيام، وهكذا فإن والدى لم يحصل على وظيفة، إلا أنه كان يعمل، لقد أصبح بائع ربطات عنق (كرافتات)، فداخل الصندوق كانت هناك عدة دست (الدستة =١٢ قطعة) من ربطات العنق، ناعمة، حريرية ومطبوعة بتصميمات وألوان فى غاية الروعة، لم أر فى حياتى كنزًا مثله من الأشياء النفيسة البالغة الروعة والجمال.

بعد نحو ساعة من خروجنا وصلت مسز كيرشنر لتجد أمى وحدها، وتساءلت أين والدى؟، وأين لولو؟، وقالت إنها منزعجة ومتضايقة لعدم وجودنا، ما الذى يفعله ليون باصطحاب طفلة صغيرة فى يوم شديد الحرارة.

حاولت أمى أن تهدئ من روعها، فقدمت لها طبقًا مليئًا بالكعك والبسكويت وكوبًا من الليمون، وقالت إننى ذهبت معه للعمل استشاطت سيلفيا كيرشنر غضبًا، وقررت أن والدى يستغلنى كى يزيد من فرصته فى مبيعات أكبر، فكتبت غاضبة إننى بشعرى الأسود الداكن، وعينىّ الكبيرتين السوداوين «لابد أننى سأجذب الأنظار بسهولة»، لم يكن بإمكانها أن تتخيل سببًا آخر يدفعه إلى اصطحابى معه، سوى يقينها بأن ذلك لم يكن سوى استغلالى ليستدر عطف الزبائن.

لقد كنت محظوظة: عندما تبنت أمريكا بعد عقود فكرة «اصطحب ابنتك لمكان العمل»، فأصبح هناك يوم لانضمام الفيتات الصغار لآبائهن، فى تلك المكاتب المقسمة على شكل مكعبات، أو أمام شاشات الكمبيوتر، فى غرف اجتماعات مجالس الإدارة، والاستمتاع بحياتهن لأقصى درجة

كان من الواضح أن أبى يعانى كثيرًا فى مشروعه الجديد، فكانت هناك أيام لا يبيع فيها شيئًا كان رقيقًا وشغوفًا ومفعمًا بالأمل عندما كنا نسير متشابكى الأيدى فى صباح ذلك اليوم شديد الحرارة لقد ابتسم وهو يسألنى بالفرنسية «لولو هل ستساعديننى لبيع بعض ربطات العنق؟».

لقد ظن بأننى سأجلب له الحظ.

الفصل السابع عشر

درس اللغة العبرية

فى السنة الأولى لى فى أمريكا كنت أصحو فزعة، بعد أن أحلم بقطتى «بسبس»، كنت أفكر وأنا مستلقية على سرير متجر ماسى، فى قطتى التى تركتها بمصر، ثم أنخرط فى البكاء، كنت أسأل نفسى هل ترى عاشت بسبس بعد سفرنا؟، كنت أسأل نفسى، هل استطاعت تدبر أمرها دون أن يرعاها أى منا فى الملكة نازلى؟ كنت فى غاية القلق بحيث تطلب الأمر استدعاء والدى لتهدئتى، رغم أننى كنت قد تجاوزت مرحلة الثقة العمياء التى كنت عليها فى ذلك اليوم الذى تركنا فيه القاهرة.

كان كل واحد منا قد تعلق– بصورة مفرطة– بأحد الأشياء التى صارت تمثل له رمزًا لعالمنا المفقود. بالنسبة لى كان هذا الرمز هو قطتى بسبس، وبالنسبة لأمى كان الإحساس بخاتم الزفير الثقيل، الذى كانت تلبسه فى إصبع السبابة اليسرى، وكيف كان هذا الحجر يلمع ويعكس الضوء، وبالنسبة لسيزار فكان صديق الطفولة الصبى القبطى جابى الذى كان ينظر إليه بإعجاب، ويكاد يؤلهه، أما إيزاك فقد كان يتذكر الزاوية التى كان يسقط بها ضوء الشمس على الحجرة المواجهة للزقاق، التى كانت أروع حجرات الملكة نازلى لأنها كانت مليئة بالإيحاءات، أولًا كغرفة للجدة ظريفة، ومن بعدها كمكتب لوالدى، وفى النهاية كمخزن للحقائب.

أما أختى المتمردة والجريئة فقد أصرت على أنها لا تفتقد أى شىء.

وعلى العكس من ذلك ، لم يكن هناك فى مصر ما لا يحن إليه والدى وربما كانت الورود هى أكثر ما يشتاق إليه، كان أكثر ما يفتقده والدى فى باريس ونيويورك هو رائحة الورود القاهرية.

بالنسبة لأبى كانت ورود أمريكا بلا رائحة، وبلا حياة كانت زائفة حتى وإن جمعت لتوها، فكلها كانت ورودًا أدنى من تلك التى تركناها وراءنا (بالقاهرة)، كان ليون فى غاية الضيق من تلك الزهور التى يزرعها جيراننا الإيطاليون بكثرة على طول الشارع رقم ٦٦، حتى تلك الزهورالتى كانت على بعد ياردات فى حى الطبقة العاملة ببروكلين ، لم يكن لها من رائحة، سواء اشتريتها من محل الزهور على الناصية أو قطفتها مباشرة من الأشجار، كلها ظلت بلا عبق، إنها الحقيقة التى أدخلته فى حالة من اليأس الوجودى، إنه الإحساس بأن كل ما فى عالمنا الجديد كان خطأ، لقد كان البون شاسعا بين زهور أمريكا عديمة الرائحة وزهور الياسمين التى كانت تملأ هواء القاهرة، حيث زهور الزنبق وشقائق النعمان التى تنمو بريا فى الشوارع، وأجمل من ذلك كله تلك الورود الصغيرة الحمراء، الورد البلدى سليل أول زهرة نمت على الأرض.

كانت المتاجر تبيع الزهور الصناعية أرخص كثيرًا من الزهور الحقيقية، وكانت تلك الزهور الصناعية تستهوينى بصفة خاصة فكنت أرغب دائما فى الحصول عليها، ولكن والدى لم يكن يستطيع تقبل ذلك.

وكان متجر وولورث «Woolworth» الذى يبعد ناصيتين عنا، مليئا بالأرفف التى تعرض الزهور الصناعية بسعر بنس واحد للفرع، وكانت هناك أيضا زهور جميلة مصنوعة من الحرير ولكنها أغلى قليلا. لم أكن أبدا قبل انتقالنا إلى نيويورك قد رأيت زهورا صناعية، فوجدتها أمرا غريبا ورمزا مضللا للعالم الجديد.

لقد لاحظت وجود نباتات صناعية فى منازل جيراننا، توضع فى منتصف الطاولات، كانت بعض الأسر تضع هذه الزهور وراء زجاج الخزائن، إلى جانب المعروضات الفضية والكريستال، وكأنها أيضا أشياء ثمينة، وقد لاحظت أيضا وجود أغطية بلاستيكية لامعة فوق الأرائك والكراسى، وكذلك طاولات مصنوعة من الفورمايكا فى المطابخ، وكنت أرى ذلك كله رائعا، وكنت أرغب فى هذه الأغطية البلاستيكية، ومعها أريكة، وطاولة من الفورمايكا، وأكثر منذ ذلك كله كنت أريد الزهور الصناعية.

خلال تجوالى فى متجر وولورث «Woolworth» كنت أتوق إلى جمع زهور الأقحوان و التيوليب الصناعية، وانتزاعها من أغلفتها البلاستيكية لأعد منها باقة أزين بها شقتنا الجديدة، التى كانت مفروشة بالكاد، وجرداء من الزينة، وكانت فى حاجة شديدة لإضفاء البهجة عليها.

ولكن أمى قالت بصرامة وبالفرنسية "كفى لولو كفى

حتى والدى الذى كان لا يرفض لى طلبا، كان فى غاية الوضوح بأنه لن ينفق بنسا واحدا على تلك الأشياء.

لم يكن والدى قادرا أبدا على أن يعترف لنا بشدة حنينه إلى الحياة التى تركناها وراءنا، وبدلا من ذلك، كان يركز على الأزهار، كرمز لكل ما كان يحيره ويذهله فى بيته وبلده الجديدين، ورمز لكل ما افتقده من بيته وبلده القديمين.

ربما كان ذلك هو السبب فى عدم اهتمامنا حتى الآن، بتفريغ حقائبنا الست والعشرين، التى تم تخزينها بأمان فى بدروم أول شقة لنا فى أمريكا كان معظم هذه الحقائب لا يزال محتويا على نفس ما وضعناه فيها قبل سنتين، لم تستخرج أمى فستانها الجميل ذا النقش المنقط الذى حاكه لها الترزى فى نفس يوم سفرنا من مصر، وكذلك الروب الخاص بأبى المصنوع من قماش البروكار «قماش قطنى مطرز» وظل مطويا بعناية حيث خزناه.

لم يكن أحد فى بروكلين يرتدى روب دو شامبر مصنوعا من قماش البروكار، وحتى كل الملابس التى أعدها لنا الترزى فى الأسابيع الأخيرة قبل سفرنا بدت على نحو ما غير مناسبة.

لم يعد أبى يتأخر فى الخارج كثيرا، ومع ذلك فقد استمر إنسانا ليليا، وكان نادرا ما يذهب إلى النوم قبل الفجر، مرتديا بيجامته القطنية والشبشب المنزلى المصنوع من البلاستيك، الذى اشتراه بخمسة سنتات ونصف، فقد دفن نفسه ببساطة فى كتب الصلوات القديمة، التى كانت من الأشياء القليلة التى أخرجناها من بين حقائبنا.

وفى حين كنا قد بدأنا نشعر بالاستقرار، أعلنت أختى سوزيت عن نيتها بترك المنزل، ظلت سوزيت منذ عدة أشهر تهدد دائما بترك المنزل، إلا أن أحدا منا لم يأخذ تهديدها على محمل الجد، وبالذات والدى، الذى كان رد فعله يتأرجح بين الغضب الشديد والشعور بالأسى. بينما العديد من الأسر الأمريكية يرونه أمرًا طبيعيًا ذلك أنه

مع نضج الابنة يصير من الطبيعى أن تصبو إلى الاستقلال وأن تكون لها حياتها الخاصة –وهو ما يعتبر كفرًا بالنسبة لأبى، لقد اعتبر أن شروعها فى الرحيل، أسوأ كارثة تحل بالعائلة منذ تركنا مصر.

كانت ثورة غضبه ولعناته فوق ما يحتمل بالنسبة لسيلفيا كيرشنر، فتم تنحيتها عن الإشراف على حالة أسرتى، وما من شك فى أن ذلك كان بناءً على طلبها، ولقد ألقى والدى بكل اللائمة عليها فيما يتعلق بتمرد سوزيت، وكان أبى متأكدا من أن انتشار الأخبار بين الرعاع المهاجرين بأن ابنته التى لم تتزوج بعد قد تركت المنزل، سوف تجلب العار على أسرتنا، فقد كانت السمعة والشرف ومركزه فى المجتمع أكثر أهمية بالنسبة له من الثروة.

أما الأخصائية الاجتماعية الجديدة المسئولة عنا وهى شولاميت هالكن «Shulamit Halken»، فقد كانت هى الأخرى تنظر لوالدى بعين من الشك بسبب الاحترام البالغ الذى يبديه والدى لمعايير العالم القديم، كما أنها اعتبرت ذلك نوعا من الميول التسلطية، ولكنها لم تكن مفتونة بأختى كسابقتها، وكانت سوزيت التى أصابها الملل من عملها المكتبى فى فيرست ناشيونال سيتى بنك «First National City Bank»، قد أفضت إلى مسز هالكين بأنها ترغب فى أن تصبح طبيبة لتقوم بإنقاذ الأطفال الجائعين فى الهند وربما فى العالم بأكمله.

لقد كتبت مسز هالكين فى دفتر ملاحظاتها باستياء وسخرية « لم تكن تستطيع أن تشرح لى ما الذى يدفعها للاهتمام بكل أطفال العالم، وما الذى كانت تأمل فى أن تقدمه لهم»، وقد كان من الصعب على مسز هالكين أن ترى لماذا تنشغل أختى بمعاناة الأطفال فى آسيا البعيدة كل هذا البعد، بينما أسرتنا هنا فى بروكلين لا تستطيع أن تواجه أعباء الحياة.

جاءت أوقات لم يستطع فيها والدى توفير مبلغ الإيجار البالغ ٩٥ دولارا فكان يتجنب مقابلة صاحب الشقة بازل كوهين. لم يكن مشروع بيع ربطات العنق مربحا كما تصور، و لم يكن يجنى منه ما يكفى لدفع الإيجار، وإذا غادرت سوزيت وتوقفت عن المشاركة فى الأعباء، فإن حالتنا المادية ستتحول من كونها صعبة إلى مؤلمة.

ولما كنت قد سجلت حديثا فى المدرسة الابتدائية، فقد كنت فى منأى عن المشكلات المالية، وكذا أخى إيزاك الذى كان يذهب للمدرسة الإعدادية.

لولو التلميذة
بالمدرسة فى بروكلين

كان سيزار ذو الثمانية عشر عاما هو من كان يحمل على أكتافه أعباءنا نحن الخمسة، فلقد ظل طوال السنة الأولى يتنقل من وظيفة وضيعة لأخرى، فلم يستقر فى وظيفة أكثر من أسبوعين أو شهرين على الأكثر، إلى أن استقر على أول السلم الوظيفى فى مجموعة أمريكية اسمها كونتيننتال جران «Continental Grain» التى سادت فيها ثقافة كوزموبوليتانية ودودة.

كنت أشترك مع سوزيت فى غرفة واحدة وافترضت أننا رفقاء مثاليون، فلم أتبين أننى كنت فى الواقع أشكل إزعاج طفلة فى السابعة من عمرها، تضايق شابة فى العشرين من عمرها بآلاف الطرق المختلفة، فبينما هى تتطلع إلى ترك المنزل لتمارس أنوثتها البازغة، كنت أنا أحاول الاحتفاظ بطفولتى المفقودة، وبينما هى تتصارع مع أبى، كنت أزداد اقتربًا منه نظرا لاغترابه ومحنته، وبينما هى شعرت أن المنزل يقيد حريتها ورغبت فى الهروب منه، أحببت أنا بساطته والإحساس بأننا لم نعد فى ترحال دائم.

كانت وسيلتى لتأكيد هذا الإحساس بالاستقرار، هى تزيين الغرفة بالستائر الفوال «voile» البيضاء، التى لمحتها ترفرف فى فاترينة العرض بمتجر الأثاث بشارع ١٨، الذى كان مكان التسوق الوحيد لنا. وقد أصبحت هذه الستائر هى البديل للحلم الأمريكى بمنزل يحميه سور أبيض. كان هذا سؤالى لسوزيت فى الليلة السابقة على تركها للمنزل.

«ما رأيك فى الستائر البيضاء؟» كنت أراقبها وهى تضع ملابسها فى حقيبتها الجديدة التى لم تكن واحدة من الست وعشرين حقيبة، لم أستطع أن أتحكم فى لهجتى الحادة، فقد شعرت بالحرج والخيانة، بنفس الطريقة التى شعر بها أبى نتيجة لرحيلها، لقد هزت كتفيها بلا مبالاة، وأكدت أنه فى يوم من الأيام سيكون لها ستائرها البيضاء ثم أضافت «ولكن ربما ليس فى هذه الغرفة فى الشارع رقم ٦٦»، وهكذا تأكدت من أنها تنوى بالفعل ترك المنزل، وقد أدركت ذلك قبل والدىّ اللذين كانا لا يزالان يعتقدان أنها مجرد تهديدات من ابنتهما المتمردة.

لم يكن والدى على استعداد لاستخدام أسلوبى الرقيق معها، لقد صرخ فيها «مجرمة» بينما سوزيت غادرت، صفقت الباب خلفها ثم ساد الصمت، وبعد دقائق قليلة، سمعت والدى يقفز السلم نازلا وأُغلق الباب مرة أخرى.

كنت أحب أن أطيل النظر من شباك الغرفة الخالى من الستائر، وهى الغرفة التى أصبحت لى وحدى، كان أغلب سكان الشارع من عائلات على شاكلة عائلتى قادمين حديثا من القاهرة والإسكندرية، وفى الصباح كنت أراقب والدى وهو ذاهب لحضور القداس اليومى، فى تجمع الحب والصداقة وكانت خطواته تبدو متثاقلة من الألم.

كثيرا ما كنا لا نراه بقية اليوم، فقد كان يبقى لموعد الصلاة التالى، وهو يسعى إلى اجتذاب هؤلاء الذين تخلفوا عن الحضور لصلاة الفجر فى السادسة صباحا، وبعد ذلك كان يمكث هناك على الأغلب، لأنه ليس له مكان آخر يذهب إليه، كما أنه لم يكن راغبا فى العودة إلى المنزل أيضا، ولما كان فى حزن عميق لمغادرة سوزيت، وعجزه عن إقناع كيرشنر بمنعها من ذلك، فقد انسحب إلى مخبئه الصغير فى نهاية الشارع.

كان يجلس وحيدا نائيا عن بقية الرجال، على الرغم من تمتعه بعلاقات حميمة مع كل منهم، فكانوا يتمازحون ويتضاحكون ويرددون الشائعات، ويتناقشون حول

صورة تذكارية للولو مع تلاميذ فصلها الدراسى بأمريكا

كيفية تسيير حياتهم فى تلك البلاد الجديدة المحيرة، وكان الرجال يتلذذون بالنميمة، بنفس الدرجة التى كانت زوجاتهم وبناتهم يستمتعن بها، إذ كن يأتين يوم السبت فحسب فينحشرن معا - وراء الحائط الخرسانى المرتفع، وهن يثرثرن بلا توقف فى القسم المخصص للنساء، كان أبى يجلس هناك صامتا ولا يتكلم إلا عندما يخطئ أحد القراء، أو حتى الحاخام، فيكون عليه أن يجهر بالكلمة أو الترنيمة الصحيحة، فقد كانت له ملكة استثنائية فى معرفته بالتراتيل المقدسة، كان يستطيع أن يحفظ عن ظهر قلب كل الصلوات تقريبا، وكان شديد الدقة والحزم فلا يقبل بأدنى هفوة أو تحريف فى قراءة النص المقدس.

كان الحارس الأمين للتوراة -رجل شرطة الكلمة المقدسة- الذى يمنع كل من يجرؤ على تغيير ما هو كامل وأبدى، وغير قابل للتبديل عندما يتعلق الأمر بمسألة الله والدين، كان فى كل مرة هو الكابتن والحكم الفصل وكان بعض المصلين الأكبر سنا يتضايقون

من تدخلاته، لكن أبى لم يكن يلين، مصرا على إجبارهم على إعادة قراءة الكلمة أو التعبير الذى أخطئوا فى قراءته.

كان غريبا أن المصلين الشباب لا يشعرون بالضيق منه بل كانوا يلجئون إليه فى كل المسائل الدينية وأطلقوا على أبى لقب الصدوق «tzaddix» القديس، الرجل المقدس.

عندما كان المعبد يفرغ من المصلين بعد أن يذهب الجميع إلى أعمالهم أو بيوتهم أو لزوجاتهم، كان أبى يبقى مكانه، وأحيانا كان ينضم إليه الحاخام هالفون، هذا الحاخام الضئيل والعتيق الذى تربع على التجمع الأصلى للحب والصداقة، والذى لم ير والدى منذ كانا فى مصر، وكان اشتراكهما فى الإقامة مرة أخرى فى الشارع رقم ٦٦، هو أحد الأشياء المبهجة غير المتوقعة بعد الانتقال إلى أمريكا، كان الاثنان يحبان الجلوس إلى نفس الطاولة للقراءة، وعلى الرغم من كونهما أقرب الأصدقاء، فإنهما لم يتبادلا أية مجاملات اجتماعية، فلن يكن يجمعهما سوى عاطفتهما المشبوبة بالنص المقدس.

وكان أبى يبقى جالسا حتى بعد أن يذهب الحاخام إلى بيته. وكنت ألمحه وأنا فى طريقى إلى المدرسة عندما يكون الباب مفتوحا، وحيدا منحنيا فوق كتاب ضخم، وكانت شفتاه تتحركان بلا صوت، ولم يكن حتى يلحظنى وأنا ألوح له، كان يفرد ساقه المصابة بينما عصاه مستندة إلى الطاولة، يتململ من جانب لآخر وهو يجرجر أقدامه، ولكن عادة ما كان يستقر فى وضع يمكنه من احتمال الألم والمضى فى القراءة. كان من عادته أن يتمعن فى الجزء الأسبوعى من التوراة، يراجع أقوال الأنبياء ويدرس الرموز الغامضة فى القانون اليهودى، وكان أكثر ما يفضله قراءة المزامير والتضرعات الخالصة من القلب التى كتبها الملك داوود، وكان من المعتاد إنشادها جماعيا، وخصوصًا فى الذكرى السنوية لوفاة أحد الأحبة، ولكن أبى كان يحب قراءتها بمفرده كل يوم، فيقرأ كل مزمور على حدة، ثم يقرأ الكتاب كله من البداية إلى النهاية.

كان يجلس فى نفس البقعة من قبيل الظهيرة وحتى بداية الغروب دون أى استراحة، ويروح عن نفسه بتناول بعض الأطعمة الخفيفة التى كان يتركها خادم المعبد «زيتون أسود ضخم وعيش بلدى»، كان الزيتون والخبز هما غذاءه وعشاءه، ويظل هكذا حتى ما بعد الظهيرة عندما يرى دخول جماعة من المصلين إيذانا ببدء موعد الصلاة المسائية، فلا هو عاد للمنزل ولا هو باع أى رابطة عنق أو كسب مالًا.

وكان إيلى موصيرى ذو الاثنين والعشرين ربيعا، الذى تزوج حديثا، يحب أن يجلس إلى جواره كلما استطاع، كان من جيراننا القدامى فى مصر، وكان هو وعائلته يعيشون مثلنا فى بناية بشارع الملكة نازلى، وكان يتذكر ليون بصورة واضحة عندما كان فى القاهرة، رجلا طويلا مهيبا يجلس دائما بجوار المذبح فى المعبد، ولا يتردد فى أن يعترض عندما يخطئ أحد فى كلمة.

لقد أصابته الصدمة بعد أن رأى حال ليون بأمريكا. جلس إيلى على مقعد بجوار والدى، وبدأ فى القراءة من كتاب كبير متآكل، جاء به من المكتبة المهجورة التابعة لجماعة الحب والصداقة فى القاهرة.

أدرك إيلى أن أبى كان يعانى من البطالة والفراغ، وإلا فلماذا يجلس شخص لمدة تسع أو عشر ساعات فى المعبد؟ كانت الجماعة تنمو وكان المهاجرون الجدد ينضمون إليها ليلا ونهارا، فيصلون بنفس الطريقة التى كانوا يصلون بها فى القاهرة، عاقدين العزم على ألا يغيروا شيئا على الرغم من أنهم الآن يعيشون على بعد آلاف الأميال من القاهرة.

قام أخوان مغامران بالبدء فى إنتاج الخبز البلدى وتوصيله إلى المنازل على طول شارع بنسون هيرست، فقد اكتشف موريس وجوشوا سيتون، أن هناك زبائن متشوقين ومستعدين لإنفاق ما يملكون على ضآلته، ليتجنبوا تناول الخبز الأبيض، وفيما بعد فتحا متجرا للبقالة، وملآه فقط بالأطعمة الشهية للشرق الأوسط. كان قرارهما يعود لإدراكهما المبكر أن مجرد تناول العيش البلدى المستدير هو خطوة ضرورية لاستعادة حياتنا المفقودة.

كان هذا هو المقصود فى الوقت الحاضر، كان أهم حتى من التقدم فى حياتنا بأمريكا، لقد كنا نريد أن نتمثل ما تركناه وراءنا فى سوريا ومصر.

لقد شُجع الأبناء الذين يشبون عن الطوق للزواج من اليهود القادمين من الشرق، وليس من الأمريكيين، وكانت الأمهات تلقن بناتهن وصفات الأكلات المفضلة، بحيث تظل هذه الوصفات محفوظة، وتنتقل من جيل إلى جيل، بحيث يتعود أطفالهن وأحفادهن على نفس الطعام الذى استمتعت به أجيال من العائلات، مطبخ يمزج أفضل التقاليد السورية والمصرية، الفواكه المسكرة من حلب، وخلطة البصل مع الثوم

من القاهرة، ومحشى ورق العنب، والبامية المغلية فى صلصة الطماطم بالليمون، والخروف المحشو بالأرز والفستق، وكرات اللحم مع صلصة الكريز.

ماذا عن الاندماج فى المجتمع ؟

لم نكن نعرف كلمة «اندماج» حينئذ أو نهتم بتعلمها، لكن يبدو أخيرا أن أبى وجد أهله وناسه بعد عناء، فراح يستمتع بقليل من الرضى والسلام، ولذا كان يمضى وقتا أخذ يطول ويطول مع جماعة الحب والصداقة، دون أن يتنازل بالعودة إلى البيت. كان ذلك كله بالطبع سببا دعا أختى إلى ترك البيت. كانت تعيش الآن فى برج عال فى سماء كويتز «أحد أحياء نيويورك»، فى ذلك الجزء من نيويورك الذى لم أزره أبدا، والذى بدا لى بعيدا وغريبا. لقد كاد تمردها أن يكون كاملا، فلقد تركت المنزل قبل أن تتزوج على عكس رغبة والدى، وقد خالفت القاعدة بضرورة العيش فى شقة بالدور الأرضى، الذى كانت تقليدا منيعا فى عائلتنا منذ أيام الملكة نازلى.

وكانت سوزيت تعتقد بأن محاولة إحياء عالم كان قد انقضى هى محاولة بلهاء ومحكوم عليها بالفشل، وقد أصابتها محاولات إعادة بناء القاهرة على ضفاف نهر هدسون بالاكتئاب، فقد شعرت بأنه لا يوجد شىء مشترك بين بروكلين والقاهرة، فشتان بين الشوارع الهادئة هدوءًا مملًا التى تسكنها أسر قليلة والمعابد الضيقة، وبين الطاقة والمرح والحيوية التى يمكن الاستمتاع بها حتى فى أصغر أزقة وحوارى القاهرة، واعتبرت سوزيت أن المحاولة البائسة لاستعادة الماضى عن طريق بناء المعابد اليهودية ومحلات البقالة هو أمر يدعو للرثاء.

استرجعت سوزيت ثقافة الشرق الروحية، التى كان الدين ركنا هاما فيها، إلا أنه لم يكن يمنع الناس من ممارسة حياة مزدوجة، فكان بإمكانهم الاستمتاع ليلا بكل المباهج التى توفرها الحياة، وكان أبى الذى لا يعيش إلا فى محرابه، هو المثال الأول لازدواج الوجود هذا فلم يكن الإيمان بطقوسه الدينية يمنعه بأى شكل من الاستمتاع بحياة اللهو، فكان يستطيع بمصر أن يكون رجل دين ودنيا فى نفس الوقت. لكن ذلك كان شيئا مستحيلا هنا فى أمريكا.

بدا الأمر وكأنه بمجرد وصولك لأمريكا يتحتم عليك أن تختار طريقا واحدا فقط وليس الاثنين معا.

إيديث بحديقة المنزل فى شارع ٦٦ ببروكلين
أول بيت نشعر أنه مستقر لنا بعد الخروج من مصر

كان أكثر ما يفتقده القادمون من القاهرة هو الفخامة والأبهة، التى كانت علامة مميزة لقاهرة الملك فاروق فى الثلاثينيات والأربعينيات، حيث الضباط الإنجليز المتأنقون وعشيقاتهم الجميلات وحب الملاهى والسهر كل ليلة، حتى بعد قيام الثورة، لم يستطع الحكم العسكرى القاسى أن يقضى على عشق الحياة والمتعة، فاستمرت المطاعم فى فتح أبوابها لساعات متأخرة من الليل، واستمر الناس فى الذهاب للرقص بعد العشاء وفى منتصف الليل أو الجلوس كمتفرجين للاستمتاع بالرقص الشرقى.

نيويورك التى يفترض أنها أعظم مدينة فى العالم، بدت وكأنها لا تزيد على كونها عشرة أو عشرين من المربعات السكنية الكئيبة والعملية المفتقدة للجمال والأناقة.

راحت سوزيت منذ أن وصلنا تبحث عن صديقة عزيزة لها من القاهرة، فوجدت «مارسيل» التى كانت هاجرت إلى أمريكا وتعيش فى بروكلين أيضا، كانت مارسيل فتاة جسورة، ذكية، وشقية، كانت المثال الصادق لفتاة مرحة، ولكن يبدو أنها وهى فى طريقها إلى نيويورك، تعرضت لعملية تحول، فبعد قليل من استقرارها هناك تمت خطبتها لرجل فى غاية التدين وغيرت طراز ملابسها بما يتناسب مع عادات وملابس النساء الأمريكيات المتدينات، بل غيرت حتى اسمها فأصبح اسمها «أدينا» adeena بدلا من مارسيل وفى ليلة عرسها كانت مستعدة لقص شعرها و ارتداء باروكة.

أصيبت سوزيت بالصدمة، وهى ترى صديقتها المتحررة، ترتدى ثوبا طويلا متواضعا، وتتعامل مع خطيبها بصورة خاضعة.

ذهبت سوزيت إلى حفل زواج مارسيل وهى ترتدى ثوبا من دون أكمام، وما إن دخلت المعبد، حتى أسرعت مجموعة من النساء وهن مذعورات لتغطية كتفيها بسويتر أو شال، وقالوا إنه يستحيل تحت أى ظرف أن تبقى فى المعبد وذراعاها عاريتان، وعندها أقسمت سوزيت على أن تغادر، وألا يكون لها بعد ذلك أى صلة مع مجتمع المهاجرين الذين يسمون أنفسهم مصريين ولكنهم لا يمتون بأى صلة لهؤلاء المصريين الذين عرفتهم عندما كانت فى مصر.

بعد أسبوعين من رحيل أختى عن غرفتى فى الشارع رقم ٦٦، انتقلت أمى للغرفة، واحتلت السرير الحديدى الضيق الذى أصبح شاغرا.

لم أناقش معها ترتيبات نومنا فقد اعتبرته أمرا مفروغا منه، لأن والدىّ لم يشتركا قط فى غرفة واحدة، حتى فى الملكة نازلى، ففى البداية كان أمرا تحتمه الضرورة لعدم وجود غرف كافية، إلا أنه بعد رحيل إخوتى الواحد تلو الآخر، ظل والداى ينامان فى غرف مستقلة، وعندها أدركت أن رفضهما الاشتراك فى غرفة واحدة وراءه سر عميق، لا أستطيع كفتاة صغيرة إدراك كنهه.

فى كل صباح كنت أتوجه إلى المدرسة الابتدائية، ويدى فى يد أمى، كانت مدرسة صغيرة بالقرب من المنزل، وكانت أمى ترفض أن أذهب إليها بمفردى، وذلك على

الرغم من قرب المسافة، وكنت خائفة لأننا كنا نجذب الأنظار، و لم تكن أمى تترك يدى إلا بعد أن أفتح الباب فتودعنى عندئذ بقبلة.

أدركت جيدا الاختلاف بينى وبين الأطفال الآخرين، و لم يكن ذلك ببساطة يرجع إلى لغتى الإنجليزية الضعيفة ولكنتى الثقيلة، ولكن إلى مظهرى وأسلوب ملبسى، فقد كنت كأننى تلميذة باريسية بمدارس الليسيه، هبطت على الطبقة العاملة فى بروكلين.

كانت أمى تحب أن تلبسنى كتلميذة باريسية مثالية طبقا لمخيلتها، فأذهب إلى المدرسة فى سويتر بلون البحر وتنورة قماشية من نسيج متقاطع النقش ذى ثنيات طويلة «pleated»، على الرغم من أننى عندما كنت فى باريس كنت أرتدى ملابس كملابس المصريات.

كنت أغادر المنزل وكأننى فى طريقى إلى مدرسة راقية فى الحى السادس عشر بفرنسا، وللأسف فإن ملابسى جعلتنى مرة أخرى، غريبة عن زميلاتى فى الفصل، فالبنات الصغيرات كن يرتدين ملابس زاهية وتنورات متموجة، ملابس تمت حياكتها بمعرفة والداتهن، ملابس مبهرجة مزينة بشرائط وقطع من بطانة القطيفة.

ليون مع كتاب الصلاة الأحمر، بروكلين ١٩٦٥

عندما أبديت رغبتى فى ارتداء ملابس شبيهة بملابس زميلاتى فى المدرسة «إنها ملابس فلاحين»، كانت تلك صرخة أمى كان تشبيه أحدهم بفلاح عربى لهو أقصى ضربة للتقليل من شأنه فبالنسبة لأمى كانت عائلات الخياطين والمبيضين وعمال النظافة الصحية، هم مجرد فلاحين، مع أننى لاحظت عندما زرت بيوتهم أنهم يعيشون فى بحبوحة أكثر منا بكثير.

لم أكن متأكدة كيف نكون نحن الفقراء أرقى منهم، كنا نكافح بمرارة لنعيش، وكنت أتساءل ألم يكن أجدر أن نوصف نحن لا هم بالفلاحين.

كان تناول الغذاء معاناة، فقد لاحظت أن معظم الأطفال يحملون صندوق غذاء صغيرا ومتينا وعمليا، مصنوعا من المعدن وفى داخله سندويتشات من زوج من شرائح الخبز الأبيض بلحم التونا، أو الخنزير أو الجبن أو السجق البولندى، أما أنا فكان نصيبى يأتى فى كيس من الورق البنى وتقليديا يحتوى على رغيف من الخبز الإفرنجى الذى تشتريه أمى من الخباز الإيطالى قرب الناصية، وتحشوه بقالب من شيكولاتة هيرشى.

كان زملائى فى الفصل يحملقون فى وجبتى ثم ينظرون إلى بحدقات متسعة سائلين «هل هذا سندويتش شيكولاتة؟»

كنت أومئ إليهم بالإيجاب ثم آخذ قضمة كبيرة، وكنت أعتبره لذيذا للغاية ولكنى لاحظت أنهم يعتبرون ذلك غاية فى الغرابة، هذا الخبز بالشيكولاتة لغذائى، ومن خجلى طلبت من أمى عدم إعداده لى مرة أخرى.

كنت أتجول فى مدرستى الجديدة وأنا أشعر بالخجل الشديد من تنورتى البلاسية «pleated» وطقم السويتر، وكانت الدروس فى مجملها بسيطة، وكنت أكثر من قادرة على تعلم قواعد الحساب، والقراءة والعلوم التى كانت تمثل البرنامج الأمريكى للتعليم الابتدائى، ولكن مشكلتى كانت فى الجيمنازيوم، فلم أكن قد لعبت أى رياضة فى القاهرة أو باريس، وكان على فجأة أن أركز على اللياقة البدنية، مما كان أمرا مزعجا بالنسبة لى، فقد كنت أتجول خلال حصة الرياضة كالتائهة فى الضباب دون أن أشارك فى شىء.

وكانت أمى قد أوصتنى بألا أبوح أبدا لأحد أنى جئت من مصر، دون أن توضح لى لماذا، فكنت أقول لمن يسألنى أننى جئت من باريس، وقد كان ذلك يجعلنى بالنسبة

لأساتذتى شيئا جديدا مبهجا «البنت الفرنسية الصغيرة»، وهكذا حتى أصدقائى المقربون لم يعرفوا أبدا الحقيقة، وكنت أشعر بأننى أعيش أكذوبة مثقلة بسر عميق لابد أن ينكشف يوما، ذلك أننى لم أكن فرنسية على الإطلاق، لقد ولدت بالقاهرة.

بعد أن تركت سوزيت المنزل، لاحظت أن إخوتى أيضا ينجرفون بعيدا، فسيزار كان يمثل لنا مصدر الدخل الوحيد بعد مغادرة سوزيت، وكان يعمل خلال النهار ثم يذهب للمدرسة، وبعد ذلك يمضى إلى حياته الليلية الغامضة، وعندما يعود إلى المنزل أكون قد خلدت للنوم، أما إيزاك فكان يتحدث عن رغبته فى الالتحاق بالقوات الجوية، وكنت سعيدة فى سرى لاحتمال تركه المنزل، فقد كان دائم الشجار معى، على العكس من أخى الأكبر الذى كان يميل إلى حمايتى. كان إيزاك الذى يكبرنى بست سنوات يميل إلى السخرية والعراك.

ورغم أن سيزار كان مطيعا وقريبا من والدى، فإنه كان يبتعد أكثر عن الممارسات، الدينية التى كانت تمثل نقطة محورية فى حياتنا، وهكذا كانت أسوأ مخاوف أبى من الحياة فى أمريكا قد بدأت تتحقق، فعندما كان يأمر إخوتى بالصلاة، كانوا غالبًا ما يهزون أكتافهم ويمضون لسبيلهم.

حتى أمى بدأت تتمرد، فبعد أن حصلت على طاقم من الأسنان الصناعية، الذى كان يمثل آخر أفضال سيلفيا كيرشنر، راحت تلمح إلى رغبتها فى الحصول على عمل، وجاء إعلانها الأول بالاستقلال، عندما قررت أن تترك تجمع الحب والصداقة، وكانت قد حاولت بشجاعة أن تتواءم، ولكن المكان المخصص لجلوس النساء كان كئيبا مزدحما خلف حائط وكان من المستحيل أحيانا أن تجد مقعدا خاليا، أو تتمكن من متابعة الطقوس الدينية والأسوأ من ذلك كانت هناك جماعة من المصليات أخذن ينغصن على أمى حياتها بالسؤال عن مكان إقامة سوزيت و«هل تزوجت بعد؟» أما أكثرهن إيلاما فكن يضعن السؤال فى صيغة أكثر قسوة « ألم تتزوج بعد».

وكانت أمى تقابل ذلك بابتسامة شجاعة، ثم تؤكد بروح مرحة، إن ابنتى لا تزيد على العشرين عاما، وهى مشغولة بمتابعة دراستها فى الكلية، ولكن ما من واحدة منهن كانت تصدقها.

وهكذا هربنا من هذا المجتمع الذى لم نجد فيه لا الحب ولا الصداقة، وأخذتنى أمى من يدى فى صباح يوم سبت ومشينا من أمام معبد أبى و لم نتوقف، حتى وصلنا إلى

بيت عبادة آخر اسمه «درع الصغير دافيد»، وكان أكثر تنوعا على الرغم من أن المصلين كانوا أيضا من الشرق، ولكن كان هناك أيضا أتراك ومراكشيون وتونسيون وجزائريون وأيضًا مكسيكيون، إلى جانب اليهود السوريين والمصريين.

كان المكان أكثر اتساعا وبه قسم للنساء حسن التهوية، وكان حاجزه الخشبى الرائع والمزين بالحفر يسمح بمتابعة القداس بالكامل دون عناء، لقد أخذت أمى مكانها فى الصف الأول، وجلست إلى جانبها، جلست أمى فى سكون و لم تنظر أبدا إلى الوراء، وبدأت بتكوين صداقات مع النسوة حولها، وكانت أعز صديقاتها مهاجرة مراكشية اسمها مدام مارى، وابنتها سيليا التى تكبرنى بقليل، وكانت أمى ومدام مارى تصرحان لبعضهما عن القلق من تربية بناتهن فى أمريكا.

وقد اتبعت طريقة أمى فأعز صديقاتى كن ديانا السورية وأختين شقيقتين هما جراس grace وربيكا rebecca المولودتين لأب تركى وأم مكسيكية، كنت أنظر بإعجاب إلى الأخت الكبرى لديانا، وهى فتاة جميلة ومراهقة وهادئة اسمها مارلين ذات شعر وعيون داكنة تشبه أختى بدرجة كبيرة، لقد كنت أشعر بالألفة والراحة مع هؤلاء البنات ونحن نجلس خلف الحاجز فى المعبد، وهى الألفة التى لم أكن أشعر بها أبدا فى المدرسة، لم تطأ قدم أمى مرة أخرى ذلك المعبد، الخاص بأبى، فكان الاثنان يصليان منفصلين ويأكلان منفصلين ويعيشان حياتين منفصلتين، إلا عندما يتعلق الأمر بالقلق على «المسكينة لولو»، عندئذ كانا يتصرفان كما لو كانا أقرب الأزواج، وهكذا شعرت بأن مرضى أو مشكلاتى هى التى كانت تجمع بيننا كأسرة.

كنت قد أصبحت جزءا من تجربة شجاعة فى مجتمعنا المغترب، فقد التحقت بمدرسة عبرية، إذ كانت اللغة القديمة حكرا على الذكور، مثلت هذه الخطوة خروجا دراماتيكيا على التقاليد، والتصاقا بالحداثـة وأساليب المساواة الأمريكية، فقد كانت النساء مثل أمى، يجلسن فى المعبد فى القاهرة وحلب، يستمعن إلى صلاة لا يستطعن قراءتها أو فهمها.

كانت المدرسة العبرية تفتح كل أيام الأسبوع ما عدا الجمعة والسبت، مع دروس صباحية يوم الأحـد، وبالطبع كان الهدف الرئيسى منها هو تعليم الأولاد الذين سيبلغون مراسيم مينزفا «mtzvah» «سن البلوغ» بعد سنوات قليلة كان الأولاد يجلسون فى الصفوف الأمامية فيحظون بنصيب الأسد من اهتمام الحاخام، أما البنات فيجلسن بتواضع فى الخلف بعدة صفوف.

كان انعدام الثقة فى المجتمع الجديد وليس الاستنارة هو ما دفع كبارنا، إلى تعليمنا بنفس الطريقة التى يعلمون بها إخواننا، فأمريكا مجتمع الغواية، وهكذا أدرك الحاخامات من عليائهم فى بروكلين أنهم يواجهون خطرا داهمًا، أكبر حتى من موجات معاداة السامية التى كان أحيانا ما يتعرض لها مجتمعهم فى الشرق الأوسط، وكانت إستراتيجيتهم هى «Circle the wagon»* دائرة العربات، فيلقنون قواعد الدين والإيمان لأولاد من كلا الجنسين كنوع من الجرعة المضادة لجرثومة الحياة العلمانية.

وكان معلمى حاخاما أبويا طيبا اسمه باروخ بن حاييم، ويعنى المبارك ابن الحياة، وكان له أسلوب جدى فى التعليم، وكان على العكس من زملائه يعامل الأولاد والبنات على حد سواء، فكان يعطينا تقريبا نفس الدرجة من الاهتمام، لقد ابتدع نظاما مخيفا بعض الشىء لتقدير درجة تقدمنا، فكان فى أى لحظة يطلب منا أن نبدأ القراءة من نقطة عشوائية فى الكتاب، وكان من المفترض أن نستمر فى القراءة إلى أن نرتكب غلطة، فيقوم بحساب عدد المقاطع التى قرأناها دون خطأ، وكان يعتبر الطفل الذى يقرأ جملة أو اثنتين أو أكثر دون أى خطأ متفوقا «نجم» أما الغبى فهو من يتعثر بعد كلمتين، وكنت مرعوبة أن يختار لى جزءا لا أستطيع قراءته، فأصبح أضحوكة الفصل، ولجأت إلى والدى معلمى القديم فى اللغة العربية لمساعدتى، وائتمنته، فأسررت له بمعاناتى فى دراسة اللغة العبرية وبدأت أستمع لنصائحه فى هدوء، وأعطانى كتاب صلواته الأحمر المتين، وأشار إلى كى أقرأ، وهكذا بدأت دروسى العبرية، فى البداية كنت أقرأ بعض الكلمات ثم أتوقف، وكنت عندما أرى أنه لم يطلب منى التوقف، أكتسب المزيد من الثقة وأواصل القراءة، وعندما كنت أقع فى خطأ أو أجد صعوبة فى نطق كلمة ما، كان يوقفنى ليبين لى الطريقة الصحيحة لنطقها، لقد كان يفعل ذلك بلطف وبأقصى درجة من الصبر، وبنفس الأسلوب الذى اتبعه فى تعليمى اللغة العربية، عندما كنت أنا وقطتى بسبس إلى جوار سريره، وهو يشرح لى كيف أطعم القطة قطعا من الجبن.

كنت أجلس كل مساء عند عودتى من المدرسة العبرية مع والدى لدرس جديد، فكان يختار لى كتابا بصورة عشوائية ويفتحه على صفحة تروق له، ويشير إلى سطر

* Circle the wagon هو تعبير أمريكى يرمز إلى ما كان يفعله المهاجرون الأمريكان عندما يتعرضون للهجوم من الهنود الحمر فيضربون دائرة من العربات حول أنفسهم للحماية ويقصد هنا الانعزال وراء حائط من الدين والإيمان للحماية وعدم الاندماج.

يريد منى قراءته، وكان أحيانا يختار ترتيلة، فنقوم بالغناء معا بصوت مرتفع، وفى حين أحاول الإسراع للحاق به، كان لأبى صوت قوى بدرجة غريبة يستطيع معها أن يحافظ على اللحن برقة، ولهذا كان باستطاعته تعليمى الألحان التى سبق أن تعلمها فى طفولته، وظل يحتفظ بها فى داخله لأكثر من ستين عاما.

وبالتمرين المستمر أصبحت أدرك معنى الحروف السوداء، وشعرت بالراحة وأنا أتطلع خلال الكتب العتيقة التى كانت متناثرة فى المنزل، وتبين لى كيف كان لدى صلة روحية طبيعية مع اللغة العبرية؟، تلك الصلة التى لم أشعر بها مع العربية أو الإنجليزية.

كان والدى قد أصبح أكثر انعزالا منذ أتينا إلى أمريكا، واستطعت حتى قبل أن أبلغ الثامنة أن أبتدع طريقة لاختراق هذه العزلة، لم يكن ذلك بمواجهته مباشرة كما فعلت سوزيت، ولا بتحديه كما فعل أخواى، ولا حتى بالثرثرة معه كما كان يفعل الرجال فى مجمع الحب والصداقة، ولكنى أصبحت أشد قربا منه عندما كنت أشاركه الصلاة كما كان يفعل الحاخام إيلى ميسورى وهالفون، كنت أجلس إلى جواره وأشاركه عاطفته نحو تلك الكلمات التى كانت تسبح متراقصة على صفحات تلك الكتب البالية بدرجة كبيرة، فكونت معه ارتباطا تجاوز الكلمات والصفحات معا.

وقد أعطت هذه الدروس مردودا لم أكن أنا ولا هو نتوقعه. فكان الحاخام فى المدرسة العبرية يطلب منى القراءة، متوقعا أن أبدأ بالتلعثم بعد دقيقتين، ليكتشف أننى أستطيع القراءة الآن الصفحة تلو الأخرى، وصلاة بعد صلاة بطلاقة دون أى خطأ، بل إننى كنت قادرة أيضا على فك طلاسم أعقد الفقرات. كان أبى يضحك فى صمت عندما كنت أخبره بدرجة تقدمى، ثم يشير إلى نص جديد ويطلب منى قراءته، فقد كان على مواصلة الدروس، على النحو السابق تمامًا. كنت مريدة متحمسة أكثر مما كان عليه إخوتى بكثير ، ولهذا نشأت ثرثارة غير منغلقة، متسعة الأفق، قادرة على اكتساب الأصدقاء والتحدث معهم بحيوية من كل قلبى حتى مع أكثر الأشخاص تنوعا، أتواصل معهم فى أى من الاهتمامات المشتركة مثل الطعام، والأدب أو السينما، ومع ذلك فلم أشعر أبدا بالقرب من أحد كما شعرت بهذا القرب من والدى، وخصوصا فى تلك الأمسيات التى كنا نجلس فيها ملتصقين جنبا لجنب نتفوه العبارات فى لغة غامضة من كتب تجعدت صفحاتها الصفراء فى أيدينا ونحن نطويها.

الفصل الثامن عشر

موال لبائع رابطات العنق المتجول

فى إجازة المدرسة الصيفية حيث ألازم البيت كنت أحب مرافقة والدى إلى عمله، فكم كان ذلك ممتعا، فمعظم أصدقائى غائبون فى معسكرات، أو ذهبوا فى رحلات مع عائلاتهم، بينما أترك أنا لظروفى الخاصة، وكانت أمى ترتاح هى الأخرى لذهابى مع والدى، فقد كانت تعرف مدى قلقى من البقاء فى منطقة ينسون هيرست المهجورة فى ذلك الوقت الحار، فتصبح فى حيرة عما تستطيع عمله، لإبقائى مشغولة ومستمتعة، خاصة أن ما معها من مال يكاد لا يكفى لتغطية احتياجات المنزل، كانت تتنهد وهى تقول «لولو المسكينة» ثم توضح ذلك بأن ما أحتاجه إنما هو الإجازات، ولكن فكرتها عن الإجازة المثالية، أنها الذهاب إلى منتجع مبيت راق فى الألب السويسرية، كانت فكرتها تلك ككل أفكارها عما أحتاجه، خيالية ولا يمكن بأى حال تحقيقها.

كنت مأخوذة بما فعله أبى فكان ذهابى معه إلى مانهاتن بمثابة رحلة بالنسبة لى، وبينما بيع ربطات العنق يصعب اعتباره عملا تقليديا، إلا أنه العمل الوحيد الذى أمكنه الحصول عليه، فلم يكن يحتاج إلى رأسمال كبير أو بنية تحتية من أى نوع، فيما عدا صندوق من الكرتون يحمل فيه بضاعته.

و لم يكن لأبى رئيس أو ساعات محددة للعمل و لم يكن يتقاضى مرتبا وكان مكتبه هو الشوارع وقطار الأنفاق فى نيويورك،كان يتصيد الزبائن المحتملين فيفتح الصندوق المستطيل الممتلئ بربطات العنق الزاهية من كل لون وشكل.

كانت جميعها تحمل بطاقات أنيقة مطبوع عليها ١٠٠٪ حرير –مصنوعة فى فرنسا أو إيطاليا– وكان المارة يتوقفون مأخوذين بلباقة أبى وجمال بضاعته، وربما كانوا أيضا متأثرين بهذا الرجل الكبير فى السن الطويل الوقور، وهو يحاول أن يكسب قوته فى الشوارع ومحطات القطارات فى مدن نيويورك.

كنت أراه خارجًا من المنزل حاملًا صندوقه المسطح وهو حجر الزاوية فى عمله، متأنقا فى ملبسه، مرتديا الجاكت وربطة العنق، حتى فى أشد الأيام حرارة، مع قبعة أنيقة من الخوص، وبالإضافة إلى الصندوق، كان يحمل معه مظروفا كبيرا أصفر بمثابة حقيبة مستندات، إذ كان يحتوى على عينات صغيرة من القماش، كانت أساسية بالنسبة لنشاطه الجديد.

لما لم يستطع أبى أن يكسب ما يكفى كبائع متجول لربطات العنق، حاول أن ينوع نشاطه ليشمل المنسوجات، ذلك المجال الذى كان على دراية عالية به منذ كان بمصر، و لم أكن متأكدة تمامًا عما كان يفعله بتلك المربعات الجميلة من الحرير والقطن، التى يملأ بها المظروف؟ ولكنى كنت أتطلع بلهفة للحصول عليها، متخيلة كم سيبدو فى غاية الجمال كملابس لعرائسى، فكان الأمل يملؤنى بأنه سوف يمنحنى قطعة أو قطعتين من هذا القماش.

كان أبى يشير على بالانضمام له، فنسير دائما ببطء إلى محطة قطار الأنفاق فى الشارع العشرين، التى تبعد مربعين تقريبا من منزلنا، وكان ذلك بعد زحمة الصباح، فتكون المحطة تقريبا خالية إلا من بعض المتسكعين هنا وهناك، والمتجهين إلى مانهاتن، وبينما نحن فى انتظار القطار كان يحاول الاقتراب من زبون محتمل، وعادة ما كان يتجه نحو الرجال فكان يستميلهم بأدب وتبجيل مستخدما ألطف أساليب البيع.

ليقول وهو ينقر بخفة على أكتافهم «سيدى» monsieur، وبحركة خفيفة يرفع غطاء الصندوق البنى، لإظهار عشرات وعشرات من ربطات العنق المتنوعة المختلفة الأشكال والألوان، فهناك ربطات جريئة مصنوعة من الساتان الأحمر أو الأزرق،

وهناك أخرى عليها خطوط كلاسيكية كرموز للجامعات العريقة، وهناك ربطات نسيج صوفى مزركش بشكل صارخ، وربطات أخرى معتدلة وربطات رصينة.

كان يؤكد للزبون أن «هذه الكرافتات مائة فى المائة من الحرير» مستخدما عن عمد الاسم الفرنسى لربطة العنق، وإنها جميعا مستوردة من باريس وروما.

وبابتسامة كان يعدهم بسعر جيد وخصم، إذا ما اشتروا أكثر من واحدة، وأحيانا ما كان يتمم الصفقة فى الحال على أريكة الانتظار فى محطة الشارع العشرين فى حى بنسون هيرست، بينما نحن فى انتظار قطار الشمال المتجه إلى مانهاتن، ولكن كثيرا ما كان الزبون ينظر دون أن يشترى، فيقوم أبى بكل كياسة بوضع ربطات العنق ثانية فى الصندوق ويقوم بإغلاقه دون أن يبدى أى علامة للضيق أو التبرم، ويضع الصندوق، تحت إبطه. ونصعد معا إلى القطار، فنجلس فى مقعدين متجاورين، ونستسلم للرحلة الطويلة إلى مانهاتن.

ولرغبتى الشديدة فى أن أكون مفيدة لأبى، كنت أتفرس فى الركاب الجالسين بالقرب منا لاكتشاف زبون محتمل، فكنت أهمس لأبى مشيرة إلى رجل أنيق الملبس ينظر نحونا بلا هدف، أو أشير إلى زوجين متيمين يبدو عليهما الود، وكان بعضهم يتجاوب ويلقى نظرة بطيب خاطر، لاكتشاف المجموعة النفيسة من كنز أبى، وكان البعض الآخر باردا ومتشككا أو منشغلا بنفسه، فيرفض حتى الاعتراف بوجودنا.

المحطة الأولى كانت شارع القناة فى أدنى مانهاتن lower manhattan المركز الرئيسى لصناعة النسيج والمزدحمة بمتاجر الأقمشة.

وذات يوم رتبت أمى –لسعادتى– أن أكون فى رعاية والدى، كى تشعر هى بحريتها فى أن تحظى بيوم لنفسها، لاحظت أن والدى ينظر إلى من أعلى لأسفل، مبديًا عدم رضائه، فقد كان معترضا على الثوب الذى أرتديه هذا الصباح، وقد كان ثوبا قطنيًا بسيطًا حصلت عليه من سلة فى متجر تخفيضات، فلم يزد سعره على دولارين، لكنى كنت أحبه لأنه كان زاهيًا وخفيفًا وكان فى عينى مناسبًا بلونه الأصفر، كانت متاجر التخفيضات منتعشة فى منطقتنا، كما كانت الجهة المفضلة لأمى التى كانت ممتنة لوجود تلك الأماكن التى يمكنها التسوق بها.

وكان أبى واضح القلق فسألنى بالفرنسية «لولو أهذا هو ثوبك الوحيد؟» loulou est–ce que c est ta seule robe كان يعلم أن عندى ملابس أخرى، ولكنه كان يعنى، لماذا اخترت ارتداء هذا الثوب الرخيص ردىء الصنع، للخروج معه، وقد كنت

أعرف القاعدة، وذلك عندما بدأت الخروج منذ أول مرة، إلى فندق هيلتون النيل، وكنت حينها لا أزال أخطو أولى خطوات طفولتى، فقد علمنى أن أبدو فى أبهى حلة عندما يتعلق الأمر بعمله ومقابلة زبائنه.

على أية حال فقد شعرت بالارتباك والمهانة وأنا مأخوذة بغضبه، كانت أمى دائمة الشكوى من قلة المال، وبالذات قلة ما تستطيع أن تنفقه علىّ ولذلك كانت تشجعنى على تصيد التخفيضات، ولكن ها هو أبى ينتابه الحرج بوضوح بسبب مظهرى.

على الرغم من كونه رجلا كبير السن يرتدى «جاكت» من القصب الرخيص، وقبعة من الخوص، فقد ظل فى قرارة نفسه رجل المنتديات والملاهى الذى كانه من قبل، عندما لم يكن المال يشكل أية عقبة، وفى مقدوره دائمًا أن يكسو نفسه وابنته، بأفضل الثياب التى تقدمها القاهرة.

فى الوقت الذى غادرنا فيه القطار، لم يكن أبى يسعى إلى جذب الزبائن لشراء ربطات العنق، فقد أصبح تركيزه على النشاط الجديد فى عمله، فالمنطقة حول شارع القناة كانت عامرة بمحلات المنسوجات، وعلى الرغم من أن منطقة محلات الملابس الرئيسية كانت فى الأماكن الراقية، فإن المحلات هنا كانت مزدهرة بمبيعات «المرتجعات» وهى الأقمشة الأرخص التى تم تخفيضها، لكنها لم تبع بالمحلات الكبرى.

كنت لا أزال مشغولة بثوبى الأصفر عندما دخلنا أول متجر، وتكلفت ابتسامة، وأنا مصممة على أن أسلك مسلك أفضل فتاة فى سن الثامنة والنصف.

فأنصت بعناية لوالدى وهو يبدأ عملية البيع، فيخرج عينة من قماش البروكار اللامع من داخل المظروف الأصفر المتخم ثم يسلمها لصاحب المتجر.

«سيدى أستطيع أن أورد لك هذا القماش بسعر دولارين للياردة» كان يقولها مؤكدا إياها.

ما هى الكمية التى سوف تحتاجها؟ يسأل والدى صاحب المتجر وهو يجرى أصابعه متحسسا العينة، «الصغيرة المربعة من القماش البراق بخطوط من ذهب وفضة» «وماذا ستأخذ لنفسك»؟

ويتظاهر والدى بعدم الابتهاج، وكأنه سوف يؤدى للتاجر خدمة لبيعه هذا القماش له، وكأنه لا يريد شيئا لنفسه وإنما مجرد أتعاب بسيطة لإنهاء المعاملة، وكتعويض عن مجهوده فيقول والدى بابتسامة سيدى «بنسين أو بنسين ونصف للقدم».

فأتعجب كيف يمكن تقسيم البنس إلى نصفين ولكن أجبر نفسى على الصمت.

يظل التاجر يتفحص العينة البروكار وينظر إليها فى مواجهة الضوء، ثم يومئ برأسه غير راغب فى الارتباط بشىء، فيقول لوالدى أخيرا «دعنى أفكر فى الأمر» فيأخذ والدى مربعات القماش (العينات) ويضعها مرة أخرى داخل المظروف.

كنا نمشى بتمهل فى قيظ شهر يوليو فى شارع القناة وذلك إلى محل يبعد ببابين ويبدأ الروتين مرة أخرى باستخدام عينة مختلفة، ثم نرتحل إلى متجر آخر، ثم آخر من بعده كانت هناك محلات متخصصة فى الأقطان وأخرى تبيع الحرير المحترم لاستعماله فى الستائر أو للدمى أو حتى فساتين الزفاف، وكانت هناك مؤسسة تبيع لفائف من الفرو الصناعى، فرو فقط. دخلنا هذا المحل وأدخل والدى يده داخل المظروف الأصفر السحرى، وأخرج عينة قماش مطبوعة على شكل جلد النمر، وأخرى بخطوط بيضاء وسوداء كلون الحمار الوحشى، وكنت أتمنى فى سرى ألا تتم هذه الصفقة ليس بسبب عدم الولاء لأبى ولكن لأنى كنت متشوقة لاستخدام هذه العينات فى صنع معطف من الفرو لعرائسى.

وأخيرا وصلنا إلى متجر عظيم الاتساع، يبدو أنه أكثر رقيا من المتاجر المجاورة له، وكانت اليافطة الخارجية تقول بأنه متخصص فى بيع الحرير، وقد رحب صاحب المتجر بأبى بحرارة، فى حين كان يسترق النظر إلى بفضول، فقال والدى كنوع من التعريف بى «هذه لولو» «حفيدتى»، وكان صاحب المتجر أكثر ألفة من الرجال الآخرين الذين قابلناهم حتى الآن، وبرقة أشار لنا أن ندخل إلى مكتبه، وكانت هناك مجموعة من الصور معروضة لأولاده وأحفاده، وقال لى لولو - إن جدك يعمل بجدية حاملا عيناته من متجر إلى متجر فى هذا القيظ.

أومأت غير واثقة مما على أن أقوله، وكنت مندهشة تماما، هل أخطأ والدى فى إنجليزيته؟ ألم يقصد القول بأنى إبنته؟

راح والدى يحاول إخراج بعض العينات من هذا المظروف الذى يبدو أنه بلا نهاية، كانت أقمشة فى غاية النعومة، وبألوان زاهية كانت هى موضة صيف ١٩٦٥- وردى ساخن، وأصفر ليمونى وأخضر وبرتقالى، وبينما أنا أفكر فى الاحتمالات المتاحة محاولة أن أقرر هل أتكلم أم لا؟ كانت الصفقة قد تمت، وكانت هى الصفقة الأولى خلال يومنا الطويل الحار، خرجنا وأيدينا متشابكة وصاحب المتجر يوجهنى بضرورة العناية «بجدى».

ويضيف «لولو يجب عليك أن تقولى لجدك أن يعتزل العمل، فرجل فى مثل سنه كبير على التجول فى يوم حار مثل هذا اليوم»، وأومأت غير قادرة على النطق بكلمة.

وكان والدى يكاد يطير من الفرح، فأعلن أن الوقت قد حان للذهاب للغداء، كان يحب الطعام على العكس من والدتى الزاهدة، التى لا تأكل أكثر من الجزء المحمص من شريحة بيتزا تكون قد اشترتها لى، لقد ظل والدى محتفظًا ببقايا من روحه المنطلقة. فكان يشتاق للمقاهى الفخمة على نظام مقاهى البحر المتوسط، فحاول جاهدًا أن يجدها فى مدينة لا تعرف سوى الكوفى شوب، ومطاعم الأكل السريع، التى تقدم طعامًا متواضع الجودة فى أجواء خالية من الأناقة.

كان يشعر كم هو بعيد عن الباريزيانا، أو عن أى من المطاعم الراقية بشرفاتها المطلة على النيل، التى كانت أحب الأماكن إلى قلبه، إذ كانت تضاء بكثير من المصابيح المتعددة الألوان، وعندما كانت الشمس تغرب كانت هذه المصابيح تبدأ فى إشاعة ضوء ناعم، ينعكس على صفحة الماء فيتلألأ النهر فجأة بآلاف الألوان، يرتشف ليون كوبا من البيرة المثلجة وهو يتطلع إلى صفحة النهر، وفى آخر الليلة يطلب عشاءً، عادة ما يكون سمكة بياض مشوية poisson grilli، طبقه المفضل، كان ليون يظل جالسا لساعات طوال محملقا فى الأضواء ويمزمز ببطء سمكة البياض المشوية بمهارة

بحثنا عن مقهى لنستريح فيه. لم نكن نركب تاكسيا أبدا فى نيويورك حتى فى الأيام التى كانت فيه الشمس تلهبنا بحرارتها، حيث وصلت درجة الحرارة إلى ٩٠ فهرنهايت وكانت أرصفة شارع القناة تكاد تذوب تحت أقدامنا، وأصبحت خطوة أبى أكثر تثاقلا، وبعد طول المشى وصلنا إلى كافيتريا كبيرة، وكنا مسرورين لقدرتنا على دخول مكان مكيف الهواء وبه أماكن جلوس مريحة.

لقد سمح لى والدى بأن أطلب كل ما أريد من قائمة الطعام، مكافأة على ما بذلته من مجهود معه واستقر تفكيرى على طلب آيس كريم شيكولاتة فى كوب طويل مثلج وملىء برغوات من ماء الصودا، وطلب هو لنفسه عصير فراولة باللبن المخفوق، وهو ما أدهشنى باعتباره سلوكًا جد عجيب أن يحب رجل عجوز كل ما هو وردى، سواء فى الآيس كريم أم غيره، وقد أعربت على أن مشروبه يبدو أحلى مذاقا من مشروبى، ذلك هو أبى. دائما ما كنت أتطلع لما معه، لذا فقد ظل يمرر لى كوبه الوردى الطويل ليسمح لى فى كل مرة بأخذ رشفة من خلال «المصاصة».

كان للاستراحة مفعول السحر فى استعادة نشاطنا، فعندما تركنا المكان كنا قادرين على المرور على عدة متاجر أقمشة تحت الشمس الحارقة.

لم يخطر على بالى أن أسأل والدى هل كان يشعر بالحرج من التحدث مع رجال الأعمال الذين لا يعرفهم، وكان قليلا ما يشكو فلم يخطر على بالى أن أتساءل عما إذا كان يشعر بالخوف أو الإهانة أو الضيق عندما يصده أحد وهو كثيرا ما كان يحدث له فى هذه المدينة التى كانت ثقافتها وأساليبها جديدة عليه.

كان والدى كتوما لأقصى حد فيما يتعلق بأحزانه فمثلا عندما رفضت جمعية نيانا طلبه لاقتراض مبلغ من المال، ليتمكن من فتح كشك لبيع الحلويات، لم يتحدث مع أحد فى هذا الأمر بعد ذلك، و لم أكن أعرف أيضا كم كان يعانى وهو يكافح لكسب عيشه من بيع ربطات العنق، والآن لفات الأقمشة.

سألته إذا ما كان عمل طوال حياته فى أى وظيفة «حقيقية».

فأجاب بالفرنسية «مطلقا فى حياتى»، لكنه تمعن فى إجابته ثم عدلها متذكرا أنه فى شبابه المبكر كان قد عمل فى وظيفة بسيطة بأحد البنوك فى القاهرة.

وسألته «ولماذا لم تستمر فى هذا العمل؟».

فأجاب: لم أكن أحب أن أكون مرؤوسا لأحد!

وقد كان يحاول الآن كما كان دائما أن يؤكد ويحافظ على استقلاليته، وقد حاول حتى أن يعود إلى ما كان يعشقه، وهو المضاربة فى البورصة، كان سوق الأسهم يسيطر على أبى بصورة كلية، وكانت تلك إحدى الرذائل التى لم يتخلص منها، فقد تخلص من كل الرذائل الأخرى التى كان يستمتع بالانغماس فيها عندما كان فى القاهرة، فلم يعد يلعب القمار أو يذهب إلى الكازينو، حيث يمضى الليل بطوله فى المقامرة مع الملك أو أحد الباشوات.

ولكن بورصة الأوراق المالية فى نيويورك -كما اعترف هو بنفسه- كانت مثيرة بنفس درجة بورصة القاهرة، فكلما انتعشت البورصة انتعش هو، وكلما هبطت شعر بالذعر والارتياع العميق.

كان يعطيك انطباعا بأنه يستثمر ملايين الدولارات، لكنه- على ما أعلم كان- يستثمر مبالغ ضئيلة من ٥٠ إلى ٦٠ دولارا مما يكسبه من بيع ربطات العنق، أو يتقاضاه كعمولة من صفقات بيع الأقمشة.

كان أبى يفضل الاستثمارات الغربية، كمناجم النحاس فى زامبيا، أو حقول الذهب المندمجة فى جنوب إفريقيا أو مجمع مناجم الذهب الذى أسسه السير سيسل رودوس الرجل الذى أنشأ المنحة الدراسية المسماه باسمه والذى كان يؤمن بسيادة بريطانيا على إفريقيا.

لقد اشترى أبى أيضا أسهما فى شركة للطاقة كانت ستقوم بالتنقيب عن البترول فى أنجولا وغينيا الاستوائية وجمهورية تاترستان الروسية ومصر، ذلك البلد الذى أجبرنا على مغادرته – لكن أبى كان لا يزال على ما يبدو مزروعا فى مصر، بلده القديم. ومن استثماراته المفضلة سبيرى راند sperry– rand متعهد توريد السلاح، وكانت حرب فيتنام مستعرة فأدرك ليون أن العمل مع منتجى المعدات والتكنولوجيا العسكرية سيكون استثمارا ناجحا.

كان قلبه، و قلبى مع مناجم النحاس فى زيمبابوى، وعندما سألته عن الأسهم ذات الاسم الغريب، غمز لى بما يوحى بأن هذا الاستثمار وحده، ينطوى على مستقبل واعد لدرجة أنه فى يوم من الأيام سنجد أنفسنا نملك منجما للنحاس فى إفريقيا.

لم تكن أمى تشاركه هذا الانبهار فتقول بالفرنسية وبصوت مرتفع كى يصل لأسماع أبى «لقد ألقى أبيك بماله هباء».

وكان أبى يحب قائمة الداوجونز "dow jones" ومتوسط الأسهم الصناعية. ولكن بقدر ما كان أبى يمرح ويستمتع بصعود الأسهم وهبوطها، ويؤمن بشدة بالمستقبل الواعد فى البورصة، كانت إيديث تشمئز من فكرة المضاربة، وكانت تعبر عن احتقارها التام كلما جاءت سيرة البورصة. كانت أمى مؤمنة بأن سوق الأسهم هو ببساطة عملية مقامرة خالصة، ورأت فى ذلك انغماسا شهوانيا لرجل عجوز يعيش فى منطقة بروكلين الفقيرة، لكنه لا يزال يعتبر نفسه رجل الاستمتاع الخالى من الهموم كما كان فى القاهرة.

لم يكن عشق أبى للمضاربة يفارقه، حتى عندما كان يسعى للحاق بنا على الشاطئ وهو يحمل متمهلًا كرسى البحر الأبيض ذا اللون الأخضر، إلى أن يعثر علينا، وبدلا من أن يضع رجله المصابة فى البحر، كان يجلس على كرسيه وفى يده كوب من الصودا المثلجة، ويستمر فى التطلع إلى الصفحات الخاصة بالبورصة فى جريدة الوول

ليون يجلس على شاطئ البحر ، بروكلين (ستينيات القرن الماضى)

ستريت أو جريدة النيويورك تايمز، متشوقا لمعرفة إلى أى مدى نجحت استثماراته مراقبا بعناية فائقة حركة السوق كأى رجل صناعة أو أساطين سوق المال.

لم يبق لنا سوى شيء واحد نفعله معا، فركبنا قطار الأنفاق للرحلة القصيرة من شارع القناة إلى شارع ديلانس، فى قلب الحى الشرقى و لم يكن أمامنا الكثير لنمشيه، ولكن بعد ظهر ذلك اليوم زادت حدة عرج والدى فكان علينا أن نتوقف عدة مرات حتى يستريح، وسألته إذا كان بإمكانى مساعدته وحمل الصندوق البنى أو المظروف الأصفر العزيز.

لسنوات طويلة قبل دخول المنطقة القريبة من شارع ديلانس فى خطة تطوير وتجميل وسط المدينة، كان لهذه المنطقة طابع مميز أكثر من مجرد كونها ضاحية المنسوجات، فكانت تعج بالحركة، وكانت محلاتها تقدم ألف نوع من مختلف الملبوسات التى تعرض على الأرصفة خارج متاجرهم، وتشمل القبعات الرجالية، والملابس النسائية، وقدور الطبخ والقلى، والأغراض المنزلية، وكان العديد من هذه المحلات، يديرها رجال من

اليهود الأصوليين الذين يرتدون قلنسوة الرأس التقليدية، وكان كثير منهم من الناجين من معسكرات الاعتقال وكان معهم أبناؤهم، قد جاءوا بخبراتهم ومهاراتهم من قلب أوروبا الشرقية القديمة إلى الحى الشرقى فى مانهاتن.

سرت وراء ليون فى شارع خلفى قذر يحتوى على متاجر صغيرة لم يكن عليها حتى لافتات تعريف، وكان مدخل أحد هذه المتاجر مهملا لدرجة أنه كان علينا النزول بضع درجات، ثم دفع باب معدنى كبير يفتح على مصنع، فرأيت نسوة منكفئات على ماكينات خياطة فى غرفة مزدحمة بلا أى شبابيك، رفعن أنظارهن إلينا برهة، ثم عدن للحياكة، واتجه والدى مباشرة إلى المالك.

كان يبدو أنهما يعرفان بعضهما جيدا، وكان المصنع ينتج ربطات العنق، فجاء والدى لتزويد مخزونه، أحضر صاحب المصنع عدة عينات من أحدث منتجاته، ونشرها على طاولة صغيرة، وكانت كلها تبدو جميلة فى نظرى، أومأت بشغف بينما والدى حدد اختياراته، وأخيرا تساءل والدى هل هناك «تيكيت» (علامة تشير إلى الماركة) لهذه الربطات. أقر المالك مرتبكا بأنه لم يتدبر ذلك بعد، وبدا الضيق واضحا على أبى، فقال «سيدى ربما كان على أن أحضر فى يوم آخر؟» و شرع فى مغادرة المكان.

عند ذلك أشار صاحب المصنع لسيدة كبيرة، كانت تجلس على رأس طاولة كبيرة مستطيلة، حيث كان أكثر من نصف دستة من النساء منكفئات على ماكيناتهن، فأصدر إليها أمرا حادا بلغة لم أفهمها، فأومأت بالإيجاب، ورجع إلى والدى ليؤكد له أن العمل سوف يتم لو انتظرنا برهة.

عند ذلك أدركت أن ربطات العنق التى طالما أعجبت بها، لم تكن مستوردة من باريس أو روما أو أوروبا بل كانت مصنوعة هنا فى هذا المصنع القذر غير الإنسانى، الكائن بين منطقة إسكس وديلانس، وأن اللافتات المزيفة التى تخدع المشترى بحقيقة مصدرها – هى لافتات يتم تثبيتها بمعرفة واحدة من هؤلاء النسوة المنكفئات على آلة الخياطة من ماركة سنجر، وأن الربطات لم تكن حتى مصنوعة من الحرير.

وسرنا نحمل صندوقا بنيا جديدا مملوءا بمخزون جديد من ربطات العنق، التى تحمل كلها «تيكيت» أنيقا ولكنه خادع، وكان أبى فى غاية السعادة بمخزونه الجديد، فأوقف مجموعة من الرجال فى الطريق ونجح فى تحقيق بعض المبيعات.

وبينما نحن فى طريقنا إلى قطار الأنفاق بما نحمله من بضاعة، تجنبت أن أواجه أبى بموضوع الربطات المستوردة، وبدلا من ذلك رحت أضغط على أبى لمعرفة ماذا سأفعل

بالنسبة لمستقبلى، وكنت قلقة وطموحة بالنسبة لطفلة فى التاسعة، فكنت أتمنى أن أصبح مخبرة، أو عميلا سريا أو جاسوسا محترفا، كنت أرغب فى السفر حول العالم، وأن أعود لزيارة كل المدن التى هربنا منها، كنت أريد أن أحصل على وظيفة مرموقة، وأدخر مالا وأستخدم التاكسى بصفة دائمة.

«يمكنك الحصول على وظيفة بسيطة» أجابنى ليون بتلك اللهجة الهادئة التى تخفى وراءها حدة أكيدة. كان كلانا يعرف أنه من الشائع فى أمريكا ذهاب النساء للعمل، وكانت الفكرة لا تزال تداعب خيال أمى، وقد تلقت عرضا جيدا بوظيفة مريحة لدى جرولير grolierوهو فرع لبيت النشر الأكثر شهرة بفرنسا

وبالفعل كانت قد سحبتنى معها للمقابلة، فكانت مفاجأة بالنسبة لرئيس التحرير، الذى كان قد طلب من أمى الحضور بعد تلقيه خطاب طلب الوظيفة، الذى أثر فيه بعذوبته وانسيابيته، وفى هذا الخطاب بالغت أمى فى إظهار عشقها للكتب واشتياقها للاشتغال فى عالم الأدب، و لم تكن أمى لترضى بتركى وحيدة فى المنزل، كما أن استئجار جليسة أطفال ما كان لها أن تفكر فيه، فلم يسبق لى أن تركت مع أحد ولهذا أخذتنى معها.

جلست صامتة خائفة حتى من التنفس بينما محررة الجرولير كانت تقطب جبينها وتعلق بما معناه، أنها تأمل ألا أكون طفلة مزعجة، واستطاعت والدتى إقناعها بأنى لن أتحرك، ثم راحت تترك انطباعا قويا بمؤهلاتها غير العادية، ودراية بالأدب تعود إلى أيام طفولتها بالقاهرة، ثم عملها كمدرسة وأمينة مكتبة فى مدرسة راقية للأولاد، اسمها مدرسة قطاوى باشا، وذكرت لها أيضا قصة المفتاح –مفتاح مكتبة الباشا.

وبعد بضعة أيام تلقت أمى خطابًا بعرض العمل فأصابها الذهول، فلم تكن لتصدق أن جرولير توافق على توظيفها، دعك من أنهم عرضوا أن يدفعوا لها بسخاء أبعد مما كنا نتخيل، وكانت الوظيفة تحمل عنوانا يدخلنا – لعالم الأزياء فى حى مانهاتن– حيث موقع جرولير، والمرتب الذى بدا لنا مرتفعا بدرجة غير معقولة، فقد كان أكثر مما كان والدى وأخى الكبير يكسبانه مجتمعين.

والأهم من ذلك كله، أنها ستتعامل مرة أخرى مع الكتب، ولكن بعد رحلة عذاب من التفكير وتحكيم الضمير، رفضت أمى وظيفة جرولير.

كان الرفض يرجع لعدة أسباب، فلم تكن أمى تملك القدرة على تحطيم قيودها، فتتحرر من دورها كأم وربة بيت، ثم كان هناك خوفها من عصيانها لأبى، وبالطبع

كانت تعرف عدم رضائه عن فكرة عمل المرأة، ألم يسبق أنها استقالت عندما تزوجت من عمل أحبته بشدة، عندما كانت تعمل مع زوجة الباشا.

لقد كان أمرا جدّ أصيل فى الثقافة المصرية والسورية، ألا تعمل المرأة، وخاصة المتزوجة، خارج البيت، ولكننا لم نكن فى مصر، و لم يكن باستطاعة والدى إعالتنا أكثر من ذلك إلا أن هذا كان أمرا آخر.

وكانت أمى موزعة الوجدان فيما تفضل، فجزء منها كان يحب الكتب أكثر من الزواج والأسرة كما كانت تعلم أيضا أن وضعنا المالى قد أصبح محفوفا بالمخاطر بعد أن تركت سوزيت المنزل، والآن وفجأة جاءت الفرصة لتعديل وضعنا المهزوز، فلا شك أن الوظيفة في جروليير كانت ستخرجها ونحن معها، من وضعنا المتأزم، إلى مصاف الطبقة المتوسطة، ولربما عندما تتقدم فى عملها كنا سندخل فى مصاف الطبقة المتوسطة العليا، وهو إنجاز غير مسبوق لعائلة مهاجرة، ولكنها فى ذات الوقت كانت تخضع لقاعدة غير معلنة عن النساء واشتغالهن، بصرف النظر عن كونها قاعدة عتيقة مرفوضة فى أمريكا، حيث تذهب ملايين النسوة للعمل، كما أن المجتمع كان قد تغير ليستجيب لمطالبهن.

كان أبى فقط هو الذى لم يتغير فقد نظر بتشكك إلى كل هذه التطورات، فضحك فى سره، لأن جزءا لا يمكن نزعه من عقيدته عن القواعد التى تحكم تصرفات النساء -وبالتأكيد الزوجة أو الابنة- يقضى بأن تبتعد المرأة تماما عن عالم العمل نظرا لكونه خشنا ومتقلبا.

سألته عن العمل، الذى ينبغى على أن أحصل عليه؟

«تستطيعين القيام بعمل بسيط» قالها بصورة حاسمة ونهائية، وهذا «العمل البسيط» فى رأيه أصابنى بالذهول، فلقد اقترح أن أفتح محلا لبيع الزهور، قلت له «ولكنك لا تحب الزهور الأمريكية»، وبدت لى فكرته منبعثة من مجال عمله السابق، فلم يكن لدى أى اهتمام بالنباتات أو الزهور، ولكن يبدو أنه لم يسمعنى. «لولو باستطاعتك أن تفتحى محلك الخاص لبيع الزهور» أعاد القول، وكانت على شفتيه ابتسامة بعيدة وكأنه كان يستنشق عبير الزهور فى مصر، ولكن نصيحته الأخيرة فى هذا الصيف كانت مختصرة وفى الصميم.

كان على أن أتزوج رجل بنك محترما، أن أجد رجلا يمنحنى ثانية كل ما افتقدناه عندما تركنا مصر.

الفصل التاسع عشر

فى انتظار إيليا

فى الأسابيع التى تسبق احتفالات عيد الفصح يحرم تناول الخبز.. لذا فقد قامت أمى آنذاك بإحياء طقس قديم عمره مئات السنين، فطلبت منى أن أساعدها فيه. و لم يكن هذا الطقس غير تنقية الأرز، الذى يتحتم فيه أن تكون كل حبات الأرز نقية خالية من أى شائبة.

كانت أمى على وشك القيام بعملية التنظيف المعتادة، بمناسبة انقضاء فصل الشتاء، والتى كانت تسمى «تنظيف الربيع» وتشمل مسح وكشط كل ركن من أركان المنزل، بحيث يُعتبر ترك أصغر قطعة من الخبز سهوًا، جريمة لا تغتفر، ناهيك عن استثارة غضب والدى تبعتها كمساعدة صغيرة، كنت أجهز لها دلاء مليئة بالماء والصابون كانت تحتاجها لمسح الحوائط وزجاج النوافذ، وكنت أمرح أحيانًا فى لحظات انشغالها برش الماء على ألواح الزجاج، وعلى أسطح الفورمايكا فوق الطاولات، تاركة رغاوى الصابون تنزلق إلى الأرض، كنت أمسك بقطعة من القماش -محاولة تقليدها- فأفرك وأفرك وأفرك بكل حماسة وانغماس لم يسبق لى أبدًا أن أظهرته تجاه الأعمال المنزلية.

وما كان لى أن أتوقع أن أدعى للقيام بالعديد منها، كان هناك اتفاق غير معلن بأن «لولو لن تقوم بالأعمال الوضيعة» وكانت صديقاتى يحسدننى على ذلك إذ كانت أمهاتهن تكلفهن بغسل وتجفيف الصحون، وتنظيف المائدة وتحضيرها، أما أنا فلم يكن يطلب منى شىء ولو مجرد شطف كوب، أو كنس المنزل أو إزالة الغبار، أو حتى ترتيب سريرى أو سرير أحد غيرى.

كان ذلك يعود أساسًا إلى تأثير والدى، فقد كانت تلك هى فكرته التى لا تهتز عن كيفية تربية ابنته، ففى القاهرة حيث كان هناك عدد لا يحصى من الخادمات لتولى جميع المهام المنزلية، لم يكن منتظرًا من الإبنة المدللة المساعدة فى تلك المهام.

لم تكن هناك خادمات فى أمريكا، وعلى فرض وجودهن، فلم يكن فى استطاعتنا تحمل أجر واحدة، مع ذلك فقد أصر والدى ألا يرانى أقوم بالأعمال التى تختص بها «الخادمات» les domestiques

لم يكن يؤرق أبى أن تقوم أمى بكافة الواجبات المنزلية، فقد كان هذا هو تسلسل الرتب فى البيت الشرقى، سواء كان بيتًا إسلاميًا أم يهوديًا، فالأب كرب للعائلة يأتى فى المرتبة الأولى ويتمتع بسلطة مطلقة، ويأتى الذكور فى المرتبة الثانية، وعادة ما يكون لهم نفس سلطة الأب، وتتم معاملاتهم كأمراء، أما البنات فلهن مجالهن الخاص من السلطة، حسب علاقتهن بالأب.

وتأتى الأم فى ذيل القائمة فدورها محدد، وهو أن تكون فى خدمة الجميع.

لم تكن أمى تختلف مع أبى فيما يجب على عمله، فقد كانت متفقة معه على تجنيبى المهام الدنيا، وقد شجعت أمى على ذلك بدلًا من أن تعترض على وضعى المميز، كان أسلوب تربيتى واحدا من الأمور القليلة التى كان والداى يتفقان فيها بشكل شبه تام. مع ذلك فإن دوافعهما لذلك كانت مختلفة، كان والدى يتوقع منى أن أتبع الطريق التقليدى بالزواج وتكوين أسرة، ولكنه كان واثقًا من أن العريس الذى سيحظى بالقبول، لابد أن يكون قادرًا على أن يوفر كل احتياجاتى. وقد قرر أبى ألا يقف عقبة فى طريق دراستى مقتنعا بأن ذلك سوف يزيد من فرص زواجى، ولكنه لم يكن يرى ضرورة لأن أتعلم أمور الطبخ والنظافة.

ومن وقت لآخر كان أبى يلمح إلى ضخامة الدوطة التى يدخرها لى، موحيًا لى بأن ذلك سوف يجعلنى قادرة على اختيار الزوج الذى أريده.

لكن أمى كان لها سبب آخر فى تشجيعى على الكسل، فقد كانت ترغب فى التأكد من افتقارى لأى خبرات، يمكن أن تساعدنى على أن أكون زوجة وأم، كانت أمى تمثل جوهر العدوانية السلبية، ففى كانت مرعوبة من أبى، إلا أنها كانت تنزع للتمرد، كانت مرعوبة من أن يتحدد مصيرى فى حياة عائلية مُدجَنة، فأصبح أنا أيضًا سجينة الملكة نازلى أو نظيرتها الأمريكية.

كانت تقول لى حاشا الله أن تكبرى، لتصبحى مسئولة عن زوج وحفنة أطفال جاحدين «لا تتزوجى أبدًا رجلًا سوريًا» كان ذلك هو المعيار الجيد الذى تضيفه لما تقول، فقد كانت ترى أن الرجال السوريين يتميزون بالوسامة والقدرة على فتنة النساء، ولكنهم متسلطون ونرجسيون، ويعاملون النساء كالعبيد، هكذا كانت تنصحنى، و لم أكن أجرؤ على مخالفتها، وأصبحت -حتى وأنا فى سن صغيرة- أنظر إلى الرجال السوريين بتخوف.

وعندما تطور إعجابى بموريس الشقيق الأكبر لصديقتى دينا، وكان بالتأكيد سوريًا وله عيون تركوازية رائعة، تصورت أنى سأصبح أسيرة سحره إلى الأبد.

كانت إستراتيجية أمى لإثنائى عن التطلع إلى الحياة التى تعيشها معظم صديقاتى، بسيطة وشيطانية فى نفس الوقت، فقد رفضت أن تعلمنى أيا من أساسيات واجبات الزوجة، فلم أتعلم تنظيف الغرف أو ترتيب الأسرة أو إعداد الغداء أو العشاء، وكان هذا يعنى بالطبع عدم تدريبى على إعداد الأطباق الشهية التى أجادتها أمى، خلال تلك الأيام الصعبة التى عاشتها مع ظريفة، فصارت ليلة بعد ليلة تعد لنا تلك الأطباق التى يفوح منها عبق الشرق، وكان هذا ما لن أتذوقه بعد ذلك أبدا، فلم أكن قد تدربت أبدًا على طريقة إعداد هذه الأطباق من لحم الخروف الطرى المحشو بالأرز والفستق، الذى يطبخ لساعات فى الفرن حتى يكاد اللحم أن يذوب وينحل من العظم، والبامية المطبوخة فى كثير من عصير الليمون والثوم، تلك الأطباق التى تجعل المطبخ مليئا بالروائح النفاذة.

لقد تُركت لشأنى، فكنت أنام متأخرة، وأتسكع فى المنزل بينما أمى تنتقل من عمل إلى آخر، ومن مشقة إلى أخرى.

كان الاستثناء الوحيد هو عيد الفصح، حيث كان العمل المطلوب فوق طاقتها، فلا تستطيع القيام به وحدها، و لم يضايقنى أن أسهم معها بمجهودى لاعتقادى أن أبسط الأعمال المنزلية فى هذا العيد له هدف أسمى، بالإضافة إلى أن أمى كانت مذعورة جدا، و لم أكن على يقين كما أكان خوفا من الله أم خوفًا من والدى.

فى كل عيد فصح إيديث تأخذنى من يدى إلى البدروم، حيث لا تزال الحقائب الست والعشرون التى جئنا بها من مصر، قابعة هناك ومرصوصة بعناية، وفيما يشبه أداء أحد الطقوس الدينية، كنا نفتح الحقائب الواحدة تلو الأخرى، بحثًا عن الصندوق المعدنى الذى، كنت أعتبره مصدر كل الألغاز والمتعة فى العيد، كان الصندوق مستديرًا مثل القبعة، ومصنوعًا من الصلب الرمادى المصقول، وفا حمل

كل تنقلاتنا قبل أن ينتهى الأمر بنا فى شقة بروكلين: من القاهرة للإسكندرية ثم إلى أثينا ثم إلى جنوا ومنها إلى نابولى إلى مارسيليا ثم باريس إلى شيربورج ومنها إلى مانهاتن وأخيرًا من منهاتن إلى بروكلين.

كان الصندوق يقبع فى أمان داخل نفس الحقيبة الجلدية البنية، التى كانت مستقره الأول، ملفوفًا حوله معطف والدتى المصنوع من الفرو الأستراكان، وفستان زفافها، وطبقات أخرى من ملابس عتيقة.

توقعت أن تنطلق الأشباح من الصندوق، أو أن جنيا سيظهر وسط دخان كثيف، وبدلًا من ذلك لم أر سوى نفس الطاقم المحبوب من أطباق البورسلين، الملفوفة بالأوراق والمحفوظة منذ العام الماضى، وكانت هناك أكواب من الصينى، وأكواب صغيرة للخمر المعتقة، وطاقم من أدوات الأكل (الفضية) المصنوعة من فضة حقيقية وليست كتلك الملاعق التى تباع الواحدة منها بخمسة وعشرين سنتًا والتى نشتريها من محلات وولورث.

كان عمر معظم هذه الأشياء يزيد على قرن تقريبًا، فقد ورثناها عن جدتى ظريفة وألكسندرا، وتعاملت أمى معها وكأنها آثار مقدسة، فكانت تمسحها برفق، وكانت بينها ملاعق بالغة الصغر، ومن بينها ملعقة ظريفة الذهبية الصغيرة، التى كان لها وظيفة منفردة هى تذوق المربى الداكنة الاحمرار والمصنوعة من البلح والزبيب التى كانت تمثل القلب النابض لوليمة عيد الفصح.

وعلى الرغم من توفيقى فى مساعدة أمى فى تفريغ الحقائب، وتنظيف القطع الفضية، فإن خدماتى كانت مطلوبة بشدة لتنقية الأرز، وعندما كنا فى مصر، كنا نشترى الأرز فى شكائر زنة ٢٠ كجم، مليئة بقطع من القش والدنيبة، وكان من الضرورى تنقيتها قبل العيد. كان ذلك يعتبر مهمة حاسمة، لدرجة أن ربة البيت اليهودية التقليدية، كانت تأخذ على عاتقها أن تعيد التدقيق فيها سبع مرات على الأقل، وتدقق فى كل مرة بشدة أكبر من سابقتها، وإن مثل هذا العمل لا يمكن أن يوكل إلى الخادمات، وحتى فى بلد كمصر حيث يوكل للخادمات جميع الأعمال المنزلية، كانت النساء مثل أمى يؤدين هذا العمل بأنفسهن أو بمساعدة عضو آخر من الأسرة.

وللحق فإن بعض الأسر غير المتزمتة كانت تقوم بتنقية الأرز أربع مرات فقط، ولكن إيديث كانت تصمم على سبع مرات، وفى القاهرة كانت أمى تدفع لسوزيت وسيزار

لقاء مساعدتها فى ذلك، فكانا يجلسان على طاولة الطعام الكبيرة، وتمنحهما عدة قروش لقاء ذلك.

أما هنا فى أمريكا فإن الأرز كان يأتى معبأ بعناية، داخل أكياس من الكرتون سواء كان أرز كارولينا أو حتى أرز «أونكل بن» (uncle bin)، وكان أرزا منقى ومعالجا ومفروزا ومحكم الغلق.

فأى شوائب يمكن أن توجد فى تلك الحبيبات البيضاء كاللبن؟ وما هى الخطيئة فى تناول أرز «أونكل بن» كما هو؟

راحت إيديث تحذرنى بأنه يجب أن أكون شديدة الحرص، كنا نقوم بوضع ملاءة كبيرة بيضاء، فوق منضدة حجرة الطعام، ثم تجلسنى على مقعد مجاور لها، وتجبرنى على إفراغ محتويات عبوات الأرز واحدة تلو الأخرى، حتى أصبحت طاولة الطعام مغطاة بجبل من الأرز، وكان كل منا يدقق فى كل حبة أرز بحيث نفصل الحبات النقية البيضاء، عن تلك الحبات البنية المخدوشة، كنت أضع الأرز فى سلطانية كبيرة ثم أبدأ فى تنقية حفنة منه، مستمتعة بالإحساس بالأرز وهو ينزلق من بين أصابعى.

لم أسأل أبدًا عن ضرورة ما كنا نقوم به، و لم يخطر ببالى أبدًا لماذا نحتاج إلى التدقيق فى آلاف من حبيبات الأرز واحدة بعد أخرى، وذلك لأنى لم أكن أتشكك فى أى من الطقوس التى كنا نمارسها فى المنزل وكانت هذه سمة أساسية فى أسرتنا.

كانت تنقية الأرز هى الشىء الوحيد الذى لم نتخل عنه، من بين كل الأمور والمقدسات، التى حاولنا التمسك بها، خلال ارتحالنا من بيتنا فى القاهرة إلى فندق اللاجئين بباريس ثم فندق الرفاء الاجتماعى فى نيويورك ومجتمع المهاجرين فى بروكلين، لأنه كان يحظى بأقصى هالات التقديس.

كانت أمى تبتسم كلما أعطيتها طبقًا وراء طبق من الأرز المنقى، وقد فحصت كل طبق منها بكل عناية سبع مرات بالتمام، لأتأكد أنه ليس هناك أدنى شائبة، انتهينا مما يزيد على عشرين رطلًا، وكان ذلك هو المقدار الذى تستهلكه الأسرة خلال أول ليلتين من العيد.

عندما كبرت وعلمت أن أصدقائى الأمريكيين من أولاد المهاجرين اليهود، الذين جاءوا من شرق أوروبا وألمانيا، لا يأكلون الأرز مطلقًا خلال عيد الفِصح، لأنهم يعتبرون ذلك محرمًا، بل يكاد يكون خطيئة تمامًا كتناول الخبز، فقدت أُخذت بكلى للتفكير فيما مضى.

لَم إذن كانت هذه العناية الشديدة الذى بذلناها لجعل الأرز الذى سنأكله صالحًا لاجتياز اختبار يجريه الله بنفسه.

ثم كان هناك أيضًا الأصدقاء الذى فاجأونى بأنهم كانوا يأكلون ما يرغبون فيه بما فى ذلك الخبز، أيا ماكان قد حدث، فلقد تعجبت من الاهتمام بنظافة حبة أرز؟

يصل الاستعداد لعيد الفصح إلى ذروته بعملية تفتيش ليلية على أضواء الشموع يقوم بها والدى، ففى وقت متأخر من ليلة العيد، يطوف والدى ليلًا وهو يرتدى بيجامته، ويحمل شمعة طويلة بيضاء فى يد وكتاب الصلاة فى اليد الأخرى، وبينما هو يتنقل من غرفة لأخرى ومن ركن لآخر، كنت أنا وأمى نسير خلفه بترقب حابستين أنفاسنا وهو يتطلع داخل دواليب الملابس، ويفتح أبواب خزانات المطبخ، ويفتش الأدراج فى غرف النوم وينحنى ليتفحص أرضية المنزل، بحثًا عن أى فتافيت من الخبز، وكان منظره شبيهًا بأحد هؤلاء المخبرين من أفلام الأربعينيات، وهو يفحص مسرح الجريمة على ضوء كشاف محاولًا اكتشاف أدلة توقع بالمجرم.

كان أبى شديد الدقة فى بحثه تمامًا، كأحد مخبرى هوليود الأسطوريين، وبينما جزء منى كان يستمتع بالجانب المسرحى من هذا البحث عن الأشباح، فإننى تيقنت أن أبى يأخذ هذا الأمر على محمل الجد لأقصى حد، وعلى الرغم من أنه كان هادئ الطبع فى تعامله معنا، فإنه لم يكن متساهلا، بل كان فى غاية العناد ويكاد يكون مستبدًا عندما يتعلق الأمر بالأمور الدينية، لم تكن هناك طرق مختصرة للإيمان فقد كان والدى يؤمن أن قواعد الدين لا يمكن التصرف فيها أو عصيانها.

كانت أمى تتأرجح بين محاولة إرضائه، وبين الثورة على أساليبه الاستبدادية.

«متعصب» كانت هذه صرختها بالفرنسية.

لكنها كانت تتراجع فى العادة إما لخوفها منه أو لأنها هى أيضًا قد أصبحت مقتنعة بأن الله يهتم بأن تكون شقتنا الصغيرة فى بروكلين، لا تشوبها شائبة فى عيد الفصح وإن الله نفسه يحب أن يتأكد بأن أطباق الأرز -التى يتصاعد منها البخار والتى ستنضم إلى عصيدة اللحم ويتم تقديمها مع آلاف الأطعمة الشهية التى أعدتها أمى- تخضع لمعايير الجودة طبقًا للسماء والأرض.

من بين كل الطقوس المقدسة والمراسم الاحتفالية التى ارتبطت عندى بالعيد، كان شراء ثوب جديد هو أكثرها قدسية عندى.

كانت أمى حريصة على أن تضع جانبًا بعض المال، لعدة شهور بحيث يصبح فى مقدورى الحصول على ملابس جديدة أستطيع ارتداءها فى أسبوع وحيد فى السنة، ولأن هذا العيد يعتبر بمثابة بعث جديد، فيتحتم فيه إخلاء الخزانات من الملابس، ونزع كل شيء من على الأرفف، ومسح الأرضية والتخلص من كل الأطعمة القديمة، ولهذا كان من المستحيل تصور عدم حصولى على ملابس جديدة براقة.

و لم تكن هناك أى مناسبة أخرى حتى عيد ميلادى نفسه تستحق مثل هذا البذخ.

«الثامن عشر»«la eighteen» هكذا كانت أمى تسمى الشارع الثامن عشر بنيويورك، الذى كان يعج بهذا التنوع البهيج من محلات ملابس الأطفال، التى تناسب العائلات ذات الدخل المحدود -هذا الثامن عشر- كان وجهتنا المفضلة، فقد كان محببًا لأمى، فمن خلال تنزهها وحدها أو معى، كونت صداقات مع معظم أصحاب المحلات القادمين من كابرى ونابولى، لقدرتها على التحدث معهم بسهولة باللغة الإيطالية التى أجادتها منذ صغرها.

كانوا يطلقون عليها «السيدة الفرنسية» أو يقولون ببساطة السنيورة وينادون عليها للدخول إلى متاجرهم، على الرغم من أنها كانت بالكاد تقدر على الشراء.

ولما غدوت على مشارف العاشرة، لم أعد أطيق أن أترك لأمى مسألة اختيار هذا الثوب بالغ الأهمية، أما فى الماضى فقد كان لها تأثير قوى على دفعى إلى اختيار ملابسى بسبب محدودية الدخل وبسبب ذوقها المحدود، أما هذه المرة فقد كنت عازمة على شراء ثوب طبقًا لاختيارى وحدى.

لقد اشتقت لتلك الأيام التى كانت مشاوير تسوقى من مسئولية والدى، الذى لم يكن يمارس على أى تأثير فيها أو شرائه، فقد كان يقف جانبًا يثرثر مع البائعات -الجميلات فقط بالطبع- بينما أنا أتجول فى المكان لأجرب هذا الثوب أو غيره، و لم يكن يتدخل إلا عند دفع الحساب فحسب، والآن لم يعد أبى يصطحبنى للتسوق، فقد انتقلت تلك المسئولية كلها لأمى، التى رأيت فيها بديلا سيئا، فقد كانت أمى محدودة النظرة مقارنة بأبى ذى الفكر المتحرر، وكانت بخيله بينما هو كان كريمًا، وقد أعلنت -وكأنها شعرت بعدم ملاءمتها- أنها تعرف مكانا خاصا يصلح لمشترياتى الهامة للعيد.

«لولو دعينا نذهب إلى ميلجور» لقد قالتها بفرح، وهكذا ذهبنا إلى أرقى محلات ملابس الأطفال، المتجر الذى كانت نوافذ العرض فيه تغرينا، وفى نفس الوقت تجعلنا نتهيب الدخول.

في تجوالنا الأسبوعي كل سبت، كنت أنا وأمي نتجه دائمًا إلى متجر ميلجور، و إن كنا نتركه للنهاية عن عمد، فقد كنا نريد الوقت الكافي للتمعن في معروضاته الثمينة الراقية التي تملأ فتارين العرض بوفرة، والتي كنا قادرين على الإعجاب بها، ولكن لم نتمكن أبدًا من إقتنائها.

كانت فاترينات ميلجور تشبه المسرح، أو صورة مصغرة لمحلات مانهاتن العظيمة في الضواحي، فعندما كانت تقترب أعياد الميلاد مثلًا تتسيد أقمشة القطيفة، فتملأ الفاترينات بالملابس المصنوعة كلية من القطيفة الكرمسون، أو المبطنة بها، فتوضع الأثواب المميزة بتنورات زاهية، والمعاطف ذات الياقات القطيفة السوداء، والسويترات من القطيفة الناعمة، حتى الأحذية كانت لها أربطة قطيفة وفيونكات.

عندما يبدأ الطقس في الاعتدال كانت القطيفة تختفي ليحل محلها الحرير، وتظهر المانيكانات بالحجم الطبيعي، وعليها ملابس بيضاء ذات حجاب، وتيجان مرصعة بالجواهر، مما يجعلها تشبه العرائس الصغيرة السن من جيل أمي، وعرائس الأطفال من منطقة الشرق، وهي بثياب العماد المحببة في هذه المنطقة الخاصة بالإيطاليين الكاثوليك، ولكني اعتبرتها ملابس زفاف ورحت أتخيل كم سيكون رائعًا أن أرتدي واحدة منها يومًا.

كانت أمي شاردة في خيالها، فلطالما اشتاقت أن تكسوني بملابس أنيقة وراقية، كما كانت تكسو أطفالها عندما كانت ذات يوم تملك الوقت والمال فتستطيع أن تختار وتنتقي وكان التطلع إلى فاترينات ميلجور قد أصبح رمزًا لحياتنا الجديدة، يذكرنا بما كنا قد استمتعنا به فيما مضى ونأسى على ما لم يعد في إمكاننا الحصول عليه.

وفي ربيع سنة ١٩٦٦ كانت الفاترينات تشبه قوس قزح بألوان الباستيل، حيث وضعت فساتين بلون الخوخ الباهت، واللون الوردي الثلجي، ولون الفستق الأخضر وبصورة طائر أصفر مغرد منطلق بلا هدى فيما يشبه السماء، وفساتين مغرية ومثيرة بصورة غريبة بخصور مرتفعة وأكمام منتفخة.

كان هناك القليل من الملابس التي تحمل بطاقة توضح الثمن، ولكنها صغيرة لدرجة يصعب قراءتها، وفي هذا الحي غير الراقي حيث تبقى النساء بالمنزل بينما أزواجهن يعملون كرجال شرطة أو رجال إطفاء. كانت المتاجر حريصة على الإعلان عن أسعارها المخفضة، ولكن ميلجور كان المتجر الوحيد الذي يتمتع بالقدر الكافي من الزبائن الميسورين دون الحاجة لتخفيض أسعار بضائعه.

وكان الثوب الذى تعلقت به يقف وحده فى أحد الأركان، بلونه الوردى الفاتح وصدره الأبيض بأزرار وردية وياقة صغيرة بيضاء. أشرت إليه لأمى بمرح، وكنت قد اتخذت قرارى فورًا، وفى لمحة واحدة كنت أعرف أن أهم قرارات الحياة يجب اتخاذها هكذا، أى بنفس الأسلوب الذى اتبعه والدى عندما لمح أمى تجلس فى أحد مقاهى القاهرة.

دفعنا باب المتجر الزجاجى الهائل، الذى يكاد يقول «ابقوا بعيدًا فلستم جديرين به»، ورغم أننا تطلعنا إلى المعروضات عشرات المرات من الخارج، فإننا لم نجرؤ أبدًا قبل هذه المرة على الدخول، كان المدهش داخل المتجر هو الصمت والهدوء الشامل بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك بضائع نستطيع فحصها أو لمسها، فقد كنا معتادين على التقليب فى الأرفف المكتظة والنبش فى الصناديق فى سباق مع باقى المتسوقين، للحصول على ما نريد من الملابس الكثيرة المتراكمة مخفضة الأسعار.

فى ميلجور كانت الملابس تحفظ فى حاويات زجاجية أمامها طاولات خشبية طويلة لحمايتها من أيدى المتطفلين، وعندما يريد أحد الزبائن المساعدة فإن موظف البيع يفتح الحاوية دون أى صوت ويخرج القطع المطلوبة واحدة أو اثنتين على الأكثر فى لحظتها وكأنها جواهر.

وبعد أن شحذنا أعصابنا للدخول،كنت مصممة على الشراء. فقلت للبائعة التى تقدمت نحونا أنا أريد الثوب الوردى، ودون أن تنطق بكلمة ذهبت إلى الحاوية الزجاجية وأحضرت الثوب الذى كنت مشتاقة له بالمقاس المناسب، وعن قرب كان للثوب نفس شكل وملمس حلوى «غزل البنات»، فكان مصنوعًا من أرق أنواع القطن، وكان لونه ورديًا فاقعًا لا يميل للباستيل والصدر الذى بدا عليه البياض فى الفاترينة تبين أنه خليط من الوردى والأبيض المنقط.

وقد أسرعت إلى غرفة الملابس لأجربه، وعندما خرجت كانت أمى فى حديث عميق مع البائعة، فقاطعتهما قائلة لقد وجدت الثوب المثالى وسوف أحسن استخدامه، وأقسمت بأنى سأرتديه فى عشاء «السيدر»* كما أرتديه لزيارة أصدقائى، وكذلك للاحتفال بمقدم النبى إيليا.

---

* وقفة عيد الفصح اليهودى.

ولكن أمى لم تكن مقتنعة تمامًا، وحتى البائعة نظرت بنوع من الحذر لهذا الثوب الوردى، واستطاعت إيديث أن تحصل على تأييدها كحليف لها، فقد كانت لديها براعة تحويل الغرباء إلى أصدقاء، وهكذا طلبت رؤية المزيد من الخيارات.

اندفعت البائعة إلى الوراء ثم عادت وهى تحمل ثوبًا جديدًا لا يزال فى غطائه البلاستيكى، الذى تم توريده للمحل فى اليوم السابق، فلم يكن هناك وقت كاف لعرضه، ثم قامت برفع الغطاء ليظهر ثوب رائع من اللون التيركواز، وكان يتميز بوسط من الطراز السائد فى هذا الفصل ولكن بتعديل بسيط من الطراز القديم، فكان فى مقدمته تطريز من خمس زهور تيوليب من ألوان مختلفة، وكأنها تتفتح فى حديقة خيالية، كان الثوب أنيقًا وراقيًا بصورة نادرة، فهو من مستوى بضاعة ميلجور المعتادة.

من الوهلة الأولى أعجبت به أمى، فكان هذا هو الثوب الذى أرادته لى، ولكنى كرهت فيه التكلف وسذاجة زهور التيوليب، إلا أن أكثر ما كرهت هو أن أمى قررت أن تختار لى ثوب أطفال، فى حين كنت قد تخطيت مرحلة الطفولة واشتقت لطيش ومرح الثوب الوردى.

رجتنى أمى أن أحاول قياس الثوب وإن كانت متهيبة من الثمن الباهظ الذى ذكرته البائعة، فقد كان أغلى بدولارين عن الثوب الوردى الذى كان بدوره أكثر مما تستطيع تدبيره، ولاحظت على أمى تلك النظرة القلقة المعتادة وأنا فى طريقى إلى غرفة قياس الملابس، وخرجت منها، وقد تحولت إلى الابنة الراقية التى طالما حلمت بها أمى، وفى ثوب ينافس بشدة ذلك الثوب الوردى الذى أردته أنا.

وتساءلت البائعة موجهة حديثها لأمى أى ثوب سوف تختارين؟

وبدت أمى مترددة، ولاحظت عليها الاضطراب وهى ترنو إلى الثوب التيوليب، وتجرى فى ذهنها الحسابات لترى إذا كانت هناك وسيلة تمكننا من شرائه نظرًا لضآلة وعدم انتظام المبلغ الذى تستقطعه من والدى.

راحت البائعة تعيد السؤال بلطف، ولكن بإصرار «مدام هل ستأخذين الثوب التيوليب؟» وحاولت والدتى أن تخرج من حيرتها بأن وضعت الثوبين الوردى والأزرق جنبًا إلى جنب على الطاولة الخشبية.

قالت أمى بحزن وأسى لدرجة أن البائعة نفسها تأثرت – «لن نأخذ الثوب التيوليب الأزرق سوف نشترى الثوب الوردى»، وكدت أطير من الفرح فقد كان

الثوب المليء بالزهور مثاليا بالنسبة لأمى، لا بالنسبة لى، فقد كان يوافق البنت الصغيرة المحتشمة التى كانت تحاول تربيتها فى مكان لا يبدو أن فيه رزينًا أو محتشمًا واحدًا.

جعلنى الثوب الوردى أشعر بالانتشاء وبأننى قد نضجت، كان كأنه سمح لى بتذوق الإحساس بالأنوثة، إن السحر الذى أحسسته دومًا فى فاترينات ميلجور أصبح أخيرًا فى متناول يدى، شعرت وكأننى أستطيع أن أهيم فى الفضاء بنفس الطريقة التى تبدو عليها المانيكانات فى فاترينة العرض.

فى ليلة عيد الفصح شعرت بأن الوقت قد حان لظهور النبى إيليا، فبالإضافة إلى تنقية الأرز وتنظيف المنزل على ضوء الشموع بحثًا عن أى كسرة خبز تُركت سهوًا، وشراء الثوب الوردى ومساعدة أمى فى المهام المنزلية، أضفت أنا طقسًا آخر هو شراء كأس نبيذ معدنية للنبى إيليا.

كانت تلك محاولتى لإحياء تقليد كان متبعا فى هذه المناسبة، وإن كان الأمر بالنسبة لى قد تحول إلى وسواس.

فى ليلَتى السيدر، يجب ترك كأس من النبيذ فوق الطاولة خصيصا للنبى إيليا، و لم يكن مسموحًا لأى شخص أن يشرب من هذه الكأس أو حتى لمسها، كان ذلك تعبيرا عن الترحيب الخالص، حتى إذا قرر إيليا أن يتوقف للزيارة فسوف يجد مكانا مخصصا له على المائدة

كانت الكأس رمزًا من عشرات الرموز التوراتية الكثيرة التى يزخر بها هذا العيد إحياء لذكرى الخروج من مصر، بدءًا من حمل حاجياتنا على أكتافنا وأكل خبز غير مختمر، كرمز لخروج اليهود على عجل عند هروبهم من مصر، كما يتضمن الاحتفال أن نقوم بتمثيل كل كارثة من الكوارث العشرة التى حلت بمصر –الماء ينقلب دمًا، الضَّفادع، البعوض، الذباب، موت المواشى، القروح، البرد، الجراد، الظلام، موت كل بكر– انتهاءً بتمثيل عبور البحر الأحمر للوصول لأرض الميعاد.

عدا خيالات طفولتى عن هذا العيد، لم يكن هناك فى واقع الحال أى شىء مجازى لهذا العيد بالنسبة لعائلتى، فهى قاست بالفعل من فرعون العصر الحديث –ناصر– فكان خروجنا من مصر متعجلًا ومشحونًا بالخوف والرعب، لذلك عندما قيل لى إن النبى إيليا يزور كل بيت، فقد آمنت بكل ما هو عزيز علىّ بأن النبى التوراتى سوف يلج باب بيتنا فى تلك الليلة.

كان وصوله حقيقيًا وعيانيًا، لذلك فقد رتبت لهذا الحدث ووجدت نفسى أترقب بشغف وقع خطواته.

كنت آخذ الدين بصورة حرفية ربما أبعد مما كان الحاخام يتوقع منى، عندما كانت أمى تختار شمعة عادية تشعل فتيلها العائم فى كوب زجاجى ملىء بالزيت ثم تصلى من أجلنا، كنت أؤمن بأن هذا الكوب يحتوى على قوى خارقة للطبيعة، فكنت أغمض عينى وأتمنى أمنية وأنا واثقة بأنها ستجاب، لقد اتبعت نفس الطريقة بعد عامين عندما سافر أصدقاء لى إلى القدس لزيارة حائط المبكى، بعد أن صار تحت سيطرة إسرائيل بعد حرب سنة ١٩٦٧، أرسلت معهم رسائل إلى الله، تشتمل على معظم تمنياتى العميقة، وطلبت منهم أن يضعوها فى أعمق شق يستطيعون العثور عليه فى الجدار، كان أبى قد علمنى بأن الله يقرأ فى الليل كل قصاصة ورق ترسل إليه، وبأن هناك أوقاتا عشوائية فى كل يوم تفتح فيها أبواب السماء، فإذا تصادف أننى صليت فى إحدى هذه الأوقات فإن كل أمنياتى سوف تتحقق.

فى كل يوم فى طريق عودتى من المدرسة، كنت أرفع نظرى إلى السماء وأنا أحاول أن أخمن إذا كانت أبواب السماء مفتوحة لأطلب شيئًا ضخمًا، فكنت أصلى من أجل عودة أختى للمنزل، من أجل أن يشفى أبى من ألم ساقه، كنت أؤمن بالأماكن المقدسة والرجال المقدسين، وترتيل المزامير، وبإعادة الخلق وفوق كل هذا كنت أومن بالمعجزات.

فى ربيع سنة ١٩٦٦ قررت أن أضع كل إمكانياتى فى الاستعداد لقدوم النبى إيليا، «لولو مجنونة» قالتها أمى مستخدمة هذه الكلمة العربية، كانت تتسلى بمحاولاتى الحثيثة للاحتفاظ بإيمانى، ولكنها كانت متحفزة لأى بادرة تشى بأننى سأتحول إلى ما يشبه أبى بتدينه الزائد وتعصبه، لكن حتى انتقاداتها الرقيقة لم تستطع أن تحيد بى عن طريقى.

من بين كل الأسرار الصوفية التى تتناثر خلال التوراة، لم يكن هناك أحد محبب إلى قلبى أكثر من إيليا، يجب ألا ننسى أنه الوحيد من بين كل البشر الذى منع الله عنه الموت لأنه أحبه حبًا جمًا فمن عليه بالحياة الأبدية والقيام بسلسلة من أعمال الخير، فكنت أتخيله وهو يجوب الكرة الأرضية كرجل خير ينتقل من مدينة إلى أخرى ومن منزل إلى آخر ليؤدى أعماله المعجزة.

هل سيتوقف حقًا فى المنزل رقم ٢٠٥٤ فى الشارع السادس والستين؟ كان هذا هو السؤال الذى استغرقنى، وتصورت أنى أملك الإجابة فلدى طريقة ناجحة بالتأكيد لإغرائه بدخول منزلى.

كانت هناك سلسلة من الطقوس تتعلق بالترحيب به بالإضافة إلى ملء كوبه، فى القاهرة كنا نصنع النبيذ بأنفسنا، إما بعصر العنب باليد أو غلى عدة أرطال من الزبيب لعدة ساعات فى وعاء كبير، مع إضافة السكر والماء والليمون، وتكون النتيجة هى ذلك العصير الثقيل الذى كنا نخففه بإضافة الماء حتى نحصل على مشروب خفيف حلو ليس بالضرورة نبيذا مخمرا ولكنه لذيذ، وكنت دائمًا أجد العشرات من حبات الزبيب الأصفر ملتصقة فى كوبى، فكنت أتلذذ بإخراجها بالملعقة وتناولها ولكن هنا فى أمريكا كان على النبى إيليا أن يتنازل مجبرًا و يشرب النبيذ الجاهز ماركة مانشيفينز manischewitz البنفسجى المحلى بالسكر، بدلًا من شرب نبيذ أمى الصافى الرائع، والمصنوع فى المنزل.

ثم كان هناك التقليد الخاص بعدم إقفال الباب الخارجى كى يتمكن إيليا من الدخول وقتما يشاء.

كانت معظم العائلات بما فيها عائلتى تترك أبواب البيوت مفتوحة على مصاريعها طوال الليل، فى الملكة نازلى كنا نجلس فى غرفة الطعام بالقرب من البلكونة بحيث يكون هناك احتمالان لدخول إيليا، ولكن بسبب الجرائم البشعة كجريمة قتل كيتى جينوفيز kitty genovese التى لا تزال ماثلة فى أذهاننا، بالإضافة إلى إحساسنا المتزايد بالأخطار فى ضاحيتنا الجديدة، فقد كان التمسك بهذه العادات فى نيويورك من قبيل الغباء المطلق.

وفى تصورى فإن الأمل بأن يقوم إيليا بزيارتنا كان يتطلب أكثر من الإيماءة الصغيرة التى ينقصها الحماس، فقبل العيد بيومين راحت أمى تراقبنى بفضول، وأنا أتفحص كل الأكواب التى ابتعناها من متجر dime store (حيث يباع كل شىء بعشرة سنتات) فكنت أتفحص كل كوب بعناية وأنا أقلبه فى يدى، فى محاولة منى لاختيار أفضل كأس تليق بإيليا، قلت لأمى إننى أرفضها جميعها حتى كأس النبيذ التى اشتريتها فى العام الماضى.

فقالت أمى بالفرنسية بغضب «كفى» فلم تكن تشعر بالتعاطف مع هذه الأفعال الاضطرارية، بالإضافة لكونها غارقة فى أعبائها المنزلية.

تحولت إلى والدى مستجدية إياه أن يعطينى المال اللازم لشراء كأس نبيذ جديدة للنبى إيليا، لم يرفع أبى رأسه عن كتاب الصلاة، بل وضع يده فى جيبه وأخرج عدة عملات معدنية ثم عاد إلى صلاته، اختطفت النقود من يديه واندفعت أجرى من الباب، وأنا أقسم أن تكون هذه السنة هى التى سيزورنا فيها إيليا.

«ربنا كبير» تمتم أبى بالفرنسية، بينما هو مستمر فى القراءة من كتاب الدعاء الأحمر الصغير.

وبينما أنا أقبض بشدة على العملات التى فى يدى اتجهت إلى شارع ١٨ حيث الكثير من المحلات التى تعلق لافتات تعلن عن ٥٠٪ تخفيضا، أو تصفية نهائية للبضائع، وكان بعضها يعرض منتجاته على الرصيف فى صناديق كرتونية ضخمة، وقد كتبت الأسعار عليها بخط اليد: ٢٥ سنتا للطبق ٤٠ سنتا لكوب العصير.

بالطبع كان من الممكن دائمًا الذهاب إلى وولورث حيث التخفيضات وافرة والاختيارات متعددة، فكان باستطاعتى الحصول على كأس نبيذ بعدة سنتات، ولكن فى تصورى أن هذا لا يليق – فشراء كأس إيليا كان يتطلب عناية وتركيزا خاصين.

سرت على طول الطريق منشغلة ببعض المقارنات الكلاسيكية للتسوق، فكنت أرفع هذه الكأس فى مواجهة الضوء وأتفحصها بعناية وكأننى أختار سيارة من ماركة (واترفورد أو لاليك)، انتهى بى الأمر فى محل صغير لبيع الأدوات المنزلية، وكان اتخاذ القرار صعبًا نظرًا لوفرة الخيارات، فقد كانت هناك كؤوس مصنوعة من الصينى والمعدن والزجاج وبأشكال مختلفة منها، بالغة الطول ذات ساق رفيعة بصورة مبالغ فيها، ومنها الصغيرة والمدببة، وعدة كؤوس من زجاج تقليد الكريستال وقد استقر رأيى على كأس طويلة كلفتنى كل ما أعطانى أبى.

ذهبت إلى المنزل ومعى ما اشتريت ولكننى كنت مهمومة، فهل ستعجب إيليا فعلًا؟ وأسرعت إلى أبى لأريه ما اشتريت، فرفع نظره عن كتاب الدعاء وألقى نظرة على الكأس، وأومأ بالموافقة.

وهو وإن لم يقل ذلك صراحة، إلا أنه أعطانى الانطباع بأنه قد صارت لدينا فرصة كبيرة كى يزورنا إيليا، وأن كل ما علينا فعله الآن هو انتظار قدومه.

فى ليلة السيدر ساعدت أمى فى إعداد المائدة باستخدام الطقم الفضى الذى يحفظ فى الصندوق المعدنى العتيق، وتأكدت بأن لكل منا ملعقته الفضية الخاصة به، وصببت النبيذ فى الكأس بنفسى.

وجاء والدى من المعبد واتجه مباشرة إلى حجرة الطعام، كان يريد أن يتأكد من وجود جميع مستلزمات شعائر العشاء المقدس، بيضة مسلوقة تمثل دورة الحياة،

وسلطانية ماء مالح لتذكرنا بالدموع التى ذرفناها فى مصر، وسلطانية من المربى الحمراء لتعيد للأذهان الطين الذى استخدمناه كعبيد للبناء به، كما تأكد من أن كأس إيليا كانت مملوءة لنهايتها بنبيذ أحمر حلو المذاق، وبعد أن عاين كل شىء أومأ بما يفيد رضاه.

وأخيرًا وبعد أن تأكد من أن كل شىء كما يجب؛ جلس وبدأ يؤم شعائر الاحتفال، جلست إلى جواره كعادتى دائمًا أشاركه الصلاة، محاولة اللحاق به حين يقرأ بإيقاع سريع، فقد كان نطق بعض الكلمات يصعب علىّ.

كانت أمى وأخواى موجودين، ولكن سوزيت التى كانت قد انتقلت إلى ميامى لم تأت أبدًا، وسنة بعد سنة كنت أنتظر مجيئها أيضًا كانتظارى لمجىء إيليا.

فى المساء سألنا أنفسنا لماذا تختلف هذه الليلة عن باقى الليالى؟ لم يتقوقع أبى داخل محارته التى لا يمكن اختراقها، ولكنه راح يغنى بكل حيوية واستمتاع، وكانت اللحظة المفضلة لدى، عندما أمسك بالملعقة الفضية وراح يطرق بها على كأس النبيذ ليضبط إيقاع الأنشودة.

كان ذلك الصوت المدغدغ الجميل يشبه الموسيقى، وكأن المرحومة ألكسندرا قد انضمت إلينا فى تلك الليلة، وهى البارعة فى العزف على البيانو، فراحت تصاحب أنشودتنا بموسيقاها.

لم يفلح كل ذلك –رغم ارتفاع أصواتنا بالغناء– لجعل العيد احتفالًا بخروجنا من مصر، ولكن على العكس تمامًا فقد كان احتفالنا اشتياقًا للعودة إلى المكان الذى يفترض الآخرون أننا سعداء لتركه.

وفى منتصف الليل عندما كنا لا نزال فى منتصف الاحتفال، وأصر والدى على قراءة كل فقرة من فقرات الشعيرة، أسرعت إلى الباب.

تقدمت بضعة أقدام حتى بلغت رواق المدخل محدقة فى عتمة شهر إبريل، كنت أتمنى أن أقتنص نظرة إلى إيليا وهو يتجول ليزور المؤمنين به، وصور لى خيالى أنى سأراه يذرع شارع ٦٦ جيئة و ذهابًا، فيأخذ رشفة نبيذ من هنا ورشفة من هناك، وكنت أريد أن أكون أنا أول من يرحب به وهو يدخل منزلنا المتواضع.

كان قد قيل لى إن إيليا هو ملاك الحظ الطيب، فهو الذى يحقق الأمنيات، وقيل إنه يمر فى كثير من الأوقات، ولكن لا يشعر بوجوده سوى الحيوانات والبشر من أصحاب البصيرة الغريزية النافذة، وتعلمت أن بكاء الكلب يعنى أنه يرى ملاك الموت يقترب،

ولكنه عندما يبتسم وينبح بمرح فإن هذا يعنى وجود إيليا، وكنت قبل العيد بأيام أحملق بدقة فى الكلاب الألمانية التى يقتنيها جيراننا الإيطاليون، لمعرفة إذا ما كانوا شعروا بوجود إيليا.

وكنت مستعدة لقدومه بقائمة طويلة من الأمنيات. فكنت سأطلب منه دولابًا مليئًا بالملابس من متاجر ميلجور وأريكة لها غطاء من البلاستيك بدلًا من السرير المزدوج الذى يتحول إلى أريكة عندما يأتى الضيوف. وكنت أتمنى ألا تقلق أمى كثيرًا بسبب نقص المال، وأن يستطيع أبى أن يمشى ممتشق القامة ثانيًا ويبيع ألف رابطة عنق.

ولكن الشارع كان ساكنًا تمامًا، خلوًا من السابلة وأولاد الحى الذين اعتادوا التجمع على الأرصفة، فعدت أدراجى إلى المائدة.

كان السيدر يتميز بوليمة ضخمة فلا يعد لدى المرء طاقة لمتابعة الصلاة. وتسرب أفراد الأسرة واحدا تلو الآخر، كل إلى سريره إلا والدى الذى ظل مكانه، متجاهلًا اختفاء المتفرجين من حوله، وبكل إخلاص استمر يقرأ ما تبقى من المزامير وهو ينقر بملعقته الفضية الصغيرة على كأسه ويظل يرتل لنفسه، وقد رجتنى أمى أن أذهب للنوم ولكنى قاومت.

قلت لها إننى فى انتظار يليا.

وفى نحو الساعة ٢ صباحًا كنا قد أكملنا طقوسنا بتمامها، ورغم أننا تركنا مصر منذ ثلاث سنوات مضت، ولكن ها نحن نشعر أننا نعاود تركها كليًا هذه الليلة.

وكنت أريد أن أظل مستيقظة فى انتظار وصول النبى، لأراه جالسًا على طاولة الطعام يرتشف النبيذ من الكأس التى اخترتها له بكل عناية.ورجوت أمى أن تتركنى مستيقظة، ولكن أبى ابتسم لى ورجانى أن أذهب إلى النوم، وقبل أن أذهب إلى سريرى تطلعت من شباك غرفتى فى الدور الثانى، ونظرت إلى السماء وأسطح المنازل المجاورة، علنى أحظى بلمحة من النبى وهو يتحرك.

جاء الصباح، وأسرعت إلى غرفة الطعام لأعاين كأس النبيذ وفحصتها بعناية عن قرب ورفعتها فى مواجهة الضوء، فرأيت أن الكأس كانت كما تركتها – فليس هناك ما يدل على أن إيليا قد توقف لزيارتنا، فالكأس لم يلمسها أحد و لم تنقص حتى قطرة واحدة.

الفصل العشرون

الكابتن فى حرب

فى صباح أول يوم لها فى أمريكا، أفاقت ستيلا راجوزا عند الفجر وأسرعت إلى شباك غرفة نومها المواجه لشارع ٦٦، فشاهدت رجلًا كهلًا يرتدى القلنسوة البيضاء، ويسير ببطء، كانت كتفاه محدودبتين ويستعمل عصا من الخيزران ليتبين بها طريقه، ولأنها كانت تطل عليه من الدور العلوى من المنزل فقد تراءى لها أنه بابا روما، وراحت تفكر إذا ما كان البابا جون بول السادس فى زيارة لنيويورك.

ولأنها كانت مصابة بالدوار ومتعبة نتيجة لركوب الطائرة لساعات طويلة عبر المحيط، كما كانت مستثارة من وجودها فى منزل جديد ببلد جديد، فقد تصورت ستيلا لأسباب لا تعرفها، أن البابا قد قام بنفس الرحلة التى قامت بها هى وعائلتها من إيطاليا إلى بروكلين.

ولولا أن أسرتها كانت تغط فى نوم عميق لكانت ستيلا أيقظتهم بكل سعادة ليشاركوها هذا المنظر من الشباك.

اعتقدت الطفلة ذات الأحد عشر عامًا التى لم تر فى حياتها يهوديًا، أن والدى هو البابا الذى انتقل بمعجزة إلى الحى الذى نعيش فيه.

كنت قد التقيتها بعد ذلك بيومين، عندما انطلقت عبر الشارع لتقدم لى نفسها وأصبحنا أصدقاء لتونا، وقد صرحت لى باندفاع أنها تحب والدى، ومقتنعة بأنه قديس، حتى بعد أن قمنا أنا ووالدها بكل صبر بإفهامها لماذا يرتدى أبى فوق رأسه

نفس القلنسوة التى يرتديها البابا تمامًا، كما أنها عرفت كل ما يتصل بعقيدتنا أنا ووالدى.

لكن ارتباطى القوى مع ستيلا وعائلتها الرائعة القادمة من نابولى لم يُجْدنا نفعًا فى الصراع الناشب بين أسرتى والمالك الصقلى الجديد لبيتنا.

كان المالك السابق الرقيق بازل كوهين قد ضاق ذرعًا ببقائه أرمل، وكان حريصًا على الالتحاق بالمجتمع اليهودى السورى فى «بارك واى أوشن» ocean parkway فوجد لنفسه عروسًا وقرر بيع المنزل، وكان المشترى هم آل فاليريو وهى أسرة إيطالية تسكن فى المنزل المجاور لنا ، وكان جيراننا من الجانبين من اليهود السوريين مثل مستر كوهين يعرضون منازلهم للبيع، وكانت العائلات الإيطالية التى تحب العيش فى محيط إيطالى الطابع يتخاطفون هذه المنازل فور عرضها للبيع، وفجأة أصبحنا العائلة اليهودية الوحيدة التى لم تترك المنطقة.

ورغم أن مستر كوهين لم يضمن لنا البقاء فى شقتنا، فإننا كنا متفائلين، فقد تمتعنا دائمًا بعلاقات حميمة مع جيراننا، وكنت شغوفة بمستر فاليريو الذى كان يقود عربة لنقل الزبالة لحساب مدينة نيويورك، ولكنه كان يصر على أن يطلق على نفسه «مهندس أعمال صحية»، وكانت ابنته جوجو تكبرنى ببضعة أعوام، ولكنها كانت دائمًا ودودة معى، وعندما وصلنا لأول مرة فى يناير سنة ١٩٦٤، كانت هى من عرفنى على موسيقى البيتلز كما أطلعتنى على أغانيهم «أنا أحب رنجو» «أنا أحب بول»، وكان ذلك أول درس لى فى ثقافة البوب الأمريكية.

لكن أصبح من الواضح أن علينا ترك المنزل، فقد أبلغنا آل فاليريو أنهم يريدون المنزل بالكامل بما فى ذلك شقتنا، ليقيم فيها أقاربهم العجائز القادمون من صقلية، لم تكن هناك أى وسيلة لإقناعهم وتغيير رأيهم، فقد فشلت محاولات أمى بالتلاطف مع زوجته ووالدته وكذلك خابت جهود أبى فى حل الأمر بصورة ودية.

وهكذا كان علينا ترك منزلنا بنفس الطريقة التى تركنا بها منزلنا فى شارع الملكة نازلى كان هناك فارق وحيد ففى هذه المرة كان أبى مصرًا على عدم الاستسلام.

كان كأنه ارتدى عدة الحرب واستعد للقتال ضد أمر الإخلاء، على عكس الحالة فى المرة الأولى، وقد جعل الأمر واضحًا بأنه لن يتم إرهابه أو مضايقته لإجباره على التخلى عن منزله أو شقته المكونة من أربع غرف، فهو رغم كل شىء لايزال الكابتن ولن يستسلم.

كان أغلب اليهود الذين جاءوا من الشرق قد تركوا المنطقة واحدًا تلو الآخر، حتى أن بقالنا المفضل خاسكى كان يبحث عن مكان آخر فى شارع أوشن بارك واى، لينقل

محله إليه حاملًا معه الزيتون اللذيذ والجبن البيضاء الشهية، أما منصور، الخباز فكان قد استقر فى محل صغير يطل على شارع كينجز بارك واى kings highway، وهو شارع التسوق الذى يمثل الصورة الباهتة من شارع بارك واى، فكان يُعد أطباقه المشهورة من الحلويات الشرقية للعائلات التى كانت تتهافت على المنطقة، تمامًا كما كان يفعل فى القاهرة حيث كان الملك فاروق يحب أن يتردد على مقهاه فى ضاحية هليوبوليس.

بحلول عام ١٩٧٠ كان حتى معبد «تجمع الحبِ والصداقة» فى طريقه للرحيل عن الحى، لينتقل مرة ثانية بعد عقدين من الزمان تاركا مبناه الجميل ذا الطابقين، ليلحق بأعضائه الذين تركوا المنطقة كما انتقل فى السابق خلفهم من القاهرة إلى نيويورك.

كان رحيل المعبد إيذانًا بموت الشارع رقم ٦٦، فلما كنا مفتقدين لكل ما أحببناه فى القاهرة، فإن حياتنا اليومية فى أمريكا كانت تعتمد على سهولة الذهاب إلى خاسكى البقال، بمنتجاته التى تسلب الألباب والمستوردة من القاهرة وحلب ودمشق وبيروت، كانت الحياة ستفقد حلاوتها إذا اختفت زجاجات ماء الورد الصغيرة ذات الماء المَعطر الذى كانت أمهاتنا تنثره فوق كل ما يطبخنه، ولم يكن يمضى يوم دون أن نمد أيدينا إلى البراميل الكبيرة الحافلة بكل أنواع الزيتون أو أن نتذوق جبنته البيضاء، كان الحل بسيطًا، الرحيل.

كان يجب أن نرحل فقد كان عالمنا يختفى وكنا نخاطر بالبقاء وحدنا دون أن يكون هناك من يعيننا على مواجهة قسوة الحياة فى أمريكا، كان يجب علينا أن نرحل حيث لم نكن نتوافق مع أحد فى المربع السكنى باستثناء ستيلا ووالديها، كان يجب أن نرحل لأنه لم يعد هناك شىء يربطنا بهذا المكان.

وبسبب الخلاف بيننا وبين مالك المنزل فقد تحول الشارع الذى كان جنة إلى ميدان حرب، فالجيران الذين أحببناهم أخذوا يتحرشون بنا ويعاملوننا بقسوة، عندما عرفوا بعدم استعدادنا لإخلاء الشقة، وهكذا أخذت العائلات الإيطالية جانب مالك العقار وأصبحنا منبوذين.

عندما كنت أغادر المنزل فى الصباح، كان فنسنت فاليريو وأقاربه يحدجوننى بنظراتهم وإذا ما كنت بصحبة أبى أو أمى، كانوا يعترضون طريقنا أو يمنعوننا من المرور، لقد أراد مالك العقار أن يعرف متى سنترك له الشقة، وبدوا مصرين على استرداد الشقة وبشكل فورى. كان أبى يتجاهلهم، ويلوح بعصاه فى وجوههم عندما يطلقون تعليقات سخيفة مهددًا باستدعاء الشرطة لإلقاء القبض عليهم.

أما أمى فقد استسلمت لفكرة الانتقال وبدأت سرًا فى البحث عن شقة، وكان ذلك بمثابة نوبة من اليأس والتمرد على أبى، لقد كانت مشغولة بعد أن حصلت على

وظيفة فى المكتبة العامة فى بروكلين التابعة للولاية، كانت مجرد كاتبة لكنها شعرت وكأنها حصلت مرة أخرى على مفتاح مكتبة الباشا، ومن واقع حرصها على أن تنعم بالاستقرار راحت تبحث فى البنايات القريبة من منزلنا مستبعدة بذلك فكرة الانتقال إلى «أوشن بارك واى» رغم أن ذلك كان يجب أن يكون الاختيار الأنسب.

وكانت مسألة إيجاد شقة تلبى متطلباتنا جميعها مسألة عسيرة، فيجب أن تكون رخيصة، ويجب أن تكون فى الدور الأرضى، وأن تكون قريبة من محطة القطار حرصًا على أبى الذى لا يستطيع السير مسافة طويلة، وكذلك لسيزار كى يستطيع الذهاب لعمله، كما أن تكلفة الغاز والكهرباء يجب أن تكون جزءًا من الإيجار، وبالطبع يجب أن تكون قريبة من المعبد اليهودى، وإن لم يكن معلومًا لنا أى معبد مازال قائمًا فقد أغلقت كلها.

كان علينا أن نستبعد أى شقة لا تلبى مجرد شرط واحد مما سبق، وهكذا ضاعت جهود أمى سُدى فى البحث عن شقة.

كان أبى متصلبًا فى موقفه فلن يسمح لأحد أبدًا أن يأخذ منه منزله مرة أخرى. وكنت أشعر بالأحاسيس العدائية عندما أسير فى الطريق، فحتى البنات اللاتى كنت ألعب معهن منذ الطفولة لم يعدن يلقين علىّ بالتحية، وأحيانًا تصيح إحداهن «إنه ليس بيتكم» وكنت أرد عليهم بكل ما تستطيعه فتاة من كلام قاس «إنه بيتنا أيضًا».

ومع كل ذلك فقد أصبحنا أنا وستيلا أكثر قربًا، كانت تدعونى إلى الحفلات التى يقيمها أولاد عمها، وكنت أقبل دعواتها بشغف، فقد كانت تعدنى بالطعام الإيطالى والرقصات الإيطالية والموسيقى الإيطالية الحية، ولكن أهم من ذلك كله الشبان الإيطاليون.

كنت أعرف أولاد عمها الذين يعيشون فى نهاية المربع السكنى وإن كانت معرفة سطحية، فقد كانوا أيضًا حديثى العهد بهذا البلد، و لم يكونوا قد تبنوا بعد السلوكيات الخشنة التى يبدو أنها ضرورية، لكل من يعيش فى حينا، حى الطبقة العاملة من الأمريكان الإيطاليين. كانوا حديثى العهد بالحى أيضًا، ولهذا كنت أستلطفهم بصورة طبيعية.

ولما كانت صديقتى تتعمد ارتداء ثوبها الوردى الفلامنجو المثير الذى يتميز بسوستة بطول الصدر، فقد قررت ألا أبدو شديدة الاحتشام. فى محل قريب لمحت ثوبًا قصيرًا من القطن الأحمر على رف الملابس ذات السعر المخفض فى الأوكازيون. كان للفستان شريط عند الرقبة يمكن ربطه فيبدو محتشمًا، أو فتحه فيكون جريئًا وله حزام عند الخصر، وكان مقاسى تمامًا، ورغم أننى كنت بالكاد أملك المال لشرائه فإننى

اشتريته فى السر، دون أن أطلب المال من أمى حتى لا توبخنى على الذهاب إلى حفل كنت متأكدة أنها ستعارض ذهابى إليه.

عندما حل الغروب، تسللت خارج المنزل وأنا أرتدى ثوبى الأحمر الجديد.. «أنا ذاهبة لرؤية صديقتى ستيلا» صحت بها وأنا أسرع بالخروج، ونزلت صديقتى لمقابلتى وهى فى غاية الروعة بثوبها الوردى، وعندما كنا نتجه إلى منزل أولاد عمها أعربنا بسعادة لبعضنا كم مظهرنا مثير وفاتن.

و لم تكن الحفلة مثل الحفلات التى اعتدت عليها مقصورة على الفتيات، ولكن فى البدروم المزدحم الذى تغطى جدرانه الألواح الخشبية، كنت أرى تجمعات من الأولاد الوسيمين، أم تراهم رجالًا فى أواخر سن المراهقة، بشعورهم الناعمة الداكنة السواد، وعيونهم السوداء، ووسطهم الرفيع، وقمصانهم الضيقة التى تركوها مفتوحة حتى خصرهم، كانوا يدخنون، وقد نظروا إلينا بتمعن عند دخولنا بينما فرقة موسيقية كانت هناك تعزف الألحان الإيطالية.

تقدم ابن عم ستيلا ليعرفنا على الموجودين الذين كان معظمهم حديثى العهد بأمريكا، وبدوا لى أكثر ودًا وخجلًا من الفتيان الذين عرفتهم، كان معظمهم لا يكاد يتحدث الإنجليزية، وقد وجدتهم ظرفاء للغاية فقررت أننى سأكون سعيدة بمراقصة أى منهم، وكان من سعادتى أنهم أطلقوا فورًا علىّ اسم «الأمريكية» و صار هذا هو اسمى طوال الليلة.

كانت هذه أول مرة يخطئ أحد الأشخاص ويعتبرنى فتاة أمريكية أصيلة، كنت سعيدة من داخلى لهذا الوصف.

ومن غرابة الأقدار أنه فى بدروم أحد بيوت بروكلين يبدو أنى أخيرًا قد ولجت إلى الحياة الأمريكية.

صاح أحد الشبان وهو يتجه نحوى «che corina questa american»، كان له شعر حريرى بنى محروق ينسدل فوق عينيه، وابتسامة رقيقة وأسلوب ناضج وكان واثقًا من نفسه، فوضع ذراعه فوق كتفى وأخذ يقودنى بثقة إلى حلبة الرقص، وفجأة بينما الذعر يملؤنى حاولت أن ألتقى عيون ستيلا لكنها فقط أومأت لى ثم ابتسمت.

كان شريكى فى الرقص لا يستطيع نطق كلمة واحدة بالإنجليزية، و لم يكن لذلك أهمية فى تلك الليلة فقد كانت الموسيقى أجنبية عذبة، وكنت أنا أرتدى ثوبًا أحمر جريئًا، ووجدت نفسى أراقص شابًا أشبه بنجوم السينما فى وسامته، وربما كانت سنه فوق العشرين، لم أحاول معرفة اسمه ولا هو عرف اسمى فلم تكن هناك أهمية لذلك، الأمر الوحيد الذى كان يعنينى فى هذه الليلة هو «الأمريكية».

وربما أمر آخر «ما هو معنى كلمة كارينا carina؟» سألت ستيلا عندما ذهب شريكى لإحضار كأس بيرة ماذا تعنى بالضبط هذه الكلمة؟ فقطبت ستيلا حاجبيها وراحت تقترح بعض المعانى مثل «الأمورة، الحلوة»..

كنت فى غاية الاستثارة فقد أدركت بجلاء، أنها المرة الأولى فى حياتى التى يجدنى فيها رجل مدعاة لسروره.

لم أترك شريكى فى الرقص طوال الليل، وكنا كلما ارتفع صوت الموسيقى وازداد الصخب وازدحم المكان حولنا بالراقصين، اضطررنا إلى الاقتراب من بعضنا أكثر ونحن نرقص، وبينما نحن نتمايل على أغان لا أفهم كلماتها، وإن كانت ألحانها رائعة، راح يضمنى إليه أكثر وأكثر وشعرت بأننى أخيرًا نضجت.

لم نترك الحفلة إلا عندما أصرت ستيلا –التى لم يحالفها الحظ فى العثور على رفيق– على العودة لمنازلنا وإلا فسوف نواجه عاصفة من التوبيخ من آبائنا، كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل، وكان هذا أقصى موعد تأخرت فيه دون أن تعلم عائلتى بمكانى.

قال لى شريكى فى الرقص وداعًا «كارينا» ثم مال علىّ وقبلنى برقة، وعندما كنا نرقص تبينت مدى صغر سنى بالنسبة له، وهو ما تحقق منه قبلى بكثير ومع ذلك استمر يرقص معى و لم يتركنى إما عن شهامة أو صداقة أو عاطفة أو رغبة.

وفى الطابق الأعلى كان أبى وأمى فى انتظارى، ولكن والدى كان الأكثر غيظًا فقال بالفرنسية «أين كنت حتى الآن؟» لقد أراد أن يعرف، فأجبت دون اكتراث ما استطعت، لقد ذهبت إلى حفلة مع ستيلا وأولاد عمها، و لم أتنبه للوقت. فسألنى أبى بالفرنسية وهو فى شدة الغضب متجهًا مباشرة إلى بيت القصيد «هل كان هناك شبان؟»، فأجبته بالإنجليزية محاولة التهرب «كان المكان مزدحمًا بأناس كثيرين»، وقد بدت لى إلى حد ما أنها اللغة الأكثر أمانًا.

فصاح بالفرنسية «إنك ستقضين على سمعتك وتحطمين حياتك»، واستخدم نفس النغمة والكلمات التى كان يستخدمها مع أختى من قبل.

لقد كان الأمر بالنسبة لليون وهو يراقب التغييرات الاجتماعية فى أمريكا أواخر الستينيات إلى أوائل السبعينيات، وكأنه يراقب الانتقال إلى كوكب بعيد لا يمت له بصلة وليس هو الكوكب الذى كان يتمناه لابنته الصغرى.

حين كنت أواجه وطأة غضبة أبى الشديدة لم أكن أشعر بالذنب، بل كنت حانقة على تلك السمعة التى كان يجب علىّ حمايتها بكل حماسة، والشرف، والمركز، والمجتمع، وكل تلك الأمور التى تسيطر على أبى القادم من «المشرق العربى» والتى لا علاقة لها بعالمى، ما الذى تعنيه منظومة قيم حلب العتيقة فى حياتنا هنا فى نيويورك؟

صورة لولو أثناء سنوات المراهقة فى أمريكا

كان الموقف من إقامتنا فى المنزل لابد أن يصل إلى نهاية، وقد حدث ذلك ذات صباح حينما لم أكن مستعدة

عندما تركت المنزل مع والدى ذات يوم استوقفنا مستر فاليريو وأقرباؤه. كانوا مستندين إلى الحائط وأيديهم معقودة على صدورهم، استمر أبى فى السير، ولكنهم تحركوا لإغلاق الطريق أمامه، كان مستر فاليريو واقفًا مع حماته وهى امرأة بدينة دائمًا ما ترتدى ملابس سوداء، وبدأوا بإبلاغ أبى بأنه ينبغى عليه ترك البناية فورًا.

قال مستر فاليريو «سوف نستدعى الماريشال»*

انضم أقرباؤه إلى المشاحنة، كنت أتصور أنهم لا يتحدثون الإنجليزية، ولكن المرأة العجوز التى كنت أطلق عليها «العنكبوت السوداء» كانت تعرف عبارة أو عبارتين.

قالت «يهود أقذار» وكررتها «يهود أقذار» وبصوت أعلى لتتأكد أننا سمعناها.

لم يهتز جفن لأبى عندما صاحوا «سنطلب البوليس» لكنه رد عليهم صارخا «وسوف يودعونكم السجن».

وقفت مرعوبة متوقعة أن يبدأ تبادل اللكمات فى أى لحظة، وعندئذ من الذى سيحمينا أنا وأبى من هؤلاء المتهورين الذين تصورتهم جيراننا وأصدقاءنا؟

* المترجم: الماريشال هو ضابط التنفيذ المكلف بتنفيذ الأحكام والمخول بالقبض على من يعترض تنفيذها.

عندئذ بدأت فى البكاء وأنا أقف على بعد أقدام من منزلى، فى مواجهة امرأة عجوز تكيل لنا سبابًا ما كان يمكن أن نسمعه فى مصر، لم أعد قادرة -فجأة- على التوقف عن البكاء الذى لم يعره أحد اهتمامًا إلا والدى، للحظة بدا مُستاء منى أكثر من استيائه من خصومنا، قال بالفرنسية «لولو لا تبكى، لا تبكى أبدًا أمام الغرباء» قاوميهم.. كان مفتنعًا بأنى أظهرت ضعفى أثناء معركة الرصيف وكان الضعف بالنسبة له عيبًا فى الشخصية لا يتسامح معه.

أصابتنى المواجهة بحالة من الاهتزاز فبدأت أخشى مغادرة المنزل حتى لا أصطدم بالعنكبوت السوداء، والأسوأ من ذلك كان هناك الخوف من احتمال وصول الماريشال الذى سيلقى بحاجاتنا خارج الشقة فنتحول إلى مهاجرين مرة أخرى، كان العقل يقضى -بالنسبة لى- بأن نترك المنزل فورًا.

ولكن والدى تصرف دون اهتزاز فلم يخش وصول الماريشال وبالطبع فلم يكن ليخاف من تصرفات المرأة العجوز.

وصل أمر الطرد الذى يقضى بأن نترك الشقة فورًا، ولكن أبى قرر أن يقاوم للنهاية رغم أن السلاح الذى اختاره لم يكن مناسبًا للمعركة، ولأنه لم يكن يملك المال لتوكيل محام خاص، فقد لجأ إلى هيئة المساعدة القضائية وهى الهيئة التى تقدم المساعدة للفقراء، وكانت فى ذلك الوقت فى أوج قوتها، فقد كانت تتمتع بمحامين شبان مثاليين، كان الأمر بالنسبة لهم يمثل قضية يجب تبنيها حال كون والدى عجوزًا يحترم القانون ويواجه أمر طرد لا يستحقه، وكان أن خصصوا له محاميًا شابًا متحمسًا ويكره ملاك المبانى بصورة غريزية.

أما جيراننا الملاك فواجهونا بالأسلوب التقليدى الأمريكى، وذلك باستخدام محام خاص مرموق ومُكلف.

وفى يوم نظر القضية وصلنا إلى قاعة المحكمة ونحن نكاد نكون صورة مماثلة لـ(هاتفيلدز ومكوى)* hatfields and the mccoys ولكن من حوض البحر المتوسط، كان المالك محاطًا بزوجته من ناحية وحماته من الجانب الآخر، وكانت العنكبوت السوداء فى ملابس أكثر كآبة من المعتاد يصعب تحملها، إذ بدت وكأنها خرجت للتو من أحراش قرية صقلية، وكان محاميهم المتأنق يقف إلى جوارهم ويبدو من هيئته أنه واحد من محامى court street شارع كورت** المتمرسين على الألاعيب القانونية

* المترجم: هاتفيلير ومكوى هو مسلسل تليفزيونى قانونى أمريكى.

** هو اسم الشارع الذى تقع فيه المحكمة فى نيويورك وبه العديد من مكاتب المحامين الذين اشتهروا بالألاعيب القانونية.

والبارعين فى عقد اتفاقات لإنهاء القضايا خارج المحكمة، وتمثل مثل هذه الاتفاقات العصب الرئيسى لمجتمع القانون، حيث القضاة والمحامون والمتقاضون -المتلهفون لعقد الصفقات - يصلون إلى تفاهمات قبل أن يضعوا أقدامهم فى قاعة المحكمة، وقد لاحظت أن محاميهم كان يمازح الجميع من القاضى إلى كاتب المحكمة.

وقد دخلت مع والدى وكنت قد تغيبت عن المدرسة ذلك اليوم، بناء على نصيحة محامينا الذى كان يرغب فى أن يرى القاضى «أن هناك طفلة ستتأثر نتيجة هذا الأمر».

أخيرًا دخل محامينا يسير الهوينى، كان شعره الذهبى أشعث متسخًا وذقنه كثيف غير منسق مرتديًا سروالًا من القطيفة المضلعة وصندلًا، ليخوض معركتنا القانونية، ثم اقترب من أبى ولف ذراعه حوله، لم أكن أدرى كيف لا يتصور احتمال خسارتنا للقضية.

أما محامى آل فاليريو فقد كان رجلًا ضئيل الحجم يرتدى بدلة فاخرة ثمينة، وقد بدأ بإلقاء خطاب بليغ فراح يشرح كيف أن موكليه أناس طيبون ومهاجرون كادحون ويحتاجون للمنزل لإيواء أقاربهم العجائز، وفى محاولته لحث المحكمة على طردنا سمعته يصف عائلتى بأنهم سكان غير مرغوب فيهم.

وبينما كان محامى الخصم يشن هجومًا تلو الآخر على عائلتنا، أرهف محامينا سمعه، ولكنه لم يرد عليهم أو يقف صارخًا «أعترض،سيدى القاضى» بتلك الطريقة التى كنت أشاهد فيها بيرى ماسون* يفعلها عدة مرات فى البرنامج التليفزيونى الشهير، واكتفى محامينا بهز رأسه وتدوين الملاحظات، بينما محامى الخصوم يصورهم على أنهم الضحايا الحقيقيون -وليس والدى- ذلك المهاجر الذى يبيع ربطات العنق فى محطات قطار الأنفاق، حتى يتمكن من دفع الإيجار، أو أمى القلقة التى كانت تسعى إلى تحقيق قدر بسيط من السلام والرضا فى بلد ينكر عليها الأمرين.

أصدر القاضى قراره فى التو واللحظة، وهو يطلق ابتسامة قلبية نحو محامى المالك، بأن علينا إخلاء المنزل، وكان محامينا مصدومًا لهذا الحكم بنفس الدرجة التى كنا عليها من الصدمة فوضع ذراعه حول أبى مرة أخرى واصطحبه خارج قاعة المحكمة، أما أمى فقد كانت محطمة، أما أنا فقد شعرت كالعادة بالرغبة فى البكاء.

بعد صدور الحكم حاولت أنا ووالدى العثور على شقة جديدة فى المنطقة المجاورة على وجه السرعة، وكنت مرعوبة من أن نصبح بلا مسكن، هل يجب علينا العودة للفندق؟ ترى ماذا حدث لفندق البرودواى سنترال؟

---

* المترجم: بيرى ماسون برنامج تليفزيونى أمريكى عن محام مشهور ومرافعاته فى المحاكم.

قبلنا بأول مكان عثرنا عليه و لم يكن يبعد كثيرًا عن منزلنا الحالى، إذ كان يقع فى الشارع رقم ٦٥ وهو شارع فسيح مكون من أربع حارات ورأى والداى أنه يشبه منزل شارع الملكة نازلى. كان منزلًا مصممًا لإقامة عائلتين وكانت الشقة فى الدور الأرضى ومتسعة بما يسمح لى بأن أحصل على غرفتى الخاصة، كنتيجة لإصرار والدتى على ذلك فى لحظة من لحظات إصرارها النادرة، إذ قالت لأبى «لقد أصبحت لولو سيدة صغيرة الآن».

ولأن حجرتى فى الواجهة فقد كان باستطاعتى أن أستمتع بمتابعة ما يجرى بالشارع، لقد قال لى أبى بنبرة حزن على الماضى «وكأن هذا منزلنا فى القاهرة»، وكان أول ما فعلناه بناءً على إصرار مالكة العقار، هو وضع ستائر لمنع الضوء، كان هذا ما يفعله الناس فى أمريكا حيث توضع شبكة من السلك وستائر معدنية وستائر من القماش ليمنعوا النظر من الخارج إلى الداخل ويمنعوا أنفسهم من النظر للخارج، لم نكن نضع مثل هذه الستائر فى الملكة نازلى، فقد كان هناك الشيش فحسب، وكان من النادر أن نغلقه، أما ستائرنا الجديدة فقد كانت سميكة بيضاء غير شفافة وكنت أسدلها إلى النهاية تمامًا.

فى أول يوم أحد لنا فى المنزل الجديد، ذهبت أنا ووالدى بالتاكسى إلى إيزاك (إسحق) منصور الخباز، جلسنا على الطاولة الخشبية الوحيدة إلى جانب محل المعجنات بينما إيزاك منصور كان قد ذهب بنفسه ليعد لنا وجبة خاصة ليست ضمن قائمة الأصناف التى يقدمها عادة، فأعد لنا طبقًا من الفول المدمس- الذى يعتبر الطبق التقليدى فى مصر، وهو عبارة عن حبات من الفول تنضج على نار هادئة ثم يضاف لها زيت الزيتون وعصير الليمون مع بيضة مسلوقة فى الوسط. اشتركت مع والدى فى طبق كبير بينما صاحب المحل الذى تعود صداقته مع والدى إلى أيام كنا فى القاهرة جلس إلى جوارنا وراحا يتحدثان باللغة العربية و لم يكن لدى أدنى فكرة عما يتحدثان عنه اللهم إلا أنهما كانا فى غاية السعادة، فكان أبى يغمس خبزه فى الصلصة البنية اللذيذة بينما منصور يتابع بتركيز شديد، كل قضمة يأخذها أبى من الطبق الذى أعده لنا بكل الحب، وعندما انتهينا أحضر لنا صينية من الحلويات المتنوعة وبعد أن التهمنا آخر قطعة من الحلوى المغموسة بعسل النحل، طلب لنا منصور «تاكسى» ليأخذنا إلى المنزل.

بدأنا نتنفس بسهولة ونستعيد حياة السلام التى فقدناها - وبالطبع كنت أفتقد صديقتى ستيلا رغم أننا نعيش على بعد مربعين فقط من المبانى، ولكن صداقتنا توقفت بعد انتقالنا، و لم أر أبدًا ذلك الفتى الإيطالى الوسيم الذى رافقنى فى الحفلة.

وكان لبيتنا الجديد مميزاته، فأصحاب المنزل هم أسرة كاجنو وهما زوجان يهوديان متقاعدان من شرق أوروبا.

وقد ضمنا بذلك ألا نهاجم مرة أخرى لمجرد أننا يهود.

وجدنا أنفسنا فجأة نتمتع باتساع المكان، نظرًا لتعدد الغرف مع قلة العدد، وبساطة الأثاث، فأحضرنا طاولة لعب الورق والمقاعد القابلة للطى التى كانت بمثابة غرفة الطعام وستة أسرة معدنية اشتريناها من محلات ماسى ولكننا لم نكن نملك الكثير من النباتات أو الصور.

كان صاحب عقارنا الجديد يحب أن يأتى كل حين ليطمئن على حال الشقة، كانوا ولا شك يتوقعون أن نصبح أصدقاء، بينما نحن كنا نتمنى أن نترك لحالنا. كان هناك سلم يقود مباشرة من شقتهم إلى مطبخنا لم يترددوا فى استخدامه للنزول إلى شقتنا مرات كثيرة، وقد اعتبرنا دقات السيدة كاجنو الملحة أمرًا غير مُريح، ولاحظت أنها دائمًا تختلس النظر إلى الغرف وعلى وجهها علامات عدم الرضا.

كانت تسأل «لم لا نمتلك أريكة؟ أو مائدة طعام؟ أو ستائر؟ أو سجاجيد؟ أو مقاعد؟

و لم يكن أبى يجيبها بل كان يستمر فى ترديد صلواته، كما كانت أمى ترتعد من السيدة «لاكاجنو» –la cagno كما تدعوها أمى بالفرنسية– فكان أمر التعامل معها متروكًا لى. وقد هدانى تفكيرى أن أماطلها، فحدثتها عن أن غرفة نوم ستصل قريبًا وأن أريكة من القطيفة ستصل فى أى يوم، وكدت أصدق قصصى المُختلقة، ولكن القطع الموعودة لم تصل، وراحت مالكة العقار تتأفف مجددًا، ورجوت من والدى أن يأخذنى لشراء بعض الأثاث، فنظر إلى باندهاش فما هى فائدة شراء كل هذا الأثاث فى حين أن عائلتنا المكونة من ستة أفراد لن تتجمع ثانية لنعيش مرة أخرى كأسرة واحدة.

فقد غادر سوزيت وإيزاك ولن يعودا للعيش معنا ثانيةً، والآن صدمنا سيزار عندما أخبرنا بأنه بدأ يبحث لنفسه عن شقة.

ذات يوم وأنا أمشى ببطء مع والدى متجهين إلى شارع ٢٠ حيث كان يبحث لنفسه عن معبد، رأيت مسز كاجنو متجهة نحونا، بجسمها الضخم القصير وبصوت

مرتفع، وهى متقمطة شالًا أسود وتنورة تلمس الأرض قالت «لماذا لا تهتموا أكثر بالشقة» «لماذا تتركونها بغير أثاث». كانت تصيح وهى تشير إلىّ وإلى والدى وهى تقول بصوت مرتفع أيها الناس، وظل والدى صامتًا مستندًا على عصاه واستمر فى سيره. لكنى لم أسكت، فإذا كان الكابتن قد فقد إرادة القتال، فقد اعتملت فى نفسى مشاعر الغضب والغيظ فصحت قائلة «اتركينا لحالنا» «ولتذهبى إلى الجحيم». وبدا أنها للحظة فحسب، قد أخذتها ثورة شديدة من الغضب.

قالت «أيها الناس من الأفضل لكم أن تعيشوا فى خيمة فى الصحراء» وهزت رأسها وأسرعت فى طريقها، ووقفت مع والدى على الناصية دون أن نتبادل كلمة. كنت أرتعش، وانفصلنا فمضى فى طريقه للبحث عن معبد، وكنا قد تصالحنا منذ ليلة الثوب الأحمر وأصبحنا الآن متحدين فى أحزاننا مرة أخرى، وأخيرًا ومنذ أيامنا الأولى فى أمريكا فهمت مغزى الدرس، بأنه يجب ألا أطلع أحدًا أبدًا بأننا جئنا من القاهرة، لقد أصبح واضحًا الآن أن كونك قادمًا من القاهرة يعنى أنك من بلد بدائى، متخلف، غير متحضر.

ولعدة أسابيع بل أشهر أخذت أستعيد المواجهة مع مسز كاجنو، كان يجب علىّ أن أصفها بالكاذبة، وقلت لنفسى كان يجب علىّ أن أقول لها إن أسرتى لم تعش فى خيمة أبدًا، وإنما كنا نعيش فى شقة رائعة تطل على شارع متسع تحفه الأشجار من الجانبين، ويطلق عليه اسم ملكة، وإنه كان لدينا خادمة وبلكونة وقطة لها فروة متعددة الألوان، وكان يجب علىّ أن أخبرها أنى كنت أذهب إلى مدرسة الليسيه الخاصة للبنات، التى تعلمت فيها وأنا لا أزال فى السادسة أكثر من كل ما تعلمته طوال سنوات فى المدرسة الابتدائية الأمريكية. كان يجب أن أقول لها إن سوء الحظ وتقلبات الزمن هى التى وضعتنا تحت رحمة فلاحين من أمثال آل كاجنو فى الشارع الخامس والستين، أما بالنسبة إلى الرجل الطويل الذى كان يقف إلى جوارى فكان يجب أن أخبرها بأنه فى يوم من الأيام كان يلهو مع أمراء ويلعب القمار مع ملك.

والآن لم نعد نعرف أمراء أو ملوك وقد توقف أبى منذ زمن عن لعب القمار وارتياد الكازينوهات، وخلال بضعة أسابيع تركنا شقتنا وانتقلنا لشقة جديدة فى نهاية المربع.

الفصل الحادى والعشرون

منزل التضرعات

على حين غرة، عاودتنى حمى خدش القطة.

كانت الأعراض هى نفس الأعراض التى أصابتنى قبل ذلك بعشر سنوات، حمى خفيفة تكاد تكون غير محسوسة تجىء وتذهب، عرق بالليل وشعور بالكسل يجعلنى أجد صعوبة فى حضور الدروس أو المشاركة فى الأنشطة الكثيرة التى تحتم على طالبة فى المدرسة الثانوية العليا أن تشارك فيها، كما كان من الصعب علىّ النوم ليلًا مهما كانت درجة الإرهاق التى أشعر بها. كنت لا أزال فى السادسة عشرة من عمرى وكان ذلك فى شتاء عام ١٩٧٣، لكننى كنت أشعر بالإجهاد وكأنى فى الستين، أو كما تخيلت تلك الحال التى يكون عليها شخص فى سن الستين، والأغرب من ذلك كله كان الورم فوق فخذى اليسرى الذى عاود الظهور، فها هو النتوء الصغير الغريب الذى لاحظته أول مرة عندما كنت طفلة صغيرة فى مصر، وقد أصبح الآن أكبر وأصلب قليلًا.

«فحاولت» ألا أنظر إليه عن قرب.

كان التغيير الجيد الوحيد هو فقدان الوزن، إذ إننى بالصعود على الميزان كل صباح لاحظت أننى أفقد عدة أرطال، مما أتاح لى أخيرًا أن أكون فى مثل قوام الفتيات الأمريكيات اللاتى كنت أعجب بقوامهن الممشوق ووسطهن الصغير وبنطلونات الجينز الملتصقة بأجسادهن وهن يتجولن بحيوية خلال ممرات «نيو أوترخت»– مدرسة

بروكلين الثانوية التى كنت أدرس بها، لقد كنت مستعدة لمقايضة كل انحناءات جسمى الموروثة من المشرق العربى مقابل أجسام زميلاتى النحيلة المتناسقة.

لم أجرؤ فى أول الأمر على إطلاع أحد على ما أشعر به، وكنت بالطبع أتصور أن هذا الورم سوف يختفى وأن الحمى ستزول.

عندما لاحظت أمى معاناتى وأنا أحاول ارتداء حذائى الجديد، تساءلت – «لولو ماذا بك؟» كنت أرتدى ملابسى لحضور حفل زفاف صديقتى سيليا، ولكن لم يكن لدى القدرة على ارتداء الفستان الذى يصل طوله إلى الأرض، والذى اشتريته خصيصًا لهذه المناسبة، وكان أول فستان سهرة أقتنيه، وكان يتدلى فضفاضًا من حولى. كان حذائى ضيقًا بشدة فظهرت قدمى وكعبى منتفخين، وعندما حاولت السير آلمنى أن أخطو بضع خطوات

هل سأستطيع الرقص الليلة؟

قالت أمى برباطة جأش وهى تمرر أصابعها برقة فوق كعبى يجب عليك أن تذهبى إلى الطبيب، ثم سألتنى منذ «متى وهو متورم؟»، هززت كتفى بأسى منذ «أسبوعين وربما شهرين».

قطبت أمى حاجبيها واتجهت إلى أبى الذى كان يجلس فى غرفة المعيشة غارقا كالعادة فى كتاب الصلوات بينما قطى «بوسبوس جوان» البرتقالى السمين متكور فى حجره. لم يرفع أبى بصره عندما خاطبته أمى بل استمر يقرأ فى صمت من كتاب الصلوات المهلهل الممزق ذى الغطاء الأحمر، الذى كان واحدا من عشرات الكتب التى يبقيها إلى جواره مكومة فوق طاولة صغيرة مستديرة مع باقى حياته المفقودة.

حدقت أمى فى القط الذى راح ينظر إليها بوداعة فقالت أمى «لولو المسكينة» مريضة هل يمكن أن تكون حمى خدش القط؟

لم أستطع أن أصدق أننى عدت ثانية لأكون «لولو المسكينة» أو أننا نتحدث عن مرض لم يعد يذكر منذ سنوات. كانت أمى بالطبع تحاول أن تعبر عما كنت أخشاه فى قرارة نفسى.

راحت تصف بعض الأعراض لوالدى وهى تدفع القط المباغت بحذائها بعيدًا فصرخ بوسبوس وهو ينطلق خارج الغرفة. و لم نكن قد استشرنا طبيبا بعد ولكن أمى كانت تخمن أن هذا الكائن المسكين هو المسئول عن مرضى.

أما والدى الذى استمع دون أن يسأل سؤالًا واحدًا، فقد قال يجب أن تأخذيها إلى ميمونيدس* –مستشفانا المحلى وليس ضريحة فى القاهرة– وراح يستأنف أدعيته كان هناك دائمًا وقت للصلاة فى نيويورك رغم قلة عدد المصلين إذ نادرا ما كانوا ينجحون فى تجميع عشرة رجال أو الحد الأدنى لإتمام الصلاة بصورة سليمة وبعد أن كان المصلون من قبل يمثلون تجمعًا كبيرًا أصبح الآن متناثرًا.

كنا لا نزال نعيش فى الشقة ذات الغرفتين بعد المشكلة التى عانيناها مع آل كاجنو. لم يعُد لى غرفة خاصة، وكنت أنام على سرير فى ركن من غرفة المعيشة. كان قد مضى على بقائنا فى أمريكا عشر سنوات، ولكن بعد أن رحلت سوزيت إلى لوس أنجلوس وذهاب إيزاك وسيزار إلى مانهاتن أخذ والداى يتساءلان عما حققناه بعد كل هذه السنوات.

أصبح والدى أكثر ضعفًا بعد أن تعدى السبعين، فكان يحاول الذهاب للصلاة مرة أو مرتين فى الأسبوع كما كانت عادته، لكن العثور على عدد كاف من المصلين فى السادسة أو السابعة صباحًا فى تلك المنطقة المهجورة أصبح مستحيلًا، وهكذا كان أبى يتجول ويتجول فى شوارع بنسون هيرست باحثًا عن معبد لايزال قائمًا ليستطيع الصلاة فيه مع الرجال العجائز الباقين فى هذا الحى بعد رحيل ذويهم إلى أماكن أخرى.

كنت أراقبه وهو يحاول عبور شارع رقم ٢٠، فأرى هيكلا منحنيا يعرج بشكل واضح ويتألم مع كل خطوة. كان يمشى متوكئا على عصاه التى كان يرفعها فى الهواء بصورة تهديدية فيشوح بها كسلاح فى وجه السيارات التى كانت تمرق إلى جواره. كنت أحبس أنفاسى خوفا من أن يصاب أو يُدَهس وهو يصارع حركة المرور الصباحية، فتضطر الشاحنات والعجلات النارية إلى التوقف الفجائى فتصرخ إطاراتها فى الأرض لتسمح له بالمرور، وقد كانت معجزة إنه لم يُدهس، وكأنه يرتدى طاقية الإخفاء التى وفرت له الحماية فى وجه جميع المخاطر، و لم أكن أتابع سيرى إلا بعد أن أتأكد أنه نجح فى عبور الطريق بأمان وتظل عيناى تراقبه حتى يدور حول الناصية مختفيًا.

فى تلك الليلة الباردة من شهر فبراير عندما كنت أنا وأمى فى طريقنا إلى حفل زفاف سيليا جاء دورى أنا لأجد صعوبة فى المشى، وكانت ذراعى مستندة إلى ذراع

* المترجم: ميمونيدس – هو ابن ميمون وكان طبيب وصديق صلاح الدين الأيوبى ودخل معه إلى القدس وكان صلاح الدين قد سمح لليهود بالعودة للقدس – أما ابن ميمون الذى تسميه اليهود ميمونيدس فكان إلى جانب الطب فيلسوفًا ومُنظرًا يهوديًا.

أمي ونحن نسير بسرعة للوصول إلى كوتيليون تراس قاعة الأفراح المزينة حيث سيتم عقد مراسم الزواج هناك، وكانت أمي فى غاية القلق بسبب الحالة التى كان عليها كعبى، و لم أكن راغبة فى إزعاجها فلم أبح لها بأننى أتألم فى كل خطوة.

تقع قاعة كوتيليون تراس فى شارع ١٨، ولكى نذهب إلى هناك كان علينا أولًا أن نقطع شارع ٦٥ مرورًا أمام قاعة أفراح لابيرفيل la perville الأقل فخامة، ورغم صغرها فقد كانت أكثر بهجة، وكانت تخدم المسيحيين واليهود - والأمريكيين من أصل إيطالى الذين يقطنون المبانى المجاورة وكذلك اليهود الأصوليين «حاسيد» فى منطقة بورا بارك القريبة، وفى بعض الليالى كنت ألمح رجالًا فى معاطف سوداء وقبعات فرو أو القلنسوة اليهودية، وأحيانًا أخرى كنت أرى قساوسة يتجولون بين المدعوين من النساء ذوات الشعر المنفوش والأحذية عالية الكعب.

كانت أمى تحب الوقوف جانبا لتحملق فى العرائس وهن يدخلن قاعة لابيرفيل بأثواب الزفاف البيضاء الرقيقة، وتجهد نفسها كى تختلس النظر إلى الداخل، حيث يتجمع المدعوون فى صالة رائعة الزينة، وهم يرتشفون الشامبانيا من كؤوس طويلة الرقبة ويتناولون المشهيات التى يقدمها سقاة مهندمون، يتحركون فى سرعة كأنهم ينزلقون على الأرضية المفروشة بالسجاد وكانت هناك دائمًا جوقة استقبال على طول المدخل تحيى المدعوين عند دخولهم وهى تعزف ألحانًا من كابرى القديمة أو لحنًا من زمن ما قبل الحرب من مدينة فيلنا* velna.

وبينما الفرقة الموسيقية كانت تعزف أمام نافورة داخلية دافقة، كانت أمى تحملق فيهم بشدة. كانت أمى -المرأة النحيلة ذات المعطف الصوفى الأزرق الذى يبدو واسعا عليها بدرجة كبيرة- تحلم بيوم زواج سوزيت وأنا، ولسوف نختار يومها قاعة لابيرفيل وعندئذ ستكون أمى فى الداخل.

فى تلك الليلة الباردة كنت أنا من يريد أن يجد عذرًا لعدم الذهاب، وكنت سأمتن لأى سبب يمنحنى بعض الراحة وتمنيت لو أن حبى للتفاخر لم يدفعنى لارتداء الحذاء ذى الكعب العالى. كانت هناك طبقة رقيقة من الثلوج تغطى شارع ١٨ مما جعل المشى أكثر صعوبة بالنسبة لى، وكم كنا سعداء عندما وصلنا وسرنا داخل قاعة كوتيليون

---

* مدينة بولندية كان غالبية سكانها من اليهود حتى بداية الحرب العالمية الثانية (المراجع).

الكبيرة وهى بناية مزخرفة كانت من قبل قاعة للسينما، وكانت أرضيتها مزينة بسجاجيد حمراء سميكة وبها سلالم عالية ونجف من الكريستال ومرايا كثيرة.

كان حفل الزفاف فى أوجه، وكاد قلبى أن يتوقف عندما توجهنا إلى الجانب المخصص للسيدات فى قاعة الاحتفال الكبرى، إذ كان مقررا فصل الرجال عن النساء، بحيث يجلس كل جنس على حدة ويرقص أيضًا وحده لذا لن يكون هناك شىء من الرقص البطىء الرومانسى مع الفتيان كما تخيلت وتمنيت فى هذه الليلة الأولى لثوب السهرة الذى ارتديته لأول مرة.

أخذت الصديقات يلوحن لى لأنضم إليهن فى رقصة الهورا* hora، ولكنى شعرت بالتعب بعد عدة خطوات فعدت إلى مائدتى.

كانت الليلة لا تزال فى بدايتها بينما أنا قد نفدت طاقتى.

لاحظت أمى أننى أجلس وحيدة، فقالت لى لماذا لا ترقصين؟ فأشرت إلى طبقى الملىء بالطعام وتظاهرت بأننى فى استراحة لتذوق الطعام اللذيذ، فى حين كنت أرغب فى الاكتفاء بساعة أخرى أو ساعتين فقط من حفل زفاف سيليا.

بعد عدة أيام ذهبت مع أمى إلى مستشفى ميمونيدس، و لم يكن هناك أى أمل فى حدوث معجزة داخل هذا المستشفى المكون من مجموعة متناثرة من العيادات وغرف الطوارئ المنتشرة بصورة فوضوية، وهو مستشفى مختص بتقديم العناية للفقراء المعدمين، الذين لا يمكنهم تحمل أتعاب طبيب خاص، فكان يتوجب الانتظار لمدة طويلة ثم ينتهى بك الأمر إلى طبيب أو طبيبة تحت التمرين، وغالبًا ما يكون أجنبيًا، ممن لم يتلقوا تعليمًا جيدًا، وبالكاد يستطيع التحدث بالإنجليزية.

كان الطبيب المقيم شابا هنديا ورغم أنه لاحظ حيرتى واندهاشى لتورم كعبى، فإنه لم يعر الأمر اهتمامًا كبيرًا، فأمر بإجراء سلسلة من تحاليل الدم، وعندما عدنا لتسلم نتيجة التحاليل بعد عدة أيام هز كتفيه وقال لا يبدو أن هناك شيئا غير عادى.

كانت حالتى تتدهور من سيئ إلى أسوأ فأصبحت أجد مشقة لمجرد الاستيقاظ للذهاب إلى المدرسة، فكان من الضرورى الذهاب مرة أخرى إلى ميمونيدس، و لم يكن

---

* رقصة جماعية من شرق أوروبا قريبة لرقصة الدبكة.

الانتظار طويلًا هذه المرة التى لم يفحصنى فيها طبيب أجنبى ولكن فحصتنى ممرضة أمريكية فى زى رسمى رائع وبأسلوب واثق.

أمرتنى أن أخلع جواربى لتفحص كعبى، ثم طلبت منى خلع سروالى لتستطيع فحص المكان بصورة أدق، وطلبت حضور ممرضة أخرى زميلة لها للتشاور فى الأمر، وبدا عليهما الاستغراب بأن التورم لم يكن فقط فى الكعب ولكن فى كل ساقى، لقد سمعتها وهى تشهق عندما لاحظت الورم الغريب فوق فخذى، الذى كنت قد أهملت أن أطلع أحدًا عليه حتى أمى.

أرادت الممرضة أن تعرف فسألت «منذ متى لاحظت هذا الورم؟ وهززت كتفى فقد كنت متعبة لا أستطيع أن أكرر لها قصتى مع حمى خدش القطة. سألت الممرضة لماذا لم تذهبى لطبيب؟»، وحاولت أن أشرح لها ذلك أيضًا وكيف أنه من الصعب أن نعثر على طبيب ماهر فى نيويورك على العكس من القاهرة، وهنا توقفت عن الإنصات لى.

استدعت أمى من منطقة الانتظار وأخبرتها بأنها سترتب لى رؤية طبيب أخصائى، فورًا وكررتها فورًا.

كان الجراح رشيقًا وأنيقًا فى منتصف العمر اسمه دكتور رايش، قابلنى فى غرفة الفحص فى الدور العلوى، وهو يرتدى بدلة ثمينة وربطة عنق من الحرير البراق، ويعطى انطباعًا بالطبيب الطيب، وقد فحصنى بحرص وعناية لأول مرة فى حياتى منذ سنوات، وكان يمازحنى طوال الوقت بينما ابتسامة واثقة ترتسم على وجهه، ولكنه توقف عن الابتسام عندما راح يفحص المنطقة العليا من فخذى، فاستدعى أمى وبدأ يتحدث معها وكأننى غير موجودة بالغرفة.

قال لها: «إن ابنتك مريضة للغاية» قالها بكل برود «يجب أن نحتجزها فى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات».

كان اليوم هو الخميس، وقد كان احتمال بقائى فى المستشفى بعيدًا عن والدىّ طوال عطلة الأسبوع أمرًا لا يحتمل فحاولت أن أرجوه تأجيل الأمر.

وافق على مضض ولكن بعد أن أقسمت والدتى له أننا سنعود يوم الأحد. تخلى والدى عن مقعده بعد ظهر يوم الأحد وترك كتب الأدعية وراح يذرع شقتنا الصغيرة جيئة وذهابًا بينما أمى قامت بمساعدتى فى تعبئة حقيبتى الصغيرة الجميلة التى لا تشبه من قريب أو بعيد الحقائب البنية المتراكمة فى البدروم.

كانت هذه الحقيبة من ممتلكاتى العزيزة على نفسى، والأولى التى تملكتها، فعلى الرغم من الست وعشرين حقيبة، لم يشعر أحد بأن من حقى أن تكون لى حقيبة خاصة. كانت سوزيت قد أهدتنى إياها منذ بضع سنوات، وقد نظرتِ إلىّ فى حينها بينما بريق يتجلى فى عينيها بعد أن جعلتنى أعدها بأن أستخدم هذه الحقيبة فى رحلة كبيرة إلى أماكن باهرة، وتركت لى داخل الحقيبة كتيبًا تعليميًا صغيرًا، لونه وردى وأبيض بعنوان «لقد أصبحت امرأة الآن» به صورة لفتاة صغيرة جميلة على الغلاف، ويحوى التعريف الأولى بحقائق الحياة، ولكن على الرغم من حساسية أمى الفائقة واحتشامها الشديد فيما يتعلق بالأمور الجنسية، فإنه لم يكن يحوى أمورا لم أكن أعلمها، وبعد أن انتهيت من إعداد حقيبتى تذكرت ذلك الكتاب وصورة الفتاة الصغيرة التى يكسوها الأمل «لقد أصبحت امرأة الآن» وتساءلت ماذا ألم بها الآن؟

لم يكن فى بروكلين «تاكسى» يمكنك إيقافه فى الشارع، فكان علينا الاتصال بإحدى شركات السيارات الخاصة لتحملنا إلى المستشفى. ركبت مع والدى فى المقعد الخلفى، حيث إنه لم يكن يستطيع ثنى رجله ويحتاج لمساحة لبسطها، وركبت أمى فى المقعد الأمامى بجانب السائق و لم نتكلم كثيرًا، وفى مستشفى ميمونيدس وجهونا إلى قسم الأطفال وكان قائما فى مبنى دائرى بلون أصفر مبهج مزين بدمى الحيوانات ولعب الأطفال، وزهور كثيرة.

قلت: ماذا أفعل فى قسم الأطفال ألست أنا الآن امرأة؟

ردت الممرضة وهى ترافقنى إلى حجرتى: «صغيرتى صدقينى لن يسرك أن تكونى مع المرضى البالغين» وأشارت إلى سريرى بجوار الشباك، وبعد أن ساعدتنى فى إفراغ حقيبتى التفتت إلى والدىّ وقالت ببرود: عليكم المغادرة الآن.

كان أبى يجلس فى المقعد المجاور لسريرى، وقد أخرج كتاب الصلوات الأحمر البالى الذى كان يحتفظ به فى جيبه طوال الوقت، وكان مستغرقًا فى الصلاة، فلم يفكر حتى فى مناقشة الممرضة وإن رد فى أدب بالفرنسية «شكرًا آنستى» ورفع لها قبعته، ووقف متألمًا وسار وراء أمى ببضع خطوات، وبينما هما فى انتظار المصعد كان يتكئ بقوة على عصاه.

كان المنظر من خلال نافذة المستشفى قفرًا وموحشًا، فكنت أرى أشباح الأشجار على صفحة السماء وتظهر قضبان القطار رقم E1 كنقطة بعيدة، وكنت أتمنى لو أن

أمى استطاعت البقاء بجوارى كما حدث فى الليلة التى قضيناها معًا فى بيت ميمونيدس (موسى بن ميمون) الحقيقى معبد المعجزات الكبرى فى القاهرة وليس هذا المكان المصطنع الذى يحمل اسمه، فى هذه الليلة أكدت لى أمى أن أبى سيظل ساهرًا طوال الليل يصلى من أجلى، وتحت وسادة السرير كنت أشعر بالهدية التى تركها وراءه، كتاب الصلوات البالى الذى أحضرة من القاهرة.

لم تكن حمى خدش القطة

بعد أسبوع من إخضاعى لكل ما يمكن تخيله من فحوصات، كان الأطباء فى مستشفى ميمونيدس محتارين مثل أطباء القاهرة منذ عشر سنوات خلت، فقرروا إجراء عملية صغيرة لأخذ قطاع من الورم لتحليله، وهى العملية التى يطلقون عليها «بايوبسى biopsy».

وفى صباح اليوم المقرر لإجراء العملية قام أبى بإجراء عملية من نوع آخر، فطلب سيارة حملته إلى «أوشن بارك واى» ocean park way حيث يوجد المقر الجديد لتجمع الحب والصداقة، فأقام صلاة ابتهال وتضرع فى نفس الوقت المحدد لإجراء العملية، وقد أثلج صدره وجود عشرين رجلًا فى تلك الساعة من الصباح، وهو أكثر مما يحتاجه النصاب لإقامة الصلاة.

ورغم كل ذلك فقد كانت نتيجة الاختبار قاسية، فقد أصبت بمرض آخر غامض يعرف باسم «داء هودجكين» hodgkin's disese، وسألت وأنا مرتبكة تماما «هودجكين» لم أسمع بهذا المرض من قبل و لم ينطق أحد بكلمة «سرطان» فى حين أنه هو نفسه «داء هودجكين».

فى المنزل انهارت أمى تمامًا أمام عينىّ وراحت تكتب خطابات مفجعة إلى سوزيت فى كاليفورنيا تستغيث بها لتعود إلى المنزل وفورًا كى تساعدها على مواجهة هذه المحنة، و لم يفعل أبى أى شىء سوى الدعاء طوال النهار وحتى ساعات متأخرة من الليل فأصبحت شقتنا بمثابة بيت عبادة خاص به وأنا راقدة على سريرى أحملق فى السقف، وأنظر إلى ساقى ولا أعرف ماذا أفعل.

كانت أختى على الجانب الآخر فى حركة عاصفة، فقد كانت على اتصال دائم معنا من لوس آنجلوس إلا أن الغموض كان يكتنف ما تقوم به، وكل ما عرفته أنها

كانت تتصل فى أى لحظة من النهار أو الليل قائلة، إننى يجب ألا أنصت أو أصدق أحدا، وكانت مصرة وبكل ثقة بأننى لست مصابة بداء هودجكين، بل مصابة بفيروس، وراحت تؤكد أن الأطباء على خطأ، والمستشفى على خطأ وأن الاختبارات خاطئة وحتى نتائج فحص العينة (بايوبس) خطأ، ووالداى أيضًا على خطأ وكل من حولى مخطئون ويجب ألا أثق فيهم.

أخذت أختى تحثنى على أن أغادر لتوى إلى كاليفورنيا، وأقسمت أن تعرضنى هناك على أحسن الأطباء، وقالت بازدراء، إن نيويورك شبيهة بالقاهرة فى طريقة العلاج، أما فى كاليفورنيا فهناك ستانفورد فى بالوآلتو palo alto ومايو كلينك فى مانيسوتا، وأن هذه هى الأماكن التى ينبغى الذهاب إليها للعلاج الصحيح، وقالت لى محذرة أنه يجب ألا أترك نفسى فى أيدى جزار فى مستشفى فى بروكلين يطلقون عليه اسم رجل دين يهودى صوفى راحل (تقصد ابن ميمون).

كنت لا أستطيع السير للذهاب إلى المخبز على ناصية الطريق فكيف لى بالذهاب إلى ستانفورد، كادت تلك المناقشات الحادة أن تصيب أمى بالجنون، فكتبت لها هذا الخطاب.

١٠ مايو سنة ١٩٧٣ نيويورك

عزيزتى سوزيت

أرجوك أن تتوقفى عن هذه الأوهام حول الذهاب إلى ستانفورد للعلاج، إن التأمين الصحى الوحيد الذى تتمتع به لولو على ما تذكرين هو بطاقة الرعاية الطبية «الميدى كير» الذى استطاع والدك أن يؤمنه لها، وإذا استمر الحال على هذا النحو دون أن نحسم أمرنا حول مكان علاجها فإننا بالتأكيد سنفقدها.

أمك

أحيانًا كانت أختى تقدم نصيحة معقولة فقد طلبت منا التخلص من القط، وبالفعل لقد أبعد القط جوان بوسبوس على الفور من المنزل، ولأيام وأسابيع تلت ذلك كان يحاول العودة بالمواء عند شباك الدور الأول، مطالبًا بإلحاح للسماح له بالدخول، وكنت أراه يتجول فى الحى وأتساءل، ترى كيف يعيش هذا القط المدلل الذى اعتاد على أن يطعمه والدى بيديه قطعا من الجبن، والآن فإنه ينبش الأماكن بحثًا عن عشائه، لقد كان ضائعًا تمامًا كما شعرت أنا الأخرى.

كانت أمى قوية العزيمة فلم تسمح له أبدًا بالدخول إلى المنزل ثانية، وقد كان آخر قط أقتنيه.

استطاعت أسرتى العثور على طبيب متخصص فى مرض هودجكين، اسمه الدكتور لى «lee» وكان يعمل فى مانهاتن، وهو مكان غريب علىّ تمامًا، وكنت وأصدقائى نطلق عليها «المدينة» وكان د. لى يعمل فى مستشفى يدعى المستشفى (التذكارى)، وكان يمثل مركزًا هامًا لعلاج السرطان فى ذلك الوقت، ولكن بعد المبانى الجديدة والتحديثات التى قام بها، أراد المستشفى أن يعرف بالاسم الرنان ذى الوقع الطبى «سلون كايترنج sloan-kettering» الذى كان يفخر بريادة ورفعة معامله وعلمائه الباحثين، وفوق ذلك كله الدور الإنسانى لأطبائه وأخصائييه.

ذات صباح استقللت مع والدىّ سيارة خاصة للذهاب إلى الجانب الشرقى من مانهاتن، وكنا قد توقفنا تقريبًا عن استعمال قطار الأنفاق، فلم يكن والداى يسمحان لى بالمشى إلى أى مكان، وكنت قلقة من أن تضيع كل مدخراتهم على عربات الأجرة من وإلى عيادات الأطباء.

ورغم اعتيادى على الأطباء من ذوى الأسماء العرقية «ethnic» (الإثنية) وغالبًا ما كانوا أطباء يهودًا، فلم أستطع معرفة جنسية د. لى مما زاد من قلقى، ولكنى قررت أن دكتور لى لابد أن يكون صينيًا، وعندما عبرنا الجسر إلى مانهاتن، بدأت التحدث مع السائق بود.

قال لى أبى فى نبرة موبخة بالفرنسية «لولو لا تتحدثى أبدًا مع السائق»، وتعجبت كيف يستطيع حتى فى ظل هذه الظروف البائسة أن يحتفظ بتلك الأحاسيس الطبقية، لدرجة أنه يوبخ ابنته فيطلب منها عدم التحدث مع السائق.

إلى أى طبقة ننتمى نحن؟؟

طبقا لتقييم والدى فقد كنا لا نزال ننتمى إلى الطبقة الراقية، أى الأرستقراطية الحاكمة، فهو القائد، وأنا برنسيسته المصرية، على الرغم من أن كل عظمة حياتنا السابقة كانت قد ولت، بفرض أننا اقتربنا فيها من حياة الملوك، لكنه فى هذه الأيام لم يكن هذا القرب ليزيد على الشارع المسمى بطريق الملوك (kings high way) وهو منطقة التسوق القريبة من أوشن بارك واى حيث يوجد منصور والبقالون الشرقيون الآخرون.

أوصلنا السائق إلى العنوان الخطأ «حارة بيدبان» bedpan alley كما يسمى ذلك الجزء من شرق مانهاتن، وكانت كخلية نحل من المعاهد الطبية ومعامل الأبحاث والعيادات ومدارس الطب، ورحنا نتجول تائهين ومرتبكين وبعد الانتقال من مبنى إلى آخر وفقنا أخيرًا إلى صالة الانتظار بمستشفى الميموريال.

كنا مبكرين وكان والداى يريدان أن أتناول طعام الغداء، فمنذ أن أدركا أننى أفقد الوزن، أصبحا حريصين على مراقبة غذائى، وبالأخص أمى التى كانت تجبرنى على تناول أطباق متخمة بالطعام.

دكتور بيرتون لى الثالث
الطبيب المعالج للولو

كانت الكافتيريا فى مستشفى الميموريال صغيرة، ولا تزيد على طاولة لالتقاط الأطعمة الجاهزة ومن بين الخيارات الضئيلة كانت شوربة الخضار، وقد وافقت على عرض والدىّ بشراء سلطانية صغيرة لى، وبينما أنا أقلب الحساء بالملعقة لاحظت وجود قطع صغيرة من اللحم بين الخضراوات.

عرفت على الفور أننى لا أستطيع تناول هذا الطبق.

صرخت «هذا ليس كوشر»* وأشرت إلى قطع اللحم المحرمة علينا، وكنت متأكدة أن والدى سيكون منزعجًا مثلى فأنا أذكر كيف ثار على إخوتى عندما لم يلتزموا بقواعد الطعام اليهودية، بعد قليل من وصولنا إلى نيويورك، وفى كل تلك السنوات التى عرف فيها أبى، فى سنوات العز والرفاهية وسنوات المعاناة والمنفى والهروب، وسنوات العوز المالى وبيع ربطات العنق فى الشوارع لم ألحظ على أبى أبدًا أنه تسامح أو تحايل لتجنب اتباع قواعد الدين التى كانت البؤرة المركزية فى حياته.

ولكنه قال لى «لولو كلى» لقد قالها بمنتهى البساطة أرجوك كلى.

وعاد إلى استخدام نغمة الصوت الرزينة الهادئة التى كان يستخدمها فقط عندما يريد إبلاغنا أمرًا على درجة عالية من الأهمية، وفى حين رحت أبعد الحساء عنى رفعه هو مرة أخرى أمامى وأشار بما يفيد موافقته لى على تناوله.

وأخذت رشفة من الحساء وشعرت بالحزن العميق، فقد أدركت حينها فقط أننى لابد أن أكون جد مريضة، أخيرًا جاء موعد مقابلة الطبيب عندما هتفت ممرضة الاستقبال باسمى، فأخذونى إلى غرفة فحص صغيرة وطلبوا منى أن أجلس فوق الطاولة، و لم يكن حتى مطلوبًا منى تغيير ملابسى.

انفتح الباب، بعد بضع دقائق ودخل رجل طويل يرتدى بنطلونًا رماديًا غامقًا وقميصًا من القطن الأزرق وقد شمر عن أكمامه و لم يكن يشبه الطبيب بأى شكل، فلم يكن يرتدى المعطف الأبيض و لم يكن يحمل سماعة الكشف و لم يكن صينيًا، وعندما مد يده لمصافحتى قدم نفسه لى على أنه «بيرت لى». «burt lee».

كان دكتور لى مقلًا فى كلامه مما زاد من ارتباكى، لقد بدا عليه البرود وكان مخيفًا بعض الشىء فلم يكن هناك أىّ من المجاملات، التى عادة ما يمارسها الطبيب ولا حتى

* المترجم: كوشر تعنى حلال باللغة العبرية.

الابتسامة التقليدية. لم يهمنى ذلك كثيرًا فلم أكن أنا نفسى مستعدة للابتسام، ولاحظت أنه يتفحصنى بدقة كبيرة من شعرى إلى وجهى إلى ملابسى، فقد كنت أبدو فى حالة مزرية فى بنطلونى الواسع وقميصى الأزرق الباهت الذى أصبح شبه زى رسمى، ولكن من الذى يهمه أن يتبرج لمقابلة الطبيب؟

وإذا كان هذا الطبيب قد امتنع عن تقديم المجاملات المعتادة فإنه قد وفر علىّ أيضًا سلسلة الأسئلة التى لا تنتهى، فقد اعتاد الأطباء فى محاولاتهم لتشخيص حالتى أن يمطرونى بوابل من الأسئلة الافتتاحية المرهقة، أما دكتور لى فلم يسأل هل فقدت وزنك؟ أو هل عندك مشكلة فى النوم؟ هل تشعرين بالتعب والإرهاق؟ أو هل لاحظت تغييرات مقلقة فى جسدك؟

لا شىء من ذلك كله فقد كان واضحًا عليه أنه قد عرف بنظرة واحدة أن الإجابة عن كل هذه الأسئلة هى «نعم».

بينما هو كان يفحصنى بسرعة وبأيد ثابتة وواثقة عوضًا عن ذلك.

سألنى عن أشياء لم يسبق لطبيب آخر أن سأل عنها، فكان يريد أن يعرف ما أكثر الأشياء التى أحبها فى المدرسة وما إذا كان لى أى هوايات؟، وهل كنت أخطط للذهاب إلى الجامعة؟ وأى الكتاب و الكتب أفضل؟ وكدت أضحك عندما تحدث عن التحاقه بجامعة يال فى الخمسينيات ثم ذهابه إلى فاسار حيث كان مسموحا له بمواعدة النساء. لم يكن عندى سوى سؤال واحد تهمنى معرفة إجابته: هل أنا مصابة «بداء هودجكين»؟.

أجابنى «ربما» قالها بكل بساطة وكأننى سألته هل أنا مصابة بنزلة برد؟

عدنا لزيارة الطبيب بعد عدة أيام، وبينما أنا فى غرفة الانتظار تحدث هو مع والدى فى الغرفة المجاورة، وبعد دقائق قليلة سمعت ما يشبه العراك، ففتحت الباب قليلًا.

رأيت والدى والدموع تنهمر على وجهه وهو يستجدى دكتور لى قائلًا «أرجوك يا دكتور» وظل يردد هذا التعبير «أرجوك يا سيدى»، وكانت هذه أول مرة أرى فيها والدى يبكى، كان اليأس والانكسار باديين عليه و لم أكن قد تعودت رؤيته يائسا أو منكسرا.

لكن ما الذى يستجديه؟ لم أعرف ماذا يجرى، اللهم إلا أن الرجل القوى فى قميصه ذى الأكمام «المشمرة» كان يبدو عليه الغضب، فهذا الـ «بيرتون جيمس لى

الثالث» خريج جامعة ييل من بارك أفنيو وجرينتش» بدا عليه الضيق من تصرفات أبى ذلك الرجل العجوز فى معطفه البالى وقبعته الخوص.

«هذا لن يجدى يا سيدى» قالها الدكتور لى لوالدى بلهجة أرستقراطية، ثم وجه والدىّ إلى منطقة الاستقبال.

وجاء دكتور لى لرؤيتى فى غرفة الفحص ودون مقدمات بدأ يشرح لى طبيعة الاختبار الذى سيطلب إجراءه، ولاحظت أنه يستخدم نفس نبرة الصوت المحايدة التى كان والدى يستخدمها عندما يتحدث عن أمر جلل، ولكن نبرة صوته تغيرت فقط عندما مال علىّ لينصحنى قائلًا بلغته الإنجليزية الراقية وضاغطًا على كل كلمة «لا تستمعى لرأى والدك». وهكذا كنت أتصارع مع مخاوفى من المرض والآلام التى قد يسببها العلاج. وما إذا كنت سأستجيب للعلاج وأعود مرة أخرى كما كنت من قبل، رحت أتعجب كم هو غريب ذلك الطبيب الذى لا يشبه أى طبيب آخر رأيته من قبل، وتساءلت ما الذى يريد أن يخبرنى به؟

لماذا يريد منى ألا أستمع لرأى والدى؟ لماذا لم يطلب نفس الشىء بالنسبة لأمى التى كانت دائمًا ما تتوقع الأسوأ؟ أو سوزيت التى ظلت تؤكد أنى لم أكن مريضة أبدًا؟

وبدأت بالتردد على مستشفى ميموريال كل يوم لإجراء العديد من الاختبارات، كانت هناك عدة جلسات بأشعة (x) كنت أخلع ملابسى وأرتدى مريلة الكشف ثم يعجلون بى فى غرف باردة مظلمة، تتوسطها ماكينات معدنية ضخمة لم يسبق لى رؤية مثلها، وقد خضعت لاختبارات تستغرق دقائق وأخرى احتاجت لساعات أصابتنى بالإعياء، وحينما ذهبت كان علىّ التعريف عن نفسى «مريضة عيادة»*، وكان علىّ أن أحمل بطاقة هوية للتعريف بى بتلك الصفة.

ولقد عرفت من البداية أن هناك نوعين من المرضى فى مستشفى ميموريال وهما مريض خاص ومريض عيادة، أى مريض غنى ومريض فقير، والمريض الخاص له كارت بلاستيكى مخصوص، يضمن له التمتع بكل أنواع الخدمات، وأكثرها أهمية هو أن يكون له طبيبه الخاص، أما مرضى العيادة (clinic) فمعظمهم يشملهم برنامج حكومى للعلاج اسمه ميديكيد medicaid ويتم تخصيص طبيب أخصائى للإشراف على

* المترجم: المقصود هنا بـ(clinic patient) أنها مريضة عيادة خارجية أى أنها ليست نزيلة فى المستشفى وأحيانًا يطلق هذا التعبير على المرضى الذين يستخدمون لشرح الدروس لطلبة الطب.

علاجهم ولكنهم يكونون غالبًا تحت رحمة أى طبيب صغير يمكنه متابعة حالتهم عندما يأتون للكشف.

لاحظت أيضًا أن هناك تفرقة طبقية بين المرضى فيما يتعلق بفحوصات الدم، فى كل يوم كان المفترض أن تفحص عينة الدم لعد الكرات البيضاء والحمراء، وفيما يتصل بمريض العيادة (مثلى) كنت أوجه لمعمل الدم فى الدور الثانى، وكانوا هناك يصممون على سحب أنبوبة دم كاملة من ذراعى، أما المرضى الخصوصيون فكانت تؤخذ منهم قطرات قليلة، عن طريق شكة بسيطة فى الإصبع، فتوضع عينة الدم على شريحة زجاجية، وكان ذلك يتم فى المعمل الحديث الكفء فى الدور الرابع، وتعلمت كيف أستعطف العاملين بمعمل التحاليل كى يكتفوا بأخذ عينة بسيطة من الدم، عن طريق شكة الإبرة فيخففوا عنى معاناة سحب الدم.

كان هناك عطف زائد جدًا نحو وضعنا المالى المتأزم، فلم يكن هناك اهتمام كبير بتسديد فواتير العلاج، وإن كانت هذه الثقافة المتسامحة سوف تتغير بصورة حادة فيما بعد فى مستشفى الميموريال وغيرها من المستشفيات، فكان الموظف المكلف بإعداد الفواتير يقول لى مطمئنا «اهتمى بأن تكونى فى خير حال» وقد أراد بذلك أن يقول لا علاقة لذلك بدفع الفواتير وفى نهاية كل جلسة علاج كان هناك موظف آخر يستدعى لنا «تاكسى»، ثم يعطى لوالدى المبلغ الكافى لسداد الأجرة حتى بيتنا فى بروكلين.

كنت أستخدم كل قدراتى من أجل أن يتابع علاجى دكتور بيرتون لى فكنت أسأل مقدمًا عن الأيام التى سيكون موجودًا فيها ثم أحدد مواعيد ذهابى، وعند موظف الاستقبال كنت أؤكد بطريقة صارمة «نعم أنا مريضة دكتور لى» فإذا كان مشغولًا فكنت أبدى ترحيبى بالانتظار، وكنت دائمًا أكتم أنفاسى خشية أن يقولوا لى إن طبيبًا آخر هو الذى سيفحصنى، وقد عرفت بالفطرة أننى وجدت طبيبى المعافى الشافى. ومع علاجى بمستشفى الميموريال كان والداى لا يزالان يشعران بأنه يجب عليهما اتخاذ خطوات أخرى لضمان سلامتى بصورة مؤكدة.

إذا كنا بالقاهرة،كان والداى سيعرفان تمامًا ماذا يفعلان إذا ما واجها ظروفًا مماثلة، ابنة مريضة وربما تواجه خطر الموت، كانا سيحملانى ويأخذانى لزيارة كل أثر مقدس وكل مزار روحى فى المدينة العتيقة، كانا سيطلبان شفاعة كل حاخام حى أو ميت لشفائى، وكانا سيتضرعان إلى كل نبى أقام فى مصر أو مر بها -النبى موسى، موسى بن

ميمون، إرميا، وإيليا- كي يظهر كراماته لشفائي. ولكن لم تكن هناك مزارات مقدسة في أمريكا معروفة لنا، كما لم تكن هناك روحانيات كثيرة إذ إن جميع الأنبياء بلا استثناء كانوا مزيفين.. ذات صباح باكر أفقت لأجد والدىّ إلى جانب سريرى، وبجوارهما رجل عجوز محدوب بادى الكبر ويبدو فى أواخر الثمانينيات أو أوائل التسعينيات من عمره، وهو الحاخام هالفون. لقد قالا بصوت مليء بالتبجيل بأنه جاء لكى يشفينى، وكان يقال إن حاخام تجمّع الحب والصداقة، يمتلك قوى خارقة، وإذا ما كان هناك شخص يستطيع التواصل مع الله من أجل شفائى فإنه سيكون ذلك الشخص، هكذا قال والداى وهما يهمسان. لم يكن طول الحاخام يزيد على المتر ونصف المتر، مد يده المليئة بالعروق ووضعها فوق رأسى، وانحنى فوقى وأنا راقدة فى بيجامتى، ثم بدأ يغنى بصوت مرتفع ويتمتم بسلسلة من «التبريكات»، و لم أكن أعرف شيئًا مما يقول، ولكنى لاحظت أن والدىّ ما كانا ليجرؤان على الجلوس، ولكنهما وقفا فى الخلف فى صمت وخشوع. وأخيرًا انتهى عمل رجل الدين المقدس فأعطانى (حجابا) تميمة عليها كتابات عبرية وقال إن على الاحتفاظ بها كل ليلة أثناء نومى، ثم التقط عصاه وانطلق خارجًا رغم برودة صباح ذلك اليوم الربيعى. بدا على والدىّ السكينة بعد خروج الحاخام وقد اعتقدا بأنهما شاهدا حدوث معجزتين: أننا كنا محظوظين بالعثور على دكتور لى ليشرف على علاجى، وأن الحاخام هالفون قام بمباركتى، وجلس والدى مرتاحًا بعد ذلك فى كرسيه وبدأ فى الصلاة.

الفصل الثانى والعشرون

الزيتون

كان هناك حاجز غير مرئى يفصل بين منطقة الاستقبال فى المدخل، حيث يستطيع والدى الجلوس على راحته على مقاعد وثيرة، وبين قدس الأقداس فى الخلف، حيث كنت ألتقى الدكتور لى فى غرفة الكشف الخاصة ليفحصنى ويحدد لى العلاج المناسب ثم يدون مدى التقدم فى حالتى.

كنت أشعر برغبة كاملة فى الحياة ، فقد شعرت بحدسى أن طبيبى الأمريكى لم يعد يستاء من قيام والدىّ المهاجرين المتقدمين فى السن بالنظر من فوق أكتافه أثناء قيامه بفحصى ولا أدرى كيف حدث هذا التغير ولا أدرى لماذا أصبحت الآن على الأقل فى احتياج أكثر للدكتور لى؟

هذا الطبيب المتغطرس والمهيب المنحدر من سلالة الأنجلو ساكسون البيضاء (wasp) الذى بدا أن دموع أبى لا تؤثر فيه، قد أصبح الآن أكثر تعاطفًا معى، فكان على أن أتودد إليه وأسعى لإرضائه بأى شكل، فكنت أؤنب نفسى بشدة على أقل هفوة أو مبالغة فى إظهار مشاعرى أو التصرف بطريقة ميلودرامية أو انهمار دموعى أمامه، من فرط إحساسى بالأسى على نفسى فكنت أشعر بأن أى من هذه الهفوات سوف يتسبب فى رفضه الاستمرار فى علاجى، ومع أنى سأستمر أعالج فى مستشفى الميموريال، فإن الأكثر توقعًا هو التحويل إلى واحد من تلك المجموعة الكبيرة من أطباء الامتياز وزملائهم من حديثى التخرج الذين كانوا مخصصين لعلاج الفقراء.

لم أكن أريد أحدًا منهم، كنت أريد دكتور لى على الفور فحسب. إن ذلك يعنى أن علىّ التخلص من حساسيتى المصرية، وإعادة تشكيل نفسى على الطريقة الأمريكية، فكان يجب علىّ أن أكون واثقة من نفسى رابطة الجأش ورزينة وغير عاطفية مثل دكتور بيرتون ج لى الثالث أو كذلك تخيلته.

وبدأت أكرس جهدى لاستمالته، بدراسة الأسلوب الأمثل للتحدث والتصرف معه، فكنت أعد نفسى بعناية لكل جلسة كشف، فتوقفت تمامًا عن ارتداء البنطلونات الواسعة والقمصان غير الأنيقة، وأجبرت نفسى على اختيار الملابس التى تجعلنى أبدو رزينة ومتفائلة، رغم عدم إحساسى بذلك، و لم أكن لأبكى مهما كان شعورى بالحزن، أو مهما كانت الأخبار التى يحملها عن حالتى سيئة.

حتى أنه فى بداية مباشرته علاجى كان الفحص لا يستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين، فكان ينظر إلىّ بتمعن شديد بمجرد رؤيتى، وكنت ألاحظ أنه يتفحص عيونى وشعرى حتى ملابسى وحذائى، وكان ذلك غريبًا بالنسبة لى، وما زلت لا أستطيع التغلب على حقيقة أنه لا يرتدى المعطف الأبيض مثل كل الأطباء الذين عرفتهم ولكنى بدأت أعود نفسى على ذلك الأسلوب المغاير تمامًا للأسلوب التقليدى عندما كنا نتكلم، نادرًا ما كان يناقشنى فى الأمور الطبية، بل فى الغالب كنا نثرثر عن الكتب التى أفضلها وعن هواياتى، وبسرعة عرفت الأمور الصغيرة التى كانت تضايقه وكان منها الكثير بدءًا من فرانك سيناترا و انتهاءً بالحركة النسوية.

سألته ذات يوم كيف تستطيع تقييم حالتى المرضية دون أن تجرى أى فحص لجسمى؟

أجاب «بالنظر إلى عيونك».

وجاءت نتيجة التحاليل وعرفتها بالصدفة حين اختلست النظر إلى التقرير الخاص بحالتى وليس عن طريق د.لى وعرفت بأن المرض قد انتشر فى جسمى إلى أبعد من منطقة حمى خدش القطة، وجاء فى التقرير أن لمرض هودجكين أربع مراحل أسوأها هى المرحلة الرابعة وكانت حالتى فى المرحلة الثالثة.

لم يناقش دكتور لى أبـدًا تطور حالتى المرضية، بل حتى لم يذكر أبـدًا كلمة «هودجكين»، و لم يحدد أبدًا مدة لصمودى أو السنوات الباقية من حياتى، وإنما كان يتكلم ببساطة عن الحاجة لبدء العلاج، الذى راح يخفف من وقعه بقوله إن الأمر

يحتاج إلى أسبوعين من العلاج بالأشعة، وجعل الأمر يبدو بسيطًا وغير مؤذ وكأنه لا يتعدى أكثر من مجموعة جرعات من المضادات الحيوية، ولكنه حذرنى فقط من الآثار الجانبية للعلاج، فربما لن يكون فى استطاعتى إنجاب أطفال أبدًا.

كانت هناك طريقة واحدة لتجنب ذلك، وهى عملية بسيطة تستغرق ساعة، ربما تكون فعالة، وكانت أسرتى فى حالة ذهول من هذا الطوفان من الأخبار السيئة، مما جعلهم عاجزين عن مساعدتى فى اتخاذ القرار، أمى التى أنشأتنى لأتجنب مشقة الأولاد والكدح فى الأعمال المنزلية، لم تكن فى وضع يسمح لها بأن تنقلب فجأة لتعزف لحنًا مخالفًا، أما أبى فبالطبع كان يعانى رعبًا متأصلًا من العمليات الجراحية؛ فهو لن ينسى أبدًا النتيجة المأساوية لعملية ساقه، والنتيجة أنهما لم يكونا فى وضع يسمح لهما بمناقشة الأمر بصورة عقلانية معى، أو أن يعبرا عن حزنهما وقلقهما ولندع جانبًا نصحى بصورة جلية عما يجب أن يكون عليه اختيارى.

وهناك فى كاليفورنيا كانت أختى سوزيت فى حالة أكثر اضطرابًا، ليس بسبب الأنباء الأخيرة، ولكن لأنها كانت لا تزال مصرة على أننى لست مصابة بداء «هودجكين»، وظلت تردد ذلك مرارًا وتكرارًا حتى بعد أن تبين أنه لم يعد هناك أى شك فى تشخيص المرض، لكنها قالت إن المؤسسة الطبية بكاملها مخطئة، إن علىّ أن أتجاهلهم جميعًا، كما أن علىّ بالتأكيد ألاّ أخضع نفسى لأى عمليات جراحية قد تمثل خطرًا، ذلك فضلًا عن أنها لن تأتى بنتيجة، وقد انصب قدر من اعتراضها على كل ما كنت أقوله مهما كان أمره، ولكنها لم تقدم أى حلول بديلة اللهم إلا أن تستحثنى على ركوب الطائرة والاتجاه إلى ستانفورد أو زيارة مايو كلينك.

وكانت المفارقة أن أخوىّ كانا الوحيدين اللذين توصلا إلى قرار حاسم، وهو خضوعى للعملية فورًا.

وفى ربيع سنة ١٩٧٣ كانت مجلة إم إس (MS) هى أكثر المجلات الحداثية انتشارًا، وكانت جلوريا ستاينم وبيتى فريدمان* يصدران أحكامهما عن كيفية تحقيق سعادة المرأة و لم يكن ذلك باتباع الطريق التقليدى بالزواج وتكوين الأسرة، أما فى الراديو فكانت هيلين ريدى تغنى النشيد القومى للحركة النسوية البازغة وسريعة الانتشار، «أنا امرأة فاسمع زئيرى»، لقد كانت ثورة فى طور الانفجار بكل قوة إعصار الثورة

---

* المترجم: كاتبتان يهوديتان من دعاة الحركة النسوية (feminist movement).

التى عاشها والدى سنة ١٩٥٢، فقد كانت حركة اجتماعية غيرت حياة النساء ربما بنفس الطريقة التى تغيرت بها حياتى بسبب المرض.

ولقد وقعت فى خطأ الربط بين الاثنتين، وبأنه يمكننى أن أطبق الدروس المستفادة من إحداهما على الأخرى.

لم أكن قد تلقيت بعد تحذيرات والدى من الثورات ووعودها، فلقد كنت أشعر أن الخطابات الرنانة للحركة النسوية تجلب لى الارتياح وكأنها الدواء لمخاوفى وطريق الهروب من أحزانى، بسبب القرار الذى سأتخذه أو المصير الذى اختاره لى القدر، وفى النهاية رفضت إجراء العملية وقررت البدء فى العلاج بالأشعة.

عندما كنت فى طريقى لأول جلسة أشعة صممت ألا أبكى، فأنا ابنة أبى ولن أدع أحدًا يرانى أنهار.

فى البيت كانت تصرفات أسرتى تجاهى غريبة، لقد كانوا فى غاية القلق مما زاد من حدة إحساسى بالاضطهاد، فإلى أى درجة كانت حالتى ميئوسًا منها؟ هل أنا فى حالة أسوأ مما أشعر؟

حدث ذات مرة أثناء عودتنا إلى المنزل بقطار الأنفاق بعد يوم طويل وشاق فى المستشفى أن أصر والداى على طلب «تاكسى» ليأخذنى من محطة القطار على الرغم من قرب المسافة فالبيت يبعد مربعين من المبانى، فغضبت من إصرار أبى غضبًا شديدًا، ورفضت الركوب معهم وبدأت المشى نحو المنزل من دونهما.

فكلما زاد عطفهم علىّ ازداد اضطرابى وتمزقى.

فقد بدا لى أنهم لا يثقون فى أننى سأتعافى أبدًا، فبالنسبة لأمى كنت الطفلة ألكسندرا.

والدى فحسب هو من ظل يتصرف كما كان دائمًا ، وعندما أصبح العلاج مركزًا، و لم أعد أستطيع تناول أى طعام اقترح أبى أكل الزيتون.

بدأ أبى فى إحضار علب زيتون أسود من دون بذور من ماركة «كولوسال» colossal، وكان قد وصل بى الحال إلى عدم القدرة على مجرد النظر للطعام، فمجرد فكرة الأكل كانت تتعبنى ولكنى كنت قادرة على تناول الزيتون، وأصر والدى على أن يطعمنى بنفسه زيتونة واحدة فى المرة، وبينما كل من حولى من المرضى كانوا قد

أصابهم الضعف الشديد نتيجة جلسات الأشعة وانهار بعضهم تمامًا وترك البعض العلاج إلى غير رجعة فإننى داومت على التهام الزيتون.

أما أمى فقد أصابها الفزع على فقدانى للوزن، واستمرت فى إعداد وجبات شرقية وافرة ليلة وراء أخرى، خرشوف محشى، كفتة، كباب حلة، لحم خروف وكل الأكلات التى كنت أحبها، وإن كنت الآن لا أستطيع الاقتراب منها، كانت أمى تشعر بالحرج كلما كنت أُنحى الأطباق بعيدًا غير قادرة على أن أضع ملعقة واحدة فى فمى من كل هذه الوجبات الغنية بالفوائد، التى كانت تعدها أمى لى حتى أسترد وزنى وأستعيد عافيتى.

عندها كان أبى يتقدم و يضع زيتونة فى فمى.

بدأت أشعر بأن الزيتون وليست علاجات الأشعة، هو الذى يشفينى.

لا أعتقد أن أبى قد فكر كثيرًا قبل أن يقترح هذا النظام الغريب من الطعام، فقد كان الزيتون طعامًا رئيسيًا فى المشرق فهو أساسى كالخبز والماء، وبينما نحن تعودنا على استهلاك الهامبورجر والسجق والبطاطس المقلية، كان والدى يتعشى ببساطة الخبز البلدى والجبنة البيضاء والزيتون الأسود، وبالطبع فقد عاش فى أمريكا وكأنه لا يزال فى بلده الحبيب القاهرة حتى قطى بوسبوس جان لم يعتد التهام علب طعام القطط التى تباع فى السوبر ماركت، بل اعتاد على الجبنة البيضاء والخبز الطازج والزيتون، وكان ذلك جزءًا من إصرار والدى على تجاهل العالم الجديد، وبأنه لم يترك أبدًا عالمه القديم.

كان يجلس على كرسيه يصلى، ثم يأكل الخبز والجبن والزيتون.

وكانت أختى دائمة الاتصال من كاليفورنيا للسؤال، هل العلاج بالأشعة مازال مستمرًا؟ وكانت تريد أن تعرف هل شفيت؟

لم تكن هناك إجابة فى ذلك الربيع أو الصيف، وكما تعلمت أن الشفاء مصطلح أسطورى يستخدم فقط فى برامج التليفزيون والمجلات، ولكن كان هناك احتمال وحيد أن العلاج المتواصل -إذا ما استطعت تحمله- قد يستطيع أن يوقف التقدم المتواصل للمرض.

كانت هناك أوقات شعرت فيها بالضعف الشديد وبأن كل ما أتمناه هو أن أنام، ولكن عندما كنت أنام كنت أشعر بيد والدى على كتفى برفق.

كان يقول «لولو لولو أفيقى».

كان يأتى كل ساعتين ليطعمنى بعض الزيتونات، وكنت أتضايق من ذلك إذ كنت أفضل حالة الغيبوبة، وبكل ضيق كنت أتناول ما يقدمه لى، وكان يبدو عليه الرضا فى منتصف الليل إذا ما وافقت على تناول زيتونة أو اثنتين، ولكن بعد الظهر فى موعد الغداء، كان من المفترض أن آكل أكثر من ذلك، ربما خمس أو ست زيتونات، كانت وجبات دورية، رقيقة كما لو أنهم يطعمون طفلًا حديث الولادة، فكان والدى يرعانى بكل الصبر والدقة التى كانت جدتى ظريفة تعامل بها ابن عمتى سالمون فى القاهرة فى سنة ١٩٤٤، إذ كانت تطعمه قطع الموز والبيض النىء والخوخ المسلوق وأهم من هذا كله المشمش كى تشفيه من داء الجنب.

فى يوليو وبينما أنا فى أوج الانشغال بالجلسات العلاجية، فاجأتنى سوزيت بالحضور إلى نيويورك مقتحمة منزلنا فى الشارع ٦٥، فانتزعنى ذلك من الخمول والرحلة المميتة الروتينية كل يوم إلى مستشفى الميموريال من أجل جلسات الأشعة، وعودتى إلى البيت منهكة وسقيمة، كنت قد أصبحت نحيلة وهشة بصورة أكبر مما كنت عليه. حملقت فى أختى وهى تتألق فى سويتر باللون الأخضر كان يبرز شعرها الطويل الأسود وكأنها زائر من كوكب آخر.

كان يجب أن أكون قد تعودت منها على مهمات استكشاف الحقائق فى الزيارات السنوية التى كانت تقوم بها لمعرفة أحوالنا، والزج بنفسها فى آخر المشكلات الدرامية فى العائلة، كانت تأتى بأيد مليئة بالهدايا، وكنت أتذكر زياراتها معظم الوقت، لأنها كانت دائمًا ما تجلب لى فى كل سنة ألعابًا وملابس ثمينة وشيكولاتة غالية، ولكنها فى هذه السنة فإن سمعتها بتلبسها دور المفتش العام اتخذ منحى مقيتًا، فقد كانت لا تزال تضمر الشكوك حول اختيارى العلاج بالأشعة، ولم تكن قد تخلت بعد عن الأمل فى أن أنتقل وأسافر إلى مايوكلينك، وكان من الواضح أن أختى تأثرت بخطابات أمى، فقررت أن تأتى لترى بنفسها كيف تمضى حالة «لولو المسكينة».

ربما جاءت ببساطة لتزرع البهجة فى نفسى.

سألتنى فى أمر واحد لماذا لا أكترث بتصفيف شعرى، وكنت خائفة من إطلاعها على الحقيقة، فقد احتفظت حتى الآن بهذا السر لنفسى. كان لى شعر طويل جدًا وكان ينسدل خلف ظهرى ونظرًا لتعرضى لكميات كبيرة من الأشعة: فقد تصورت أننى لو

رتبته بمهارة فلن يلحظ أحد أمر تساقطه ولكن سوزيت أخرجت فرشاة الشعر من حقيبتها، وبدأت تمشط شعرى بصورة خفيفة، وحاول كلانا أن يتظاهر بعدم رؤية ما كان يتساقط منه على كتفى.

وفى أثناء المناقشات حول طريقة علاجى والإشارة إلى ستانفورد ومايو كلينك قالت سوزيت إنها سوف تأخذنى لنتناول الغداء فى الخارج، و لم يفلح أى شىء قلته أنا أو والدى فى ثنيها عن عزمها، وقد زعمت أنى لا أشعر بالجوع لكنها ظلت على إصرارها، فأخذنا قطار الأنفاق إلى جراند سنترال، ثم مشينا إلى بناية بان أم pan am حيث كانت قد حجزت لنا فى مطعم هناك اسمه لاتراتوريا، وهو مكان فسيح أنيق يفترض أن يجعلك تشعر بالرغبة فى ركوب أول طائرة بان إم متجهة إلى روما أو ميلانو (وهى فى رأيى أماكن أكثر إغراء من بالو آلتو أو روشستر مانيسوتا)*، على غداء من المسقعة بالجبنة الرومى وقد شعرت برغبة غريبة للثرثرة فلم آكل كثيرًا.

كان هناك حولنا فى المكان رجال أعمال شبان يرتدون بدلات فوجدت نفسى أحملق فيهم، ذلك أن وجود رجال متأنقين فى بدلات داكنة مقلمة لم يكن شيئًا مألوفًا فى الركن الذى نعيش فيه فى بروكلين، وكنت أشير لأختى عليهم مع الثناء على مظهرهم الرائع، فقد كانوا يبدون أغنياء ومهمين وقلت لأختى إن الرجل الذى سأتزوجه يومًا ما لا بد أن يرتدى بدلات غالية.

فى تلك اللحظة بمطعم اللاتراتوريا، وبينما أنا أقضم قطعة من البقسماط breadstick داخلنى إحساس أن «يوما ما» أمر وارد والمستقبل لايزال أملًا ممكنًا.

بعد الغداء تمشينا حتى الناصية عند محل ملابس وشجعتنى أختى على الدخول حيث اتجهت إلى أحد حوامل الملابس وجذبت «سويتر» منسوجا ذا لون أحمر فاقع، بنفس اللون الذى ارتديته منذ زمن طويل وكان ثوبًا أحمر، ضيقًا وذا رقبة واسعة على شكل حرف V

وسألت سوزيت «ألا تعتقدين أن صدر السويتر مفتوح»؟

وكنت خائفة أن تقول نعم.

لكنها دون أن يهتز لها جفن قالت «إنه رائع لماذا لا ترتدينه»؟

---

* الأقواس من وضع المؤلفة. وتقصد الذهاب للعلاج فى مستشفيات بالوآلتو أو روشستر ميناسوتا.

خرجت من المتجر وأنا أرتدى هذا السويتر الجديد وأشعر بالتألق، ولأول مرة منذ شهور أشعر أيضًا بأنى جميلة.

قرب نهاية الصيف جرؤت وسألت دكتور لى، هل سأستطيع أن ألتحق بالكلية هذا الخريف. كان من المفترض أن ألتحق بـ «ڤاسار» vassar التى هيأ مسئولوها لى منحة دراسية شبه كاملة، وكانوا يتوقعون انتظامى، إلاّ أن شعورًا ساورنى بأننى كنت أحلم عندما قررت تسجيل اسمى هناك، فقد كنت أنهى الإجراءات دون اعتقاد حقيقى بإمكانية الانتظام فى الدراسة.

أجاب د. لى «سوف تذهبين إلى الكلية»، وكان صوته يرن فى أذنى بشعور متزايد بالثقة بالنفس، التى كانت بدخيلة نفسى صفة أمريكية مميزة، عززها نوع من يقين مطلق كان مصدره التنشئة المتميزة والتعلم فى مدارس عظيمة.

لم تش ملامح د.لى عن أى شك على الإطلاق، وذلك بسبب مظهره الواثق من نفسه وصوته الذى يرن حادًا ومنعشًا، مما ذكرنى بأول رشفة من الليمونادة التى قدمتها لى أمى فى نهاية صيام الأحزان، فكان منشطًا ولاذعًا ولذيذًا فى نفس الوقت، وهكذا بدأت أشعر بالأمل فى إمكانية تحسن صحتى مرة أخرى.

بعد عدة أشهر بدا كل ما جرى وكأنه لم يحدث أبدًا.

لم يعد هناك أى أثر للمرض باستثناء لونى الباهت وإحساسى السريع بالتعب، وفى المعبد أيام السبت عندما تقف الجموع لم يكن باستطاعتى الوقوف فكنت أظل جالسة فى مقعدى كالعجائز، وخلال الأيام المقدسة لم أقم بالصيام لأول مرة فى حياتى، فقد كنت فى غاية النحافة لذا كثفت جهدى فى الأكل، فى محاولة لاستعادة ما فقدته من وزن.

وفى أحد الأيام، وبعد مرور فترة قصيرة على انتهاء العلاج بالأشعة، أصابتنى حمى وحرارة مرتفعة، وعدت إلى مستشفى الميموريال، ولكن دكتور لى لم يكن موجودًا، وكان طبيب الطوارئ المقيم قد وصف لى حبوبًا ضخمة الحجم، كنت أبتلعها بصعوبة شديدة، وعندما عاد الدكتور لى عرضت عليه الحبوب التى تم وصفها لى، فأمر بعدم تناولها، واختفت الحمى بنفس الغرابة التى ظهرت بها.

فى سبتمبر وبعد عدة أيام من آخر جلسة علاج، ذهبت إلى الكلية، تركت أبى فى كرسيه مع قطته وكتب الصلاة وأسلوب الطعام الخاص بأهل شرق المتوسط، نادرًا ما

كنت أعود للمنزل، فقد كنت أمضى أيامًا هنا وأخرى هناك، فضلًا عن عطلات نهاية الأسبوع والعطلات الرئيسية. ولكن حينما كنت أشعر بالحزن ولا أستطيع أن أدرى سببًا لذلك كنت أعود للمنزل. شعرت بهذا الإحساس لأول مرة فى ليلة الأحد الأولى التى قضيتها فى المستشفى، كان إحساسى بأننى وحيدة وأنه لابد لى من أن أركض وأركض ولكن إلى أين، إلى أين؟

أأذهب إلى البيت فى بروكلين؟ ولكن ما الفائدة فبعد أيام أو ساعات سأعود إلى فاسار. كنت منطوية على نفسى، فلم يعد لى الكثير من الأصدقاء ولا لدى فتيان أخرج معهم ولا ثوب أحمر أرتديه، فلقد جعلنى المرض حذرة وحريصة فقررت أخذ مباهج الحياة بتأن مثل حبات الزيتون حبة واحدة فى كل مرة.

نادرًا ما كانت عائلتى تأتى على سيرة المرض، وعندما تحسنت صحتى، ساءت حالة والدى فصار نادرًا ما يترك مقعده. كنت أجد صعوبة فى تقبل تدهور صحته على الرغم من أن المرض كان هو الذى يربطنا معًا على الدوام.

وعلى الرغم من أن قرار دكتور لى بألا أنصت لوالدى قد مضى عليه زمن طويل، فإننى ظللت بصورة ما أسيرة لهذا القرار فقد أصبح دكتور لى هو الوحيد الذى أستمع له الآن، أصبحت أعيش فى انتظار مواعيد الكشف عنده مرة كل شهر فى البداية، وبعد ذلك مرة كل شهرين، وكانت هذه هى الأوقات الوحيدة التى أشعر فيها بالأمان، وكأننى بعيدة عن الخطر فى غرفة الكشف الصغيرة وهو إلى جوارى، و لم يكن يفعل شيئًا يذكر فيما عدا التحدث إلىّ، وطلب القليل من التحاليل. لم تكن هناك أدوية ولا حقن يصفها لى، طالما كانت تبدو علىّ العافية، وكان متأكدًا من أنه يعرف حالتى بمجرد أن أدخل غرفة الكشف، وكان هذا دليلًا على أن المرض قد أصبح تحت السيطرة وأنه يمكننا الآن تحويل اهتمامنا لموضوعات أكثر أهمية.

كنا نتكلم بالساعات، وكأن كل أمور المرضى الآخرين ومسئوليات الطبيب كانت تؤجل عندما نكون مجتمعين فى تلك الغرفة الصغيرة التى لم تتغير منذ اليوم الذى صعدت فيه على طاولة الكشف أول مرة، مراهقة خائفة ترتدى سروالًا واسعًا من الجينز وقميصًا أزرق باهتًا وتنورة ولا أمل لديها على الإطلاق.

وفى يوم من الأيام بعد انتهاء العلاج بعامين سألت دكتور لى هل تم شفائى؟ وكنت قد قرأت عن مرحلة السنوات الخمس المؤذنة بالشفاء التام، ولكنى لاحظت أن دكتور

لى لا يستخدم أبدًا تلك التعبيرات ولا يذكر حتى احتمال الانتكاس فإما أننى فى حالة جيدة وإما لا.

لقد قطب حاجبيه عند سماعه لكلمة «شفيت»، فأعلن بتلك اللكنة الملكية التى يستخدمها أحيانًا أن داء هودجكين لا يشفى منه.

قال محذرًا «إنه سوف يعود».

ذهبت إلى المنزل والرعب يكاد يقتلنى فلم أستطع النوم أو الأكل، وبالطبع لم أطلع أمى أو أبى على هذه المعلومة، فقد كان ذلك هو الكابوس الذى يخشونه هم الآخرون. إنه الكابوس الذى سرق كل أحلام مراهقتى وجعل من المستحيل علىّ أن أستمتع بالأمور الأساسية فى حياة كل فتاة، ذلك الإحساس بعدم المسئولية وخلو البال.

فى اليوم التالى ودون حجز مسبق عدت إلى مستشفى الميموريال وطلبت رؤية الدكتور لى. أردت أن أعرف متى سيعود هذا المرض فنظر إلىّ متحيرًا بعض الشىء، لقد كان رجلًا مندفعًا، غير حريص على العناية بكلماته، أستطيع أن أقول إنه كان فى مزاج مهموم وكنت قد تعلمت من سنوات علاقتى معه أنه ليس هناك إنسان أكثر عطفًا وحنانًا من هذا الرجل الأبيض الأوتوقراطى الأنجلو ساكسونى.

أخذ ذراعى برفق، وراح يشير إلى المسافة ما بين إصبعى ورسغى وقال «بعض منا سيعيش قدر هذه المسافة» وبعض آخر سيعيش قدر هذه المسافة «وأشار إلى المنطقة بين رسغى وكوعى»، لا أنا ولا أنت نعرف كم سنعيش، فما عليك إلا تجاهل هذا الأمر.

كان هذا الحديث هو كل ما استطعت أن أناقش فيه مع دكتور لى «التنبؤ بحالتى»، لم أسأله أبدًا كيف يكون مستقبل المرضى المماثلين للمرحلة المرضية التى أنا فيها فقد كنت متأكدة أنه لم يكن ليجيب على مثل هذا السؤال إلى جانب أنه من مشاهداتى فى مستشفى الميموريال بدا لى أن الحظ هو العامل الرئيسى فى تحديد تحسن حالة المريض.

ظل الأطباء لسنوات تالية يؤكدون أننى شفيت، وكنت أهز رأسى لأننى أعرف أكثر من ذلك.

منذ صيف عامى السادس عشر كانت حياتى معلقة بيد القدر وكنت أعلم أنها ستظل كذلك، وكنت أنظر بعين الحسد إلى رفيقاتى من الشابات فى سنى وهن يخططن لمستقبلهن، حفلات الزواج، مستقبلهن الوظيفى، تكوين أسرة، إجازات، بينما أنا لا أستطيع أن أخطط لأكثر من دعوة عشاء خلال يوم أو يومين على الأكثر دون الخوف بأنه ربما لن يتحقق، ولكن النذير الذى كنت قد سمعته لأول مرة عندما

أصبت بالمرض يهتف لى دائمًا أنه ستظهر كارثة فى حياتى، ولكنها لن تقع، وستذهب من حيث جاءت.

فى أحد الأيام فاجأنى والدى عند عودتى للمنزل بأن بادرنى بالحديث، وقد كان نادرًا ما يفعل. بدا لى أنه متضايق بصورة غريبة.

لقد ترك كتاب الصلاة الأحمر المتهالك ليحكى لى حلمًا رآه عن أحد أفراد العائلة، فقد رأى نفسه يقدم لى حبتين من البون بون الأبيض الرائع الذى يُقدم فى المناسبات السعيدة عندما كنا فى القاهرة مثل حفلات الخطوبة، وأعياد الميلاد والأفراح، واستخدم الاسم الفرنسى لهذه الحلوى من اللوز المغطى بطبقة من السكر «دراجيه».

لم نتحدث بعد ذلك عن معنى هذا الحلم، و لم أفكر فيه كثيرًا فى حينها، ولكنى لم أكف أبدًا عن التفكير فيه، و لم أتوقف عن محاولة معرفة ما الذى كان والدى –الصامت وقليل التواصل– يحاول أن يقوله لى، حاولت بعد سنوات طويلة أن أعرف ما الذى حدث بين والدى ودكتور لى فى عصر ذلك اليوم منذ سنوات، كان ليون قد توفى وأصبح دكتور لى صديقًا ومرشدًا، إنسانًا أقدره أعمق تقدير وأتواصل معه بصفة دورية، ما الذى جعل والدى ينهار ويبكى فى عصر ذلك اليوم البعيد؟ كنت أريد أن أعرف ماذا حدث بينهما فى مكتب دكتور لى، وعلى الرغم من أن دكتور لى قد عالج مئات من المرضى منذ تلك المواجهة، وأنه تحدث مع الآلاف من الآباء والزوجات سواء أكان يريد أن يطمئنهم أم أن يبلغهم الأنباء السيئة عن حالة أحبائهم، ولكنه على ما يبدو كان لا يزال يذكر بصورة جليلة هذا الحديث المتبادل مع والدى ذلك اليوم من ربيع سنة ١٩٧٣

كان والداى قد جاءا معًا وجلسا أمام مكتبه، وقد أدهشه كم كانت أمى صامتة فلم تنبس بكلمة واحدة خلال المقابلة، ولا يزال دكتور لى يذكر كيف جلست أمى ببساطة محنية الرأس والخوف يملأ عينيها الواسعتين البنيتين، بينما والدى أخذ زمام الحديث رغم أنه كان قد أصبح رجلا قليل الكلام، منزويًا فى قوقعة من الصمت خصوصًا فى سنواته الأخيرة. كان دكتور لى لا يزال يذكر أن أبى راح يتكلم باندفاع ودون توقف.

كانت ابنته فى خطر محدق وفى حاجة إلى أفضل رعاية ممكنة لأنها دون ذلك سوف تضيع، فكان يريد أن يعرف هل سيقبل دكتور لى أن يتولى بنفسه علاجها.

هذا ما راح يردده بشكل مستمر، هل سيقبل دكتور لى أن يكون طبيبى الخاص وأن يتولى حالتى؟؟

كان دكتور لى معتادًا على تلقى الرجاءات من المرضى والعائلات من جميع أنواع البشر، وفى سنوات تالية استدعاه شاه إيران من نيويورك ليشخص حالته ويشرف على علاجه، وبعد ذلك أيضًا عُين طبيبًا خاصًا لجورج بوش الأب، وكان دكتور لى ينتمى إلى تلك المدرسة النبيلة فى الطب، التى ترى أن الأطباء الناجحين عليهم الالتزام برعاية الناس الأقل حظًا، وكان هذا بالذات هو أكثر ما يعشقه فى المهنة.

ولكن الذى لم يعجبه أو ضايقه، هى تلك النغمة الذليلة فى صوت ذلك الرجل العجوز، فلم يكن والدى كأى شخص رآه من قبل، كان ببساطة رجلًا من ثقافة مختلفة بل يكاد يكون رجلًا من كوكب آخر، فقد كان مستعطفًا إلى درجة جعلته يتذلل. كان الدكتور لى هو من وضع نصب عينيه أن يتعامل فى عمله مع الأغنياء والمحتاجين بنفس الطريقة دون تفرقة يحب أن يرى نفسه يرعى مرضاه دون أى اعتبار لدرجة ثروتهم أو مركزهم الاجتماعى، كان الدكتور لى مندهشًا من توسلات أبى وربما شعر بأنها إهانة لأمانته العلمية.

كان هناك ذلك الشعور باليأس فى صوت أبى «فلم يكن لدى هذا الرجل أى أوراق قوية للتأثير» هذا ما تذكّره دكتور لى بعد تفكير.

كان أقرب إلى الحقيقة أكثر مما يتوقع، فقد لجأ أبى للتذلل لأنه لم يكن فى يده شىء آخر يستطيع فعله، فكان عليه أن يواجه احتمال وفاة ابنته الصغيرة وهو يعرف أن أملها الوحيد فى النجاة يعتمد على هذا الطبيب الأمريكى الأرستقراطى الذى لا يستطيع أبى تحمل تكاليفه ولا حتى يعرف كيف يتواصل معه. كان رجل ليالى الأنس بالقاهرة، لم يعد يملك ما يقايضه، فلا مال ولا مكانة اجتماعية ولا مركز رسمى ولا حتى بدلة شركسكين بيضاء.

كان دكتور لى عندما يستعيد هذه الذكرى يشعر بأنه ربما كان متسرعًا وفظًا، وبدفعه والدى خارج المكتب فى ذلك اليوم، فلربما يكون قد قضى على آخر بارقة أمل كانت له، فى أن هذا الطبيب المرموق قد ينقذ طفلته التى رزق بها على كبر، تلك المراهقة التى كان يصر على مناداتها باسم الدلع «لولو»، وبالطبع فإن دكتور لى قد فعل ما طلبه أبى بالضبط، فقد تولى حالتى بنفسه، وأنقذ حياتى ليتركنى أتساءل بعد سنوات ما إذا كان أبى بانهياره وتذلله كالمتسولين والتوسل من أجلى مرات ومرات قد وجد فى جعبته الكارت الأخير الذى استطاع أن يلعب به.

الفصل الثالث والعشرون

راعى أيتام القدس

كانت تلك آخر شقة يقيم فيها والداى، وإن كنت وقتها بالطبع لم أعرف ذلك.

فبعد المشاجرات التى حدثت فى الشارع ٦٦ وبعد مرارة المشكلات مع آل كاجنو والأسى الذى عشناه فى «منزل التضرعات» لم يعد أمامنا مفر من أن ننتقل إلى شقة أخرى لم تكن تبعد أيضا إلا بعدة منازل لأننا أصبحنا نشعر بالهزيمة والإنهاك، موقنين أن أحدًا لن يقبل بنا فيما هو أبعد من الشارع ٦٥ وعلى ضوء تجربة مرضى، فلا أهمية الآن للانتقال لأبعد من الشارع ٦٥

كانت الشقة هذه المرة ذات مساحة مناسبة فهى لم تكن متسعة ولا ضيقة ولكنها ملائمة لثلاثتنا.

كانت أمى مرتاحة لسبب بسيط هو أنها ستبتعد عما سمته شقة «سوء الحظ».

فظلت تقول مسكينة لولو كان ذلك البيت سيئ الحظ بالنسبة لها.

بدا الأمر وكأن شيئًا ما فى إحدى هذه الغرف الصغيرة الرديئة هو السبب فى مرضى بنفس درجة مسئولية «القط» جون، لم يجرؤ أحد على مناقشة رأيها، وفى محاولة مضنية لتفسير ما لا يمكن تفسيره، أى لماذا أصبت بالسرطان وأنا فى السادسة عشرة من عمرى؟ صممنا على تحميل ذنب مرضى أولًا على القطة وبعد ذلك على ضيق الشقة، ذلك أن كل نوافذها كانت تطل على حوش خلفى ملىء بالأتربة.

وقد فاجأنا سيزار بالعودة إلى البيت وكدنا أن نصبح عائلة مرة أخرى، كان قد تعب من الحياة بمفرده وافتقد راحة المنزل واشتاق لمشاركة والدى غرفته كما كان يفعل

طوال السنوات السابقة قبل أن يترك المنزل، وكان أبى سعيدًا باستقباله وهكذا أصبحا رفاق غرفة واحدة كما كانا فى بداية وصولنا لأمريكا.

كانت لى غرفة خاصة صغيرة وفى واجهة المنزل، لم يعد والدى يتحدث عن متعة مشاهدة الحياة فى الشارع، بل لم يكن يتحدث على الإطلاق، وكان كل ما فعله هو وضع كرسى الشاطئ ذى اللونين الأبيض والأخضر قريبًا من النافذة المواجهة للشارع ٦٥

لم يكن هذا الكرسى قد رأى الشاطئ، فمنذ إصابتى بالمرض ظل الكرسى مغطى بوسائد لتخفف آلام الظهر والحوض لوالدى، ثم قام بوضع كتب الصلاة الواحد فوق الآخر على الطاولة الصغيرة التى اشترتها له أمى خصيصًا من محلات وولورث وفى الركن كانت هناك دائمًا الحقيبة التى اشتراها استعدادًا لليوم الذى سيعود فيه للقاهرة، أصبح هذا هو كل عالمه: كرسى الشاطئ، كتب الصلاة، الطاولة، النافذة، حقيبة السفر الصغيرة، الراديو.

كان يبقى بالمنزل طوال اليوم ملتصقًا بالراديو كما كان يفعل فى القاهرة فى شبابه حينما كان يجلس للاستماع لأم كلثوم وهى تغنى.

امتلأت غرفة المعيشة بأصوات تبعث على الراحة وبدلًا من بريمادونة القاهرة كنت أستمع إلى الصوت المعسول «مضيفكم شارلز دوفال يذيع عليكم من شواطئ بحيرة النجاح «success lake»».

كنت أتساءل «أين توجد بحيرة النجاح؟» فقد كان رنين الاسم مثيرًا ومبهجًا ومغريًا كشخصية دوفال الإذاعية، فكنت أتصور أنه فى مكان ما فى هذا العالم يوجد رجل وسيم ذو لكنة فرنسية لطيفة يجلس داخل استديو يطل على بحيرة رائعة ممتلئًا بالثقة والصفاء يحملق فى صفحة الماء التى تتسرب إلى صوته وكلماته، وينطلق ليهدئنا فيملؤنا جميعًا ثقة ونقاء.

و مادامت بحيرة النجاح هذه كانت حيث أردتها فى أميركا فلا شيء آخر يهمنى.

كان والدى يجلس لساعات وهو منكفئ على كتب الصلاة وغالبًا الكتاب الصغير الأحمر الذى أعدته إليه بعد خروجى من المستشفى. عند اقتراب أبى من نهاية عقد السبعينيات، ذلك العقد المرعب البائس بالنسبة لى، كم كان الكتاب ممزقًا بصورة كبيرة، فلم أكن أتصور أن هذا الكتاب سيعيش يومًا آخر دون أن ينفرط تمامًا بين يديه

المرتعشة وتتحول أوراقه إلى رماد، وكان قد توقف عن محاولة إصلاحه وترميمه فكان يلصقه بالسيلوتيب وشرائط لصق الجروح وشرائط لصق مواسير السباكة، فنجح بمعجزة فى الاحتفاظ به كوحدة واحدة طوال هذه السنين، إلا أن هذه الأربطة جفت وتحول الغلاف الأحمر إلى لون مارون بنى، ولقد تبينت أن الكتاب أصبح يليق بأبى فكان الاثنان متشابهين إذ أصبح كل منهما متماسكًا بفضل الأربطة، لقد أصبح كل منهما مكونًا من أجزاء عدة تتهاوى بمرور الوقت. كان كل منهما يحاول الصمود وعلى وشك الاختفاء.

كنت أحيانًا وأنا أتجول فى المنزل أرى كتاب الصلاة مغلقًا، أما ما كان مفتوحًا فهو دفتر شيكات أبى ذو اللون الأزرق السماوى، فقد كان يوقع الشيكات بكل صبر ودقة وحوله متفرقات من بريد الصباح، وقائمة حساب البورصة فقد كانت ترد إليه باستمرار إفادات من مناجم نحاس زامبيا أو كونسوليدات جولدفيلد فى جنوب إفريقيا أو شركة سييرى راند والاستثمارات الدون كيخوتيه* فى سنواته فى أمريكا التى لم تنجح فى جعله غنيًا، ولكن معظم البريد كان من مؤسسات خيرية فى أماكن بعيدة. وكانت الملاجئ والمدارس التى أدمن التبرع لها على اتصال وثيق به، فكانت تصله من إسرائيل أظرف بنية تحمل أسماء غريبة، وبداخلها مطبوعات أنيقة عليها صور مبان محترقة أو مبان بالحجارة إلى جانب صور لأطفال صغار يبدو عليهم القلق والمعاناة ويطلبون الرحمة.

كان أبى يتبرع لبيت الأيتام الكبير للأولاد فى القدس، ومستوصف الرحمة للبنات الأيتام، ومعهد رفع الروح المقدس، وأكاديمية نور الحياة للبنات، وأكاديمية مدينة المقدس للبنات، والمعهد التجارى لصوت يعقوب الباتريارك وصندوق التبرعات لصانع المعجزات الكبرى، وكانت هناك عشرات وعشرات من التبرعات وكأن والدى كان يؤمن فرص النجاح لمراهناته بأن يتبرع لكل منها بجزء من مدخراته الضئيلة بصفة تكاد تكون يومية.

كانت هناك مدارس مهنية مرتبطة بالملاجئ قد أرسلت صورا للأيتام وهم منكفئون على ماكينات الحياكة أو يتعلمون صناعة الأدوات وكان هناك أيتام يتعلمون كيف

---

* نسبة إلى شخصية دون كيخوتيه فى رواية سرفانتس الشهيرة التى كان دون كيخوته يحارب فيها طواحين الهواء، والتعبير هنا كناية عن عدم جدوى ما يقوم به.

يصبحون أخصائيى صحة فى العيادات الطبية وآخرون يتعلمون ليصبحوا فنيين فى صحة الأسنان وكان يتلقى صورًا لعنابر إقامة الأيتام.

كان ذلك عالمًا كاملًا مكرسًا لخدمة الأطفال الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم ويتجهون لوالدى من أجل إنقاذهم.

كان أكثر هذه المؤسسات تفضيلًا بالنسبة لى هو صندوق مساعدة العرائس الأيتام، فكنت أتصور فتاة شابة مرهقة من الحياة فى مؤسسة بلا رفيق سوى يتيمة أخرى. كانوا يستخدمون تبرعات أبى الضئيلة التى ادخرها من عمولات السمسرة فى الدانتيلا البيضاء لشراء نفس النوع من الدانتيلا لصنع فساتين أو طرح للعرائس الأيتام.

ادفعوا لأمر «معهد رفع الروح المقدسة» مبلغ ٥ دولارات، «ادفعوا لأمر أيتام القدس ١ دولارات»، كان والدى يحرر تلك الشيكات بيده المرتعشة، « ادفعوا لأمر كلية نور الحياة للبنات ١٥ دولارًا»، «ادفعوا لأمر صندوق التبرعات لصانع المعجزات الكبرى ٢٥ دولارًا». لم أكن أفهم فى البداية الغرض من وراء هذا السيل من التبرعات التى كانت ايصالات استلامها مع التعبير عن الشكر، تملأ صندوق بريدنا.

كان كل ذلك من أجلى فقد كان والدى يسأل نزلاء كل هذه المؤسسات التى يرسل لها التبرعات بأن يقيموا الصلاة من أجل شفائى.

فظلت الشيكات ترسل إلى هذه المؤسسات الخاصة بالبنات وتلك الخاصة بالبنين مع طلب صريح بأن يحقق المتلقون شفائى من خلال تضرعاتهم لله.

ويبدو أنهم كانوا مسرورين بتلبية رغبته فأغرقونا بالدعوات، والصلوات الخاصة التى يقيمها الأيتام الذين يتمتعون بميزة قربهم لله فيقبل منهم الصلاة.

كان والدى يصيح «لولو ربنا كبير» كلما تلقى إخطارًا يؤكد أن الصلوات أقيمت من أجل شفائى.

كانت مؤسسة «صانع المعجزات الكبرى» التى يبدو أن لها علاقة غامضة مع قديس طفولتى فى القاهرة، قد قدمت لوالدى تعويذة خلف الإيصال، مكتوبة على ورقة مربعة كبيرة فى برواز أزرق، كانت تشبه قليلا صكوك ملكية الأسهم أو صك شهادة الدبلوم من المدرسة الثانوية العليا، وكانت التعويذة عبارة عن دعاء خاص مع تعليمات بأن يتم ترديدها بصوت عال ثلاث مرات، «إنى أعطيت هذا التبرع لإخوانى

الفقراء» كى يرددوا «يا رب يا صانع المعجزات الأعظم استجب لدعائى، استجب لدعائى، استجب لدعائى».

وهكذا كان أبى الذى رعانى أثناء مرضى يراقب الآن مرحلة نقاهتى بالطريقة الوحيدة التى يعرفها، وهى البحث عن علاج بالمعجزات.

على مر السنين ظلت الملاجئ والمستشفيات وبيوت المسنين وبيوت الشباب والمدارس المهنية والمدارس الدينية جميعها حريصة على التواصل معنا، كانت رسائلهم تملأ صندوق البريد فى مدخل بنايتنا فيذهب والدى لالتقاطها، كان قد أصبح حبيس المنزل عندما شارف عقد السبعينيات على الانتهاء وكانت هذه المسافة التى لا تزيد على خمس ياردات بين باب الشقة وصندوق البريد بردهة بيتنا هى الرحلة الوحيدة التى يقوم بها يوميًا.

أصبح بيتنا مليئًا بشهادات الامتنان على تبرعات أبى، كروت معايدة، روزنامات، شهادات تقدير والكثير من التعاويذ والتمائم، وكانت تأتى فى كرنفال من الألوان، بعضها برتقالى والآخر أزرق وبنفسجى، وأخضر بلون البحر، وبدأت أتخيل إسرائيل وكأنها بلد للأيتام يعتمدون جميعهم فى معيشتهم على تبرعات أبى، فكنت أذهب إلى النوم وأحلم بهؤلاء البنات الصغار ذوات العيون الواسعة اللاتى يظهرن فى مطبوعات تلك المؤسسات، وأرى أنهن يتوسلن لأبى من أجل إنقاذهن، وكأن الكابتن قادر على إنقاذ أى منهن.

ومن فرط رغبتهم فى كسب رضاء والدى كان بيت الأيتام الكبير للأولاد فى القدس، يعبر عن شكره عن كل تبرع، بإرسال شهادة جميلة مكتوبة بخط اليد تقول «فلينعم عليك رب كل الأيتام بكل أنواع الرخاء» وفى خلف الشهادة كانت هناك صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود لمؤسس بيت الأيتام ذلك الرجل ذى اللحية البيضاء فى شكل القديسين الحاخام م.ج.ل. ديسكين يبتسم بلطف أمام الكاميرا.

تحت صورة هذا الحاخام - الذى مات منذ سنوات طويلة - وعد «بأنه سيشفع لكل من تبرع لهذا الملجأ بأن يدخل الجنة».

كانت هناك تسعيرة لكل هذه التدخلات الإلهية، فالتبرع لمرة واحدة بمقدار ٥٠ دولارا، يكون مقابله أن أحد الأيتام سوف يتلو لمرة واحدة صلاة «كاديش» kaddish، وهى الصلاة على روح المتبرع مرة واحدة بعد وفاته، أما إذا كان التبرع بمبلغ ١٠٠

دولار فإن الصلاة سوف تتكرر فى كل ذكرى سنوية للوفاة، أما التبرع بـ١٠٠٠ دولار، فسوف يقابله حفر اسم المتبرع فوق سرير أحد الأيتام، واختار والدى الطريق الأرخص إلى الله أى ٥ دولارات أو ١٠ دولارات، وكان هذا أيضًا مناسبًا لأن الحاخام م.ج.ل. ديسكين ظل يبتسم وهو يعدنا بأن يفعل قدر استطاعته لمساعدتنا.

وكانت دار أيتام راعى الحياة للبنات هى الأكثر امتنانًا، فقد أرسلت لنا كتابًا صغيرًا بلون أخضر فستقى ومعه روزنامة وقائمة بكل البركات التى سينعم بها علينا الأطفال فورًا، فقالوا فى رسائلهم: «سوف تتم مكافأتكم بالكثير من النعم وبالصحة والعافية».

بينما أنا أقلب صفحات الروزنامة لاحظت أن والدى وضع علامات على تواريخ معينة، مثل تاريخ وفاة والدته ووالده وستة من إخوته، وقد رسم دائرة بكل عناية حول هذه التواريخ، فكانت هناك عمتى ليلى فى يوليو وبعدها بأسبوع ذكرى جدى عزرا وتعليق بكلمة واحدة «بابا»، وكنت أجد من الغرابة أن أبى الذى كان قد وصل لسن الثمانين لايزال يستخدم كلمة «بابا» كطفل صغير، ويستخدم كلمة «ماما» لجدتى ظريفة والتى ظهرت فى الروزنامة بعد أسبوع من ذلك إلى جانب ملحوظة عن أخته «عمتى ريكا»، وعمتى إينسول التى قتلت مع زوجها بطريقة مأساوية، مسجلة فى شهر نوفمبر وكذلك عمى جوزيف أكبر الإخوان العشرة، وعلى مدى شهر حزين بين يناير وفبراير يسجل أبى رحيل أخويه المفضلين، عمى رفائيل وعمى شالوم صاحب القدم المشوهة والسلوك المتواضع والقلب المرهف.

وكان هناك اثنان من إخوة لم يأت ذكرهما فى سجلات أبى: عمتى باهية التى هلكت فى أوشفيتز ولم يكن معروفًا تاريخ وفاتها، وسالمون القسيس المرتد الذى أوصى فى بيان حالته بالسجل الموجود بالدير فى راتيسبون بأنه يرغب فى حالة وفاته بإخطار والدى وكذلك عمى رفائيل.

قد كانوا يومًا ما عشرة إخوة ولم يبق الآن سوى أبى وأخته الصغرى مارى وإن كان لم يرها منذ عام ١٩٥٦، ومع ذلك فقد استمر يتذكرهم ويدعو من أجلهم جميعًا ويسجل أسماءهم فى كتاب الموت الأخضر الصغير، كان أبى لا يزال يوقع شيكًا بنفس المبلغ الذى كان يرسله كل شهر طوال الستة عشر عامًا الماضية من أجل سداد القرض الخاص بتكلفة سفرنا على الباخرة كوين مارى، غالبًا ما يكون بقيمة عشرة دولارات للقسط الواحد تقل أو تكثر من وقت لآخر، وكانت شيكات التبرعات ضئيلة القيمة

تعطى صورة خادعة، فقد كان هناك العديد من الشيكات تصدر يوما بعد يوم بحيث إنه فى الواقع كان يعطى جزءًا كبيرًا جدًا من دخله المتناهى الضآلة للتبرعات.

كان سيزار، الذى عمل محاسبًا، قلقًا مثل الزوجة التى يقامر زوجها بمصروفات البيت، وكان أبى يهدئ من روعه، ولكنه يستمر فى إرسال تبرعاته كالعادة، فقد أصبح ذلك هو شغله الشاغل تمامًا مثل أهمية بيع ربطات العنق، أو الحصول على العمولة من بيع الأقمشة أو المضاربة فى البورصة، وفى ظل ثقافة الطموح والجشع فإن أبى كان قد اعتاد على السير ضد التيار فقد أصبح رسولًا للرحمة ومنصبًا نفسه راعيًا لملاجئ القدس.

أصيب أبى بداء باركنسون، فكانت يداه ترتعشان بشدة أكثر من ذى قبل، فأصبحت أرقام المبالغ وأسماء المستفيدين من الشيكات التى يحررها صعبة القراءة.

كانت صحتى قد تحسنت كثيرًا، و لم أعد أمر عليه لأطمئن على أحواله، كما لم أعطه الفضل الذى يستحقه، هو وطريقته غير الدنيوية فى معجزة شفائى، تلك الحقيقة التى كان دكتور لى أثناء مراجعاتى المستمرة معه يتعجب معها كيف كنت أبدو فى صحة جيدة.

أما بالنسبة لحالة والدى فإن شعار شارلز روفال الحالم «من شواطئ بحيرة النجاح» بدا بعيدًا وسحيقًا أكثر فأكثر وكأن أبى كان مسافرًا على مركب يسبح بعيدًا بعيدًا عن تلك الشواطئ المرتجاة.

لم تكن حالته جيدة فقد كان ينهار بدنيًا وذهنيًا ويعيش فى عالم آخر. ولكنه كان معتادًا على الصمت وسرية أعماله التجارية، الآن هو فى حاجة إلينا كى نتدخل لإنقاذه، بنفس الطريقة التى استدعى بها أيتام القدس لإنقاذ حياتى، ولكنه لم يكن يعرف كيف يطلب أو يفرض ذلك علينا نحن أبناءه.

وذات صباح طلبنى فى مقر عملى، وكان ذلك أمرًا غير عادى فلم يحدث أبدًا أن هاتفنى فى مكتبى، وكأنه بعد سنوات لم يتقبل بعد قيامى بالعمل والاعتماد على نفسى، بدلًا من الرضوخ لنصيحته، بالعثور على رجل ميسور وقوى «كرجل بنوك»، يتولى رعايتى فلم يسمع أبدًا بامرأة تعمل.

قال لى «لولو لا أشعر بأنى فى حالة جيدة» وكان يتحدث بصوت منخفض، فوجدت صعوبة فى سماعه و استمعت له كطفل ضجر، فقد كان لدى عمل كثير علىّ أن أقوم به.

فكرر قوله «لولو إنى مريض جـدًا»، فقلت سأحاول المـرور عليك فيما بعد وأغلقت السماعة، فقد كنا فى عصر كانت الأنانية صفة أساسية فيه وكنت أتصرف وفقًا لقيم هذا العصر المختلة، قيم لا علاقة لها بالتربية الأكثر تعاطفًا التى تعلمتها فى طفولتى بالقاهرة.

ومثل بقية إخوتى فقد انجرفت أنا الأخرى، فحتى عيد الفصح الذى كان مقدسًا فى أيام انتظار النبى إيليا أصبح الآن يأتى فى المرتبة الثانية، صرت أحتفل به دون اهتمام وبأقل المظاهر، فليس هناك إضاءة للشموع ولا حملة تفتيش للبحث عن فتات الخبز، أو عملية تنقية الأرز، وبالكاد كنت أنظف الشقة وعادة ما أحتفل بعشاء السيدر فى أحد البيوت الأخرى أو فى أحد المطاعم.

ولكنى فى إحدى المرات، وجدتنى مشتاقة للملاعق القاهرية الصغيرة والنغمة الموسيقية التى تحدثها عندما كان أبى ينقر بها على كأس النبيذ، ولقد نسيت أين انتهى الأمر بالصندوق المعدنى الذى كنا نخزن فيه هذه الملاعق وكل الأشياء الثمينة التى كانت معها.

لقد قادتنى المصادفة وحدها لأعرف مصيره عندما خطر ببالى أخيرًا أن أسأل عن مآل ذلك الصندوق الذى احتوى على الكثير من أوهام طفولتى.

علمت أنه ذات يوم اندلع حريق غامض فى البدروم فالتهم كل الـست وعشرين حقيبة وجميع محتوياتها التى كانت مرتبة بحرص، الملابس التى حيكت يدويًا، والملابس الداخلية، و٢٤ زوجًا من بيجامات الأطفال، ولكن الأكثر إيلامًا كان ضياع الصندوق الفضى الداكن الذى يعود إلى جدتى ألكسندرا من أيام الإسكندرية، وجدتى ظريفة من أيام حلب، وأكواب الشاى الرقيقة وأطباقها، والأكواب الملفوفة فى المناديل الورقية وكذلك الأطقم الفضية، لقد ضاعت كل شذرات وتمائم حياتنا السابقة.

وقد حدث هذا الحريق حين كنت أعيش بعيدًا عن المنزل، وكان كل إخوتى قد رحلوا قبل ذلك بزمن و لم يكن هناك أحد ليساعد والدىّ على مواجهة الحريق، إلا أن ليون وإيديث لم يذكرا أبدا هذه الخسارة، فماذا يهم؟ لابد أن ذلك ما فكروا فيه فى وحدتهما ويأسهما، فقد كانت مجموعة من الأشياء الرقيقة التى لم تعد تعنى أى شىء لأحد، وبالتأكيد لم تكن تعنى شيئًا لأولادهم البعيدين والمنكفئين على ذواتهم والذين «تأمركوا» بالكامل.

الفصل الرابع والعشرون

مزمور لأبى

«لولو» كنت أسمع والدى ينادينى باسمى، ما إن كنت أخرج من المصعد -لا أدرى كيف- حتى كنت أجده أمامى قاطعًا الطرقة الطويلة.

فى أواخر الثمانينيات قيل إن والدى قد فقد الذاكرة وأصيب بداء الزهايمر والباركنسون، ومع ذلك فقد كنت أتشكك فى هذا التشخيص وفى الأطباء الذين شخصوه، خاصة أننى فى هذا الوقت كنت أراه يقظًا ويتمتع بذهن صاف، فكانت عيناه الخضراوان مشرقتين وكان ذهنه حادا ومركزا كما كان دائمًا، ولم يكن يعانى من أى مشكلات فى التعرف على وكان يبدو عليه أنه يعيش الأوقات التى كان يرانى فيها.

كان قد جرد من كل سمات شخصيته فلم يعد ذلك الرجل المرتدى للبدلة الشركسكين البيضاء، ولم يعد رجل المجتمعات والملاهى، أو الكابتن ولا حتى المنْفِى، لقد أصبح المريض فحسب، صار واحدا من عدة مئات يقيمون فى مؤسسة «المنزل والمستشفى اليهودى» الذى لم يكن منزلًا ولا مستشفى وليس بالضرورة يهوديا.

كان هذا المنزل يقع فى أعلى الجانب الغربى من مدينة نيويورك وكان مؤسسة شبيهة بآلاف المؤسسات الأخرى. كان متسعا وباردا وحديثا، وبالنسبة لأبى فى أيامه الأخيرة كان قاسيا بصورة بالغة، فقد كان أبى يائسا ومذهولا ومضطربا، وظل يمنى نفسه بأن أحدا سوف يأتى لينقذه، ولذلك فعندما كان يرانى يبدأ بالصياح «لولو» «لولو».

كنت بمجرد سماعى لصوته أنطلق مسرعة بطول الطرقة متخطية الرجال والنساء كبار السن فى مقاعدهم المتحركة حتى أراه.

كنت أجده فى آخر الغرفة شبحًا نحيفًا وحيدًا فى رداء قطنى، وفى يديه كتاب الصلاة الأحمر الذى كان يجد فيه وفى التراتيل والصلوات التى يحتويها العزاء والطمأنينة، ويتمتم بها مرات ومرات.

كنت أحاول احتضانه بالاقتراب من هيكله النحيل الذى يغطيه بالكاد رداء النوم ولكنه كان فى أكثر المرات يتضايق من محاولة احتضانه، فيقول «لولو، أين أنا؟»، وبعد ذلك عندما تعبر إحدى الممرضات أمامه، يحاول أن يلفت نظرها فيقول لها بذلك الصوت المنغم بلكنة إنجليزية احتفظ بها طوال هذه السنين «أريد أن أذهب إلى منزلى، أرجوك خذينى إلى بيتى»، وفى معظم المرات كانت الممرضة تمضى فى طريقها.

لقد تحمل النفى من ثلاث دول ولكن احتاج الأمر للرابعة إنها أميركا ومؤسساتها بطابعها الأميركى التى هزمته فى النهاية..

كان المنزل اليهودى يتلألأ بالحداثة، فكان من السهل عليك أن تنخدع لأول وهلة بمظهره المصقول وتأخذ لبك أناقة مدخله وموظفيه بملابسهم الراقية فتثق بسمعته الرائعة، وتمرح فى استراحة الزائرين الواسعة ومتجر الهدايا وحوض الأسماك الفاخر.

كم أصبحت أكره حوض الأسماك هذا وأنا أرى أبى وهو ينحف بصورة مؤلمة ويصاب بالتقيحات وبالعديد من الميكروبات والأوجاع والأمراض، فكنت أعجب لماذا بالله تقوم مؤسسة بالإنفاق ببذخ على حوض للأسماك أكثر مما تهتم بمرضاها.

بالطبع عبرت عن شكواى ولكن دون جدوى. كنت أنا أيضًا قد فقدت هويتى، فقد كنت بالنسبة لهم وببساطة مجرد «الابنة»، وكان معنى ذلك ألا تؤخذ اعتراضاتى وشكواى على محمل الجد، وأنه يمكن تجاهلها دون خوف، أما بالنسبة للطعام الذى لم يكن حتى يلتزم بقوانين الطعام اليهودية، فماذا يمكننى أن أقول عنه؟ فقد أجبر لأول مرة فى حياته على تناول طعام غير حلال (ليس كوشر)، وكان ذلك نكرانا لكل ما آمن به.

لم يكن هناك أحد يمكن أن نلجأ إليه، وكانت إيديث هى الأخرى قد أصبحت مريضة بصورة حرجة، فقد أصبحت ضحية لعدة ذبحات، جعلتها خرساء وعاجزة عن الحركة، إذ كانت فى حالة أسوأ من حالة أبى إذا كان هذا الوصف جائزًا، كما كان عليها أن تعيش هى الأخرى فى بيت رعاية، فعندما أصابها نزيف حاد فى المخ فى أحد أيام ربيع سنة ١٩٨٨ لم تتعاف بصورة كاملة منه أبدًا،وهكذا صارت المرأة ذات العقل

المتقد الذى خطف لب ومفتاح مدام قطاوى باشا الآن حبيسة مقعد متحرك، بينما ذاكرتها وذكاؤها الرائع امحيا.

أما النسبة لأبنائهما فقد كنا فى حرب مع بعضنا، عاجزين عن الاتفاق على طريقة رعايتهم عاجزين حتى عن التفاهم فيما بيننا.

تحددت خطوط المعركة بشراسة ووحشية، فى أحد الجوانب كان إيزاك –أكثرنا تأثرا بالحياة الأمريكية– قد وكل محامين وأطباء ليحصل على حكم بفقدان أبى للأهلية، وعين نفسه وصيا قانونيا عليه، ووضع فى مستشفى فاقدى الأهلية، وبهذه الفعلة يكون قد أزاح سيزار، الراعى الطبيعى لوالدى، والابن الذى شاركه غرفته كل هذه السنوات.

وعلى الجانب الآخر كنت أنا وسيزار نحاول أن نخترق طريقنا من خلال الكوابيس المزعجة فى مجاهل المستشفيات وبيوت الرعاية، لنقدم لأبى بعض الراحة، أما سوزيت فكانت تعيش فى لندن التى كانت آخر محطة لها فى رحلتها المقلقة والتى بدأت بالخروج من شارع الـ ٦٦، فكانت بعيدة عن الشجار وإن كانت أيضًا متداخلة فيه بصورة غريبة، إذ إنها تبدى رأيها من وراء البحار بنفس الأسلوب الذى تدخلت فيه عن بعد فى أمر مرضى.

كانت مشكلات أبى المرضية تتفاقم أحيانًا بصورة يصعب على بيت الرعاية تجاهلها، فكان يُنقل بعربة الإسعاف إلى مستشفى «جبل سيناء» وهو مستشفى ضخم يقع فى مواجهة الحديقة فى الشارع الخامس وهو مركز طبى علمى يتساوى مع منزل الرعاية فى إهمال الجانب الإنسانى للمريض، وكان أبى فى غاية المرض ولم تكن تلك الرحلات المتكررة إلى المستشفى تفيد فى تحسن صحته، لكنه أصبح ضائعا فى بحر من الأسرة، لم يعد يتحمل آلام العلاج التى كانت بصورة ما أقسى عليه من آلام المرض، وذلك لأن الرعاية الطبية فى أمريكا فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات كانت قد صارت غير إنسانية، فكنت أذهب لرؤيته فى الصباح لأجده فى غرفة وعندما أعود لرؤيته فى المساء أجده فى غرفة أخرى، وفى الصباح التالى يكون قد نُقل إلى غرفة ثالثة، وهكذا دواليك.

كنت أسأل الموظفين المسئولين فى مستشفى جبل سيناء «أين يوجد أبى؟»، فكانوا يبحثون فى سجلاتهم ويقولون لقد تم «تحويله».

فأسألهم «لماذا؟»، فلا يعطونى جوابا شافيا.

لم يحدث أبدًا أن رأيت أبى دون كتاب الصلاة الأحمر فى يديه، فقد كان يصلى حتى عندما كانت الأمور تتفاقم فى مواجهته، فكان يصلى عندما كان الأطباء قد فقدوا الأمل فى شفائه، أو عندما كفوا تماما عن الإهتمام به، وحتى عندما كانت أسرته نفسها عاجزة عن فعل شىء من أجله.

كان يصلى من أجل معجزة وبالطبع لم يفقد الأمل أبدا فى حدوثها.

والمفارقة أنه فى أحد الأيام أصبح والداى نزلاء مستشفى جبل سيناء وقد وصل كل منهما بمفرده كما كان حالهما دائمًا، وانتهى بهما الأمر فى غرفتين مختلفتين فى جناحين منفصلين وفى طابقين مختلفين. رتبت للقائهما فى قاعة جلوس المرضى، وكانت تقع فى واحدة من هذه القاعات التى تبدو رائعه لأعين الغرباء، وهكذا اجتمعا وكان كل منهما فى كرسيه المتحرك.

نظر كل منهما للآخر ثم نظرا بعيدًا و لم يتبادلا كلمة واحدة و لم يكن لكل منهما القدرة على الاعتراف بوجود الآخر، فقد كان ذلك يعنى الاعتراف بحالتهما المرعبة وعدم قدرتهما على مساعدة أحدهما للآخر، و لم أشعر فى حياتى بالحزن أكثر من هذه اللحظة وأعتقد أن هذا كان ما شعرا به هما أيضًا.

كنت واثقة أن أبى يتمنى أن يكون فى أى مكان بالعالم إلا هذا المكان، فى تلك الغرف الحقيرة الفاقدة للروح، حيث نادرا ما يأتى من يطل عليك ليعرف ببساطة ما إذا كنت مرتاحا أو كنت تتألم، هل أنت جائع أو عطشان فيقدم لك النزر اليسير من التعاطف الإنسانى، وقد كنت واثقة بأن أبى كان يسعده أن يستبدل بمستشفى جبل سيناء أو المنزل اليهودى مستشفى الدمرداش العام المتواضع فى القاهرة، أو أى مكان آخر غير قصور المعاناة هذه فى نيويورك.

إذا ما كنا على الأقل فى مستشفى الدمرداش (بالقاهرة)، فإن طبيبه الدكتور خطاب (وهو جراح والدى) كان سيأتى إلى منزلنا كل يوم ليطمئن على حالته ويمنحه الثقة والمساندة.

عندما دخل والدى فى أواخر سنة ١٩٩٢ مستشفى سيناء لإجراء إحدى العمليات التى كان يجب أن يخضع لها رغم سنه المتقدمة وحالته الجسمانية، لم يكن هناك دكتور خطاب ليوفر له الراحة والطمأنينة، فاتصلت بالجراح أتوسل إليه ألا يجرى هذه العملية، فلم يهتم حتى بالرد على مكالمتى، وبعد إجراء الجراحة لم أره أبدا يمر

للاطمئنان على صحة والدى، وبدلًا من ذلك كنت أقابل مواكب من الجراحين المتدربين من ذوى الوجوه الشاحبة الجامدة، الذين كان يبدو عليهم البعد التام عن المريض الذى يعالجونه، وبكل بساطة كان والدى يمثل بالنسبة لهم مجرد حالة من الحالات الكثيرة أثناء جولتهم على المرضى.

لم يكن مستبعدًا أن أحدًا لم يلاحظ تدهور حالة والدى إلا بعد فوات الأوان، فتم تحويله إلى وحدة العناية المركزة وظل هناك موصولا بجهاز التنفس الصناعى. كان جسده كله يتهاوى ومع ذلك فقد ظل يقاتل حتى النهاية وبقى صامدًا لأيام وأسابيع أخرى.

كنت قد رجعت لمكتبى بعد ظهر يوم جمعة فى يناير عندما دهمتنى المكالمة، لقد مات الكابتن، وبدأت أصرخ وأنا قابعة فى المكتب الخاص بى فى قسم الأخبار بصحيفة «صوت القرية» village voice، وكنت أتصور أننى لن أتوقف أبدا عن الصراخ، مرددة ما قاله لى ذات مرة «يمكنك الحصول على وظيفة بسيطة»، «يمكنك افتتاح كشك لبيع الزهور».

إيديث وليون عام ١٩٦٤ في مهرجان العالم بساحة ميدوز بارك

flushing meadows park

أخذت سيارة أجرة إلى مستشفى جبل سيناء وعندما وصلت وجدت مكان أبى فى وحدة العناية المركزة قد أخلى تماما من الأنابيب، ولا أثر لأبى هناك.

شيعت الجنازة بعد يومين وكان البرد قارسًا وكنت قد نسيت ارتداء معطفى، لم تحضر سوزيت فقد كانت فى لندن وبالمثل لم تحضر أمى، فلم نجد لا أنا ولا سيزار الشجاعة لنخبرها بأن ليون قد مات، ولم أكن واثقة أنها كانت ستستوعب الخبر. كانت أمى قد جاءت لتعيش معى ولكنها كانت غير قادرة على الكلام أو البلع أو تحريك يديها ورجليها، وفى النهاية كان فى استطاعتها أن تقول كلمة واحدة هى «نعم» وذلك عندما كنت أسألها ما إذا كانت مرتاحة فى الدور العلوى من المنزل الدوبلكس الذى كنت أعيش فيه، فقد نقلت سرير المستشفى إلى هناك ومعه حامل أنبوب التغذية وجهاز تنفس صغير متنقل لأنها لم تكن قادرة على التنفس ذاتيًا، فها هى أمى المثقفة والبليغة أصبحت لا تستطيع أن تقول شيئا أكثر من كلمة واحدة «نعم» okay.

بعد مرور عام بالضبط، عدت إلى بروكلين لحضور الذكرى السنوية لليون، التى انعقدت فى مجمع الحب والصداقة الجديد فى أوشن بارك واى، حيث كانت مجموعة من كبار السن من جيل أبى، مع مجموعة صغيرة من الشباب، يجتمعون كل سبت ليقرأوا بصوت مرتفع مزامير الملك داوود.

كان المبنى يقع على ناصية الشارع الذى كانت أمى تشتاق إليه فكانت تقول لى حالمة: منزل فى أوشن بارك واى، كانت المنطقة متلألئة وعامرة بالمنازل التى يبلغ سعر أحدها مليون دولار، وبالمهاجرين الذين أصبحوا ملوك تجارة الجينز وسلاسل المتاجر المتخصصة بالتخفيضات وقياصرة متاجر الإلكترونيات.

كان التقليد هنا كما كان فى القاهرة وحلب، أن يكرم المتوفى بإنشاد المزامير المائة والخمسين فى تتابع خلال جلسة واحدة، كان يُعتقد أنه مع إنشاد كل مزمور بصوت مرتفع فإن روح المتوفى العزيز ترتفع أعلى فأعلى، إلى أن تصل فى النهاية إلى مكان فى الجنة قريبا من الرب.

فى عصر هذا اليوم البارد من شهر يناير حضر جمع صغير معظمه من كبار السن فى بدروم المعبد ليشاركوا فى قراءة المزامير، وكان اثنان منهم يعرفان والدى من القاهرة واستمروا فى الصلاة معه هنا فى أمريكا، فقد كان يعتمد عليه دائمًا لإكمال العدد

القانونى، الذى يبلغ عشرة أفراد وهو التجمع الضرورى لصحة الصلاة طبقا للشريعة اليهودية، كان أحدهما إيلى موصيرى الذى كان يصلى مع والدى فى شارع ٦٦، فى أوائل أيامه فى أمريكا، اقترب منى وقال إنه يعرف والدى ويعرفنى أنا منذ كنت طفلة صغيرة وقال بأسى إن والدى كان يمضى بالمعبد ثمانى أو تسع ساعات فى اليوم.

كان يجب البدء فى إقامة الصلاة ولكن لم يكن هناك العدد الكافى (لصحة الصلاة)، بل نحو ستة أشخاص يجلسون أمام طاولة مستطيلة. جلست إلى جوارهم فنظر بعضهم إلى بعض بشىء من التوتر فلم يكن مسموحا للنساء على الإطلاق – طبقا للتقاليد اليهودية الأورثوذكسية – أن يجلسن أو يصلين إلى جانب الرجال.

وبالطبع لم تكن هذه صلاة تقليدية، لذا فإنهم بعد حوار سريع أشاروا إلى بالموافقة على بقائى، لقد شعرت مرة أخرى بجانب هؤلاء الرجال بأنى طفلة صغيرة ذهبت مع والدها للصلاة وسمح لها بالبقاء فى قسم الرجال، وكان ذلك بالنسبة لى أقصى الامتيازات.

فجأة ظهرت سيدة شابة تحمل أطباقا مليئة بالفاكهة، فراولة، كيوى، بطيخ، برتقال. وقامت بترتيب المائدة دون كلمة وهى تجاهد لتتجاهلنى، وعادت بمزيد من الأطباق مليئة بالفستق وعين الجمل والبندق المحمص، كم كان والدى يحب البندق، شعرت بذلك وأنا أمد يدى لألتقط بعضًا منه.

وبدأ رجل يجلس على رأس المائدة بإنشاد المزمور الأول والذى يليه وقرأ الرجل الجالس إلى جواره –وكان فى عقده التاسع و له عيون بهيجة– المزمور الثالث والذى يليه، وراح كل من حول الطاولة يأخذ دورة فينشد كل منهم مزمارين.

فى البداية كنت أكتفى بالإنصات غير قادرة على المشاركة وفى النهاية سألتهم هل يمكن أن أقرأ مزمورا من أجل والدى؟

وبدأ الرجال ينظرون إلى بعضهم، فقد كسروا قاعدة من قبل بسماحهم لى بالجلوس معهم فهل يكسرون قاعدة أخرى ويتركوننى أنشد بصوت مرتفع؟

وصاح أحدهم «دعها تنشد» وقال آخر «هيا افعلى». قرأت بعصبية وتعجل المزمور الذى كان طويلا، وقد أرعبنى استمرارى فى الخطأ فى القراءة، ولكن رفقائى فى الصلاة كانوا رحماء بى، فقد كانوا ببساطة يقومون بتصحيح أخطائى، تماما كما

كان يفعل والدى، وعندما أردت أن أتوقف لأدع واحدا منهم يكمل القراءة، أصروا على استمرارى.

عندما اقترب المغرب زادت سرعة القراءة فقد كان علينا الانتهاء من قراءة كل المزامير قبل انتهاء السبت، وكنت كلما جاء دورى آخذ نفسا عميقا، ومع ذلك فقد وجدت نفسى أتحسن من فقرة لأخرى، واكتشفت القدرة والبلاغة القديمة فى قراءة العبرية، وعند اقترابنا من نهاية القراءة رغم أننا لم نكن استكملنا العدد اللازم من عشرة رجال، قال واحد من الحاضرين مبتسما «ربما سوف نعتمد عليك لتكونى واحدة من النصاب القانونى».

فى ذلك اليوم الحزين كان علينا الذهاب أولًا إلى حفل تأبين أمى التى قضت منذ شهر، ثم الذهاب بعده إلى حفل تأبين أبى فى الذكرى السنوية الأولى، أحسست بغرابة بأننى تبوأت منزلة رفيعة، لقد حصلت على هدية غير متوقعة، فبدأت أفكر فى أبى باعتباره عجوزًا مريضًا ولكن كشاب ملىء بالحيوية يمشى مرتديًا بدلته الشركسكين البيضاء، وقد صليت من أجل أن ترتفع روحه وبالمثل دعوت لأمى أيضا ولكنى شعرت بأنى أنا التى ارتقيت.

فى طريقى للخروج من قاعة الصلاة، التقيت مجموعات من الناس يخرجون من المعبد، كانوا يحملون فروعا من الأوراق الخضراء ذات الرائحة العطرة ويستنشقونها بعمق، وكانوا يثرثرون بمحبة بالعربية والفرنسية، وهو الأسلوب الساحر الهادئ لأهل شرق المتوسط، وهكذا شعرت بأن المدينة كلها قد أصبحت تجمعا ضخما للحب والصداقة.

الخـــاتمة

أخيرًا القاهرة مرة أخرى

فى ذلك اليوم من ربيع عام ٢٠٠٥، كنت جالسة على متن طائرة اليطاليا فى طريقى من ميلانو إلى القاهرة، شعرت وكأن والدى يجلس إلى جوارى، وكأنه أخيرًا أيضا يعود إلى القاهرة مرة أخرى، واستدرت لأواجه زوجى الذى كان يجلس إلى جوارى ولكنى لم أعد أراه، فقد كنت أفكر فقط فى ذلك الرجل الطويل ذى الأرجل الطويلة الذى لم يكن يستطيع أن يثنى إحداها بسهولة، كان عجوزًا وهزيلًا ولكن عينيه الخضراوين كانتا تشعان وكان حاضر الذهن مبتهجا، كما كنت أنا فى هذه الرحلة، وفى مخيلتى كنت كأنى عائدة بصحبة والدى كما كنا نأمل.

فالصرخة التى اخترقت السنين قد استجيب لها أخيرا.

«رجعونا مصر» ragaouna masr، رجاء أعيدونا إلى القاهرة، أرجوكم أعيدونا.

كانت الحقيبة الوحيدة الصغيرة الخاصة بى موضوعة بعناية تحت مقعدى و لم تكن مختلفة كثيرًا عن الحقيبة التى ظل أبى محتفظًا بها لسنوات مرتبة، وجاهزة للسفر ومركونة فى حجرة المعيشة فى المنزل الواقع فى الشارع رقم ٦٥ فى بروكلين، لم تكن تزيد كثيرًا على صندوق الخبز وكأن أبى لم يكن ينوى إلا أخذ النزر اليسير معه، وبالتأكيد لم يكن ينوى أخذ جبل الملابس والأمتعة التى أحضرناها معنا منذ أربعة عقود.

كان كابتن اليطاليا يقاطع البرنامج الداخلى ليشير إلى بعض المعالم، جنوا، نابولى، الجزر اليونانية، مرفأ باريوس وأخيرًا ميناء الإسكندرية تحتنا ببضعة آلاف من الأقدام،

وبدا الأمر وكأنى أعيد بصورة عكسية الرحلة التى قمت بها مع أبى قبل ذلك بسنوات وهى الرحلة التى كنا دائمًا نأسف لاضطرارنا للقيام بها.

كنا قد وقعنا إقرارًا بأننا لن نعود أبدًا لمصر، ولكن لما كانت الحكومة المصرية * متعطشة للعملات الغربية والسياحة الغربية وحسن العلاقات مع الدول الغربية، فقد كانوا حريصين على أن يؤكدوا لى ترحيبهم بعودتى وإقامتى بمصر لأى مدة أريدها، بل وللإقامة بصفة دائمة إذا رغبت فى ذلك، وتحدثوا معى بلطف زائد وبإخلاص واضح، وكأن خروج أسرتى فى ربيع سنة ١٩٦٣ كان وليد سوء فهم، وأنهم حريصون الآن على تصحيح الأمور إذا تسنى لهم ذلك.

فجأة شعرت بالنشوة والقدرة وبأننى أمريكية بالكامل، فليفرشوا سجادة الترحيب، كنت صامتة طوال الرحلة غير راغبة فى مشاركة زوجى كل ما أشعر به، بل معنية أكثر بالاحتفاظ بما يختلج بمشاعرى من أن أبى وليس زوجى هو من يجلس إلى جوارى طوال هذه الرحلة، وبالطبع فإن الجنة بالنسبة له كانت هنا فى القاهرة، يجوب شوارعها من الصباح إلى المساء، يتلقى تحيات الأصدقاء والمعارف بل والغرباء فى مدينة تحتضنك، تستبد بك وتلتهمك بكل الحب.

بمجرد نزولى من الطائرة رأيت عدة أشخاص يحملون لافتات بيضاء عليها اسمى، مندوبين عن الحكومة المصرية، أتوا للترحيب بعودتى إلى القاهرة، وقد كانوا جميعا مندهشين وربما متضايقين من مطلبى الأول شارع الملكة نازلى، كنت أريد أن يتجهوا بى فورًا لشارع الملكة نازلى.

كان هذا أول مكان سيرغب أبى فى رؤيته وآخر مكان يود أن يبعد عنه.

تساءلوا وهم يقطبون جباههم مرددين اسم الملكة التى ماتت منذ سنوات طويلة، لماذا أطلق على هذا الشارع اسمًا لم يستخدم منذ عقود طويلة؟ ولماذا من بين كل المواقع الرائعة فى مصر، كالأهرامات وأبى الهول أصر أنا على زيارة شارع يشتهر فقط بتلوث هوائه و ازدحامه الجنونى؟

وبقيت على إصرارى أنه لا شىء يهمنى إلا شارع الملكة نازلى مرددة الاسم للتأكيد وكنت أعيد ذلك فى كل مناسبة كطفل مغرم بترنيمة شعرية.

---

* قامت الكاتبة بالاتصال بقنصل مصر فى نيويورك وبعثة مصر فى الأمم المتحدة للاستئذان فى السفر إلى مصر فرحبوا بالزيارة ورتبوا لها من يستقبلها (فى محاورة شخصية مع الناشر).

وكان من المستحيل اختراق شارع رمسيس -الاسم الحالى لشارع الملكة نازلى- فى هذا الوقت من النهار أو فى أى وقت، كنا سنظل محتجزين فى زحمة المرور لساعات -صاح سائقى- من الأفضل الذهاب إلى الفندق لبعض الراحة، هكذا كان يشير على بود، وسألت ولكن متى أستطيع رؤية الملكة نازلى؟

بعد أن تشاور مع أصدقائه من السائقين، قالوا: حاولى بعد منتصف الليل، قالوها ضاحكين.

كان كل ما بوسع السائق فعله هو أن يقلنى إلى وسط المدينة، فعرض على أن يأخذنى إلى بوابات السماء -وهو اسم المعبد الذى تزوج فيه والداى منذ أكثر من ستين عاما- وجروبى ذى الحديقة المرصعة طرقاتها بالزلط، حيث ترعرعت كل أحلام طفولتى، أى مكان ما عدا الملكة نازلى.

قلت بنفاد صبر إذًا إلى «بوابة السماء»...

حين انعطفنا عند ناصية شارع عدلى شاهدت فورا هذا البناء الضخم بأحجاره التى بهت لونها، ببوابته من الحديد المشغول، والحفر الدقيق لأشجار النخيل على الواجهة، الذى يرمز لليهود فى مصر، وأمام المعبد وقف جيش صغير من رجال الأمن يحملون تشكيلة من الأسلحة، كالبنادق والمسدسات وكانوا يوجهونها نحونا بشكل تهديدى، وأردت من السائق أن يهدئ من سرعته حتى أنظر عن قرب ولكن التف حولنا عدد من الجنود و أمرونا بالاستمرار فى التحرك.

فما كان من السائق إلا تلبية الأمر والاستمرار فى جولتنا وسط المدينة، صارت الشوارع الراقية التى كان والدى يصطحبنى إليها لشراء أطقم الملابس الأنيقة مليئة ببضائع رخيصة رديئة الصنع، كانت هناك متاجر خصومات الواحد تلو الآخر، وكأن القاهرة تحولت إلى صورة ضخمة جدًا من شارع ١٨ فى نيويورك، مليئة بالتجار الذين يقدمون مهرجانًا من التخفيضات لزبائن يستطيعون بالكاد دفع الثمن.

وأعلى واجهات المتاجر لمحت مبنى للشقق السكنية التى كانت يوما ما مهيبة، فبدت وكأنها ستنهار فى أى لحظة حتى هنا فى قلب حى الأعمال، كانت هناك حبال للغسيل منشور عليها قمصان وجوارب وملابس داخلية وملاءات أسرة ترفرف مع النسيم.

أين ذهبت الأناقة التى كان والداى يتوقان شوقا إليها؟ أين البوتيكات الفخمة والعديد من المتاجر المختلفة التى كانت تبيع البضائع الفاخرة، والتى جعلتنا فيما بعد ننظر باحتقار لما تقدمه المحلات فى باريس ونيويورك؟

لم يكن هناك أحد يستطيع أن ينافس البضائع التى تقدمها محلات وسط المدينة بالقاهرة ببضائعها الحالمة، مثل (بنزايون) حيث اشترينا أمتارًا من أفخم أنواع القطن الأبيض لعمل ملاءات الأسرة وأغطية الوسادات، أو محلات (هانو) الفخمة التى تقدم أغلى أنواع الحقائب ومستلزمات الزينة، ومحلات (شيكوريل) التى كانت فوق الجميع، (شيكوريل) الذى يعمل فيه جيش من البائعين المتعلمين تعليمًا راقيًا والسعداء دائما بخدمتك، وكان الكثير منهم من اليهود، والذى تمتلئ طوابقه المتتالية بأحدث الأزياء الإيطالية والفرنسية، قمصان من الحرير، قبعات من أرقى التصميمات، والحقائب الجلدية، وأثواب القماش المستوردة.

كان أول معطف شتوى لى من محلات (شيكوريل) وكان له زر واحد رمادى مع إيشارب من الصوف رمادى متناسق، وكان أجمل ما اقتنيت فى حياتى، و لم يطاوعنى قلبى على التخلص منه حتى عندما كبرت عليه فأصبح ضيقا جدًا وقصيرًا جدًا فاضطرت أمى بكل عطف أن تأخذه منى وتطويه بعناية وتحفظه فى واحد من الحقائب الست والعشرين.

كانت لأمى جملتها المحببة: «فى يوم من الأيام»، وكانت هذه الجملة تنطبق أيضا على اليوم الذى سوف نخرج فيه ثوب زفافها، وتسترجع أيضا معطف شيكوريل يوم نستطيع أخيرًا أن نعود للقاهرة.

كان «شيكوريل» و«بنزايون» و«هانو» ذكريات من مدينة حية ومثيرة.

استمر سائقى فى الرحلة ذات الشجون خلال وسط مدينة القاهرة، وفجأة لمحته، جروبى الذى كان محلًا للحلويات وجزءًا من الجنة، فخرجت بسرعة من السيارة وفى تلك اللحظة التى جريت فيها إلى باب جروبى عاد لى ذلك الشعور الذى كان قد تملكنى وأنا فى الطائرة، الشعور بأن أبى يقف إلى جوارى، وعندما دخلت أحسست بوقع أقدامه العرجاء، فأبطأت لا شعوريا من سرعتى مدركة أنه يجد صعوبة فى اللحاق بى.

للوهلة الأولى بدا «جروبى» كما تركناه تمامًا، بناءً مهيبًا ولافتة جروبى الجميلة وكأنها كتبت بيد طفل حالم، كان لا يزال يهيمن على ميدان سليمان باشا، ومازالت

الحجرة الكبيرة فى الداخل ذات السقف المرتفع والأعمدة المهيبة والحوائط الزهرية اللون والأرفف التى كانت تقدم قصورا من الملذات للأطفال والبالغين.

لم يكن هناك زبائن بالداخل وكانت الأرفف التى كانت مكتظة بالحلويات الراقية خالية تقريبا، وأصبحت المنطقة الأمامية التى كانت مشهورة ببيع (التيك أواى) بائسة ومهجورة، كان هناك موظف أمام الخزينة ولكن لم يكن هناك أحد فى طابور الدفع. أصبحت القاهرة شبيهة بأسرتى، فالمؤسسة المشهورة أصبحت رمزًا للتدهور والعظمة الضائعة.

تخيلت أبى مقطب الجبين وهو ينظر إلى الصوانى القليلة التى تحوى بعض المخبوزات الرديئة والتى لا تثير شهيتك.

أين ذهبت تلك الحلويات الناعمة الرقيقة التى تنافس أفضل المنتجات الباريسية، والجموع التى كانت تقف طابورًا طويلًا لشرائها بينما آخرون يجلسون فى صالة الشاى حيث النساء الإيطاليات الأنيقات وعشاقهن من الضباط الإنجليز والأجناس الأخرى من يونانيين وبلجيكيين وفرنسيين ويهود، فى ملابسهم الأنيقة مما جعل من جروبى ملتقًا عالميًا وأشهر محل للحلوى فى العالم.

لم تعد هناك قائمة أصناف مطبوعة وأصبحت الاختيارات محدودة، واللافتة التى يشير السهم المطبوع عليها إلى مكان المطعم فى الأعلى، أصبحت لا تؤدى بك إلى أى مكان، كان المطعم الراقى فى الدور العلوى حيث أمضى والدى العديد من حفلات رأس السنة ليرقص التانجو والفوكس تورت على أنغام الأوركسترا قد أصبح الآن مغلقًا بالضبة والمفتاح.

وكانت هناك امرأة عربية ترتدى الخمار الأسود (النقاب) الذى لا يظهر سوى عينيها، تجلس على الطاولة المواجهة لى وقد طلبت قهوة إكسبرسو، كنت مندهشة كيف ستستطيع تناول القهوة وهذا الخمار الأسود يغطى وجهها، قال لى السائق عندما عدنا للسيارة «فى زمن سابق كان العرب ممنوعين من دخول جروبى، كان المستعمرون فقط هم المسموح لهم بدخول جروبى»*

وبدا على السائق نوع من الغضب والاستياء، وخفت أن يعتبر أننى عندما كنت بنت السادسة كنت واحدة من هؤلاء المستعمرين المغتصبين، واستطرد قائلًا إن الثورة

* المترجم: هذه كذبة كبيرة وجهل من السائق وإما من خيال الكاتبة، من هم المستعمرون هل كان اليونانيون والبلجيكيون والفرنسيون و«اليهود» مستعمرين؟؟

قضت على ذلك كله، وأصبح من حق أى شخص الآن أن يدخل جروبى، وبعد خروج الأجانب فإن كل مصرى يستطيع تناول قهوة الصباح فى جروبى كيفما شاء.

لكن القليلين هم من كانوا يفعلون ذلك فلقد أصبح جروبى متحفًا لفترة ولت.

لاحظ السائق أنه قد جعلنى أشعر بالذنب فقال لى ملاطفًا، أعتقد أنك ستحبين جروبى الآخر أكثر بحديقته، ربما نذهب لزيارته يومًا آخر، وكان ذلك مظهرًا من المظاهر التى تنفرد بها القاهرة، فإذا كان اليأس يحيط بك من كل جانب، فإن الأمل أيضا يكون هناك عند أول ناصية.

وعلى الرغم من حالة القاهرة المتدهورة فإنها كانت دائمة التفاؤل، وكأنها مصباح علاء الدين الذى إذا قمت بحكه بقوة كافية ولمدة طويلة فإنه سوف يقدم لك كل ما حلمت به طول العمر، البيت الذى كبرت فيه، المعبد الذى صليت فيه، المتاجر التى كان والداك يتسوقان منها، حتى الزهور التى لاحقتك رائحتها العبقة عبر المحيطات وعبر الزمن طول الطريق إلى نيويورك.

ما أن وصلت إلى الفندق حتى وجدتنى غير قادرة على الاستقرار، فاندفعت إلى البهو وطلبت استئجار سيارة. قدمونى إلى أحمد وهو سائق مصرى طيب يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وطلبت منه الذهاب إلى الملكة نازلى.

وقد فهمنى للتو، وركبنا التاكسى وزوجى إلى جوارى وصليت من أجل أن تكون روح أبى تهيم بالقرب منا و لم تأخذ الرحلة أكثر من عشرين دقيقة.

فجأة ها أنا ذا مرة أخرى فى شارع الملكة نازلى.

طرقت الباب الخشبى الكبير رقم ٢٨٠، و للتو أجابنى رجل، وللغرابة لم يبد عليه الارتباك لرؤية إنسانة غريبة تعود بعد كل هذه السنوات وتطلب حقها فى الدخول، كان مهندسًا متعاطفًا وصبورًا، فحيانى وكأنى صديقة أو قريبة انقطعت صلته بها منذ زمن بعيد، «أهلا» قالها بكل العطف «منزلى هو منزلك».

هذه الأرضية الرخامية التى جلست عليها أنا وقطتى أبكى لأننا سنترك مصر، كانت كما هى وكذلك غرفة المعيشة الكبيرة التى تتفرع منها باقى الغرف، بحيث يكون التواصل دائما ومباشرا بين أرجاء المنزل بشكل يمنع أى خصوصية.

لقد تركت القاهرة كمصرية ثم عدت إليها أمريكية، بكل التمسك الأمريكى بالخصوصية، الخصوصية قبل حسن استقبال الضيف، الخصوصية قبل الحب، الخصوصية قبل الصداقة، الخصوصية قبل الروابط العائلية، ووجدتنى أعقد جبينى مندهشة !!!؟؟ كيف استطاعت والدتى أن تلد خمسة أطفال فى بيت لا يمكنك أن تذرف فيه دمعة واحدة على انفراد.

كانت شقة الملكة نازلى بالنسبة لمنطقى الغربى منفتحة بصورة كبيرة، كيف كان يمكنك أن تجرى حديثا خاصا أو تعمل أو تذاكر أو تمارس الجنس، دون أن يعرف كل الموجودين بأمورك الخاصة؟ ترى كيف كان الحال عندما ماتت الطفلة ألكسندرا ؟ هل كان هناك ولو حتى ركن صغير تستطيع أمى أن تحزن فيه وحدها؟ وأين كان والدى يصلى على روحها وهى تنطلق من الملكة نازلى؟

جلست مع الرجل الذى ولد فى نفس هذه الشقة مثلى. جاءت والدته، سيدة فى العقد السادس تتكلم بهدوء وشعرها الأشيب معقود وراء رأسها، وكأنها لا تزال عروسا صغيرة عندما قام عمها وحماها فى نفس الوقت بشراء الشقة من والدى فى ربيع عام ١٩٦٣، وقبل عدة أسابيع من سفرنا.

لولو تقف بجوار الصبار فى بلكونة المنزل بشارع الملكة نازلى - القاهرة ٢٠٠٥

حكت كم كانت سعيدة بالانتقال إلى هذه البناية الجميلة الكائنة فى شارع عظيم و-حيوى، لقد جعلتها تمتلئ بالأمل فى حياتها الجديدة مع الشاب الذى تزوجته، والأطفال الذين تطمح فى ولادتهم فى تلك الشقة الرحبة ذات الهواء الطلق.

تذكرت ذلك اليوم عندما دخلت فيه الشقة العارية من الأثاث والديكورات والأجهزة فيما عدا شيئين، عدة تليفون سوداء وسرير معدنى أبيض، وكان أول شىء فعلته هو التخلص من السرير المعدنى الأبيض الخاص بالمستشفيات الذى كان والدى يستخدمه خلال أشهر نقاهته التى طالت إلى سنوات.

تذكرت بجلاء صاحب الشقة (والدى) رغم أنها لم تقابله سوى مرة واحدة عندما قام حماها بإتمام الصفقة، فقد كان رجلًا طويلًا وسيمًا كبير السن وترك عندها انطباعًا جيدًا، وقد تصافحا بعد توقيع الاتفاق الذى بموجبه تنازل عن كل حق له فى الشقة التى أقام فيها لمدة ثلاثين عامًا، وشهد فيها موت أمه وولادة أبنائه.

كان لا يزال باستطاعتها أن تذكر ارتعاش يد والدى وهو يسلم شقة الملكة نازلى للمالك الجديد.

كانت عدة التليفون السوداء هى الشىء الوحيد الذى احتفظت به هى وزوجها حيث كان ذلك يمثل نوعًا من الرفاهية فى مصر فى الستينيات، عندما كان الموسرون فقط أو أصحاب السلطة هم من يستطيعون أن يحصلوا على خط تليفونى فى منزلهم. وكان الزوجان الشابان – وهما من المسيحيين المخلصين الذين يملأون منازلهم بالصلبان – قد صليا للرب كى يغفر لهما خدعة صغيرة اقترفاها.

ففى كل شهر كان الزوج يذهب إلى مصلحة التليفونات لسداد الاشتراك والمكالمات متظاهرًا بأنه أبى، بل لقد اضطر إلى سداد بعض الفواتير الخاصة بنا عن الشهر أو الشهرين السابقين على مغادرتنا، وكان لطيفًا ومهذبًا وحريصًا على سداد الفواتير فى موعدها بالكامل، وهكذا نجحت الخدعة لمدة سنوات، إلى أن استطاع أحد البيروقراطيين الأذكياء أن يكتشف الأمر فاتخذ إجراءات فورية قاسية بأن أرسل أحد موظفيه إلى الشقة لنزع عدة التليفون وقطع الخدمة، كان عليهما أن ينتظرا سنوات قبل أن ينجحوا فى إدخال خط جديد.

نهضت العروس العجوز ببطء من مقعدها وذهبت إلى أحد الأدراج فأخرجت منه بعض الأوراق عليها كتابة بالعربية عبارة عن فواتير وخطابات من مصلحة التليفونات

موجهة إلى والدى بشأن «تليفونه» ولسبب ما لم يدهشنى أنها احتفظت بتلك الأوراق طوال هذه المدة، وكأنها كانت تتوقع أنه فى يوم من الأيام سوف نعود لتسديد هذه الفواتير، وربما لنفس السبب لم تندهش هى وابنها من رؤيتى على باب شقتهم.

وعلى الرغم من أن الشقة كانت فى حالة سيئة ومهملة وكأن قاطنيها لا يعنيهم الأمر، فإنها عرضت على التجول بين جنباتها، وكانت وقفتنا الأولى فى حجرة الطعام وبلكونتها الصغيرة المواجهة لشارع الملكة نازلى، حيث أمضيت الكثير من أيام طفولتى وكان هناك فوق السور نبات الصبار لمنع عين الحسود ومقعدان صغيران على كل جانب من البلكونة، كنت واثقة من أن هذه الأشياء كانت من ممتلكاتنا لكنها ابتسمت وهزت رأسها بالنفى، وكان على أن أصدقها، قالت لم يكن بالشقة عندما تركتموها إلا التليفون والسرير فقط، ولأنها كانت تحب الجلوس فى الشمس فقد اشترت هذه المقاعد بنفسها ومنذ أن توفى زوجها، فإن ابنها أخذ مكانه بالجلوس إلى جوارها ومتابعة حياة الشارع.

كنت مذهولة من أن الجلوس فى بلكونة ومتابعة الحياة فى الشارع لا تزال ممكنة بعد مرور كل هذه السنوات، وبعد التغيرات التى جرت، فمنذ سنوات قرر البيروقراطيون الحكوميون بناء كوبرى علوى مواز للشارع وذلك من أجل تخفيف زحمة المواصلات، والآن أصبح هذا البناء الخرسانى القبيح يمتد كظل قاتم فوق الطريق الذى كان هادئًا وجليلًا، وأصبحت حركة المرور فى اتجاه واحد، ومع ذلك فإن تكدس الحركة أصبح أسوأ بكثير من ذى قبل.

فى غرفة والدى القديمة بنافذتها التى كنا نمضى فيها الساعات معا ننادى على الفتيات الجميلات العابرات بالطريق أو أى شخص ودود، ونثرثر مع كل من يرغب فى مبادلتنا الكلام لقد أغلقت النافذة بألواح خشبية بعد أن خصصت هذه الغرفة لابنها الذى فضل إغلاق النافذة.

ارتجفت إذ تصورت ماذا كان سيفعل والدى عند رؤيته للألواح التى تغطى النافذة، لا شك أنه كان سيتجه مباشرة إلى النافذة فيفتحها على مصراعيها، ليعلن للمالك الجديد والحكومة المصرية أن هذا هو شارعه وهذه نافذته وأنه يستعيد ملكيتهما.

استمرت جولتنا فى الشقة لزيارة المطبخ وفرن البوتاجاز الحديث والثلاجة، وسألت أين الوابور البريموس؟ وسألت ماذا فعلوا بالوابور البريموس المحبب لجدتى

ظريفة البريموس؟ وظهرت الدهشة على العروس العجوز ثم انفجرت بالضحك، وقالت إنها قبل أن تنتقل إلى الشقة صممت على الحصول على مطبخ حديث. وقد تم التخلص من تلك الأشياء القديمة التى بقيت على حالها منذ فترة الأربعينيات، عندما كانت جدتى ظريفة فى أوجها، فمواقد الجاز والكيروسين وصندوق الثلج الذى كان يتنكر فى صورة ثلاجة فريجيدير، والأرفف الخشبية المتآكلة والوابور البريموس، حل محلها مطبخ تم تجهيزه بنظائر وخزائن جديدة بفرن كهربائى.

نظرت إلى مضيفتى المتفاخرة ورحت أمدح مطبخها البراق وأجهزته الحديثة التى مضى عليها أربعون عاما.

وأردت أن أعرف هل لايزال الحمام من دون ماء ساخن، وهنا تدخل ابنها، فقال: لعدة سنوات بعد رحيلكم لم يكن هناك ماء ساخن، ورحنا نتذكر كيف كنا فى طفولتنا نستخدم وعاء معدنيا مستطيلا يملأ بالماء المغلى، كانت أمهاتنا تحمله إلى الحمام الصغير وكنا نملأ كوزا كبيرا بالماء ونصبه فوق أجسادنا وكأنه دش ساخن.

كنت أصرخ طالبًا من أمى إحضار المزيد من الماء الساخن لأن الماء نفد، هذا ما تذكره المهندس بنفس هذه الكلمات، وعندها تذكرت الحمام الطقسى ليلة كل جمعة فى الملكة نازلى، وكيف كنت أشعر بالأمان والحماية فى ذلك الحمام الممتع وذلك البخار المتصاعد من الوعاء الألومنيوم، وأمى تغسل شعرى بالصابون النابلسى، ذلك الصابون الطبى الذى يميل للون الأخضر، إذ إن الشامبو فى ذلك الوقت كان غاليًا بدرجة لا تسمح بإضاعته على طفلة صغيرة، وكم كنت أستمتع بتلك الأكواز من الماء الساخن التى كانت أمى تصبها واحدا تلو الآخر على رأسى وظهرى.

أخبرنى المهندس بأن المالك* قام منذ بضع سنوات بتركيب وحدة تسخين للمياه فيمكن الآن الحصول على دش حقيقى من الماء الساخن، لكن لم يبد متأثرا بالسعادة كما كان منذ لحظات عندما تذكر الأيام التى كان يطلب فيها من أمه الإسراع بإحضار المزيد من الماء الساخن.

كانت غرفة النوم الرئيسية متوارية بعيدًا فى الخلف، وهى الغرفة التى أقامت فيها أمى بالاشتراك مع أبى لفترة قصيرة بعد زفافهما، إلى أن ترك أبى الغرفة ليعود إلى مقره

---

* فى مصر لا يقوم المالك بإدخال المياه الساخنة لوحدات العقار على العكس من أمريكا - ويبدو أن الأمر اختلط على الكاتبة (المراجع).

الأول، الغرفة ذات الهواء الطلق فى مواجهة شارع الملكة نازلى وأساليب حياته السابقة قبل الزواج.

وعلى الرغم من كثرة نوافذها فإنها أعطتنى انطباعا قاتمًا وموحشًا، إنها الحجرة التى شهدت ولادتنا جميعًا. كانت هذه الغرفة هى الجزء الوحيد من القاهرة الذى لم أتمن البقاء فيه، فقد جعلتنى أشعر بالكآبة.

وأخيرًا وصلنا إلى غرفتى المحببة التى تواجه الحارة وقد كانت فى وقت من الأوقات غرفة جدتى ظريفة، وبعدها أصبحت غرفة مكتب أبى حيث كنت أستمتع باللعب فى الأوراق والملفات، والأفضل من ذلك الوقوف فى البلكونة مع قطتى بسبس، أشاور وأتحدث مع صديقتى العروس الرقيقة عبر الحارة.

كان الباعة الجائلون يتجمعون فى هذه الحارة كل صباح وهم يحملون سلال السمك على رؤوسهم أو يدفعون أمامهم عربات محملة بأصناف مختلفة من خضراوات وفاكهة: كوسة، خيار، فاصوليا خضراء، بطاطس، مشمش، كان أفضل ما أحبه، الباذنجان الصغير ذا اللون القرمزى وكانت البلكونة قريبة جدًا من أرضية الشارع بحيث كنا نستطيع أن نمد أيدينا فنلمس السلال التى على رؤوس البائعين، وكنت أستطيع أن أشير إلى ما أريد أو أمد يدى فأحصل على ربطة من ورق العنب الذى كانت أمى تحب أن تحشوه بالأرز مع اللحم المفروم وتطبخه فى مرق مع عصير الليمون.

من ذا الذى كان يريد أن يذهب إلى السوبر ماركت وقد كان السوبر ماركت يأتى إلى بيتنا يوميا؟

كنت أعشق النداءات التى كان البائعون ينادون بها على بضائعهم فكانت أصواتهم حادة وكثيفة ولحوحة ليتأكدوا أن الجميع يسمعونها ويعرفون بوصولهم، ولقد لاحقتنى أغانيهم ذات الصوت الحاد طوال الطريق إلى أمريكا.

وكانت أمى تحاول جذبى من البلكونة إلى الداخل كلما كان هناك موكب جنازة أو صوان عزاء فى الحارة، فقد كانت تشفق على من معرفة الحزن أو الموت، ولا شك أنها كانت تريد أن تبعد شبح اليوم الذى سأعرف فيه كلا الأمرين بصورة عميقة، ومع ذلك فنادرا ما كنت أشعر بالحزن فى القاهرة حتى عندما كان المعزون وأهل الميت يكون بحرارة وبصوت مرتفع، إلا عندما ماتت صديقتى العروس الصغيرة ولكنى لم أفهم فى حينها.

وقد شعرت العروس العجوز ببعض الضيق عندما سألتها عن الشقة المواجهة فى الحارة، فعندما انتقلت إلى الشقة كان هناك رجل وحيد يعيش هناك، وكان ضابطًا فى الجيش وعادة مرتديًا زيه العسكرى، فكان أحيانًا يظهر فى البلكونة و لم يكن يبتسم أبدًا، أو يرد التحية بأكثر من إشارة مقتضبة وجادة، وكان أرمل على ما تعتقد ووحيدا، وكان يتصرف بأدب مراعيًا أنها امرأة حديثة الزواج.

وفى أحد الأيام ترك الشقة فجأة ودون أى مقدمات، وكانت شقة سيئة الحظ فقد بقيت شاغرة لسنوات حتى اشتراها صاحب متجر للأعمال الفنية وجعلها جزءا من معرضه المتألق.

سألتها: "هل تذكرين قطة صغيرة رقيقة وحساسة وذات ألوان جميلة عندما تركنا الشقة؟"، نظرت العروس العجوز إلى ابنها وهى مأخوذة كليًا "قطة" "قطة"، كانت سيدة طيبة وعلى سجيتها وتتمتع بقلب رحيم، فمن ذا الذى كان سيحتفظ بفواتير تليفون مضت عليها أربعون سنة؟ تخيلت أنه من المحتمل أن تكون قد قررت إيواء بسبس لتطعمها جبنا وسردينا تمامًا كما كان يفعل والدى

ولكن ظلت السيدة تردد وقد بدت مستغربة ومتشككة "قطة" "قطة"، وقد أخذ الحديث منحى غريبا بالنسبة لى، فها هى امرأة قطعت كل هذا الطريق من الولايات المتحدة لتسأل عن قطة تركتها منذ أربعين سنة، وهزت العروس رأسها بحسم وقالت: لا لم تكن هناك قطة بالمنزل عندما انتقلنا إليه –وكان انتقالهم إليه بعد عدة أسابيع من سفرنا– لم يكن هناك سوى السرير الأبيض والتليفون الأسود.

رحت أتجول فى حجرة أبى القديمة وفجأة أحسست بالرغبة فى البكاء، فقد تذكرت كل القصص التى حملتها فى ذاكرتى طوال هذه السنين، قصص سمعتها من والدى بعد مغادرتنا عندما كنت أشعر بالحزن على بسبس وكيف سيكون حالها وهل ستستمر تستمتع بالحياة فى البيت الذى تركناه تتمشى فى البلكونة وتدعو الأغراب ليطعموها، ولكن أيا من ذلك لم يكن حقيقيًا.

كانت الأم وابنها يشعران بمدى لوعتى، جلستُ بينما هى أسرعت لتقدم لى كوبًا من الشراب المثلج من ثلاجتها الحديثة واستأذنت تاركة المكان.

قال لى المهندس متسائلًا فى صورة فزورة وبلغته الإنجليزية الاجتهادية "أنت تعرفين بالطبع ماذا يحدث عندما تفقد قطة أصحابها".

وهززت رأسى بالنفى.

فقال: "عندما لا تستطيع قطة أن تجد أصحابها، فإنها تتوقف عن تناول الطعام، تتوقف تماما (قال شارحا) وكأنها فى حالة حزن لفقدان عزيز وهكذا تموت (قالها بلطف) إنها تموت بعد أن ترفض تناول ولو كسرة"

"يجب عليك مقابلة الجارة فى الدور العلوى" قالت لى العروس ذلك عندما عدت لزيارتها فى اليوم التالى.

هذه الجارة عاشت فى المنزل نحو ستين عامًا وتعرف كل من جاءوا أو رحلوا من هذا المبنى بمن فيهم والداى وهى الآن متشوقة لرؤيتك ولكن نظرًا لكبر سنها ووضعها فهى لا تستطيع الهبوط ولو لدور واحد، فهل تمانعين فى الصعود لدور واحد لرؤيتها؟.

تركت الشقة مضطرة

شقتى

بينما أنا فى طريقى للصعود لاحظت كيف كانت السلالم مهملة ومتربة والحوائط قذرة وقد اسودت من الأتربة والأرضيات وكأنها لم تكنس منذ سنوات، ربما منذ أن تركتها أسرتى.

كم لعبت مع قطتى بسبس على هذه السلالم وكم كنت أجرى وراءها بينما هى تختبئ فى المنحنيات والأركان الكثيرة التى كانت تعرفها وكثيرًا ما كان على أن أستعين بعبده البواب السودانى كى نعثر عليها، كان عبده يعيش فى البدروم فى شقة غريبة مظلمة تقع تمامًا تحت شقتنا وكان دائمًا موجودًا كلما احتجناه ليوقف «تاكسى» لوالدى أو لقضاء طلب لوالدتى أو لمساعدتى فى الإمساك بالقطة لأنه كان يعرف أسرار بئر السلم.

"عبده" "عبده" كنا ننادى عليه وكان يظهر من حيث لا ندرى من الظلمة وهو يبتسم بوداعة فى قفطانه الواسع وبكبرياء غريبة.

ترك عبده العمل منذ مدة و لم يحل أحد محله، والآن مثل معظم مبانى القاهرة ترك المبنى ليتدهور شيئًا فشيئًا فأصبح قذرًا، وفقد معظم أناقته وهيبته التى كانت السبب الذى دفع والدى مع جدتى ظريفة إلى الانتقال لهذا المبنى فى ربيع سنة ١٩٣٨ وبعد خمس سنوات تزوج أمى وعاشت معهما فى نفس الشقة.

طرقت الباب فاستقبلتني سيدة شابة فى لباسها العربى التقليدى ودعتنى للدخول وكانت الشقة نسخة مكررة من شقتنا فى الأسفل، نفس التصميم المفتوح ونفس الغرف الأربع الموزعة حول الحجرة المركزية وإلى الجانب كان المطبخ الضيق.

كانت أمها تجلس فى مقعد وثير من القطيفة، امرأة راقية شعرها ململم تحت غطاء أبيض. ذهبت لمصافحتها ولكنها تقدمت إلى بسرعة وراحت تعانقنى وكانت يداها تلتفان حولى وهى تقبل وجنتى وتضمنى إلى صدرها، وكان واضحا أنها تجد صعوبة فى الوقوف، ولكن نظراتها كانت مركزة وقوية، فلم يبد عليها تشوش كبار السن.

كنت أشعر بنظراتها وهى تتفحصنى بدقة فتدرس عينى ووجهى وشعرى وتتحقق من ملابسى وحذائى وكأنها تحاول تذكر شىء ما.

جلست على الكنبة المواجهة لها، وظلت هى تتفحصنى دون أن تنطق بكلمة، بينما ابنتها راحت تلاطفنى بصورة خفيفة، فتسألنى هل ترغبين فى شراب مرطب، أو قليل من الطعام؟ عندنا بامية فى الفرن، هه؟ ألا تريدين تذوقها؟ هل أعجبتك القاهرة؟

فجأة قاطعتها السيدة العجوز وبدأت تتكلم "إنك تشبهين أمك تمامًا" أعلنت ذلك باللغة العربية حيث إنها اللغة الوحيدة التى تعرفها، وصمتت برهة لتأخذ رشفة من كوب الشاى، "كانت ضئيلة الحجم جدًا وكان أبوك ضخمًا جدًا."

أضافت مسترجعة إن ما تتذكره عن أمى أنها كانت تتكلم بهدوء ونعومة وأهم من كل شىء كانت إنسانة تحب الأطفال، "لقد كانت تعطى بناتى شيكولاتة وحلويات طول الوقت" والتفتت إلى ابنتها قائلة "هل تتذكرين؟" فابتسمت ابنتها وأشارت بالإيجاب رغم أنه لم يكن هناك ما يدل على أن ذاكرتها كانت بنفس قوة ذاكرة العروس العجوز.

وفجأة أصبح فى إمكانى رؤية أمى إيديث شابة تعبث فى حقيبة يدها تبحث عن قطعة بونبون لأنها كانت طيبة القلب وتحب أن تدلل الأطفال وكانت دائما تتوق للأيام التى كانت فيها مدرسة فى مدرسة قطاوى حيث كانت مدموازيل إيديث المحبوبة، موضع الاحترام والإعجاب.

اتجهت إلى السيدة العجوز وأخذت يدها لأقبلها.

"هل أنا فعلا شبيهة بأمى؟ هل أنت متأكدة تماما؟"

أخذت أنظر لنفسى فى المرآة الموجودة فى وسط غرفة المعيشة وأدرس ملامح وجهى وأصلى أن تكون إجابتها على سؤالى بنعم.

شعرت بها وهى تحدق فى بنظراتها العميقة مرة ثانية.

ثم قالت "صورة طبق الأصل فيما عدا الأسنان (وقطبت جبينها وقالت) والفم"

كان بإمكانى أن أرى أنها تنبش فى أعماق متاهة عقلها بكل الذكريات والانطباعات المخزونة خلال ثمانين عاما فى محاولة لتحديد أوجه الاختلاف بين المرأة التى تراها جالسة أمامها الآن والمرأة التى كانت تعرفها منذ خمسين عاما خلت.

وابتسمت راضية لأنها استطاعت أن تسترجع كل هذه الذكريات بصورة كاملة.

استمرت ثرثرتنا وكان سائقى يساعد بالترجمة وإن كنت لم أعد بحاجة لذلك فقد شعرت بأنى أفهم جيدًا كل ما تقوله من إيماءاتها وابتساماتها، وقامت ابنتها باصطحابى فى الجولة الواجبة خلال الشقة، هذه غرفة النوم وهذه حجرة الجلوس وكانتا مهجورتين وفى النهاية وجهتنى إلى البلكونة التى كانت محط إعجاب وسعادة الأسرة بمظلتها الرائعة من الخرسانة ورؤيتها البانورامية لشارع الملكة نازلى وما وراءها من القاهرة نفسها.

لبست «جاكتتى» وصففت شعرى ووقفت استعدادًا للخروج وفجأة صاحت الأم العجوز "انتظرى"

وقفت لأنظر إليها...

أردفت قائلة "إننى كبيرة السن ووحيدة"، ثم صاحت "ليس هناك سواى وابنتى هنا وعندى غرف كثيرة" وبمجاملة بالغة أشارت إلى الغرف الخالية، غرفة طعام دون آكلين، وغرفة نوم دون زوج، وغرفة الجلوس وغرفة معيشة دون أطفال.

وقالت "لماذا لا تبقين معنا، لماذا لا تنتقلين للإقامة هنا؟"

نظرتُ إليها بعد أن كان السائق قد ترجم ما قالته مرتين.

أضافت السيدة قائلة "تستطيعين الحصول على أى غرفة تختارينها" لتزيل عنى ما استشعرته مما انتابنى من حرج وحيرة لم أكن أعرف لهما سببا، فبالنسبة لها كان أمرًا عاديًا أن تسأل هذه المرأة الغريبة التى لم تكن غريبة فعلًا بل كانت معروفة لها قدر معرفتها بماضيها ومعرفتها بأسرتها، فلم يكن غريبًا أن تدعوها للعيش معها الفترة الباقية لها فى مصر.

وهكذا أعطيت الفرصة للعودة والانتقال مرة أخرى لشارع الملكة نازلى، وجريت لاحتضان السيدة العجوز وفى هذه اللحظة أمسكت بيدى بين يديها، فأدركت شوق والدى اليائس للعودة إلى القاهرة وإحساسه بالقنوط الذى ألقى باللوم فيه على الزهور التى لا رائحة لها والبشر الذين انعدمت الرحمة من قلوبهم.

أدركت فى تلك اللحظة أن الملكة نازلى لم تكن مجرد مكان ولكنها كانت حالة ذهنية، إنها كانت حيث يوجد ذلك المستوى من الإنسانية غير المسبوقة التى تخلب الألباب، وأن ما تفتقده من توافر الخصوصية وما لم تستطع أن تقدمه من وسائل الراحة الحديثة عوضته بكثير من الرحمة والتعاطف والرقة والدماثة، تلك الصفات الأثيرة التى تحفظ إنسانيتنا.

وإذا كان شارع عدلى هو الطريق لبوابة السماء، فالملكة نازلى كانت الجنة ذاتها وكان أبى محظوظًا أنه ذاق نعيمها وكنت أنا أيضًا محظوظة أن ألمح بنفسى ما الذى كان يعنيه طوال هذه السنوات التى احتفظ فيها بحقيبته الصغيرة المهيأة للسفر.

نظرت إلى الأعلى وأنا أركب السيارة فشاهدت السيدة العجوز واقفة فى شرفتها وقد بدا عليها الحزن ضائعة فى أفكارها وهى تومئ بنظرها إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه فى شارع الملكة نازلى كانت تمسح بنظراتها الطريق من أوله إلى آخره وكأنها تحاول العثور ليس فقط على بل أيضا العثور على أبوىّ، وزوجها، وشبابها فى تلك الأيام التى كانت تقف فيها بالشرفة وهى طفلة وعائلتها تنتظر دخولها.

وبينما نحن ننطلق بعيدًا شعرت بأننى أفارق كل ما أحببت فى حياتى، فلم يكن الأمر ببساطة هو مفارقة امرأة غريبة عنى أظهرت لى كل هذا الحنان غير المتوقع ولكنه كان أيضا مفارقة امرأة عجوز أخرى هى جدتى ظريفة وامرأة أخرى هى جدتى ألكسندرا وامرأة شابة أيضا هى أمى إيديث وهى تخطو فوق عتبة الملكة نازلى كعروس فى العشرين من عمرها وعن الطفلة ألكسندرا الأخت التى لم أرها وعم وخال اللذين يبدو أنهما ضاعا للأبد والطفل الذى باعه جدى وعمى القسيس العائد من ديره فى القدس وعمتى بهية عائدة من أوشفيتيز متعلقة بزوجها وفيوليت، وفوق كل ذلك مفارقة أبى أحسست أنهم جميعا واقفون هناك على سور تلك الشرفة المصنوعة من الحديد المشغول.

المصادر

SELECTED BIBLIOGRAPHY

Book

Aldridge, James. *'Cairo: Biography of a City.* Boston: Little, Brown, 1969.

Beattie, Andrew. *Cairo: A Cultural History.* New York: Oxford University Press, 2005.

Benin, Joel. The Dispersion of Egypt's Jewry. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2004.

Cooper, Artemis. Cairo in the War, 1939-1945. London: Hamilton, 1989. Danielson, Virginia. "The Voice of Egypt": Umm Kulthum, Arabic Song, and Egyptian Society in the Twentieth Century. Chicago: University of Chicago Press, 1999.

Heikal, Mohamed. The Cairo Documents: The Inside Story ofNasserand His Relationship with World Leaders, Rebels, and Statesmen. New York: Doubleday, 1973.

Hopkins, Harry. Egypt: The Crucible-The Unfinished Revolution in the Am" World. Boston: Houghton Mifflin, 1970.

Raafat, Samir W. Cairo, the Glory Years: Who Built What, When, Why and For Whom. Alexandria, Egypt: Harpocrates, 2003.

Rodenbeck, Max. Cairo: The City Victorious. New York: Alfred Knopf, 1999.

Stadiem, William. Too Rich: The High Life and Tragic Death of King Farouk. New York: Carroll & Graf, 1991.

Wilber, Donald N., ed. United Arab Republic, Egypt: Its People, Its Society , Its Culture. New Haven, Conn.: HRAF Press, 1969.

NEWSPAPERS AND MAGAZINES

Al-Malky, Rania. ''Where the Streets Have No Name." Egypt Today, April 2005.

Eban, Suzy. "A Cairo Girlhood." New Yorker, July 15, 1974. Hassan, Fayza. "In the Pashas' Den." Al-Ahram Weekly Online, no. 459 (December 9-15, 1999).

"Sent Away: Who Was King Farouk?" Al-Ahram Weekly Online, no. 572 (February 7-13, 2002).

Heard, Linda. "Groppi: People's Memories of the World's Ritziest Tea-Room." Community Times, October 2006.

Raafat, Samir. "Gates of Heaven." Cairo Times, September 2, 1999. -.

-------."Groppi of Cairo." Cairo Times, June 15, 1996.

"Resurrecting Street Names." Cairo Times, May 11, 2000.

Sanua, Victor. "The Vanishing World of Egyptian-Jewry." Judaism, Spring 1994.

Shaimaz, Fayed. "Downtown Cairo: Egypt's Bohemian Rhapsody." Community Times, November 2006.

WEBSITES AND OTHER NEW MEDIA

Bassatine News. Online Jewish newsletter from remaining Jewish community in Cairo. www.geocities.com/rainforest/vines/585s1bassai.htm.

"The Golden Age of Egyptian Dance," "Tahcya Carioca aka Tahiyya Karioka," and "Samia Gamaal." Belly Dance Museum. www.belly-dance.org/ and www.venusbellydance.com. IAJE, International Association of Jews from Egypt. www.iaje.org. Kiviat, Aaron. "I Buried My Father's Talis at Bassatine." Letter dated Novem

ber 25, 1999. Historical Society of Jews from Egypt. HSJE.org (posted 2006).

Sakkal, Desire, ed. "General News and Information." Historical Society of Jews from Egypt. www.HSJE.org.

لنيادو لوسيت

الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين: وقائع خروج أسرة يهودية من مصر

لوسيت لنيادو، ترجمة مدحت مقلد، عفت محمود، مصطفى الطنانى

مراجعة: مصطفى الطناني، أشرف العبد.

- ط ١- القاهرة دار الطنانى للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩

ص٣٩٢، ٢٠سم

تدمك X-٢٩-٦٢١٧-٩٧٧

١- اليهود فى مصر. ٢- اليهود - هجرة.

أ- مقلد، مدحت (مترجم)

ب - محمود، عفت (مترجم ثان)

جـ- الطنانى، مصطفى(مترجم، ومراجع ثالث)

د - العبد، أشرف (مراجع ثان)

هـ- العنوان

٣٠٥,٥

رقم الإيداع: ٢١٣٦٥ التاريخ ٢٠٠٩/١١/٥

الرجل
ذو البدلة البيضاء
الشركسكين

عندما غادر أبى مصر فى ستينيات القرن الماضى، فإننى مازلت أتذكر رغم مرور كل هذه السنوات، كيف كان يصرخ على ظهر المركب التى أقلعت من الإسكندرية مرددًا بالعامية المصرية مرة بعد أخرى.. " رجعونا مصر" ... "رجعونا مصر".

أعتقد أنه أدرك حينئذ أن حياته قد وصلت لنهايتها. لابد أنه كان يعرف فى دخيلة نفسه أنه لن يكون قادرًا على أن يتواءم مع عالم ما بعد القاهرة، كان قد شارف على الثالثة والستين حين غادر مصر، وإن بدا أكبر سنًا من ذلك.

إن القاهرة التى غادرتها طفلة فى ربيع عام 1963 كانت جد مختلفة عن هذه التى شاهدتها عندما عدت إليها مؤخرًا، فقد كانت فيما مضى أصغر وأقل ازدحاماً بالسكان مما هى عليه الآن ، وأكثر هدوءاً وتنظيماً و فى الآن نفسه مجتمعاً كوزموبوليتانيا بصورة مدهشة، حيث تتعايش بين جنباتها قوميات وأديان شتى عاشت متناغمة جنبًا إلى جنب. لقد كان ذلك كله أكثر حضورًا فى قاهرة أبى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضى وحتى مطلع الخمسينيات"

لقد طاردتنى صرخة ابى لسنوات عديدة، لاحقتنى إلى فرنسا، وبعدها إلى أمريكا حيث استقر المقام بأسرتى. ولاشك أن صدى هذه الصرخة هو ما دفعنى بصورة أو بأخرى لكتابة هذه السيرة الذاتية.

لوسيت لنيادو
نيويورك 2009